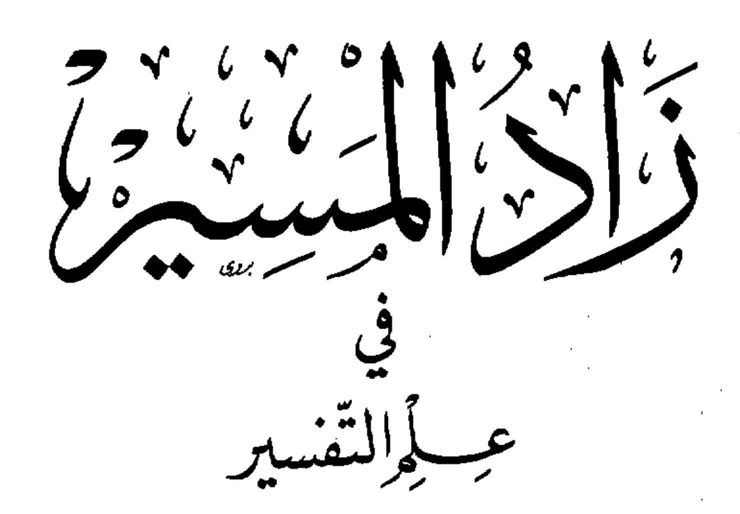


زاد المسير في علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي
٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء الرابع

المكتب الاسلامي

الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الاسلامي
بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا : اسلاميًا
دمشق : ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيًا : اسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

فصل في نزولها

روى عطية ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية ، وبه قال الحسن ، وعكرمة . وروى أبو صالح عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله : (ومنهم مَن يؤمن به ومنهم مَن لايؤمن به) [يونس : ٤٠] . وفي رواية عن ابن عباس : فيها ثلاث آيات من المدني ، أولها قوله : (فان كنتَ في شك) [يونس : ٩٤] إلى رأس ثلاث آيات ، وبه قال قتادة . وقال مقاتل : هي مكية ، غير آيتين ، قوله : (فان كنتَ في شك) والتي تليها [يونس : ٩٤، ٩٥] . وقال بعضهم : هي مكية إلا آيتين ، وهي قوله : (قل بفضل الله وبرحمته) والتي تليها [يونس : ٥٨، ٥٩] .

﴿ آلر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾

فأما قوله : (آلر) قرأ ابن كثير : « آلر » بفتح الراء . وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « آلر » على الهجاء مكسورة . وقد ذكرنا في أول سورة (البقرة) مايشتمل على بيان هذا الجنس . وقد خُصَّت هذه الكلمة

بستة أقوال . أحدها : أن معناها : أنا الله أرى ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : أنا الله الرحمن ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث : أنه بعض اسم من أسماء الله . روى عكرمة عن ابن عباس قال : « آلر » و« حم » و« نون » حروف الرحمن . والرابع : أنه قَسَمٌ أقسم الله به ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والخامس : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله مجاهد ، وقتادة . والسادس : أنه اسم للسورة ، قاله ابن زيد . وفي قوله : (تلك) قولان : أحدهما : أنه بمعنى « هذه » ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيدة . والثاني : أنه على أصله . ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن الإشارة إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد ، وقتادة ؛ فيكون المعنى : هذه الأقاصيص التي تسمعونها ، تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإنجيل . والثاني : أن الإشارة إلى الآيات التي جرى ذكرها ، من القرآن ، قاله الزجاج . والثالث : أن « تلك » إشارة إلى « آلر » وأخواتها من حروف المعجم ، أي : تلك الحروف المفتتحة بها السُّوَر هي (آيات الكتاب) لأن الكتاب بها يتلى ، وألفاظه إليها ترجع ، ذكره ابن الأنباري . قال أبو عبيدة : (الحكيم) بمعنى المحكَم المبيِّن الموضِّح ؛ والعرب قد تضع فعيلاً في معنى مُفْعَل ؛ قال الله تعالى : (مالديَّ عتيد) [ق ٢٣:١٨] أي : مُعَدٌّ .

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ . إِنَّ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أكان للناس عجباً) سبب نزولها : أن الله تعالى لما بعث محمداً ﷺ أنكرت الكفار ذلك ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فنزلت هذه الآية [1] . والمراد بالناس هاهنا : أهل مكة ، والمراد بالرجُل : محمد ﷺ . ومعنى (منهم) : يعرفون نسبه ، قاله ابن عباس ، فأما الألِف فهي للتوبيخ والإنكار . قال ابن الأنباري : والاحتجاج عليهم في كونهم عجبوا من إرسال محمد ، محذوف هاهنا ، وهو مبيَّن في قوله : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) [الزخرف : ٣٢] ، أي : فكما وضح لكم هذا التفاضل بالمشاهدة ، فلا تنكروا تفضيل الله مَنْ شاء بالنبوة ؛ وإنما حذفه هاهنا اعتماداً على مابيَّنه في موضع آخر . قال : وقيل : إنما عجبوا من ذكر البعث والنشور ، لأن الإنذار والتبشير يتصلان بهما ، فكان جوابهم في مواضع كثيرة تدل على كون ذلك ، مثل قوله : (وهو أهون عليه) [الروم : ٢٧] ، وقوله : (يحييها الذي أنشأها أول مرة) [يس : ٧٩] .

وفي المراد بقوله : (قَدَم صدق) سبعة أقوال :

أحدها : أنه الثواب الحسن بما قدَّموا من أعمالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وروى عنه أبو صالح قال : عمل صالح يَقْدمون عليه .

والثاني : أنه ماسبق لهم من السعادة في الذِّكر الأول ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . قال أبو عبيدة : سابقة صدق .

والثالث : شفيع صدق ، وهو محمد ﷺ يشفع لهم يوم القيامة ، قاله الحسن .

والرابع : سَلَفُ صدق تقدَّموهم بالإيمان ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والخامس : مقام صدق لازوال عنه ، قاله عطاء .

(١) « الطبري » ١٥/١٣ وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٢٩٩ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس .

والسادس : أن قدم الصِّدق : المنزلة الرفيعة ، قاله الزجاج .

والسابع : أن القدم هاهنا : مصيبة المسلمين بنبيّهم ﷺ وما يلحقهم من ثواب الله عند أسفهم على فقده ومحبّتهم لمشاهدته ، ذكره ابن الأنباري .

فان قيل : لِمَ آثر القَدَم هاهنا على اليد ، والعرب تستعمل اليد في موضع الإحسان؟

فالجواب : أن القدم ذكرت هاهنا للتقدم ، لأن العادة جارية بتقدُّم الساعي على قدميه ، والعرب تجعلها كناية عن العمل الذي يُتقدَّم فيه ولا يقع فيه تأخُّر ، قال ذو الرمة :

لكم قَدَمٌ لايُنْكِرُ النَّاسُ أنَّها مع الحَسَبِ العادِيّ طَمَّتْ على البحر [1]

فان قيل : ماوجه إضافة القدم إلى الصدق ؟

فالجواب : أن ذلك مدح للقدم ، وكل شيء أضفته إلى الصدق ، فقد مدحته ؛ ومثله : (أدخلني مُدْخَل صدق وأخرجْني مخرج صدق) [الاسراء : ٨٠] ، وقوله : (في مقعد صدق) [القمر : ٥٥] . وفي الكلام محذوف ، تقديره : أوحينا إلى رجل منهم ، فلما أتاهم الوحي (قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « لَساحر » بألف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « لَسحر » بغير ألف . قال أبو علي : قد تقدم قوله : (أن أوحينا إلى رجل منهم) فمن قال : ساحر ، أراد الرجل ؛ ومن قال : سحر ، أراد الذي أُوحي ، سحر ، أي : الذي تقولون أنتم فيه : إنه وحي ، سحر . قال الزجاج :

---

(١) ديوانه : ٣٦١ طبع المكتب الاسلامي ، والبيت من قصيدة في مدح بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، يقول بعده :

خلال النبي المصطفى عند ربه وعثمان والفاروق بعد أبي بكر

ورواية البيت في الديوان : « طمت على الفخر » . والعادي : القديم ، وطمت : علت .

لما أنذرهم بالبعث والنشور ، فقالوا : هذا سحر ، أخبرهم أن الذي خلق السموات والأرض قادر على بعثهم بقوله : (إن ربكم الله) وقدسبق تفسيره في (الأعراف : ٥٤) .

قوله تعالى : (يدبِّر الأمر) قال مجاهد : يقضيه . وقال غيره : يأمر به ويمضيه .

قوله تعالى : (مامن شفيع إلا من بعد إذنه) فيه قولان :

أحدهما : لايشفع أحد إلا أن يأذن له ، قاله ابن عباس . قال الزجاج : لم يَجْرِ للشفيع ذِكر قبل هذا ، ولكنَّ الذين خوطبوا كانوا يقولون : الأصنام شفعاؤنا .

والثاني : أن المعنى : لا ثانيَ معه ، مأخوذ من الشَّفْع ، لأنه لم يكن معه أحد ، ثم خلق الأشياء . فقوله : (إلا من بعد إذنه) أي : من بعد أمره أن يكون الخلق فكان ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فاعبدوه) قال مقاتل : وحّدوه . وقال الزجاج : المعنى : فاعبدوه وحده . وقوله : (تذكَّرون) معناه : تتّعظون .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إليه مرجعكم جميعاً) أي : مصيركم يوم القيامة (وعْدَ الله حقاً) قال الزجاج : « وَعْدَ الله » منصوب على معنى : وعدكم الله وعداً ، لأن قوله : (إليه مرجعكم) معناه : الوعد بالرجوع ، و« حقاً » منصوب على : أحق ذلك حقاً .

قوله تعالى : (إنه يبدأ الخلق) قرأه الأكثرون بكسر الألف . وقرأت

عائشة ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وأبو العالية ، والأعمش : بفتحها . قال الزجاج : من كسر ، فعلى الاستئناف ، ومن فتح ، فالمعنى : إليه مرجعكم ، لأنه يبدأ الخلق . قال مقاتل : يبدأ الخلق ولم يكن شيئاً ، ثم يعيده بعد الموت . وأما القسط ، فهو العدل .

فان قيل : كيف خصّ جزاء المؤمنين بالعدل ، وهو في جزاء الكافرين عادل أيضاً ؟

فالجواب : أنه لو جمع الفريقين في القسط ، لم يتبيَّن في حال اجتماعهما مايقع بالكافرين من العذاب الأليم والشرب من الحميم ، ففصلهم من المؤمنين ليبيّن مايجزيهم به مما هو عدل أيضاً ، ذكره ابن الأنباري . فأما الحميم ، فهو الماء الحارّ . وقال أبو عبيدة : كل حارّ فهو حميم .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوٰيهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللّٰهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوٰيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياءً) قرأ الأكثرون : « ضياءً » بهمزة

واحدة . وقرأ ابن كثير : « ضئاءً » بهمزتين في كل القرآن ، أي : ذات ضياء . (والقمر نوراً) أي : ذات نور . (وقدَّره منازلَ) أي : قدَّر له ، فحذف الجار ، والمعنى : هيَّأ ويسَّر له منازل . قال الزجاج : الهاء ترجع إلى « القمر » لأنه المقدَّر لعلم السنين والحساب . وقد يجوز أن يعود إلى الشمس والقمر ، فحذف أحدهما اختصاراً . وقال الفراء : إن شئتَ جعلت تقدير المنازل للقمر خاصة ، لأن به تُعلَم الشهور . وإن شئت جعلت التقدير لهما ، فاكتفى بذكر أحدهما من صاحبه ، كقوله : (واللهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرْضُوه) [التوبة : ٦٢] . قال ابن قتيبة : منازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً من أول الشهر إلى ثماني وعشرين ليلة ، ثم يستسرُّ . وهذه المنازل ، هي النجوم التي كانت العرب تنسب إليها الأنواء ، وأسماؤها عندهم : الشَّرَطان ، والبُطَيْن ، والثُّرَيَّا ، والدَّبَرَان ، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع ، والنَّثْرة ، والطَّرْفُ ، والجبهة ، والزُّبْرة ، والصَّرْفة ، والعَوَّاء ، والسِّماك ، والغَفْر ، والزُّبَانَى ، والإكليل ، والقلب ، والشَّوْلَة ، والنعائم ، والبلدة ، وسعد الذَّابح ، وسعد بُلَعْ ، وسعد السُّعود ، وسعد الأخبية ، وفَرْغ الدَّلو المقدَّم ، وفرغ الدلو المؤخَّر ، والرِّشاء وهو الحوت .

قوله تعالى : (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أي : للحق ، من إظهار صنعه وقدرته والدليل على وحدانيته . (يفصِّل الآيات) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « يفصِّل » بالياء . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « نفصِّل الآيات » بالنون ، والمعنى : نُبَيِّنُها . (لقوم يعلمون) يستدلُّون بالأمارات على قدرته .

قوله تعالى : (لآيات لقوم يتقون) فيه قولان : أحدهما : يتقون الشرك .

والثاني : عقوبةَ الله . فيكون المعنى : إن الآيات لمن لم يحمله هواه على خلاف ماوضح له من الحق .

قوله تعالى : (لايرجون لقاءنا) قال ابن عباس : لايخافون البعث . (ورضُوا بالحياة الدنيا) اختاروا مافيها على الآخرة . (واطمأنـُّوا بها) آثروها . وقال غيره : ركنوا إليها ، لأنهم لايؤمنون بالآخرة . (والذين هم عن آياتنا غافلون) فيها قولان : أحدهما : أنها آيات القرآن ومحمد ، قاله ابن عباس . والثاني : ماذكره في أول السورة من صنعه ، قاله مقاتل . فأما قوله : (غافلون) فقال ابن عباس : مكذِّبون . وقال غيره : مُعْرِضون . قال ابن زيد : وهؤلاء هم الكفار .

قوله تعالى : (بما كانوا يكسبون) قال مقاتل : من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى : (يهديهم ربهم بإيمانهم) فيه أربعة أقوال : أحدها : يهديهم إلى الجنة ثواباً بإيمانهم . والثاني : يجعل لهم نوراً يمشون به بإيمانهم . والثالث : يزيدهم هدى بإيمانهم . والرابع : يثيبهم بإيمانهم . فأما الهداية ، فقد سبقت لهم .

قوله تعالى : (تجري من تحتهم الأنهار) أي : تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو .

قوله تعالى : (دعواهم فيها) أي : دعاؤهم . وقد شرحنا ذلك في أول (الأعراف : ٥) .

وفي المراد بهذا الدعاء قولان :

أحدهما : أنه استدعاؤهم مايشتهون . قال ابن عباس : كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً ، قالوا : (سبحانك اللهم) فيأتيهم مايشتهون ؛ فاذا طعموا ، قالوا : (الحمد لله رب العالمين) فذلك آخر دعواهم . وقال ابن جريج : إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه ، قالوا : (سبحانك اللهم) فيأتيهم المَلَكُ بما اشتَهَوْا ، فيسلِّم عليهم ،

فيردُّون عليه : فذلك قوله : (وتحيتهم فيها سلام) . فاذا أكلوا ، حمِدوا ربهم ؛ فذلك قوله : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

والثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به ، قالوا : (سبحانك اللهم) ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (وتحيتهم فيها سلام) فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنها تحية بعضهم لبعض ، وتحيَّة الملائكة لهم ، قاله ابن عباس . والثاني : أن الله تعالى يُحَيّيهم بالسلام . والثالث : أن التحية : المُلْك ، فالمعنى : مُلكهم فيها سالم ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : (وآخر دعواهم) أي : دعاؤهم وقولهم : (أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين) قرأ أبو مجلز ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وقتادة ، ويعقوب : « أنَّ الحمدَ لله » بتشديد النون ونصب الدال . قال الزجاج : أعلم الله أنهم يبتدؤون بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختمون بشكره والثناء عليه . وقال ابن كيسان : يفتتحون كلامهم بالتوحيد ، ويختمونه بالتوحيد .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو يعجّلُ اللهُ للنّاسِ الشرَّ) ذكر بعضهم أنها نزلت في النضر بن الحارث حيث قال : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) [الانفال : ٨] .

والتعجيل : تقديم الشيء قبل وقته . وفي المراد بالآية قولان :

أحدهما : ولو يعجِّل الله للنّاسِ الشرَّ إذا دَعَوْا على أنفسهم عند الغضب وعلى أهليهم ، واستعجلوا به ، كما يعجِّل لهم الخير ، لهلكوا ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : ولو يعجل الله للكافرين العذاب على كفرهم كما عجّل لهم خير الدنيا من المال والولد ، لعُجِّل لهم قضاء آجالهم ليتعجّلوا عذاب الآخرة، حكاه الماوردي . ويقوّي هذا تمامُ الآية وسببُ نزولها . وقد قرأ الجمهور : « لقُضِيَ إليهم » بضم القاف « أجلُهم » بضم اللام . وقرأ ابن عامر : « لقَضَى » بفتح القاف « أجلَهم » بنصب اللام . وقد ذكرنا في أول (سورة البقره : ١٥) معنى الطغيان والعمه .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا مسَّ الإنسان الضرُّ) اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدها : أنها نزلت في أبي حذيفة ، واسمه هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : أنها نزلت في عتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، قاله عطاء . و « الضر » : الجهد والشدّة . واللام في قوله : (لجنبه) بمعنى « على » . وفي معنى الآية قولان : أحدها : إذا مسه الضر دعا على جنبه ، أو دعا قاعداً ، أو دعا قائماً ، قاله ابن عباس . والثاني : إذا مسه الضر في هذه الأحوال ، دعا ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أعرض عن الدعاء ، قاله مقاتل . والثاني : مَرَّ في العافية على ما كان عليه قبل أن يُبتلى ، ولم يتّعظ بما يناله ، قاله الزجاج . والثالث : مَرَّ طاغياً على ترك الشكر .

قوله تعالى : (كأن لم يدعُنا) قال الزجاج : « كأن » هذه مخففة من الثقيلة ، المعنى : كأنه لم يدعنا ، قالت الخنساء :

كَـأَنْ لم يكونوا حِمىً يُتَّقَى إذ النَّاسُ إِذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا[1]

قوله تعالى : (كذلك زُيِّنَ للمسرفين) المعنى : كما زُيّن لهذا الكافر الدعاء عند البلاء ، والإعراض عند الرَّخاء ، كذلك زُيّن للمسرفين ، وهم المجاوزون الحدَّ في الكفر والمعصية ، عملُهم .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) قال مقاتل : هذا تخويف لكفار مكة . والظلم هاهنا بمعنى الشرك . وفي قوله : (وما كانوا ليؤمنوا) قولان : أحدهما : أنه عائد على أهل مكة ، قاله مقاتل . والثاني : على القرون المتقدمة ، قاله أبو سليمان . قال ابن الأنباري : ألزمهم الله ترك الإيمان لمعاندتهم الحق وإيثارهم الباطل . وقال الزجاج : جائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم ، وجائز أن يكون أعلم ماقد علم منهم .

قوله تعالى : (كذلك نجزي) أي : نعاقب ونهلك (القوم المجرمين) يعني المشركين من قومك .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف) قال ابن عباس : جعلناكم يا أمة محمد خلائف ، أي : استخلفناكم في الأرض . وقال قتادة : ماجعلنا اللهُ خلائفَ إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأرُوا الله من أعمالكم خيراً بالليل والنهار .

---

(١) تقدم البيت ٢/٢٢٧ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا) اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما : أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنها نزلت في مشركي مكة ، قاله مجاهد ، وقتادة . والمراد بالآيات : القرآن . و « يرجون » بمعنى : يخافون . وفي علَّة طلبهم سوى هذا القرآن أو تبديله قولان : أحدهما : أنهم أرادوا تغيير آية العذاب بالرحمة ، وآية الرحمة بالعذاب ، قاله ابن عباس . والثاني : أنهم كرهوا منه ذكر البعث والنشور ، لأنهم لايؤمنون به ، وكرهوا عيب آلهتهم ، فطلبوا مايخلو من ذلك ، قاله الزجاج . والفرق بين تبديله والإتيان بغيره ، أن تبديله لايجوز أن يكون معه ، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه .

قوله تعالى : (مايكون لي) حرَّك هذه الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأسكنها الباقون . (من تلقاء نفسي) حرَّكها نافع ، وأبو عمرو ؛ وأسكنها الباقون ، والمعنى : من عند نفسي ، فالمعنى : أن الذي أتيتُ به ، من عند الله ، لا من عندي فأبدّله . (إني أخاف) فتح هذه الياء ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو . (إن عَصَيْتُ ربي) أي : في تبديله أو تغييره (عذاب يوم عظيم) يعني في القيامة .

فصل

وقد تكلم علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على مابيَّنَّا في نظيرتها في

(الأنعام : ١٥) . ومقصود الآيتين تهديد المخالفين ؛ وأُضيف ذلك إلى الرسول ليصعب الأمر فيه .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم) يعني القرآن ؛ وذلك أنه كان لايُنزله عليّ ، فيأمرني بتلاوته عليكم . (ولا أدراكم به) أي : ولا أعلمكم الله به . قرأ ابن كثير ، : « وَلَأَدْرَاكُم » بلام التوكيد من غير ألف بعدها ، يجعلها لاماً دخلت على « أدراكم » . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « أدريكم » بالإمالة . وقرأ الحسن ، وابن أبي عبلة ، وشيبة بن نِصاح : « ولا أدرأتُكم » بتاء بين الألف والكاف . (فقد لبثتُ فيكم عُمُراً) وقرأ الحسن ، والأعمش : « عُمْراً » بسكون الميم . قال أبو عبيدة : وفي العمر ثلاث لغات : عُمْر ، وعُمُر ، وعَمْر . قال ابن عباس : أقمت فيكم أربعين سنة لاأحدّثكم بشيء من القرآن (أفلا تعقلون) أنه ليس من قِبَلي . (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) يريد : إني لم أفترِ على الله ولم أكذب عليه ، وأنتم فعلتم ذلك حيث زعمتم أن معه شريكاً . والمجرمون هاهنا : المشركون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم) أي : لايضرهم إن لم يعبدوه ، ولا ينفعهم إن عبدوه ، قاله مقاتل ، والزجاج .

قوله تعالى : (ويقولون) يعني المشركين . (هؤلاء) يعنون الأصنام . قال أبو عبيدة : خرجت كنايتها على لفظ كناية الآدميين . وقد ذكرنا هذا المعنى في (الأعراف : ١٩١) عند قوله : (وهم يُخْلَقُون) . وفي قوله : (شفعاؤنا عند الله) قولان : أحدهما : شفعاؤنا في الآخرة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا ، لأنهم لايُقِرُّون بالبعث ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (قل أتنبئون الله بما لا يعلم) قال الضحاك : أتخبرون الله أنَّ له شريكاً ، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض .

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان الناس إلا أمةً واحدةً فاختلفوا) قد شرحنا هذا في سورة (البقرة : ٢١٣) وأحسن الأقوال أنهم كانوا على دين واحد موحِّدين ، فاختلفوا وعبدوا الأصنام ، فكان أول من بعث إليهم نوح عليه السلام .

قوله تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ولولا كلمة سبقت بتأخير هذه الأمة أنه لايهلكهم بالعذاب كما أهلك الذين مِن قبلهم ، لقُضي بينهم بنزول العذاب ، فكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون من الدِّين .

والثاني : أن الكلمة : أن لكل أمة أجلاً ، وللدنيا مدة لايتقدم ذلك على وقته .

والثالث : أن الكلمة : أنه لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وفي قوله : (لقضي بينهم) قولان : أحدهما : لقضي بينهم بإقامة الساعة .
والثاني : بنزول العذاب على المكذبين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويقولون) يعني المشركين (لولا) أي : هلاّ (أنزل عليه آية من ربه) مثل العصا واليد وآيات الأنبياء . (فقل إنما الغيب لله) فيه قولان .
أحدهما : أن سؤالكم : لِمَ لم تنزل الآية ؟ غيب ، ولا يعلم علّة امتناعها إلا الله .

والثاني : أن نزول الآية متى يكون؟ غيب ، ولا يعلمه إلا الله .

قوله تعالى : (فانتظروا) فيه قولان : أحدهما : انتظروا نزول الآية . والثاني : قضاء الله بيننا بإظهار المحقّ على المبطل .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإذا أذقنا الناس رحمة) سبب نزولها أن النبي ﷺ لما دعا على أهل مكة بالجدب فقحطوا سبع سنين ، أتاه أبو سفيان ، فقال : ادع لنا بالخصب ، فإن أخصبنا صدّقناك ، فدعا لهم ، فسُقوا ولم يؤمنوا ، ذكره الماوردي . قال المفسرون : المراد بالناس هاهنا : الكفار . وفي المراد بالرحمة والضراء ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الرحمة : العافية والسرور ، والضراء : الفقر والبلاء ، قاله ابن عباس .

والثاني : الرحمة : الإسلام ، والضراء : الكفر ، وهذا في حق المنافقين ، قاله الحسن .

والثالث : الرحمة : الخصب ، والضراء : الجدب ، قاله الضحاك .

وفي المراد بالمكر هاهنا أربعة أقوال :

أحدها : أنه الاستهزاء والتكذيب ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

والثاني : أنه الجحود والرد ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : أنه إضافة النعم إلى غير الله ، فيقولون : سُقينا بنوء كذا ، قاله مقاتل بن حيان .

والرابع : أن المكر : النفاق ، لأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (قل الله أسرع مكراً) أي : جزاءً على المكر (إنَّ رسلنا) يعني الحفظة (يكتبون ما تمكرون) أي : يحفظون ذلك لمجازاتكم عليه . وقرأ يعقوب إلا رويساً وأبا حاتم ، وأبان عن عاصم : « يمكرون » بالياء .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي يسيِّركم) أي : الله الذي هو أسرع مكراً ، هو الذي يسيِّركم (في البرِّ) على الدواب ، وفي البحر على السفن ، فلو شاء انتقم منكم في البر أو في البحر . وقرأ ابن عامر ، وأبو جعفر : « ينشركم » بالنون والشين من النشر ، وهو في المعنى مثل قوله : (وبثَّ منهما رجالاً كثيراً) [النساء : ٢] . والفلك : السفن . قال الفراء : الفلك تذكَّر وتؤنث ، وتكون واحدة وتكون جمعاً ، قال تعالى هاهنا : (جاءتها) فأنَّثَ ، وقال في (يس : ٤١) (في الفلك المشحون) فذكَّر .

قوله تعالى : (وجرين بهم) عاد بعد المخاطبة لهم إلى الإخبار عنهم . قال الزجاج : كل من أقام الغائب مقام مَن يخاطبه جاز أن يردَّه إلى الغائب ، قال الشاعر :

شَطَّتْ مَزارُ العاشقين فأصبحتْ عَسِراً علي طلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ [1]

قوله تعالى : (بريح طيبة) أي : ليِّنةٍ . (وفرحوا بها) للينها . (جاءتها) يعني الفلك . قال الفراء : وإن شئتَ جعلتَها للريح ، كأنك قلت : جاءت الريحَ الطيبةَ ريحٌ عاصف ، والعرب تقول : عاصف وعاصفة ، وقد عصفت الريح وأعصفت ، والألف لغة لبني أسد . قال ابن عباس : الريح العاصف : الشديدة . قال الزجاج : يقال : عصفت الريح ، فهي عاصف وعاصفة ، وأعصفت ، فهي معصف ومعصفة . (وجاءهم الموج من كل مكان) أي : من كل أمكنة الموج .

قوله تعالى : (وظنوا) فيه قولان : أحدهما : أنه بمعنى اليقين . والثاني : أنه التوهُّم . وفي قوله : (أُحيط بهم) قولان :

أحدهما : دَنوا من الهلكة . قال ابن قتيبة : وأصل هذا أن العدوَّ إذا أحاط

---

(١) تقدم البيت ٣/٣٩٣ .

يبلد ، فقد دنا أهله من الهلكة . وقال الزجاج : يقال لكل من وقع في بلاء : قد أحيط بفلان ، أي : أحاط به البلاء .

والثاني : أحاطت بهم الملائكة ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى : (دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّين) دون أوثانهم . قال ابن عباس : تركوا الشرك ، وأخلصوا لله الربوبية ، وقالوا : (لئن أنجيتنا من هذه) الريح العاصف (لنكونن من الشاكرين) أي : الموحِّدين .

قوله تعالى : (يبغون في الأرض) البغي : الترامي في الفساد . قال الأصمعي : يقال : بغى الجرح : إذا ترامى إلى فساد . قال ابن عباس : يبغون في الأرض بالدعاء إلى عبادة غير الله والعمل بالمعاصي والفساد .

(يا أيها الناس) يعني أهل مكة . (إنما بغيكم على أنفسكم) أي : جناية مظالمكم بينكم على أنفسكم . وقال الزجاج : عملكم بالظلم عليكم يرجع .

قوله تعالى : (متاع الحياة الدنيا) قرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وحفص ، وأبان عن عاصم : « متاعَ الحياة الدنيا » بنصب المتاع . قال الزجاج : مَن رفع المتاع ، فالمعنى أن ماتنالونه بهذا البغي إنما تنتفعون به في الدنيا ، ومن نصب المتاع ، فعلى المصدر . فالمعنى : تتمتَّعون متاع الحياة الدنيا . وقرأ أبو المتوكل ، واليزيدي في اختياره ، وهارون العتكي عن عاصم : « متاعِ الحياة » بكسر العين . قال ابن عباس : « متاع الحياة الدنيا » ، أي : منفعة في الدنيا .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا آتَيهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) هذا مثل ضربه الله الدنيا الفانية ، فشبهها بمطر نزل من السماء (فاختلط به نبات الأرض) يعني التفّ النبات بالمطر ، وكثر (مما يأكل النـاس) من الحبوب وغيرها (والأنعام) من المرعى . (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) قال ابن قتيبة : زينتها بالنبات . وأصل الزخرف : الذهب ، ثم يقال للنقش والنَّوْر والزَّهر وكل شيء زُيِّن : زخرف . وقال الزجاج : الزخرف : كمال حسن الشيء .

قوله تعالى : (وازَّيَّنَتْ) قرأه الجمهور « وازينت » بالتشديد . وقرأ سعد ابن أبي وقاص ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، وابن يعمر : بفتح الهمزة وقطعها ساكنة الزاي ، على وزن : وَأَفْعَلَتْ . قال الزجاج : من قرأ « وازَّيَّنَتْ » بالتشديد ، فالمعنى : وتزينت ، فأدغمت التاء في الزاي ، وأسكنت الزاي فاجتلبت لها ألف الوصل ؛ ومن قرأ « وأزْينت » بالتخفيف على أفعلت ، فالمعنى : جاءت بالزينة . وقرأ أُبَيٌّ ، وابن مسعود : « وتزيَّنَتْ » .

قوله تعالى : (وظن أهلها) أي : أيقن أهل الأرض (أنهم قادرون عليها) أي : على ما أنبتته ، فأخبر عن الأرض ، والمراد النبات ، لأن المعنى مفهوم . (أتاها أمرنا) أي : قضاؤنا بإهلاكها (فجعلناها حصيداً) أي : محصوداً لا شيء فيها . والحصيد : المقطوع المستأصَل . (كأن لم تَغْنَ بالأمس) قال الزجاج : لم تعمر . والمغاني : المنازل التي يعمُرها الناس بالنزول فيها . يقال : غَنِينـا بالمكان : إذا نزلوا به . وقرأ الحسن : « كأن لم يَغْنَ » بالياء ، يعني الحصيد . قال بعض المفسرين :

تأويل الآية : أن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب ، حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه ، وظن أنه ممتّع بذلك ، سلب عنه بموته ، أو بحادثة تهلكه ، كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكثرته ، فاذا تزيّنت به الأرض ، وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك ، أهلكه الله ، فعاد ما كان فيها كأن لم يكن .

﴿ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله يدعو إلى دار السلام) يعني الجنة . وقد ذكرنا معنى تسميتها بذلك عند قوله : (لهم دار السلام عند ربهم) [الانعام: ١٢٧] . واعلم أن الله عمّ بالدعوة ، وخصّ بالهداية من شاء ، لأن الحكم له في خلقه .

وفي المراد بالصراط المستقيم أربعة أقوال :

أحدها : كتاب الله ، رواه عليّ عن النبي ﷺ [١] . والثاني : الإسلام ، رواه النوّاس بن سمعان عن النبي ﷺ [٢] . والثالث : الحق ، قاله مجاهد ، وقتادة . والرابع : المُخرِج من الضلالات والشُّبَه ، قاله أبو العالية .

---

(١) « الطبري » ١/١٧١ - ١٧٢ عن علي مرفوعاً ، وإسناده ضعيف جداً . وقد خرجه ابن كثير في تفسيره ١/٢٧ من رواية ابن أبي حاتم عن علي مرفوعاً ، بسند ضعيف أيضاً . وخرجه السيوطي في « الدر » ١/١٥ عن علي مرفوعاً ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، والترمذي ، وضعفه ، وابن الأنباري في « المصاحف » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب » ومداره على الحارث الأعور ، قال الحافظ ابن كثير في « الفضائل » : « وقد تكلموا فيه بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده ، أما انه تعمد الكذب في الحديث فلا ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وقد وهم بعضهم في رفعه .

(٢) « الطبري » ١/١٧٦ ، وخرجه أحمد في « المسند » ٤/١٨٢ - ١٨٣ ونقله ابن كثير —

قوله تعالى : (الذين أحسنوا) قال ابن عباس : قالوا : لا إله إلا الله . قال ابن الأنباري : الحسنى : كلمة مستغنى عن وصفها ونعتها ، لأن العرب توقعها على الخلَّة المحبوبة المرغوب فيها المفروح بها ، فكان الذي تعلمه العرب من أمرها يغني عن نعتها ، فكذلك المزيد عليها محمول على معناها ومتعرَّف من جهتها ، يدل على هذا قول امرىء القيس :

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شماريخَ ميَّالِ [1]
فَصِرْنَا إلى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلامُنَا وُرضْتُ فذلَّت صَعْبَةً أيَّ إذلالِ

أي : إلى الأمر المحبوب . وهصرتُ بمعنى مددت . والغصن كناية عن المرأة . والباء مؤكدة للكلام ، كما تقول العرب : ألقى يده إلى الهلاك ، يريدون : ألقى يده . والشماريخ كناية عن الذوائب . ورضت ، معناه : أذللت . ومن أجل هذا قال : أي إذلال ، ولم يقل : أي رياضة .

ـــ ٢٧/١ من رواية المسند ، وقال : وهكذا رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من حديث الليث بن سعد به ، ورواه الترمذي ، والنسائي جميعاً عن علي بن حجر ، عن بقية ، عن بجير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن النواس بن سمعان به ، وهو إسناد حسن صحيح ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٥/١ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وأبي الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب » عن النواس مرفوعاً ، ونص الحديث : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يدعو يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا . وداع يدعو من فوق الصراط ، فاذا أراد الانسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لاتفتحه فانك إن تفتحه تلجه ، فالصراط : الاسلام ، والسوران : حدود الله ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم » .

(١) ديوانه : ٣٢ وقوله : تنازعنا الحديث ، أي : حدثتني وحدثتها . وأصله من النزع بالدلو ، وهو جذبها . ومعنى أسمحت : انقادت وسهلت بعد صعوبتها وامتناعها .

وللمفسرين في المراد بالحسنى خمسة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، روي عن رسول الله ﷺ [(١)] ، وبه قال الأكثرون . والثاني : أنها الواحدة من الحسنات بواحدة ، قاله ابن عباس . والثالث : النصرة ، قاله عبد الرحمن بن سابط . والرابع : الجزاء في الآخرة ، قاله ابن زيد . والخامس : الأمنية ، ذكره ابن الأنباري . وفي الزيادة ستة أقوال :

أحدها : أنها النظر إلى الله عز وجل . روى مسلم في « صحيحه » من حديث صهيب عن النبي ﷺ أنه قال : « الزيادة : النظر إلى وجه الله عز وجل » [(٢)] . وبهذا القول قال أبو بكر الصديق ، وأبو موسى الأشعري ، وحذيفة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، والسدي ، ومقاتل .

والثاني : أن الزيادة : غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب ، رواه الحكم عن عليّ ، ولا يصح [(٣)] .

---

(١) « الطبري » ١٥/٦٥ بسند ضعيف جداً ، وذكره ابن كثير ٢/٤١٤ من رواية ابن أبي حاتم بسنده وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٣٠٥ وزاد نسبته الدارقطني في الرؤية ، وابن مردويه .

(٢) الحديث في مسلم ١/١٦٣ ولفظه : عن صهيب عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب اليهم من النظر الى ربهم عز وجل » . ورواه أحمد ٤/٣٣٣ و ٦/١٦ وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٣٠٥ وزاد نسبته للطيالسي ، وهناد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والدارقطني في الرؤية ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » واللفظ الذي ساقه المؤلف « الزيادة : النظر الى وجه الله عز وجل » ذكره السيوطي من رواية الدارقطني ، وابن مردويه عن صهيب .

(٣) « الطبري » ١٥/٦٩ عن الحكم بن عتيبة ، عن علي ، وهو ضعيف لارساله ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٣٠٦ من طريق الحكم بن عتيبة عن علي ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، والبيهقي في الرؤية .

والثالث : أن الزيادة : مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والرابع : أن الزيادة : مغفرة ورضوان ، قاله مجاهد .

والخامس : أن الزيادة : أن ما أعطاهم في الدنيا لايحاسبهم به في القيامة ، قاله ابن زيد .

والسادس : أن الزيادة : مايشتهونه ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ولا يرهق) أي : لايغشى (وجوهَهُم قَتَرٌ) وقرأ الحسن ، وقتادة ، والأعمش : « قَتْر » باسكان التاء ، وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه السواد . قال ابن عباس : سواد الوجوه من الكآبة . وقال الزجاج : القتر : الغبرة التي معها سواد . والثاني : أنه دخان جهنم ، قاله عطاء . والثالث : الخزي ، قاله مجاهد . والرابع : الغبار ، قاله أبو عبيدة .

وفي الذلة قولان :

أحدهما : الكآبة ، قاله ابن عباس . والثاني : الهوان ، قاله أبو سليمان .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذين كسبوا السيئات) قال ابن عباس : عملوا الشرك . (جزاء سيئةٍ بمثلها) في الآية محذوف ، وفي تقديره قولان :

أحدهما : أن فيها إضمار « لهم » ، المعنى : لهم جزاء سيئة بمثلها ، وأنشد ثعلب :

فانْ سَأَلَ الوَاشُونَ عَنْه فَقُلْ لَهُم وَذَاكَ عَطَاءٌ لِلوشَاةِ جَزِيلُ

مُلِمٌّ بِلَيْلَى لَمَّةً ثُمَّ إِنَّهُ لَهَاجِرُ لَيْلَى بَعْدَهَا فَمُطِيلُ

أراد : هو مُلِمٌّ ، وهذا قول الفراء .

والثاني : أن فيها إضمار « منهم » ، المعنى : جزاء سيئة منهم بمثلها ، تقول العرب : رأيت القوم صائم وقائم ، أي : منهم صائم وقائم ، أنشد الفراء :

حَتَّى إِذَا مَا أَضَاءَ الصُّبْحُ فِي غَلَسٍ وَغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ وَمَحْصُودُ

أي : منه ملوي ، وهذا قول ابن الأنباري . وقال بعضهم : الباء زائدة هاهنا ، و « من » في قوله : (من عاصم) صلة ، والعاصم : المانع . (كأنما أغشيت وجوههم) أي : ألبست (قطعاً) قرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحمزة : « قِطَعاً » مفتوحة الطاء ، وهي جمع قطعة . وقرأ ابن كثير ، والكسائي ، ويعقوب : « قِطْعاً » بتسكين الطاء . قال ابن قتيبة : وهو اسم ما قُطع . قال ابن جرير : وإنما قال : « مُظلماً » ولم يقل : « مُظلمة » لأن المعنى : قطعاً من الليل المظلم ، ثم حذفت الألف واللام من « المظلم » ، فلما صار نكرة ، وهو من نعت الليل ، نُصب على القَطْعِ ؛ وقوم يسمّون ما كان كذلك حالاً ، وقوم قطعاً .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ . فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم جميعاً) قال ابن عباس : يُجمع الكفار وآلهتهم . (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم) أي : آلهتكم . قال الزجاج :

« مكانكم » منصوب على الأمر ، كأنهم قيل لهم : انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم ، والعرب تتوعَّد فتقول : مكانك ، أي : انتظر مكانك ، فهي كلمة جرت على الوعيد .

قوله تعالى : (فزيَّلنا بينهم) وقرأ ابن أبي عبلة : « فزايلنا » بألف ، قال ابن عباس : فرَّقنا بينهم وبين آلهتهم . وقال ابن قتيبة : هو من زال يزول وأزلته . وقال ابن جرير : إنما قال « فزيلنا » ولم يقل : « فزلنا » لارادة تكرير الفعل وتكثيره .

فان قيل : « كيف تقع الفرقة بينهم وهم معهم في النار ، لقوله : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) [الأنبياء : ٩٨] ؟

فالجواب : أن الفرقة وقعت بتبرّي كل معبود ممن عبده ، وهو قوله : (وقال شركاؤهم) ، قال ابن عباس : آلهتهم ، يُنْطِق الله الأوثان، فتقول : (ما كنتم إيانا تعبدون) أي : لا نعلم بعبادتكم لنا ، لأنه ماكان فينا روح ، فيقول العابدون : بلى قد عبدناكم ، فتقول الآلهة : (فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين) لانعلم بها . قال الزجاج : (إن كنا) معناه : ماكنا إلا غافلين .

فان قيل : ماوجه دخول الباء في قوله : (فكفى بالله شهيداً) ؟

فعنه جوابان . أحدهما : أنها دخلت للمبالغة في المدح كما قالوا : أَظْرِفْ بعبد الله ، وأنبل بعبد الرحمن ، وناهيك بأخينا ، وحسبك بصديقنا ، هذا قول الفراء وأصحابه . والثاني : أنها دخلت توكيداً للكلام ، إذ سقوطها ممكن ، كما يقال : خذ بالخطام ، وخذ الخطام ، قاله ابن الأنباري .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَيهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (هنالك تبلو) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « تبلو » بالباء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وزيد عن يعقوب :

« تتلو » بالتاء . قال الزجاج : « هنالك » ظرف ، والمعنى : في ذلك الوقت تبلو ، وهو منصوب بتبلو ، إلا أنه غير متمكـن ، واللام زائدة ، والأصل : هناك ، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف ، والكاف للمخاطبة . و « تبلو » تختبر ، أي : تعلم . ومن قرأ « تتلو » بتاءين ، فقد فسرها الأخفش وغيره : تتلو من التلاوة ، أي : تقرأ . وفسروه أيضاً : تتبع كل نفس ما أسلفت . ومثله قول الشاعر :

قد جعلتْ دلويَ تَستَتْلِيني [ولا أُريدُ تَبَعَ القرينْ] (١)

أي : تستتبعني ، أي : من ثقلها تستدعي اتباعي إياها .

قوله تعالى : (وَرُدّوا) أي : في الآخرة (إلى الله مولاهم الحق) الذي يملك أمرهم حقاً ، لا مَن جعلوا معه من الشركاء . (وضل عنهم) أي : زال وبطل (ما كانوا يفترون) من الآلهة .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل مَنْ يرزقكم من السماء) المطر ، ومن الأرض النبات ، (أم من يملك السمع) أي : خلْق السمع والأبصار . وقد سبق معنى إخراج الحي من الميت ، والميت من الحي [آل عمران:٢٧] .

قوله تعالى (ومن يدبّر الأمرَ) أي : أمر الدنيا والآخرة (فسيقولون الله لأنهم خوطبوا بما لا يقدر عليه إلا الله ، فكان في ذلك دليل توحيده .

وفي قوله :) أفلا تتقون) قولان : أحدهما : أفلا تتّعظون ، قاله ابن عباس والثاني : تتقون الشرك ، قاله مقاتل .

---

(١) الرجز في « اللسان » تلا غير منسوب .

﴿ فَذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

قوله تعالى : (فذلكم الله ربكم الحق) قال الخطابي : الحق هو المتحقق وجوده ، وكل شيء صح وجوده وكونه ، فهو حق .

قوله تعالى : (فأنَّى تُصْرَفون) قال ابن عباس : كيف تصرف عقولكم إلى عبادة من لايرزق ولا يحيي ولا يميت ؟

﴿ كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَايُؤْمِنُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَايَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (كذلك حقَّتْ كلمة ربك) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « كلمةُ ربك » ، وفي آخر السورة كذلك . وقرأ نافع ، وابن عامر الحرفين « كلماتُ » على الجمع .

قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أي : مِثْل أفعالهم جازاهم ربك ، والمعنى : حق عليهم أنهم لايؤمنون . وقوله : (أنهم لايؤمنون) بدل من (كلمة ربك) . وجائز أن تكون الكلمة حقت عليهم لأنهم لايؤمنون ، وتكون الكلمة ما وُعدوا به من العقاب .

وذكر ابن الأنباري في (كذلك) قولين :

أحدهما : أنها إشارة إلى مصدر « تُصرفون » ، والمعنى : مثل ذلك الصرف حقت كلمة ربك .

والثاني : أنه بمعنى هكذا .

وفي معنى « حقت » قولان : أحدهما : وجبت . والثاني : سبقت .

وفي كلمته قولان : أحدهما : أنها بمعنى وعده . والثاني : بمعنى قضائه . ومن قرأ « كلماتُ » جعل كل واحدة من الكلم التي توعِّدوا بها كلمة . وقد شرحنا معنى الكلمة في (الأعراف : ١٣٧ و ١٥٨) .

قوله تعالى : (قل الله يهدي للحق) أي : إلى الحق .

قوله تعالى : (أم من لايَهَدِّي) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وورش عن نافع : « يَهَدِّي » بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . قال الزجاج : الأصل يهتدي ، فأدغمت التاء في الدال ، فطرحت فتحتها على الهاء . وقرأ نافع إلا ورشاً ، وأبو عمرو : « يَهْدِّي » بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ، غير أن أبا عمرو كان يُشِم الهاء شيئاً من الفتح . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يَهْدي » بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال . قال أبو علي : والمعنى : لايهدي غيرَه إلا أن يُهدَى هو ، ولو هُدي الصُّمُّ لم يهتد ، ولكن لما جعلوها كمن يعقل ، أجريت مجراه . وروى يحيى ابن آدم عن أبي بكر عن عاصم : « يِهِدِّي » بكسر الياء والهاء وتشديد الدال ، وكذلك روى أبان وجبلة عن المفضل وعبد الوارث ، قال الزجاج : أتبعوا الكسرة الكسرة ، وهي رديئة لثقل الكسرة في الياء . وروى حفص عن عاصم ، والكسائي عن أبي بكر عنه : « يَهِدِّي » بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال ، قال الزجاج : وهذه في الجودة كالمفتوحة الهاء ، إلا أن الهاء كُسرت لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن السميفع : « يهتدي » بزيادة تاء . والمراد بقوله : (أم من لايهدِّي) الصم

(إلا أن يُهدى) . وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت ، وليست كذلك، لأنها حجارة لاتهتدي ، إلا أنهم لما اتخذوها آلهة ، عبّر عنها كما يعبَّر عمن يعقل ، ووصفت صفةَ مَن يعقل وإن لم تكن في الحقيقة كذلك ؛ ولهذا المعنى قال في صفتها : (أمَّن) لأنهم جعلوها كمن يعقل . ولما أعطاها حقها في أصل وضعها، قال : (يا أبتِ لم تعبدُ مالا يسمع) [مريم : ٤٢] . وقال الفراء : (أمّن لايهدي) أي : أتعبدون مالايقدر أن ينتقل من مكانه إلا أن يحوَّل؟ وقد صرف بعضهم الكلام إلى الرؤساء والمضلّين ، والأول أصح .

قوله تعالى : (فما لكم) قال الزجاج : هو كلام تام ، كأنه قيل لهم : أيُّ شيء لكم في عبادة الأوثان؟ ثم قيل لهم : (كيف تحكمون) أي : على أي حال تحكمون ؟ وقال ابن عباس : كيف تقضون لأنفسكم ؟ وقال مقاتل : كيف تقضون بالجَوْر ؟

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما يتَّبع أكثرهم) أي : كلهم (إلا ظناً) أي : مايستيقنون أنها آلهة ، بل يظنون شيئاً فيتَّبعونه . (إن الظن لايغني من الحق شيئاً) أي : ليس هو كاليقين ، ولا يقوم مقام الحق وقال مقاتل : ظنهم بأنها آلهة لايدفع عنهم من العذاب شيئاً ، وقال غيره : ظنهم أنها تشفع لهم لايغني عنهم .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) قال الزجاج : هـذا جواب قولهم : (ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدّلْهُ)[يونس : ١٥] وجواب قولهم : (افتراه) [الفرقان : ٤] . قال الفراء : ومعنى الآية : ماينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، فجاءت « أن » على معنى ينبغي . وقال ابن الأنباري : يجوز أن تكون « أن » مع « يفترى » مصدراً ، وتقديره : وما كان هذا القرآن افتراءً . ويجوز أن تكون « كان » تامة ، فيكون المعنى : مانزل هذا القرآن ، وما ظهر هذا القرآن لأن يفترى ، وبأن يفترى ، فتُنْصَب « أن » بفقد الخافض في قول الفراء ، وتخفض بإضمار الخافض في قول الكسائي . وقال ابن قتيبة : معنى (أن يفترى) أي : يضاف إلى غير الله ، أو يُختَلق .

قوله تعالى : (ولكن تصديقَ الذي بين يديه) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تصديق الكتب المتقدمة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا ، إنما قال : (الذي) لأنه يريد الوحي .

والثاني : مابين يديه من البعث والنشور ، ذكره الزجاج .

والثالث : تصديق النبي ﷺ الذي بين يدي القرآن ، لأنهم شاهدوا النبي ﷺ وعرفوه قبل سماعهم القرآن ، ذكره ابن الأنباري :

قوله تعالى : (وتفصيل الكتاب) أي : وبيان الكتاب الذي كتبه الله على أُمة محمد ﷺ الفرائض التي فرضها عليهم .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (أم يقولون افتراه) في « أم » قولان : أحدها : أنها بمعنى الواو ، قاله أبو عبيدة . والثاني : بمعنى بل ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فأتوا بسورةٍ مثلِه) قال الزجاج : المعنى : فأتوا بسورة مثلِ سورة منه ، فذكر المِثْلَ لأنه إنما التمس شبه الجنس ، (وَادْعُوا مَنِ اسْتطعتم) ممن هو في التكذيب مثلكم (إن كنتم صادقين) أنه اختلقه .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَالَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) فيه قولان : أحدهما : أن المعنى : بما لم يحيطوا بعلم ما فيه ذِكْر الجنة والنار والبعث والجزاء . والثاني : بما لم يحيطوا بعلم التكذيب به ، لأنهم شاكّون فيه .

وفي قوله : (ولمّا يأتهم تأويله) قولان : أحدهما : تصديق ما وُعدوا به من الوعيد . والتأويل : ما يؤول إليه الأمر . والثاني : ولم يكن معهم عِلم تأويله ، قاله الزجاج .

قيل لسفيان بن عيينة : يقول الناس : كل إنسان عدوٌّ ما جهل ، فقال : هذا في كتاب الله . قيل : أين ؟ فقال : (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه) .

وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن : من جهل شيئاً عاداه ؟ فقال : نعم ، في موضعين . قوله : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) وقوله : (إذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) [الأحقاف : ١١] .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يؤمن به) في المشار إليهم قولان :

أحدهما . أنهم اليهود ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : قريش ، قاله مقاتل بن سليمان .

وفي هاء « به » قولان : أحدهما : أنها ترجع إلى محمد ﷺ ودينه ، قاله مقاتل . والثاني : إلى القرآن ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

وهذه الآية تضمنت الإخبار عما سبق في علم الله ، فالمعنى : ومنهم مَنْ سيؤمن به . وقال الزجاج : منهم من يعلم أنه حق فيصدّق به ويعاند فيظهر الكفر . (ومنهم من لا يؤمن به) أي : يشكّ ولا يصدّق .

قوله تعالى : (وربك أعلم بالمفسدين) قال عطاء : يريد المكذبين ، وهذا تهديد لهم .

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن كذبوك فقل لي عملي ...) الآية . قال أبو صالح عن ابن عباس : نسختها آية السيف ؛ وليس هذا بصحيح ، لأنه لا تنافي بين الآيتين .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من يستمعون إليك) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : في يهود المدينة ، كانوا يأتون رسول الله ويستمعون القرآن فيعجبون ويشتهونه ويغلب عليهم الشقاء ، فنزلت هذه الآية .

والثاني . أنها نزلت في المستهزئين ، كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ للاستهزاء والتكذيب ، فلم ينتفعوا ، فنزلت فيهم هذه الآية ، والقولان مرويّان عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في مشركي قريش ؛ قاله مقاتل. قال الزجاج : ظاهرهم ظاهر من يستمع ، وهم لشدة عداوتهم بمنزلة الصم . (ولو كانوا لايعقلون) أي : ولو كانوا مع ذلك جهالاً . وقال ابن عباس : يريد أنهم شرٌّ من الصم ، لأن الصم لهم عقول وقلوب ، وهؤلاء قد أصم الله قلوبهم .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ومنهم من ينظر إليك) قال ابن عباس ؛ يريد : متعجبين منك . (أفأنت تهدي العمي) يريد أن الله أعمى قلوبهم فلا يبصرون . وقال الزجاج : ومنهم من يُقبل عليك بالنظر ، وهو من بغضه لك وكراهته لما يرى من آياتك كالأعمى . وقال ابن جرير : ومنهم من يستمع قولك وينظر إلى حججك على نُبُوَّتك ، ولكن الله قد سلبه التوفيق . وقال مقاتل : و « لو » في الآيتين بمعنى « إذا » .

﴿ إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الله لايظلم الناس شيئاً) لما ذكر الذين سبق القضاء عليهم بالشقاوة ، أخبر أن تقدير ذلك عليهم ليس بظلم ، لأنه يتصرف في ملكه كيف شاء ، وهم إذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم بذلك ، لأن الفعل منسوب إليهم ، وإن كان بقضاء الله .

قوله تعالى : (ولكنَّ الناس) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « ولكنِ الناسُ » بتخفيف النون وكسرها ، ورفع الاسم بعدها .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نحشرهم) وقرأ حمزة : « يحشرهم » بالياء . قال أبو سليمان الدمشقي : هم المشركون .

قوله تعالى : (كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) فيه قولان :

أحدهما : كأن لم يلبثوا في قبورهم ، قاله ابن عباس . والثاني : في الدنيا ، قاله مقاتل . قال الضحاك : قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم ، فصار كالساعة من النهار ، لهول ما استقبلوا من القيامة .

قوله تعالى : (يتعارفون بينهم) قال ابن عباس : إذا بُعثوا من القبور تعارفوا ، ثم تنقطع المعرفة . قال الزجاج : وفي معرفة بعضهم بعضاً ، وعِلم بعضهم بإضلال بعض ، التوبيخُ لهم ، وإثباتُ الحجة عليهم . وقيل : إذا تعارفوا وبَّخ بعضهم بعضاً ، فيقول هذا لهذا : أنت أضللتني ، وكسَّبتني دخول النار .

قوله تعالى : (قد خسر الذين كذَّبوا) هو من قول الله تعالى ، لا مِن قولهم ، والمعنى : خسروا ثواب الجنة إذْ كذَّبوا بالبعث (وما كانوا مهتدين) من الضلالة .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ . وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإما نرينَّك بعض الذي نَعِدُهُمْ) قال المفسرون : كانت وقعة بدر مما أراه الله في حياته من عذابهم . (أو نتوفينَّك) قبل أن نريَك (فإلينا مرجعهم) بعد الموت ، والمعنى : إن لم ننتقم منهم عاجلاً ، انتقمنا آجلاً .

قوله تعالى : (ثم الله شهيد على ما يفعلون) من الكفر والتكذيب . قال

الفراء : « ثم » هاهنا عطف ، ولو قيل : معناها : هناك الله شهيد ، كان جائزاً . وقال غيره : « ثم » هاهنا بمعنى الواو . وقرأ ابن أبي عبلة : « ثَمَّ الله شهيد » بفتح الثاء ، يراد به : هنالك الله شهيد.

قوله تعالى : (فاذا جاء رسولهم قضي بينهم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : إذا جاء في الدنيا بعد الإذن له في دعائهم ، قضي بينهم بتعجيل الانتقام منهم ، قاله الحسن . وقال غيره : إذا جاءهم في الدنيا ، حُكم عليهم عند اتباعه وخلافه بالطاعة والمعصية .

والثاني : إذا جاء يوم القيامة ، قاله مجاهد . وقال غيره : إذا جاء شاهداً عليهم .

والثالث : إذا جاء في القيامة وقد كذَّبوه في الدنيا ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (قضي بينهم بالقسط) فيه قولان : أحدهما : بين الأمَّة ، فأثيب المحسن وعوقب المسيء . والثاني : بينهم وبين نبيهم .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد) في القائلين هذا قولان :

أحدهما : الأمم المتقدمة ، أخبر عنهم باستعجال العذاب لأنبيائهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم المشركون الذين أنذرهم نبينا ﷺ ، قاله أبو سليمان .

وفي المراد بالوعد قولان : أحدهما : العذاب ، قاله ابن عباس . والثاني : قيام الساعة . (إن كنتم صادقين) أنت وأتباعك .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ

الْمُجْرِمُونَ . أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ . ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل لا أملك لنفسي ضراً ...) الآية ، قد ذكرت تفسيرها في آيتين من (الأعراف : ٣٤ و ١٨٨) .

قوله تعالى : (إن أتاكم عذابه بياتاً) قال الزجاج : البيات : كل ما كان بليل . وقوله : (ماذا) في موضع رفع من جهتين . إحداهما : أن يكون « ذا » بمعنى الذي ، المعنى : ما الذي يستعجل منه المجرمون ؟ ويجوز أن يكون « ماذا » اسماً واحداً ، فيكون المعنى : أي شيء يستعجل منه المجرمون ؟ والهاء في « منه » تعود على العذاب . وجائز أن تعود على ذكر الله تعالى ، فيكون المعنى : أي شيء يستعجل المجرمون من الله تعالى ؟ وعودها على العذاب أجود ، لقوله : (أثم إذا ما وقع آمنتم به) . وذكر بعض المفسرين أن المراد بالمجرمين : المشركون ، وكانوا يقولون : نكذب بالعذاب ونستعجله ، ثم إذا وقع العذاب آمنا به ؛ فقال الله تعالى موبخاً لهم : (أثمَّ إذا ما وقع آمنتم به) أي : هنالك تؤمنون فلا يُقبل منكم الإيمان ، ويقال لكم : الآن تؤمنون ؟ فأضمر : تؤمنون به مع (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) مستهزئين ، وهو قوله : (ثم قيل للذين ظلموا) أي : كفروا ، عند نزول العذاب (ذوقوا عذاب الخلد) ، لأنه إذا نزل بهم العذاب ، أفضوا منه إلى عذاب الآخرة الدائم .

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويستنبئونك) أي : ويستخبرونك (أحق هو) يعنون البعث

والعذاب . (قل إي) المعنى : نعم (وربي) ، وفتح هذه الياء نافع ، وأبو عمرو .
وإنما أقسم مع إخباره تأكيداً . وقال ابن قتيبة : « إي » بمعنى « بل » ولا تأتي إلا قبل اليمين صلة لها .

قوله تعالى : (وما أنتم بمعجزين) قال ابن عباس : بسابقين . وقال الزجاج : لستم ممن يُعجز أن يجازى على كفره .

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أن لكل نفس ظلمت) قال ابن عباس : أشركَتْ . (مافي الأرض لافتدت به) عند نزول العذاب . (وأسرُّوا النَّدامةَ) يعني : الرؤساء أخفوها من الأتباع . (وقُضِيَ بينهم) أي : بين الفريقين . وقال آخرون منهم أبو عبيدة والمفضل : « أسرُّوا الندامة » بمعنى أظهروا ، لأنه ليس يوم تَصَنُّعٍ ولا تصبُّرٍ ، والإسرار من الأضداد ؛ يقال : أسررت الشيء ، بمعنى : أخفيته . وأسررته : أظهرته ، قال الفرزدق :

ولما رأى الحجَّاجَ جرَّد سيفَه أسرَّ الحروريُّ الذي كان أضمرا [١]

يعني : أظهر . فعلى هذا القول : أظهروا الندامة عند إحراق النار لهم ، لأن

---

(١) البيت في « أضداد الأصمعي » ٢١ ، و « أضداد السجستاني » ١٥١ ، و « أضداد ابن السكيت » ١٧٦ ، و « أضداد ابن الأنباري » ١٤٦ ، و « أضداد أبي الطيب » ٣٥٣ ، و « اللسان » و « التاج » : سرر ، منسوباً فيها جميعاً إلى الفرزدق ، وليس في ديوانه .

النار ألهتهم عن التصنع والكتمان . وعلى الأول : كتموها قبل إحراق النار إياهم .

قوله تعالى : (ألا إن وعد الله حق) قال ابن عباس : ماوعد أولياءه من الثواب ، وأعداءه من العقاب . (ولكن أكثرهم) يعني المشركين (لايعلمون) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الناس) قال ابن عباس : يعني قريشاً . (قد جاءتكم موعظةٌ) يعني القرآن (وشفاء لما في الصدور) أي : دواء لداء الجهل . (وهدىً) أي : بيان من الضلالة .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته) فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أن فضل الله : الإسلامُ ، ورحمته : القرآن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، وهلال بن يساف . وروي عن الحسن ، ومجاهد في بعض الرواية عنهما ، وهو اختيار ابن قتيبة .

والثاني : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلهم من أهل القرآن ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال أبو سعيد الخدري ، والحسن في رواية .

والثالث : أن فضل الله : العلم ، ورحمته : محمد ﷺ ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : أن فضل الله : الإسلام ، ورحمته : تزيينه في القلوب ، قاله ابن عمر .

والخامس : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : الإسلام ، قاله الضحاك ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، ومقاتل .

والسادس : أن فضل الله ورحمته : القرآن ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، واختاره الزجاج .

والسابع : أن فضل الله : القرآن ، ورحمته : السُّنَّة ، قاله خالد بن معدان .

والثامن : فضل الله : التوفيق ، ورحمته : العصمة ، قاله ابن عيينة .

قوله تعالى : (فبذلك فليفرحوا) وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو مجلز ، وقتادة ، وأبو العالية ، ورويس عن يعقوب : « فلتفرحوا » بالتاء . وقرأ الحسن ، ومعاذ القارىء ، وأبو المتوكل مثل ذلك ، إلا أنهم كسروا اللام . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : « فبذلك فافرحوا » . قال ابن عباس : بذلك الفضل والرحمة . (هو خير مما يجمعون) أي : مما يجمع الكفار من الأموال . وقرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، ورويس : « تجمعون » بالتاء . وحكى ابن الأنباري أن الباء في قوله : (بفضل الله) خبر لاسم مضمر ، تأويله : هذا الشفاء وهذه الموعظة بفضل الله ورحمته ، فبذلك التطوّل من الله فليفرحوا .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) قال المفسرون : هذا خطاب لكفار قريش ، كانوا يحرّمون ماشاؤوا ، ويُحلّون ماشاؤوا . و (أنزل) بمعنى خلق . وقد شرحنا بعض مذاهبهم فيما كانوا يفعلون من البحيرة والسائبة وغير ذلك في (المائدة : ١٠٣) و (الأنعام : ١٣٩) .

قوله تعالى : (قل آلله أذن لكم) أي : في هذا التحليل والتحريم .

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) في الكلام محذوف ، تقديره : ماظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم ، (إن الله لذو فضل على الناس) حين لم يعجِّل عليهم بالعقوبة (ولكن أكثرهم لايشكرون) تأخير العذاب عنهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وما تكون في شأن) أي : في عمل من الأعمال ، وجمعه : شؤون . (وما تتلو منه) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها تعود إلى الشأن . قال الزجاج : معنى الآية : أي وقت تكون في شأن من عبادة الله ، وما تلوت من الشأن من قرآن .

والثاني : أنها تعود إلى الله تعالى ، فالمعنى : وما تلوت من الله ، أي : من نازل منه من قرآن ، ذكره جماعة من العلماء . والخطاب للنبي ﷺ ، وأمته داخلون فيه ، بدليل قوله : (ولا تعملون من عمل) قال ابن الأنباري : جمع في هذا ، ليدل على أنهم داخلون في الفعلين الأوَّلين .

قوله تعالى : (إذ تُفيضون فيه) الهاء عائدة على العمل . قال ابن قتيبة : تفيضون بمعنى تأخذون فيه . وقال الزجاج : تنتشرون فيه ، يقال : أفاض القوم في الحديث : إذا انتشروا فيه وخاضوا . (وما يعزب) معناه : وما يبعد . وقال ابن قتيبة :

ما يبعد ولا يغيب. وقرأ الكسائي «يعزِب» بكسر الزاي هاهنا وفي (سبأ : ٣). وقد بيّنا «مثقال ذرة» في سورة (النساء : ٤٠).

قوله تعالى : (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر) قرأ الجمهور بفتح الراء فيهما. وقرأ حمزة، وخلف، ويعقوب، برفع الراء فيهما. قال الزجاج : مَنْ قرأ بالفتح، فالمعنى : وما يعزب عن ربك من مثقال ذرَّةٍ، ولا مثقالَ أصغرَ من ذلك ولا أكبر، والموضع موضع خفض، إلا أنه فُتح لأنه لا ينصرف. ومن رفع، فالمعنى : وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر. ويجوز رفعه على الابتداء، فيكون المعنى : ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، (إلا في كتاب مبين) قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ.

﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لاَتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله) روى ابن عباس أن رجلاً قال : يارسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال «الذين إذا رؤوا ذُكر الله»[1]. وروى عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال «إنَّ من عباد الله لأناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله عز وجل» قالوا : يارسول الله، مَنْ هم، وما أعمالهم لعلنا نحبُّهم؟ قال «هم قوم تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم

(١) «الطبري» ١٥/١٢٠، مرسلاً، وأورده ابن كثير في «التفسير» ٢/٤٢٢ من رواية البزار مرفوعاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وخرجه السيوطي في «الدر» ٣/٣٠٩ وزاد نسبته إلى المبارك، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس.

ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لايخافون إذا خاف الناس » ، ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون)[١] .

قوله تعالى : (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ، أو تُرى له ، رواه عبادة ابن الصامت ، وأبو الدرداء ، وجابر بن عبد الله ، وأبو هريرة عن النبي ﷺ[٢] .

والثاني : أنها بشارة الملائكة لهم عند الموت ، قاله الضحاك ، وقتادة ، والزهري .

والثالث : أنها مابشر الله به في كتابه من جنته وثوابه ، كقوله : (وبشر الذين آمنوا) [البقرة : ٢٥] ، (وأبشروا بالجنة) [فصلت : ٣٠] ، (يبشرهم ربهم) [التوبة : ٢١] ، وهذا قول الحسن ، واختاره الفراء ، والزجاج ، واستدلا بقوله : (لاتبديل لكلمات الله) . قال ابن عباس : لاخُلف لمواعيده ، وذلك أن مواعيده بكلماته ، فاذا لم تبدّل الكلمات ، لم تبدّل المواعيد .

فأما بشراهم في الآخرة ، ففيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[٣] ، واختاره ابن قتيبة .

---

(١) « الطبري » ١٢١/١٥ ، وأبو داود رقم (٣٥٢٧) وذكره الحافظ ابن كثير وقال : إسناده جيد ، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، ورواه الطبري ١٢٢/١٥ ، وأحمد ٣٤٣/٥ مطولاً من حديث أبي مالك الأشعري ، وفي سنده شهر بن حوشب . وروى معـــاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر رواية الحديث عن هؤلاء الصحابة في « الطبري » ١٢٥/١٥ - ١٤٠ و « الدر » ٣١١/٣ - ٣١٣ .

(٣) « الطبري » ١٣١/١٥ ، والسيوطي في « الدر » ٣١١/٣ وزاد نسبته لأبي الشيخ ، وابن مردويه .

والثاني : أنه عند خروج الروح تبشَّر برضوان الله ، قاله ابن عباس .

والثالث : أنها عند الخروج من قبورهم ، قاله مقاتل [١] .

﴿ وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (ولا يحزنك قولهم) قال ابن عباس : تكذيبهم . وقال غيره : تظاهرهم عليك بالعداوة وإنكارهم وأذاهم . وتم الكلام هاهنا . ثم ابتدأ فقال : (إنّ العزّة لله جميعاً) أي : الغلبة له ، فهو ناصرك وناصر دينك ، (هو السميع) لقولهم (العليم) باضمارهم ، فيجازيهم على ذلك .

﴿ أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض) قال الزجاج : « ألا » افتتاح كلام وتنبيه ، أي : فالذي هم له ، يفعل فيهم وبهم ما يشاء .

قوله تعالى : (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) أي : ما يتبعون شركاء على الحقيقة ، لأنهم يعدُّونها شركاء لله شفعاء لهم ، وليست على ما يظنون .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال : إن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا ، ومن البشارة في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، ومنها بشرى الملائكة اياه عند خروج نفسه برحمة الله ، ومنها بشرى الله إياه ماوعده في كتابه وعلى لسان رسول الله ﷺ من الثواب الجزيل ، وكل هذه المعاني من بشرى الله اياه ، في الحياة الدنيا بشره بها ، ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى ، فذلك مما عمه ـ جل ثناؤه ـ أن لهم البشرى في الحياة الدنيا ، وأما في الآخرة فالجنة .

(إن يتبعون إلا الظن) في ذلك (وإن هم إلا يخرصون) قال ابن عباس : يكذبون . وقال ابن قتيبة : يحدسون ويحزرون .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) المعنى : إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا ربوبيته ،هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، فيزول تعب النهار وكلاله بالسكون في الليل ، وجعل النهار مبصراً ، أي : مضيئاً تبصرون فيه . وإنما أضاف الإبصار إليه ، لأنه قد فهم السامع المقصود ، إذ النهار لا يبصر ، وإنما هو ظرف يفعل فيه غيره ، كقوله : (عيشة راضية) [الحاقة: ٢١] ، إنما هي مرضية ، وهذا كما يقال : ليل نائم ، قال جرير :

لقد لُمْتِنا ياأمَّ غيلانَ في السُّرى ونمتِ وما ليلُ المطيِّ بنائم (١)

قوله تعالى : (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع اعتبار ، فيعلمون أنه لايقدر على ذلك إلا الإله القادر .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

---

(١) ديوانه : ٥٥٤ من قصيدة له طويلة ، أجاب بها الفرزدق ، و « الطبري » ١٥/١٤٤ و « مجاز القرآن » ١/٢٧٩ ، و « سيبويه » ١/٨٠ ، و « الخزانة » ١/٢٢٣ .

قوله تعالى : (قالوا اتخذ الله ولداً) قال ابن عباس : يعني أهل مكة ، جعلوا الملائكة بنات الله .

قوله تعالى : (سبحانه) تنزيه له عما قالوا . (هو الغني) عن الزوجة والولد . (إن عندكم) أي : ماعندكم (من سلطان) أي : حجة بما تقولون .

قوله تعالى : (لايفلحون) فيه ثلاثة أقوال : أحدها : لايبقون في الدنيا . والثاني : لايسعدون في العاقبة . والثالث : لايفوزون . قال الزجاج : وهذا وقف التمام ، وقوله (متاع في الدنيا) مرفوع على معنى : ذلك متاع في الدنيا .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَايَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾

قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ نوح) فيه دليل على نبوَّته ، حيث أخبر عن قصص الأنبياء ولم يكن يقرأ الكتب ، وتحريضٌ على الصبر ، وموعظة لقومه بذكر قوم نوح وماحلَّ بهم من العقوبة بالتكذيب .

قوله تعالى : (إن كان كَبُرَ) أي : عَظُم وشَقَّ (عليكم مقامي) أي : طول مكثي . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء « مُقامي » برفع الميم . (وتذكيري) وعظي . (فعلى الله توكلت) في نصرتي ودفع شركم عني . (فأجمعوا أمركم) قرأ الجمهور : « فأجمعوا » بالهمز وكسر الميم ، من « أجمعتُ » . وروى الأصمعي عن نافع : « فاجمعوا » بفتح الميم ، من « جمعت » . ومعنى « أجمعوا أمركم » : أحكِموا أمركم واعزموا عليه . قال المؤرِّج : « أجمعت الأمر » أفصح من « أجمعت عليه » ، وأنشد :

يا ليتَ شِعري والمنى لا تنفَعُ هل أغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ (١)

فأما رواية الأصمعي ، فقال أبو علي : يجوز أن يكون معناها : اجمعوا ذوي الأمر منكم ، أي : رؤساءكم . ويجوز أن يكون جعل الأمر ما كانوا يجمعونه من كيدهم الذي يكيدون به ، فيكون كقوله : (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً) [طه : ٦٤] .

قوله تعالى : (وشركاءكم) قال الفراء وابن قتيبة : المعنى : وادعوا شركاءكم . وقال الزجاج : الواو هاهنا بمعنى « مع » ، فالمعنى : مع شركائكم . تقول : لو تُركت الناقة وفصيلها لرضعها ، أي : مع فصيلها . وقرأ يعقوب « وشركاؤكم » بالرفع .

قوله تعالى : (ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة) فيه قولان : أحدها : لا يكن أمركم مكتوماً ، قاله ابن عباس . والثاني : غماً عليكم ، كما تقول : كرب وكربة ، قاله ابن قتيبة . وذكر الزجاج القولين . وفي قوله : (ثم اقضوا إليّ) قولان : أحدها : ثم اقضوا إليّ ما في أنفسكم ، قاله مجاهد . والثاني : افعلوا ما تريدون ، قاله الزجاج ، وابن قتيبة . وقال ابن الأنباري : معناه : اقضوا إليّ بمكروهكم وما توعدونني به ، كما تقول العرب : قد قضى فلان ، يريدون : مات ومضى .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فإن تولَّيتم) أي : أعرضتم عن الإيمان . (فما سألتكم من أجر) أي : لم يكن دعائي إياكم طمعاً في أموالكم .

---

(١) الرجز غير منسوب في « نوادر أبي زيد » ٤٧٦ ، و « معاني القرآن » للفراء : ١٤٨/١ ، و « الطبري » ١٤٨/١٥ ، و « الأضداد » لابن الأنباري ٤١ ، و « أمالي المرتضى » ٥٥٩/١ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » جمع .

قولهتعالى : (إن أجريَ) حرَّكَ هذه الياء ابن عامر ، وأبو عمرو ، ونافع ، وحفص عن عاصم ، وأسكنها الباقون .

قولهتعالى : (وجعلناهم خلائف) أي : جعلنا الذين نَجَوْا مع نوح خَلَفاً ممن هلك .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

قولهتعالى : (ثم بعثنا من بعده) أي : من بعد نوح (رسلاً إلى قومهم) قال ابن عباس : يريد : إبراهيم وهوداً وصالحاً ولوطاً وشعيباً . (فجاؤوهم بالبينات) أي : بان لهم أنهم رسل الله . (فما كانوا) أي : أولئك الأقوام (ليؤمنوا بما كذَّبوا) يعني الذين قبلهم . والمراد : أن المتأخرين مَضَوْا على سَنَن المتقدّمين في التكذيب . وقال مقاتل : فما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به من العذاب من قبل نزوله .

قولهتعالى : (كذلك نطبع) أي : كما طبعنا على قلوب أولئك ، (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) يعني المتجاوزين ما أُمروا به .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهٰرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾

قولهتعالى : (ثم بعثنا من بعدهم) يعني الرسل الذين أُرسلوا بعد نوح .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ . قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ

السَّاحِرُونَ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَاجِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما جاءهم الحق من عندنا) وهو ماجاء به موسى من الآيات .

قوله تعالى : (أسحر هذا) قال الزجاج : المعنى : أتقولون للحق لما جاءكم هذا اللفظ ، وهو قولهم : (إنَّ هذا لسحرٌ مبين) . ثم قررهم فقال : (أسحر هذا) ؟ . قال ابن الأنباري : إنما أدخلوا الألف على جهة تفظيع الأمر ، كما يقول الرجل إذا نظر إلى الكسوة الفاخرة : أكسوة هذه ؟ يريد بالاستفهام تعظيمها ، وتأتي الرجلَ جائزةٌ ، فيقول : أحقٌ ماأرى ؟ معظِّماً لما ورد عليه . وقال غيره : تقدير الكلام : أتقولون للحق لما جاءكم : هو سحر ؟ أسحر هذا ؟ فحذف السحر الأولُ اكتفاءً بدلالة الكلام عليه ، كقوله : (فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم) [الاسراء : ٨] المعنى : بعثناهم ليسوؤوا وجوهكم .

قوله تعالى : (أجئتنا لتلفتنا) قال ابن قتيبة : لتصرفنا . يقال : لفتُّ فلاناً عن كذا : إذا صرفته . ومنه الالتفات ، وهو الانصراف عما كنت مقبلاً عليه .

قوله تعالى : (وتكونَ لكما الكبرياء في الأرض) وروى أبان ، وزيد عن يعقوب (ويكون لكما) بالياء . وفي المراد بالكبرياء ثلاثة أقوال : أحدها : الملك والشرف ، قاله ابن عباس . والثاني : الطاعة ، قاله الضحاك . والثالث : العلوّ ، قاله ابن زيد . قال ابن عباس : والأرض هاهنا : أرض مصر .

قوله تعالى : (بكل ساحر) قرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف « بكل سحَّار » بتشديد الحاء وتأخير الألف .

قوله تعالى : (ماجئتم به السحرُ) قرأ الأكثرون « السحرُ » بغير مدّ ، على لفظ الخبر ، والمعنى : الذي جئتم به من الحبال والعصيّ ، هو السحر ، وهذا ردٌّ لقولهم للحق : هذا سحر ، فتقديره : الذي جئتم به السحر ، فدخلت الألف واللام ، لأن النكرة إذا عادت ، عادت معرفة ، كما تقول : رأيت رجلاً ، فقال ليَ الرجل . وقرأ مجاهد ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، وأبان عن عاصم ، وأبو حاتم عن يعقوب : « آلسحر » بمدِّ الألف ، استفهاماً . قال الزجاج : والمعنى : أي شيء جئتم به ؟ أسحر هو ؟ على جهة التوبيخ لهم . وقال ابن الأنباري : هذا الاستفهام معناه التعظيم للسحر ، لا على سبيل الاستفهام عن الشيء الذي يُجهل ، وذلك مثل قول الإنسان في الخطأ الذي يستعظمه من إنسان : أخَطَأٌ هذا ؟ أي : هو عظيم الشأن في الخطأ . والعرب تستفهم عما هو معلوم عندها ، قال امرؤ القيس :

أغرَّكِ مِنّي أنّ حُبَّكِ قاتلي   وأنَّكِ مهما تأمري القلبَ يَفْعَلِ (١)

وقال قيس بن ذريح :

أراجعةٌ يالُبْنَ أيامُنا الألى   بذي الطَّلح أم لا ما لَهُنَّ رجوعُ (٢)

فاستفهم وهو يعلم أنهن لا يرجعن .

قوله تعالى : (إن الله سيبطله) أي : يهلكه ، ويُظهر فضيحتكم ، (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) لا يجعل عملهم نافعاً لهم . (ويُحقُّ الله الحقَّ) أي : يظهره ويمكّنه ، (بكلماته) بما سبق من وعده بذلك .

(١) ديوانه : ١٣ .

(٢) ديوانه : ١١٣ .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ : قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (فما آمن لموسى إلا ذرية) في المراد بالذرّية هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بالذرّية : القليل ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم أولاد الذين أرسل إليهم موسى ، مات آباؤهم لطول الزمان ، وآمنوا هم ، قاله مجاهد . وقال ابن زيد : هم الذين نشؤوا مع موسى حين كفَّ

فرعون عن ذبح الغلمان . قال ابن الأنباري : وإنما قيل لهؤلاء : « ذرية » لأنهم أولاد الذين بُعث إليهم موسى ، وإن كانوا بالغين .

والثالث : أنهم قوم ، أُمهاتهم من بني إسرائيل ، وآباؤهم من القبط ، قاله مقاتل ، واختاره الفراء . قال : وإنما سُمّوا ذريةً كما قيل لأولاد فارس : الأبناء ، لأن أُمهاتهم من غير جنس آبائهم . وفي هاء « قومه » قولان :

أحدهما : أنها تعود إلى موسى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : إلى فرعون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس فعلى القول الأول يكون قوله : (على خوفٍ من فرعونَ وملئهم) أي : وملأ فرعون . قال الفراء : وإنما قال : « وملئهم » بالجمع ، وفرعون واحد ، لأن الملك إذا ذُكر ذهب الوهم إليه وإلى من معه ، تقول : قدم الخليفة فكثر الناس ، تريد : بمن معه . وقد يجوز أن يريد بفرعون : آل فرعون ، كقوله : (واسأل القرية) [يوسف : ٨٢] . وعلى القول الثاني : يرجع ذِكر الملأ إلى الذرية . قال ابن جرير : وهذا أصح ، لأنه كان في الذرّية مَن أبوه قبطي وأُمّه إسرائيلية ، فهو مع فرعون على موسى .

قوله تعالى : (أن يفتِنهم) يعني فرعون ، ولم يقل : يفتنوهم ، لأن قومه كانوا على مَن كان عليه . وفي هذه الفتنة قولان :

أحدهما : أنها القتل ، قاله ابن عباس . والثاني : التعذيب ، قاله ابن جرير .

قوله تعالى : (وإن فرعون لعالٍ في الأرض) قال ابن عباس : متطاول في أرض مصر (وإنّه لمن المسرفين) حين كان عبداً فادّعى الربوبيّة .

قوله تعالى : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا) لما شكا بنو إسرائيل إلى موسى ما يهدِّدهم به فرعون من ذبح أولادهم ، واستحياء نسائهم ، قال لهم هذا .

وفي قوله :(لا تجعلنا فتنة) ثلاثة أقوال :

أحدها : لاتهلكنا بعذاب على أيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من قِبَلك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ماعُذِّبوا ولا سُلِّطْنا عليهم .

والثاني : لاتسلِّطهم علينا فيفتنونا ، والقولان مرويان عن مجاهد .

والثالث : لاتسلِّطهم علينا فيفتتنون بنا ، لظنهم أنهم على حق ، قاله أبو الضحى ، وأبو مجلز .

قوله تعالى : (أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتاً) قال المفسرون : لما أُرسل موسى ، أمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخُرِّبت كلُّها ، ومُنعوا من الصلاة ، وكانوا لايصلُّون إلا في الكنائس ؛ فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلُّون فيها خوفاً من فرعون . و « تبوّآ » معناه : اتخذا ، وقد شرحناه في (الأعراف : ٧٤) . وفي المراد بمصر قولان : أحدهما : أنه البلد المعروف بمصر ، قاله الضحاك . والثاني : أنه الاسكندرية، قاله مجاهد . وفي البيوت قولان : أحدهما : أنها المساجد ، قاله الضحاك ، والثاني : القصور ، قاله مجاهد . وفي قوله : (واجعلوا بيوتكم قبلة) أربعة أقوال :

أحدها : اجعلوها مساجد ، رواه مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك عن ابن عباس ، وبه قال النخعي ، وابن زيد . وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم ، فقيل لهم : اجعلوا بيوتكم قبلة بدلا من المساجد .

والثاني : اجعلوها قِبَل القبلة ، رواه العوفي عن ابن عباس . وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : قِبَل مكة . وقال مجاهد : أُمروا أن يجعلوها مستقبلة الكعبة ، وبه قال مقاتل ، وقتادة ، والفراء .

والثالث : اجعلوها يقابل بعضها بعضاً ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سعيد بن جبير .

والرابع : واجعلوا بيوتكم التي بالشام قبلةً لكم في الصلاة ، فهي قبلة اليهود إلى اليوم ، قاله ابن بحر .

فان قيل : البيوت جمع ، فكيف قال « قبلة » على التوحيد ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : من قال : المراد بالقبلة الكعبة ، قال : وحّدت القبلة لتوحيد الكعبة . قال : ويجوز أن يكون أراد : اجعلوا بيوتكم قِبَلاً ، فاكتفى بالواحد عن الجمع ، كما قال العباس بن مرداس :

فقلنا أسْلِمُوا إنّا أخوكم فقد برئت من الإحن الصُّدورُ

يريد : إنا إخوتكم . ويجوز أن يكون وحّد « قبلة » لأنه أجراها مجرى المصدر ، فيكون المعنى : واجعلوا بيوتكم إقبالاً على الله ، وقصداً لما كنتم تستمملونه في المساجد . ويجوز أن يكون وحّدها ، والمعنى : واجعلوا بيوتكم شيئاً قبلة ، ومكاناً قبلة ، ومحلة قبلة .

قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة) قال ابن عباس : أتموا الصلاة (وبشر المؤمنين) أنت يامحمد . قال سعيد بن جبير : بشِّرهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .

قوله تعالى : (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً) قال ابن عباس : كان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضة وزبرجد وياقوت .

قوله تعالى : (ليَضلُّوا عن سبيلك) وفي لام « ليَضِلُّوا » أربعة أقوال :

أحدها : أنها لام « كي » والمعنى : آتيتهم ذلك كي يضلوا ، وهذا قول الفراء .

والثاني : أنها لام العاقبة ، والمعنى : إنك آتيتهم ذلك فأصارهم إلى الضلال ، ومثله قوله : (ليكون لهم عدوّاً وَحَزَناً)[القصص:٨] أي : آل أمرهم إلى أن صار لهم عدواً ، لا أنهم قصدوا ذلك ، وهذا كما تقول للذي كسب مالاً فأدّاه

إلى الهلاك : إنما كسب فلان لحتفه، وهو لم يكسب المال طلباً للحتف، وأنشدوا :

وللمنايا تُربِّي كلُّ مُرْضِعَةٍ ... وللخراب يُجِدُّ الناسُ عمرانا

وقال آخر :

وللموتِ تغذُو الوالداتُ سِخالَها ... كما لخراب الدُّور تُبنى المساكِنُ

وقال آخر :

فان يكُنِ الموتُ أفناهم ... فللموت ما تَلِدُ الوالده

أراد : عاقبة الأمر ومصيره إلى ذلك، هذا قول الزجاج .

والثالث : أنها لام الدعاء، والمعنى : ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك، ذكره ابن الأنباري .

والرابع : أنها لام أجْل، فالمعنى : آتيتهم لأجل ضلالتهم عقوبةً منك لهم، ومثله قوله : (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعرضوا عنهم) [التوبة : ٩٥] أي : لأجل إعراضكم، حكاه بعض المفسرين . وقرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب : « ليُضِلُّوا » بضم الياء، أي : ليُضلُّوا غيرهم .

قوله تعالى : (ربنا اطمس) روى الحلبي عن عبد الوارث : « اطمُس » بضم الميم، (على أموالهم) وفيه قولان :

أحدهما : أنها جُعلت حجارة، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، وأبو صالح، والفراء . وقال القرظي : جُعِلَ سُكَّرُهم حجارة . وقال ابن زيد : صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شيء لهم حجارة . وقال مجاهد : مسخ الله النخل والثمار والأطعمة حجارة، فكانت إحدى الآيات التسع . وقال الزجاج : تطميس الشيء : إذهابه عن صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها .

والثاني : أنها هلكت ، فالمعنى : أهلكْ أموالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، ومنه يقال : طُمست عينه ، أي : ذهبتْ ، وطُمس الطريق : إذا عفا ودرس .

وفي قوله : (واشدد على قلوبهم) أربعة أقوال :

أحدها : اطبع عليها ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : أهلكهم كفاراً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثالث : اشدد عليها بالضلالة ، قاله مجاهد .

والرابع : أن معناه : قسِّ قلوبهم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فلا يؤمنوا) فيه قولان :

أحدهما : أنه دُعاء عليهم أيضاً ، كأنه قال : اللهم فلا يؤمنوا ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة ، والزجاج . وقال ابن الأنباري : معناه : فلا آمنوا ، قال الأعشى :

فلا ينبَسِطْ منْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ ماانْزَوى ولا تَلْقَني إلّا وأنفُكَ راغِمُ [١]

معناه : لاانبسط ، ولا لقيتني .

والثاني : أنه عطف على قوله : (ليَضلّوا عن سبيلك) ، فالمعنى : أنك آتيتهم ليَضلّوا فلا يؤمنوا ، حكاه الزجاج عن المبرّد [٢] .

قوله تعالى : (حتى يروا العذاب الأليم) قال ابن عباس : هو الغرق ، وكان

---

(١) ديوانه : ٥٨ من قصيدته في هجاء يزيد بن مسهر الشيباني ، و « الطبري » ١٥/١٨٣ .

(٢) قال ابن جرير الطبري ١٥/١٨٥ : والصواب من القول في ذلك ، أنه في موضع جزم على الدعاء ، بمعنى (فلا آمنوا) ، وإنما اخترت ذلك ، لأن ماقبله دعاء وذلك قوله : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم) فالحاق قوله : (فلا يؤمنوا) إذ كان في سياق ذلك بمعناه أشبه وأولى .

موسى يدعو ، وهارون يؤمِّن ، فقال الله تعالى : (قد أُجيبتْ دعوتُكما) ، وكان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة .

فان قيل : كيف قال : (دعوتكما) وهما دعوتان ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن الدعوة تقع على دعوتين وعلى دَعَواتٍ وكلامٍ يطول كما بيَّنَّا في (الأعراف : ١٥٨) أن الكلمة تقع على كلمات ، قال الشاعر :

وكان دعا دعوةً قومَه هلمَّ إلى أمركم قد صُرِم [1]

فأوقع « دعوة » على ألفاظ بيَّنها آخر بيته .

والثاني : أن يكون المعنى : قد أُجيبت دعواتكما ، فاكتفى بالواحد من ذِكر الجميع ، ذكر الجوابين ابن الأنباري . وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم أنه قرأ « دَعَواتُكما » بالألف وفتح العين .

والثالث : أن موسى هو الذي دعا ، فالدعوة له ، غير أنه لما أمَّن هارون ، أشرك بينهما في الدعوة ، لأن التأمين على الدعوة منها .

وفي قوله : (فاستقيما) أربعة أقوال :

أحدها : فاستقيما على الرسالة وما أمرتكما به ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فاستقيما على دعاء فرعون وقومه إلى طاعة الله ، قاله ابن جرير .

والثالث : فاستقيما في دعائكما على فرعون وقومه .

والرابع : فاستقيما على ديني ، ذكرهما أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (ولا تتبعانِّ) قرأ الأكثرون بتشديد تاء « تتَّبعانِّ » . وقرأ

---

(١) البيت لأعشى قيس ، ديوانه : ٤٣ ، و « مجاز القرآن » ١/٢٠٨ ، و « الطبري » ٧٧/٨ ، و « القرطبي » ١٥٨/٧ ، و « اللسان » و « التاج » ربع .

ابن عامر بتخفيفها مع الاتفاق على تشديد نون « تَتَّبِعانِّ » ، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكِّدة ، وكُسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها ، واختير لها الكسر لأنها بعد الألف ، فشُبهت بنون الاثنين . قال أبو علي : ومن خفف النون أمكن أن يكون خفف النون الثقيلة ، فان شئت كان على لفظ الخبر ، والمعنى الأمر ، كقوله : (يتربَّصْنَ بأنفسهن) [البقرة : ٢٢٨ و ٢٣٤] و (لاتضارُّ والدة) [البقرة : ٢٣٣] أي : لاينبغي ذلك ، وإن شئت جعلته حالاً من قوله : (فاستقيما) تقديره : استقيما غير متَّبِعَين . وفي المراد بسبيل الذين لا يعلمون قولان : أحدهما : أنهم فرعون وقومه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

فان قيل : كيف جاز أن يدعوَ موسى على قومه ؟

فالجواب : أن بعضهم يقول : كان ذلك بوحي ، وهو قول صحيح ، لأنه لايُظن بنبيٍّ أن يُقدِم على مثل ذلك إلا عن إذن من الله عز وجل ، لأن دعاءه سبب للانتقام .

قوله تعالى : (فأتبعهم فرعون وجنوده) قال أبو عبيدة : أتبعهم وتبعهم سواء . وقال ابن قتيبة : أتبعهم : لحقهم . (بغياً وعَدْواً) أي : ظلماً . وقرأ الحسن (فاتَّبعهم) بالتشديد ، وكذلك شددوا (وعُدُوّاً) مع ضم العين .

قوله تعالى : (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر « أنه » بفتح الألف ، والمعنى : آمنت بأنه ، فلما حُذف حرف الجر ، وصل الفعلُ إلى « أنّ » فنُصب . وقرأ حمزة والكسائي « إنه » بكسر الألف ، فحملوه على القول المضمر ، كأنه قال : آمنت ، فقلت : إنه . قال ابن عباس : لم يقبل الله إيمانه عند رؤية العذاب . قال ابن الأنباري :

جنح فرعون إلى التوبة حين أُغلق بابها لحضور الموت ومعاينة الملائكة ، فقيل له: (آلآن) أي : الآن تتوب وقد أضعت التوبة في وقتها ، وكنت من المفسدين بالدعاء إلى عبادة غير الله عز وجل ؛ والمخاطِب له بهذا كان جبريل . وجاء في الحديث أن جبريل جعل يدسُّ الطين في فم فرعون خشية أن يُغفرَ له [١] . قال الضحاك ابن قيس : اذكروا الله في الرَّخاء يذكرْكم في الشدة ، إن يونس عليه السلام كان عبداً صالحاً ، وكان يذكر الله ، فلما وقع في بطن الحوت سأل الله ، فقال الله : (فلولا أنَّه كان من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) [الصافات:١٤٣] ، وإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لذِكر الله تعالى ، فلما أدركه الغرق قال : آمنت ، فقال الله : (آلآن وقد عصيت قبلُ) .

قوله تعالى : (فاليوم نُنجّيك) وقرأ يعقوب « نُنْجيك » مخففة . قال اللغويون ، منهم يونس وأبو عبيدة : نُلقيك على نجوة من الأرض ، أي : ارتفاع ، ليصير علَماً أنه قد غرق . وقرأ ابن السميفع « ننحّيك » بحاء . وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن موسى وأصحابه لما خرجوا ، قال من بقي من المدائن من قوم فرعون : ما أُغرق فرعون ، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر ، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً ، فكانت نجاةَ عِبرةٍ ، وأوحى الله تعالى إلى

---

(١) « المسند » : ١٦/٤ ، ونقله ابن كثير في « التفسير » ٤٣٠/٢ من الطيالسي ، وقال : وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضاً ، وابن جرير أيضاً من غير وجه عن شعبة ، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٣٤٠/٢ وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس ، ووافقه الذهبي .

البحر : أن الفظ مافيك ، فلفظهم البحر بالساحل ، ولم يكن يلفظ غريقاً ، فصار لا يقبل غريقاً إلى يوم القيامة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أن أصحاب موسى قالوا : إنا نخاف أن يكون فرعون ماغرق ، ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا موسى ربه ، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وإلى نحوه ذهب قيس بن عُبَاد ، وعبد الله بن شداد ، والسدي ، ومقاتل . وقال السدي : لما قال بنو إسرائيل : لم يغرق فرعون ، دعا موسى ، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفاً عليهم الحديد ، فأخذته بنو إسرائيل يمثِّلون به . وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه . وقال ابن جريج : كذَّب بعض بني إسرائيل بغرقه ، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قُصَيِّراً أحمر كأنه ثور . وقال أبو سليمان : عرفه بنو إسرائيل بدرع كان له من لؤلؤ لم يكن لأحد مثلها . فأما وجهه فقد غيَّره سُخْطُ الله تعالى .

والثالث : أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ ، وكان يعبده قوم ، فبيَّن الله تعالى أمره ، فأغرقه وأصحابه ، ثم أخرجه من بينهم ، قاله الزجاج . وفي قوله : (ببدنك) أربعة أقوال : أحدها : بجسدك من غير روح ، قاله مجاهد . وذِكر البدن دليل على عدم الروح . والثاني : بدرعك ، قاله أبو صخر . وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ ، وقيل : من ذهب ، فعُرِف بدرعه . والثالث : نلقيك عرياناً ، قاله الزجاج . والرابع : ننجّيك وحدك ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله : (لتكون لمن خلفك آية) ثلاثة أقوال :

أحدها : لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك ، فانك لو كنت إلهاً ماغرقت ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال أبو عبيدة : « خلفك » بمعنى بعدك ، والآية : العلامة .

والثاني : لتكون لبني إسرائيل آية ، قاله السدي .

والثالث : لمن تخلّف من قومه ، لأنهم أنكروا غرقه على ماذكرنا في أول الآية ، فخرج في معنى الآية قولان : أحدهما : عبرة للناس . والثاني : علامة تدل على غرقه . وقال الزجاج : الآية أنه كان يدّعي أنه ربٌّ ، فبان أمره ، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا . وقرأ ابن السميفع ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء (لمن خلقك) بالقاف .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد بوّأنا بني إسرائيل) أي : أنزلناهم منزل صدق ، أي منزلاً كريماً . وفي المراد ببني إسرائيل قولان : أحدهما : أصحاب موسى . والثاني : قريظة والنضير . وفي المراد بالمنزل الذي أُنزلوه خمسة أقوال : أحدها : أنه الأردن ، وفلسطين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الشام ، وبيت المقدس ، قاله الضحاك وقتادة . والثالث : مصر ، روي عن الضحاك أيضاً . والرابع : بيت المقدس ، قاله مقاتل . والخامس : مابين المدينة والشام من أرض يثرب ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري . والمراد بالطيبات : ما أُحل لهم من الخيرات

الطيبة . (فما اختلفوا) يعني بني اسرائيل . قال ابن عباس : ما اختلفوا في محمد، لم يزالوا به مصدِّقين ، (حتى جاءهم العلم) يعني : القرآن ، وروي عنه : حتى جاءهم العلم ، يعني محمداً . فعلى هذا يكون العلم هاهنا : عبارة عن المعلوم . وبيان هذا أنه لما جاءهم ، اختلفوا في تصديقه ، وكفر به أكثرهم بغياً وحسداً بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه قبل ظهوره .

قوله تعالى : (فان كنتَ في شك) في تأويل هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره من الشاكّين ، بدليل قوله في آخر السورة : (إن كنتم في شكٍّ من ديني) [يونس : ١٠٥] ، ومثله قوله : (ياأيها النَّبيُّ اتَّق الله ولا تطعِ الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً) [الأحزاب : ٢] ثم قال : (بما تعملون خبيراً) [الاحزاب : ٣] ولم يقل : بما تعمل ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أن الخطاب للنبي ﷺ ، وهو المراد به . ثم في المعنى قولان : أحدهما : أنه خوطب بذلك وإن لم يكن في شك ، لأنه من المستفيض في لغة العرب أن يقول الرجل لولده : إن كنت ابني فبرَّني ، ولعبده : إن كنت عبدي فأطعني ، وهذا اختيار الفراء . وقال ابن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ في شك ، ولا سأل . والثاني : أن تكون « إن » بمعنى « ما » فالمعنى : ما كنت في شك (فاسأل) ، المعنى : لسنا نريد أن نأمرك أن تسأل لأنك شاكٌّ ، ولكن لتزداد بصيرة ، ذكره الزجاج .

والثالث : أن الخطاب للشاكّين ، فالمعنى : إن كنت أيها الإنسان في شك مما أُنزل إليك على لسان محمد ، فَسَلْ ، روي عن ابن قتيبة .

وفي الذي أُنزل إليه قولان : أحدهما : أنه أُنزل إليه أنه رسول الله . والثاني : أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل .

قوله تعالى : (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) وهم اليهود والنصارى . وفي الذين أُمر بسؤالهم منهم قولان : أحدهما : من آمن ، كعبد الله بن سلام ، قاله ابن عباس ، ومجاهد في آخرين . والثاني : أهل الصدق منهم ، قاله الضحاك ، وهو يرجع إلى الأول ، لأنه لا يَصْدُق إلا من آمن .

قوله تعالى : (لقد جاءك الحق من ربك) هذا كلام مستأنف .

قوله تعالى : (إن الذين حقت) أي : وجبت (عليهم كلمةُ ربِّك) أي : قوله . وبماذا حقت الكلمة عليهم ، فيه أربعة أقوال :

أحدها : باللعنة . والثاني : بنزول العذاب . والثالث : بالسَّخط . والرابع : بالنقمة .

قوله تعالى : (ولو جاءتهم كل آية) قال الأخفش : إنما أنَّث فعل « كل » لأنه أضافه إلى « آية » وهي مؤنثة .

﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

قوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت) أي : أهل قرية . وفي « لولا » قولان : أحدهما : أنه بمعنى : لم تكن قرية آمنت (فنفعها إيمانها) أي : قُبِلَ منها (إلا قوم يونس) ، قاله ابن عباس . وقال قتادة : لم يكن هذا لأمة آمنت عند نزول العذاب ، إلا لقوم يونس . والثاني : أنها بمعنى : فهلاّ ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج . قال الزجاج : والمعنى : فهلاّ كانت قرية آمنت في وقت نفعها إيمانها ، إلا قوم يونس ؛ و « إلا » هاهنا استثناء ليس من الأول ، كأنه قال : لكن قومُ يونس . قال الفراء : نُصب القوم على الانقطاع مما قبله ، ألا ترى أن

« ما » بعد « إلا » في الجحد يتبع ما قبلها ؛ تقول : ما قام أحد إلا أخوك ، فاذا قلت : مافيها أحد إلا كلباً أو حماراً ، نصبتَ ، لانقطاعهم من الجنس ، كذلك كان قوم يونس منقطعين من غيرهم من أمم الأنبياء ، ولو كان الاستثناء وقع على طائفة منهم لكان رفعاً . وذكر ابن الأنباري في قوله : « إلا » قولين آخرين : أحدهما : أنها بمعنى الواو ، والمعنى : وقوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا ، وهذا مروي عن أبي عبيدة ، والفراء ينكره . والثاني : أن الاستثناء من الآية التي قبل هذه ، تقديره : حتى يروا العذاب الأليم إلا قوم يونس ، فالاستثناء على هذا متصل غير منقطع .

قوله تعالى : (كشفنا عنهم) أي : صرفنا عنهم (عذاب الخزي) أي : عذاب الهوان والذل (ومتعناهم إلى حين) أي : إلى حين آجالهم .

الإشارة إلى شرح قصتهم

ذكر أهل العلم بالسيَر والتفسير أن قوم يونس كانوا بـ « نينوى » من أرض الموصل ، فأرسل الله عز وجل إليهم يونس يدعوهم إلى الله ويأمرهم بترك الأصنام ، فأبوا ، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم بعد ثلاث ، فلما تغشَّاهم العذاب ، قال ابن عباس ، وأنس : لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل ، وقال مقاتل : قدر ميل ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : وجدوا حرَّ العذاب على أكتافهم ، وقال سعيد بن جبير : غشيهم العذاب كما يغشى الثوبُ القبرَ ، وقال بعضهم : غامت السماء غيماً أسود يُظهر دخاناً شديداً ، فغشي مدينتهم ، واسودَّت سطوحهم ،

فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح ، وحَثَوْا على رؤوسهم الرماد ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام ، وعجّوا إلى الله بالتوبة الصادقة ، وقالوا : آمنا بما جاء به يونس ، فاستجاب الله منهم . قال ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ترادّوا المظالم بينهم ، حتى ان كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقلعه ، فيرده . وقال أبو الجلْد[1] : لما غشيهم العذاب ، مشَوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا : ماترى ؟ قال : قولوا : ياحيُّ حين لاحيَّ ، ياحيُّ مُحيي الموتى ، ياحيُّ لا إله إلا أنت ، فقالوها ، فكُشف العذاب عنهم . قال مقاتل : عجّوا إلى الله أربعين ليلة ، فكُشف العذاب عنهم . وكانت التوبة عليهم في يوم عاشوراء يوم الجمعة . قال : وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم ، فقيل له : ارجع إليهم ، فقال : كيف أرجع إليهم فيجدوني كاذباً ؟ وكان مَن يكذب بينهم ولا بيّنة له يُقتَل ، فانصرف مغاضباً ، فالتقمه الحوت . وقال أبو صالح عن ابن عباس : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له : شَعيا ، فقيل له : ائت فلاناً الملك ، فقل له يبعث إلى بني إسرائيل نبياً قوياً أميناً ، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال الملك ليونس : اذهب إليهم ، فقال : ابعث غيري ، فعزم عليه أن يذهب ، فأتى بحر الروم ، فركب سفينة ، فالتقمه الحوت ، فلما خرج من بطنها أمر أن ينطلق إلى قومه ، فانطلق نذيراً لهم ، فأبَوْا عليه ، فوعدهم بالعذاب ، وخرج ، فلما تابوا رُفع عنهم . والقول الأول أثبت عند العلماء ، وأنه إنما التقمه الحوت بعد إنذاره لهم وتوبتهم . وسيأتي شرح قصته في التقام الحوت إياه في مكانه إن شاء الله تعالى [الصافات:١٤٣] .

فان قيل : كيف كُشف العذاب عن قوم يونس بعد إتيانه إليهم ، ولم يُكشَف عن فرعون حين آمن ؟

(١) أبو الجلد ، بفتح الجيم ، وسكون اللام ، هو جيلان بن أبي فروة الأسدي .

فمنه ثلاثة أجوبة . أحدها : أن ذلك كان خاصاً لهم كما ذكرنا في أول الآية .
والثاني : أن فرعون باشره العذاب ، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم ، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية ، فأما الذي يعاين ، فلا توبة له ، ذكره الزجاج .
والثالث : أن الله تعالى علم منهم صدق النيات ، بخلاف مَن تقدَّمهم من الهالكين ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة . قال الأخفش : جاء بقوله : « جميعاً » مع « كل » تأكيداً كقوله : (وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين) [النحل:٥١] .

قوله تعالى : (أفأنت تُكره الناس) قال المفسرون ، منهم مقاتل : هذا منسوخ بآية السيف ، والصحيح أنه ليس هاهنا نسخ ، لأن الإكراه على الإيمان لايصح ، لأنه عمل القلب .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) فيه ستة أقوال :
أحدها : بقضاء الله وقدره . والثاني : بأمر الله ، رُويا عن ابن عباس .
والثالث : بمشيئة الله ، قاله عطاء . والرابع : إلا أن يأذن الله في ذلك ، قاله مقاتل .
والخامس : بعلم الله . والسادس : بتوفيق الله ، ذكرهما الزجاج ، وابن الأنباري .

قوله تعالى : (ويجعلُ الرجس) أي : ويجعل الله الرجسَ . وروى أبو بكر عن عاصم « ونجعل الرجس » بالنون . وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه السخط ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : الإثم والعدوان ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنه مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

والرابع : العذاب ، قاله الحسن ، وأبو عبيدة ، والزجاج .

والخامس : العذاب والغضب ، قاله الفراء .

قوله تعالى : (على الذين لايعقلون) أي : لايعقلون عن الله أمره ونهيه . وقيل : لايعقلون حججه ودلائل توحيده .

﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَايُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) قال المفسرون : قل للمشركين الذين يسألونك الآيات على توحيد الله انظروا بالتفكر والاعتبار ماذا في السموات والأرض من الآيات والعبر التي تدل على وحدانيته ونفاذ قدرته كالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، وكلُّ هذا يقتضي خالقاً مدبّراً . (وما تُغني الآيات والنُّذر عن قوم لايؤمنون) في علم الله .

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (فهل ينتظرون) قال ابن عباس : يعني كفار قريش .

(إلا مثل أيام الذين خلَوْا من قبلهم) قال ابن الأنباري : أي : مثل وقائع الله بمن سلف قبلهم ، والعرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب ، وقد تقصد بها أيامَ السرور والأفراح إذا قام دليل بذلك .

قوله تعالى : (قل فانتظروا) هلاكي (إني معكم من المنتظرين) لنزول العذاب بكم . (ثم نُنَجِّي رسُلَنا والذين آمنوا) من العذاب إذا نزل ، فلم يَهلك قوم قط إلا نجا نبيهم والذين آمنوا معه .

قوله تعالى : (كذلك حقاً علينا نُنْجي المؤمنين) وقرأ يعقوب ، وحفص ، والكسائي في قراءته وروايته عن أبي بكر : « ننجِ المؤمنين » بالتخفيف . ثم في هذا الإنجاء قولان :

أحدهما : ننجيهم من العذاب إذا نزل بالمكذّبين ، قاله الربيع بن أنس .

والثاني : ننجيهم في الآخرة من النار ، قاله مقاتل .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل يا أيها الناس) قال ابن عباس : يعني أهل مكة (إن كنتم في شك من ديني) الإسلام (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) وهي الأصنام (ولكن أعبد الله الذي) يقدر أن يميتكم . وقال ابن جرير : معنى الآية : لا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني ، لأني أعبد الله الذي يميت وينفع ويضر ، ولا تُستنكرُ

عبادة مَنْ يفعل هذا ، وإنما ينبغي لكم أن تشكّوا وتُنكروا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفعُ .

فان قيل : لم قال : (الذي يتوفّاكم) ولم يقل : « الذي خلقكم » ؟

فالجواب : أن هذا يتضمن تهديدهم ، لأن ميعاد عذابهم الوفاة .

قوله تعالى : (وأن أقم وجهك) المعنى : وأُمرت أن أقم وجهك ، وفيه قولان : أحدهما : أخلص عملك . والثاني : استقم بإقبالك على ما أُمرت به بوجهك .

وفي المراد بالحنيف ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه المتّبع ، قاله مجاهد . والثاني : المُخلص ، قاله عطاء . والثالث : المستقيم ، قاله القرظي .

قوله تعالى : (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك) إن دعوته (ولا يضرك) إن تركتَ عبادته . و « الظالم » الذي يضع الشيء في غير موضعه .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإن يمسسك الله بضرّ) أي : بشدة وبلاء (فلا كاشف) لذلك (إلاّ هو) دون ما يعبده المشركون من الأصنام . وإن يصبك بخير ، أي : برخاء ونعمة وعافية ، فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه . (يصيب به) أي : بكل واحد من الضرّ والخير .

قوله تعالى : (قد جاءكم الحق من ربكم) فيه قولان :

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : محمد ﷺ .

قوله تعالى : (ومن ضلَّ فانما يَضِلُّ عليها) أي : فانما يكون وبال ضلاله على نفسه .

قوله تعالى : (وما أنا عليكم بوكيل) أي : في منعكم من اعتقاد الباطل ، والمعنى : لست بحفيظ عليكم من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك . قال ابن عباس : وهذه منسوخة بآية القتال ، والتي بعدها أيضاً ، وهي قوله : (واصبر حتى يحكم الله) لأن الله تعالى حكم بقتل المشركين ، والجزيةِ على أهل الكتاب ، والصحيح : أنه ليس هاهنا نسخ . أما الآية الأولى ، فقد ذكرنا الكلام عليها في نظيرتها في (الأنعام : ١٠٧) . وأما الثانية ، فقد ذكرنا نظيرتها في سورة (البقرة : ١٠٩) قوله : (فاعفوا واصفحوا حتى يأتيَ الله بأمره) .

★ ★ ★

سورة هود

[عليه السلام]

فصل في نزولها

روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكية كلها ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، وقتادة . وروي عن ابن عباس أنه قال : هي مكية ، إلا آية ، وهي قوله : (أقم الصلاة طرفي النهار) [هود : ١١٤] ، وعن قتادة نحوه . وقال مقاتل : هي مكية كلها ، إلا قوله : (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك) [هود : ١٢] وقوله : (أولئك يؤمنون به) [هود : ١٧] وقوله : (إن الحسنات يذهبن السيئات) [هود : ١١٤] .

وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله ، عَجِلَ إليك الشيب ، قال : « شيَّبتني هود وأخواتها : الحاقة ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية » [1] .

---

(١) جامع الترمذي : ٢ / ١٦٢ ، ولفظه : قال أبو بكر : يارسول الله قد شبت ، قال : « شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » ، وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الكشاف » : ٨٧ : وأطال الدارقطني في ذكر علله ، واختلاف طرقه في أوائل كتاب العلل ، وانظر الكلام على هذا الحديث في « المقاصد الحسنة » ٢٥٥ ، ٢٥٦ للحافظ السخاوي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

فأما (الٓر) فقد ذكرنا تفسيرها في سورة (يونس) .

قال الفراء : و (كتاب) مرفوع بالهجاء الذي قبله ، كأنك قلت : حروف الهجاء هذا القرآن ، وإن شئت رفعته باضمار « هذا كتاب » ، والكتاب : القرآن .

وفي قوله : (أُحكمت آياته) أربعة أقوال :

أحدها : أُحكمت فما تُنسخُ بكتاب كما نُسخت الكتب والشرائع ، قاله ابن عباس ، واختاره ابن قتيبة .

والثاني : أُحكمت بالأمر والنهي ، قاله الحسن ، وأبو العالية .

والثالث : أُحكمت عن الباطل ، أي : مُنعت ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والرابع : أُحكمت بمعنى جُمعت ، قاله ابن زيد .

فان قيل : كيف عمَّ الآيات هاهنا بالإحكام ، وخص بعضها في قوله : (منه آيات محكمات) [آل عمران : ٨] ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الإحكام الذي عمَّ به هاهنا ، غير الذي خَصَّ به هناك .

وفي معنى الإحكام العامّ خمسة أقوال ، قد أسلفنا منها أربعة في قوله : (أُحكمت آياته) .

والخامس : أنه إعجاز النظم والبلاغة وتضمين الحِكَم المعجزة .

ومعنى الإحكام الخاص : زوال اللَّبْس ، واستواء السامعين في معرفة معنى الآية .

والجواب الثاني : أن الإحكام في الموضعين بمعنى واحد . والمراد بقوله : (أُحكمت آياته) : أُحكم بعضها بالبيان الواضح ومنع الالتباس ، فأُوقعَ العمومُ على معنى الخصوص ، كما تقول العرب : قد أكلتُ طعام زيد ، يعنون : بعضَ طعامه ، ويقولون : قُتلنا وربِّ الكعبة ، يعنون : قُتل بعضنا ، ذكر ذلك ابن الأنباري .

وفي قوله : (ثم فصِّلت) ستة أقوال :

أحدها : فصِّلت بالحلال والحرام ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : فصِّلت بالثواب والعقاب ، رواه جسر بن فرقد عن الحسن .

والثالث : فصِّلت بالوعد والوعيد ، رواه أبو بكر الهذلي عن الحسن أيضاً .

والرابع : فصِّلت بمعنى فسِّرت ، قاله مجاهد .

والخامس : أُنزلت شيئاً بعد شيء ، ولم تنزل جملة ، ذكره ابن قتيبة .

والسادس : فصِّلت بجميع مايُحتاج إليه من الدلالة على التوحيد ، وتثبيت نبوَّة الأنبياء ، وإقامة الشرائع ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (من لدن حكيم) أي : من عنده

﴿ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللهَ إنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إلَى أجَلٍ مُسَمّىً وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإنْ تَوَلَّوْا فَإنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (ألاّ تعبُدوا إلا الله) قال الفراء . المعنى : فصّلت آياته بأن لاتعبدوا إلا الله (وأن استغفروا) . و « أن » في موضع النصب بالقائك الخافض .

وقال الزجاج : المعنى : آمركم أن لاتعبدوا [إلا الله] وأن استغفروا .

قال مقاتل : والمراد بهذه العبادة : التوحيد . والخطاب لكفار مكة .

قوله تعالى : (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فيه قولان :

أحدهما : أن الاستغفار والتوبة هاهنا من الشرك ، قاله مقاتل .

والثاني : استغفروه من الذنوب السالفة ، ثم توبوا إليه من المستأنفة متى وقعت . وذُكر عن الفراء أنه قال : « ثم » هاهنا بمعنى الواو .

قوله تعالى : (يمتعكم متاعاً حسناً) قال ابن عباس : يتفضل عليكم بالرزق والسَّعَة . وقال ابن قتيبة : يُعمِّرْكُمْ . وأصل الإمتاع : الإطالة ، يقال : أمتع الله بك ، ومتَّع الله بك ، إمتاعاً ومتاعاً ، والشيء الطويل : ماتع ، يقال : جبل ماتع ، وقد متع النهار : إذا تطاول .

وفي المراد بالأجل المسمى قولان :

أحدهما : أنه الموت ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة .

والثاني : أنه يوم القيامة ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : (ويؤت كل ذي فضل فضله) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى . ثم في معنى الكلام قولان : أحدهما : ويؤت كل ذي فضل من حسنةٍ وخيرٍ فضله ، وهو الجنة . والثاني : يؤتيه فضله من الهداية إلى العمل الصالح .

والثاني : أنها ترجع إلى العبد ، فيكون المعنى : ويؤت كل من زاد في إحسانه

وطاعاته ثواب ذلك الفضل الذي زاده ، فيفضّله في الدنيا بالمنزلة الرفيعة ، وفي الآخرة بالثواب الجزيل .

قوله تعالى : (وإن تولّوا) أي : تُعرضوا عما أُمرتم به . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء : « وإن تُوَلُّوا » بضم التاء . (فإني أخاف عليكم) فيه إضمار « فقل » . واليوم الكبير : يوم القيامة .

﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قوله تعالى : (ألا إنهم يثنون صدورهم) في سبب نزولها خمسة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف إنه ليحبّه ، ويضمر خلاف ما يُظهر له ، فنزلت فيه هذه الآية [1] ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في ناس كانوا يستحيون أن يُفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء ، فنزلت فيهم هذه الآية ، رواه محمد بن عباد عن ابن عباس [2] .

والثالث : أنها نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مرَّ برسول الله ﷺ ، ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لئلا يراه رسول الله ، قاله عبد الله ابن شداد .

والرابع : أن طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٥٣ ، عن الكلبي .

(٢) « البخاري » ٨/٢٦٤ ، و « الطبري » ١٥/٢٣٦ وخرجه السيوطي في « الدر » ٣/٣٢٠ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه .

واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ ، كيف يعلم بنا ؟ فأخبر الله عما كتموا ، ذكره الزجاج .

والخامس : أنها نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسولَ الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنَوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم ليبعد عنهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (يثنون صدورهم) يقال : ثنيت الشيء : إذا عطفته وطويته . وفي معنى الكلام خمسة أقوال :

أحدها : يكتمون مافيها من العداوة لمحمد ﷺ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يثنون صدورهم على الكفر ، قاله مجاهد .

والثالث : يحنونها لئلا يسمعوا كتاب الله ، قاله قتادة .

والرابع : يثنونها إذا ناجى بعضهم بعضاً في أمر رسول الله ﷺ ، قاله ابن زيد .

والخامس : يثنونها حياءً من الله تعالى ، وهو يخرَّج على ماحكينا عن ابن عباس . قال ابن الأنباري : وكان ابن عباس يقرؤها « ألا إنهم تَثْنَوْني صدورُهم » وفسرها أن ناساً كانوا يستحيون أن يُفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء . فَتَثْنَوْنِي : تفْعَوْعِلُ ، وهو فعل للصدور ، معناه : المبالغة في تثنّي الصدور ، كما تقول العرب : احلولى الشيء ، يحلَولي : إذا بالغوا في وصفه بالحلاوة ، قال عنترة :

ألا قَاتَلَ اللهُ الطُّلُولَ البوَالِيَا وَقاتَلَ ذِكْرَاكَ السنينَ الخوَالِيَا[1]

(١) ديوانه : ١٩٢ ، و « مختار الشعر الجاهلي » ١/٣٨٠ . وقوله : قاتل الله ، تعجب ، وذكراك : تذكرك . يقول : قاتل الله الطلول ما أجلبها للأحزان ، وأبعثها للتشوق . واحلولى : حلي في عينك وسررت به . يقول : وقاتل قولك للشيء تحبه ولا تناله : ليت هذا الشيء لي .

وقَوْلُكَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لا تَنَالُهُ إذا ماهُوَ احْلَوْلَى ألا لَيْتَ ذا ليا

فعلى هذا القول ، هو في حق المؤمنين ، وعلى بقية الأقوال ، هو في حق المنافقين .
وقد خُرِّج من هذه الأقوال في معنى (يثنون صدورهم) قولان : أحدهما : أنه حقيقة في الصدور . والثاني : أنه كتمان مافيها .

قوله تعالى : (ليستخفوا منه) في هاء « منه » قولان : أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى . والثاني : إلى رسوله ﷺ .

قوله تعالى : (ألا حين يستغشون ثيابهم) قال أبو عبيدة : العرب تدخل « ألا » توكيداً وإيجاباً وتنبيهاً . قال ابن قتيبة : « يستغشون ثيابهم » أي : يتغشَّونها ويستترون بها . قال قتادة : أخفى مايكون ابن آدم ، إذا حنى ظهره ، واستغشى ثيابه ، وأضمر همَّه في نفسه . قال ابن الأنباري : أعلم الله أنه يعلم سرائرهم كما يعلم مظهراتهم .

قوله تعالى : (إنه عليم بذات الصدور) وقد شرحناه في (آل عمران : ١١٩) .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (وما من دابة في الأرض) قال أبو عبيدة : « مِنْ » من حروف الزوائد ، والمعنى : وما دابة ، والدابة : اسم لكل حيوان يدب . وقوله : (إلا على الله رزقها) قال العلماء : فضلاً منه ، لا وجوباً عليه . و « على » هاهنا بمعنى « مِنْ » .
وقد ذكرنا المستقر والمستودع في سورة (الأنعام : ٦٧) .

قوله تعالى : (كل في كتاب) أي : ذلك عند الله في اللوح المحفوظ ، هذا قول المفسرين . وقال الزجاج : المعنى : ذلك ثابت في علم الله عز وجل .

قوله تعالى : (وكان عرشه على الماء) قال ابن عباس : عرشه : سريره ، وكان الماء إذْ كان العرش عليه على الريح . قال قتادة : ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض .

قوله تعالى : (ليبلوكم) أي : ليختبركم الاختبار الذي يجازي عليه ، فيثيب المعتبر بما يرى من آيات السموات والأرض ، ويعاقب أهل العناد .

قوله تعالى : (أيكم أحسن عملاً) فيه أربعة أقوال : أحدها : أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله عز وجل ، وأسرع في طاعة الله ، رواه ابن عمر عن رسول الله ﷺ [1] . والثاني : أيكم أعمل بطاعة الله ، قاله ابن عباس . والثالث : أيكم أتم عقلاً ، قاله قتادة . والرابع : أيكم أزهد في الدنيا ، قاله الحسن وسفيان .

قوله تعالى : (إن هذا إلا سحر مبين) قال الزجاج : السحر باطل عندهم ، فكأنهم قالوا : إن هذا إلا باطل بيِّن ، فأعلمهم الله تعالى أن القدرة على خلق السموات والأرض تدل على بعث الموتى .

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

---

(١) « الطبري » ١٥/٢٥٠ - ٢٥١ ، وهو حديث ضعيف جداً ، في سنده داود بن المحبر الطائي الثقفي ، صاحب كتاب « العقل » ، وهو صاحب مناكير ، وفيه أيضاً عبد الواحد بن زيد ، منكر الحديث ، ضعيف جداً . وذكره السيوطي في « الدر » ٣/٣٢٢ من رواية داود ابن المحبر في كتاب « العقل » ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، والحاكم في « التاريخ » ، وابن مردويه .

قوله تعالى : (ولئن أخَّرنا عنهم العذاب) قال المفسرون : هؤلاء كفار مكة ، والمراد بالأمَّة المعدودة : الأجل المعلوم ، والمعنى : إلى مجيء أمة وانقراض أخرى قبلها . (ليقولن مايحبسه) وإنما قالوا ذلك تكذيباً واستهزاءً .

قوله تعالى : (ألا يوم يأتيهم) وقال : (ليس مصروفاً عنهم) . وقال بعضهم : لا يُصرف عنهم العذاب إذا أتاهم . وقال آخرون : إذا أخذتهم سيوف رسول الله ﷺ لم تُغمد عنهم حتى يباد أهل الكفر وتعلوَ كلمة الإخلاص .

قوله تعالى : (وحاق بهم) قال أبو عبيدة : نزل بهم وأصابهم .

وفي قوله : (ما كانوا به يستهزؤن) قولان . أحدهما : أنه الرسول والكتاب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، فيكون المعنى : حاق بهم جزاء استهزائهم . والثاني : أنه العذاب ، كانوا يستهزئون بقولهم : (مايحبسه) ، وهذا قول مقاتل . ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ﴾

قوله تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، قاله ابن عباس . والثاني : في عبد الله بن أبي أمية المخزومي ، ذكره الواحدي . والثالث : أن الإنسان هاهنا اسم جنس ، والمعنى : ولئن أذقنا الناس ، قاله الزجاج . والمراد بالرحمة : النعمة ، من العافية ، والمال ، والولد . واليؤوس : القنوط ، قال أبو عبيدة : هو فعول من يئستُ . قال مقاتل : إنه ليؤوس عند الشدة من الخير ، كفور لله في نعمه في الرخاء .

﴿ ولئن أذقناهُ نعْماءَ بعدَ ضراءَ مسَّتْهُ ليقُولَنَّ ذهب السَّيِّئاتُ عنِّي إنَّهُ لَفرِحٌ فَخُورٌ ﴾ .

قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء) قال ابن عباس : صحة وسَعة في الرزق .

(**بعد ضراء مَسَّتْهُ**) بعد مرض وفقر . (ليقولَنَّ ذهب السيئات عني) يريد الضر والفقر . (إنه لَفَرِحٌ) أي : بَطِرٌ . (فخور) قال ابن عباس : يفاخر أوليائي بما أوسعت عليه .

فان قيل : ماوجه عيب الإنسان في قوله : (ذهب السيئات عني) ، وما وجه ذمه على الفرح ، وقد وصف الله الشهداء فقال : (فرحين) ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : إنما عابه بقوله : (ذهب السيئات عني) لأنه لم يعترف بنعمة الله ، ولم يحمَده على ماصُرف عنه . وإنما ذمه بهذا الفرح ، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبُّر عن طاعة الله ، قال الشاعر :

ولا يُنْسيني الحَدَثانُ عِرْضِي ولا أُلقِي من الفَرَحِ الإزارا [(١)]

يعني من المرح . وفرحُ الشهداء فرحٌ لا كِبْر فيه ولا خُيلاء ، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إلا الذين صبروا) قال الفراء : هذا الاستثناء من الانسان ، لأنه في معنى الناس، كقوله : (إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا) [العصر : ٢، ٣] . وقال الزجاج : هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكنِ الذين صبروا . قال ابن عباس : الوصف الأول للكافر ، والذين صبروا أصحاب محمد ﷺ .

---

(١) البيت لابن أحمر في « مجاز القرآن » ٢/١١١ وغير منسوب في « الكامل » ٤٠ ، ٦٧٣ وفيه : ولا أرخي من المرح الازارا .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَي إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (فلعلك تارك بعض مايوحى إليك) سبب نزولها أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ : (ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله) [يونس:١٥] ، فهمَّ النبي ﷺ أن لايُسمعهم عيب آلهتهم رجاء أن يتَّبعوه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . وفي معنى الآية قولان : أحدهما : فلعلك تارك تبليغ بعض مايوحى إليك من أمر الآلهة ، وضائق بما كُلِّفتَه من ذلك صدرُك ، خشية أن يقولوا . لولا أُنزل عليه كنز . والثاني : فلعلك لِعظيم مايرد على قلبك من تخليطهم تتوهَّمُ أنهم يُزيلونك عن بعض ماأنت عليه من أمر ربك . فأما الضائق ، فهو بمعنى الضيِّق . قال الزجاج : ومعنى (أن يقولوا) : كراهية أن يقولوا . وإنما عليك أن تنذرهم بما يُوحى إليك ، وليس عليك أن تأتيهم باقتراحهم من الآيات .

قوله تعالى : (والله على كل شيء وكيل) فيه قولان: أحدهما: أنه الحافظ . والثاني : الشهيد ، وقد ذكرناه في (آل عمران : ١٧٣) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (أم يقولون افتراه) « أم » بمعنى « بل » ، و « افتراه » أتى به من قِبَل نفسه . (قل فأتوا) أنتم في معارضتي (بعشر سُوَرٍ مثله) في البلاغة

(مفتريات) بزعمكم ودعواكم (وادعوا من استطعتم من دون الله) إلى المعاونة على المعارضة (إن كنتم صادقين) في قولكم: « افتراه » .

(فان لم يستجيبوا لكم) أي : يجيبوكم إلى المعارضة ، فقد قامت الحجة عليهم لكم .

فان قيل : كيف وحّد القول في قوله : « قل فأتوا » ثم جمع في قوله : « فان لم يستجيبوا لكم » ؟ فعنه جوابان . أحدهما : أن الخطاب للنبي ﷺ وحده في الموضعين ، فيكون الخطاب له بقوله : « لكم » تعظيماً ، لأن خطاب الواحد بلفظ الجميع تعظيم ، هذا قول المفسرين . والثاني : أنه وحّد في الأول لخطاب النبي ﷺ . وجمع في الثاني لمخاطبة النبي ﷺ وأصحابه ، قاله ابن الأنباري .

قوله تعالى : (فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله) فيه قولان : أحدهما : أنزله وهو عالم بانزاله ، وعالم بأنه حق من عنده . والثاني : أنزله بما أخبر فيه من الغيب ، ودلّ على ماسيكون وما سلف ، ذكرهما الزجاج .

قوله تعالى : (وأن لا إله إلا هو) أي : واعلموا ذلك . (فهل أنتم مسلمون) استفهام بمعنى الأمر . وفيمن خوطب به قولان : أحدهما : أهل مكة ، ومعنى إسلامهم : إخلاصهم لله العبادة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنهم أصحاب رسول الله ﷺ ، قاله مجاهد .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (مَنْ كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) اختلفوا فيمن نزلت على

أربعة أقوال . أحدها : أنها عامة في جميع الخلق ، وهو قول الأكثرين . والثاني : أنها في أهل القبلة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : أنهـا في اليهود والنصارى ، قاله أنس . والرابع ، أنها في أهل الرياء ، قاله مجاهد . وروى عطاء عن ابن عباس : من كان يريد عاجل الدنيا ولا يؤمن بالبعث والجزاء . وقال غيره : إنما هي في الكافر ، لأن المؤمن يريد الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : (نوفِّ إليهم أعمالهم) أي : أجور أعمالهم (فيها) . قال سعيد ابن جبير : أُعطوا ثواب ماعملوا من خير في الدنيا . وقال مجاهد : مَنْ عمل عملاً من صِلة ، أو صدقة ، لا يريد به وجه الله ، أعطاه الله ثواب ذلك في الدنيا ، ويدرأ به عنه في الدنيا .

قوله تعالى : (وهم فيها) قال ابن عباس : أي في الدنيا . (لا يُبخسون) أي : لا يُنقصون من أعمالهم في الدنيا شيئاً . (أولئك الذين) عملوا لغير الله (ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا) أي : ماعملوا في الدنيا من حسنة (وباطل ماكانوا) لغير الله (يعملون) .

فصل

وذكر قوم من المفسرين ، منهم مقاتل ، أن هذه الآية اقتضت أن من أراد الدنيا بعمله ، أعطي فيهـا ثواب عمله من الرزق والخير ، ثم نُسخ ذلك بقوله : (عجّلنا له فيها مانشاء لمن نريد) [الاسراء:١٨] ، وهذا لا يصح ، لأنه لا يوفّي إلا لمن يريد .

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

قوله تعالى : (أفمن كان على بيّنة من ربه) في المراد بالبينة أربعة أقوال :

أحدها : أنها الدين ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنها رسول الله ﷺ ، قاله الضحاك . والثالث : القرآن ، قاله ابن زيد . والرابع : البيان ، قاله مقاتل . وفي المشار إليه بـ « مَنْ » قولان :

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس والجمهور . والثاني : أنهم المسلمون ، وهو يخرَّج على قول الضحاك . وفي قوله : (ويتلوه) قولان :

أحدهما : يتبعه . والثاني : يقرؤه . وفي هاء « يتلوه » قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى النبي ﷺ . والثاني : إلى القرآن ، وقد سبق ذكره في قوله : (فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِه مفتريات) [هود : ١٣] .

وفي المراد بالشاهد ثمانية أقوال :

أحدها : أنه جبريل ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وإبراهيم في آخرين .

والثاني : أنه لسان رسول الله ﷺ الذي كان يتلو القرآن ، قاله علي بن أبي طالب ، والحسن ، وقتادة في آخرين .

والثالث : أنه علي بن أبي طالب . و « يتلوه » بمعنى يتبعه ، رواه جماعة عن علي بن أبي طالب ، وبه قال محمد بن علي ، وزيد بن علي .

والرابع : أنه رسول الله ﷺ هو شاهد من الله تعالى ، قاله الحسين بن علي عليه السلام .

والخامس : أنه ملَك يحفظه ويسدده ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق ، وإن كان قد أُنزل قبله ، لأن النبي ﷺ بشَّرت به التوراة ، قاله الفراء .

والسابع : أنه القرآن ونظمه وإعجازه ، قاله الحسين بن الفضل .

والثامن : أنه صورة رسول الله ﷺ ووجهه ومخايله ، لأن كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله ﷺ .

وفي هاء « منه » ثلاثة أقوال : أحدها : أنها ترجع إلى الله تعالى . والثاني : إلى النبي ﷺ . والثالث : إلى البيّنة .

قوله تعالى : (ومِنْ قبله) في هذه الهاء ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، قاله مجاهد . والثاني : إلى القرآن ، قاله ابن زيد . والثالث : إلى الإنجيل ، أي : ومن قبل الإنجيل (كتاب موسى) يتبع محمداً بالتصديق له ، ذكره ابن الأنباري . قال الزجاج : والمعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ ، فيكون « كتاب موسى » عطفاً على قوله : (ويتلوه شاهد منه) أي : ويتلوه كتاب موسى ، لأن موسى وعيسى بشَّرا بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل . ونصب « إماماً » على الحال .

فان قيل : كيف تتلوه التوراة ، وهي قبله ؟

قيل : لما بشّرت به ، كانت كأنها تالية له ، لأنها تبعته بالتصديق له .

وقال ابن الأنباري : « كتاب موسى » مفعول في المعنى ، لأن جبريل تلاه على موسى ، فارتفع الكتاب ، وهو مفعول بمضمر بعده ، تأويله : ومن قبله كتاب موسى كذاك ، أي : تلاه جبريل أيضاً ، كما تقول العرب : أكرمت أخاك وأبوك ، فيرفعون الأب ، وهو مكرَم على الاستئناف ، بمعنى : وأبوك مكرَم أيضاً . قال : وذهب قوم إلى أن كتاب موسى فاعل ، لأنه تلا محمداً بالتصديق كما تلاه الإنجيل .

فصل

فتلخيص الآية : أفمن كان على بيّنة من ربه كمن لم يكن ؟ قال الزجاج : ترك المضادّ له ، لأن في مابعده دليلاً عليه ، وهو قوله : (مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم) [هود : ٢٤] . وقال ابن قتيبة : لما ذكر قبل هذه الآية قوماً ركنوا إلى الدنيا ، جاء بهذه الآية ، وتقدير الكلام : أفمن كانت هذه حاله كمن يريد الدنيا ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم ، إذ كان فيه دليل عليه . وقال ابن الأنباري : إنما حُذف لانكشاف المعنى ، والمحذوف المقدّر كثير في القرآن والشعر ، قال الشاعر :

فأُقسِمُ لَوْ شيءٌ أتانا رَسُولُه سِواكِ ، ولكِن لم نَجِدْ لكِ مَدْفعا[1]

(١) البيت لامرىء القيس ديوانه : ٢٤٢ ، و « الطبري » ١٥/١٧٧ ، و « مشكل القرآن » ١٦٦ ، و « الخزانة » ٤/٢٢٧ . قوله : لو شيء ، يريد : لو أحد ، وليس لـ « لو » هنا جواب ، كما أمسك عن الجواب في قوله تعالى : (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال) [الرعد : ٣] فتقول : لو أحد أتانا رسوله لما أجبناه ، ولكنا لم ندفعك عن ذلك .

فان قلنا : إن المراد بمن كان على بيّنة من ربه، رسول الله ﷺ، فمعنى الآية : ويتبع هذا النبيّ شاهد ، وهو جبريل عليه السلام . « منه » أي : من الله . وقيل : « شاهد » هو علي بن أبي طالب ، « منه » أي : من النبي ﷺ . وقيل : « يتلوه » يعني القرآن ، يتلوه جبريل ، وهو شاهد لمحمد ﷺ أن الذي يتلوه جاء من عند الله تعالى . وقيل . ويتلو رسول الله ﷺ القرآن وهو شاهد من الله . وقيل : ويتلو لسانُ رسول الله ﷺ القرآنَ ، فلسانه شاهد منه . وقيل : ويتبع محمداً شاهد له بالتصديق ، وهو الإنجيل من الله تعالى . وقيل : ويتبع هذا النبي شاهد من نفسه ، وهو سَمْتُه وهديه الدالّ على صدقه . وإن قلنا : إن المراد بمن كان على بيّنة من ربه المسلمون ، فالمعنى : أنهم يتبعون رسول الله ﷺ وهو البيّنة ، ويتبع هذا النبي شاهد له بصدقه .

قوله تعالى : (إماماً ورحمة) إنما سماه إماماً ، لأنه كان يهتدى به ، « ورحمة » أي : وذا رحمة ، وأراد بذلك التوراة ، لأنها كانت إماماً وسبباً لرحمة من آمن بها .

قوله تعالى : (أولئك) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه إشارة إلى أصحاب موسى . والثاني : إلى أصحاب محمد ﷺ . والثالث : إلى أهل الحق من أمة موسى وعيسى ومحمد .

وفي هاء « به » ثلاثة أقوال : أحدها : أنها ترجع إلى التوراة . والثاني : إلى القرآن . والثالث : إلى محمد ﷺ .

وفي المراد بالأحزاب هاهنا أربعة أقوال : أحدها : جميع الملل ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : اليهود والنصارى ، قاله قتادة . والثالث : قريش ، قاله السدي . والرابع : بنو أُمية ، وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي ، وآل أبي طلحة بن عبد العُزّى ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فالنار موعده) أي : إليها مصيره ، قال حسان بن ثابت :

أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ المَوْتِ ضَاحِيَةً ... فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالمَوْتُ لَاقِيهَا [1]

قوله تعالى : (فلا تك في مِرية منه) قرأ الحسن ، وقتادة : « مُرية » بضم الميم أين وقع . وفي المكني عنه قولان :

أحدهما : أنه الإخبار بمصير الكافر به ، فالمعنى : فلا تك في شك أن موعد المكذّب به النار ، وهذا قول ابن عباس .

والثاني : أنه القرآن ، فالمعنى : فلا تك في شك من أن القرآن من الله تعالى ، قاله مقاتل . قال ابن عباس : والمراد بالناس هاهنا : أهل مكة .

قوله تعالى : (أولئك يُعْرَضُونَ على ربهم) قال الزجاج : ذكر عرضهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم ، وإن كان غيرهم يعرض أيضاً .

فأما « الأشهاد » ففيهم خمسة أقوال : أحدها : أنهم الرسل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الملائكة ، قاله مجاهد ، وقتادة . والثالث : الخلائق ، روي عن قتادة أيضاً . وقال مقاتل : « الأشهاد » الناس ، كما يقال : على رؤوس الأشهاد ، أي : على رؤوس الناس . والرابع : الملائكة والنبيون وأمة محمد ﷺ يشهدون على الناس ، والجوارح تشهد على ابن آدم ، قاله ابن زيد . والخامس : الأنبياء والمؤمنون ، قاله الزجاج . قال ابن الأنباري : وفائدة إخبار الأشهاد بما يعلمه الله : تعظيم بالأمر المشهود عليه ، ودفع المجاحدة فيه .

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

---

(١) ديوانه : ٤٢٤ . والضاحية من الابل والغنم : التي تشرب ضحى ، وهي هنا على المثل ، وحياض الموت ترشيح .

قوله تعالى : (الذين يصدون عن سبيل الله) قد تقدم تفسيرها في (الأعراف : ٤٥) .

قوله تعالى : (وهم بالآخرة هم كافرون) قال الزجاج : ذُكرت « هم » ثانية على جهة التوكيد لشأنهم في الكفر .

﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض) قال ابن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتَخسف بهم . (وما كان لهم من دون الله من أولياء) أي : لا وليَّ لهم يمن يعبدون يمنعهم مني . وقال ابن الأنباري : لما كانت عادة العرب جارية بقولهم : لا وزرَ لك مني ولا نَفَق ، يعنون بالوزر : الجبل ، والنفق : السرَب ، وكلاهما يلجأ إليه الخائف ، أعلم الله تعالى أن هؤلاء الكافرين لا يسبقونه هرباً ، ولا يجدون ما يحجز بينهم وبين عذابه من جميع ما يستتر من الأرض ويُلجأ إليه . قال : وقوله : « من أولياء » يقتضي محذوفاً ، تلخيصه : من أولياء يمنعونهم من عذاب الله ، فحذف هذا لشهرته .

قوله تعالى : (يضاعَف لهم العذاب) يعني الرؤساء الصادّين عن سبيل الله ، وذلك لإضلالهم أتباعهم واقتداء غيرهم بهم . وقال الزجاج : « لم يكونوا معجزين في الأرض » أي : في دار الدنيا ، ولا لهم ولي يمنع من انتقام الله ، ثم استأنف (يضاعف لهم العذاب) لعظم كفرهم بنبيه وبالبعث والنشور .

قوله تعالى : (ما كانوا يستطيعون السمع) فيمن عني بهذا قولان :

أحدهما : أنهم الكفار . ثم في معناه ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم لم يقدروا

على استماع الخير ، وإبصار الحق ، وفعل الطاعة ، لأن الله تعالى حال بينهم وبين ذلك ، هذا معنى قول ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : أن المعنى : يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يسمعونه ، وبما كانوا يبصرون حُجج الله ولا يعتبرون بها ، فحذف الباء ، كما تقول العرب : لأجزينَّك ماعملت ، وبما عملت ، ذكره الفراء ، وأنشد ابن الأنباري في الاحتجاج له :

نُغالي اللحمَ للأضياف نِيئاً ونبذُله إذا نضِجَ القُدورُ (١)

أراد : نغالي باللحم . والثالث : أنهم من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي ﷺ ماكانوا يستطيعون أن يتفهموا مايقول ، قاله الزجاج .

والقول الثاني : أنهم الأصنام ، فالمعنى : ماكان للآلهة سمع ولا بصر ، فلم تستطع لذلك السمع ، ولم تكن تبصر . فعلى هذا ، يرجع قوله : « ماكانوا » إلى أوليائهم ، وهي الأصنام ، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس أيضاً .

﴿ لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (لاجرم) قال ابن عباس : يريد : حقاً إنهم الأخسرون . وقال الفراء : « لاجرم » كلمة كانت في الأصل بمنزلة لابد ولا محالة ، فجرت على ذلك ، وكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة « حقاً » ، ألا ترى أن العرب تقول : لاجرم لآتينَّك ، لاجرم لقد أحسنت ، وأصلها من جرمتُ ، أي : كسبت الذنب . قال الزجاج : ومعنى « لاجرم » : « لا » نفي لما ظنوا أنه ينفعهم ،

(١) تقدم البيت ٣/٢٩٨ .

كأن المعنى : لاينفعهم ذلك جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، أي : كسب لهم ذلك الفعلُ الخسرانَ . وذكر ابن الأنباري أن « لا » رد على أهل الكفر فيما قدَّروه من اندفاع الشر عنهم في الآخرة ، والمعنى : لايندفع عنهم عذابي ، ولا يجدون ولياً يصرف عنهم نقمتي ، ثم ابتدأ مستأنفاً « جرم » ، قال : وفيها قولان :

أحدهما : أنها بمعنى : كسب كفرهم وما قدَّروا من الباطل وقوعَ العذاب بهم . فـ « جرم » فعل ماض ، معناه : كسب ، وفاعله مُضمر فيه من ذكر الكفر وتقرير الباطل .

والثاني : أن معنى جرم : أحقَّ وصحَّحَ ، وهو فعل ماض ، وفاعله مضمر فيه ، والمعنى : أحقَّ كفرُهم وقوعَ العذاب والخسران بهم ، قال الشاعر[1] :

ولقد طَعَنْتَ أبا عُيَيْنَةَ طعنةً جرمت فزارة بعدها أن يَغْضَبُوا[2]

أراد : حقت الطعنةُ فزارة بالغضب . ومن العرب من يغيِّرُ لفظ « جرم » مع « لا » خاصة ، فيقول بعضهم : « لاجُرْم » ، ويقول آخرون : « لاجَرْ » باسقاط الميم ، ويقال : « لاذا جرم » و « لاذا جر » بغير ميم ، و « لا إن ذا جرم » و « لا عن ذا جرم » ، ومعنى اللغات كلها : حقاً .

قوله تعالى : (وأخبتوا إلى ربهم) فيه سبعة أقوال :

أحدها : خافوا ربهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : أنابوا إلى ربهم ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثالث : ثابوا إلى ربهم ، قاله قتادة .

---

(١) نسبه البطليوسي في « الاقتضاب » لأبي أسماء بن الضريبة ، وقيل : بل هو لعطية ابن عفيف .

(٢) « مجاز القرآن » ١/١٤٧ ، و « الاقتضاب » ٣١٣ ، و « سيبويه » ١/٤١٨ ، و « معاني القرآن » ٨٠ ، و « القرطبي » ٦/٤٥ ، و « اللسان » و « التاج » : جرم ، و « الخزانة » ٤/٣١٠ ، و « شواهد الكشاف » ٣٢ .

والرابع : اطمأنوا ، قاله مجاهد . والخامس : أخلصوا ، قاله مقاتل . والسادس : تخشَّعوا لربهم ، قاله الفراء . والسابع : تواضعوا لربهم ، قاله ابن قتيبة .

فإن قيل : لم أوثرت « إلى » على اللام في قوله : « وأخبتوا إلى ربهم » ، والعادة جارية بأن يقال : أخبتوا لربهم ؟

فالجواب : أن المعنى : وَجَّهوا خوفَهم وخشوعهم وإخلاصهم إلى ربهم ، واطمأنوا إلى ربهم . قال الفراء : وربما جعلت العرب « إلى » في موضع اللام ، كقوله : (بأن ربك أوحى لها) [الزلزال : ٥] ، وقوله : (الذي هدانا لهذا) [الاعراف : ٤٣] . وقد يجوز في العربية : فلان يخبت إلى الله ، يريد : يفعل ذلك موجهَه إلى الله . قال بعض المفسرين : هذه الآية نازلة في أصحاب رسول الله ﷺ ، وما قبلها نازل في المشركين . ثم ضرب للفريقين مثلاً ، فقال : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم) قال مجاهد : الفريقان : المؤمن والكافر . فأما الأعمى والأصم فهو الكافر ، وأما البصير والسميع فهو المؤمن . قال قتادة : الكافر عَمِيَ عن الحق وصُمَّ عنه ، والمؤمن أبصرَ الحق وسمعَه ثم انتفع به . وقال أبو عبيدة : في الكلام ضمير ، تقديره : مثل الفريقين كمثل الأعمى . وقال الزجاج : مثل الفريقين المسلمَين كالبصير والسميع ، ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم ، لأنهم في عداوتهم وتركهم للفهم بمنزلة من لايسمع ولا يبصر .

قوله تعالى : (هل يستويان مثلاً) أي : هل يستويان في المشابهة ؟

والمعنى : كما لايستويان عندكم ، كذلك لايستوي المؤمن والكافر عند الله . وقال أبو عبيدة : « هل » هاهنا بمعنى الإيجاب ، لا بمعنى الاستفهام ، والمعنى : لايستويان . قال الفراء : وإنما لم يقل : « يستوون » لأن الأعمى والأصم من

صفةٍ واحدٍ ، والسميع والبصير من صفةٍ واحدٍ ، كقول القائل : مررت بالعاقل واللبيب ، وهو يعني واحداً ، قال الشاعر :

وما أدْرِي إذا يمَّمْتُ أرضاً أريدُ الخيْرَ أيّهما يليني [1]

فقال : أيّهما . وإنما ذكر الخير وحده ، لأن المعنى يُعرف ، إذ المبتغي للخير متّقٍ للشر . وقال ابن الأنباري : الأعمى والأصم صفتان لكافر ، والسميع والبصير صفتان لمؤمن ، فرُدَّ الفعلُ إلى الموصوفين بالأوصاف الأربعة ، كما تقول : العاقل والعالم ، والظالم والجاهل ، حضرا مجلسي ، فتثنّي الخبر بعد ذكرك أربعة ، لأن الموصوف بالعلم هو الموصوف بالعقل ، وكذلك المنعوت بالجهل هو المنعوت بالظلم ، فلما كان المنعوتان اثنين ، رجع الخبر إليهما ، ولم يُلتفت إلى تفريق الأوصاف ، ألا ترى أنه يسوغ أن تقول : الأديب واللبيب والكريم والجميل قصدني ، فتوحّد الفعل بعد أوصاف لعلة أن الموصوف بهن واحد ، ولا يمتنع عطف النعوت على النعوت بحروف العطف ، والموصوفُ واحد ، فقد قال تعالى : (التائبون العابدون) [التوبة: ١١٢] ثم قال : (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) فلم يقتض دخولُ الواو وقوعَ خلاف بين الآمرين والناهين ، وقد قيل : الآمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره ، وكان دخول الواو دلالة على الآمر بالمعروف ، لأن الآمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر ، كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين ، والسائحون بالسياحة دون الحامدين ، ويدل أيضاً على أن العرب تنسق النعت على النعت والمنعوت واحد ، كقول الشاعر يخاطب سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان :

---

(١) البيت تقدم ١/١٨٣ و ٤٤٣ .

يَظُنُّ سعيدٌ وابنُ عمروٍ بأنَّني إذا سامَني ذلاً أكونُ به أرْضَى

فنسق ابن عمرو على سعيد ، وهو سعيد .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لاتَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَانَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . وَيَاقَوْمِ لاأَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أني) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي « أني » بفتح الألف ، والتقدير : أرسلناه بأني ، وكأن الوجه بأنه لهم نذير ، ولكنه على الرجوع من الإخبار عن الغائب إلى خطاب نوح قومه . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة « إني » بكسر الألف ، فحملوه على القول المضمر ، والتقدير : فقال لهم : إني لكم نذير .

قوله تعالى : (مانراك إلا بشراً مثلنا) أي : إنساناً مثلنا ، لا فضل لك علينا . فأما الأراذل ، فقال ابن عباس : هم السَّفلة . وقال ابن قتيبة : هم جمع « أرذل » ، يقال : رجل رَذْل ، وقد رَذُل رذالة ورُذُولة . ومعنى الأراذل : الشرار .

قوله تعالى : (بادي الرأي) قرأ الأكثرون « بادِيَ » بغير همز . وقرأ

أبو عمرو بالهمز بعد الدال . وكلهم همز « الرأي » غير أبي عمرو . وللعلماء في معنى « بادي » إذا لم يُهمز ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : مانرى أتباعك إلا سفلتنا وأرذالنا في بادي الرأي لكل ناظر ، يعنون أن ماوصفناهم به من النقص لايخفى على أحد فيخالفنا ، هذا مذهب مقاتل في آخرين .

والثاني : أن المعنى أن هؤلاء القوم اتّبعوك في ظاهر مايُرى منهم ، وطويّتُهم على خلافك .

والثالث : أن المعنى : اتبعوك في ظاهر رأيهم ، ولم يتدبروا ماقلتَ ، ولو رجعوا إلى التفكر لم يتبعوك ، ذكر هذين القولين الزجاج . قال ابن الأنباري : وهذه الثلاثة الأقوال على قراءة من لم يهمز ، لأنه مِن بدا ، يبدو : إذا ظهر . فأما من همز « بادىء » فمعناه : ابتداء الرأي ، أي : اتّبعوك أول ما ابتدؤوا ينظرون ، ولو فكروا لم يعدلوا عن موافقتنا في تكذيبك .

قوله تعالى : (وما نرى لكم علينا من فضل) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : من فضل في الخلق ، قاله ابن عباس . والثاني : في الملك والمال ونحو ذلك ، قاله مقاتل . والثالث : مافُضِّلتم باتّباعكم نوحاً ، ومخالفتكم لنا بفضيلة تتبعكم طلباً لها ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (بل نظنكم كاذبين) فيه قولان :

أحدهما : نتيقنكم ، قاله الكلبي . والثاني : نحسبكم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) أي : على يقين وبصيرة . قال ابن الأنباري : وقوله : « إن كنت » شرط لايوجب شكّاً يلحقه ، لكن

الشك يلحق المخاطَبين من أهل الزيغ ، فتقديره : إن كنتُ على بينة من ربي عندكم . (وآتاني رحمة من عنده) فيها قولان :

أحدهما : أنها النبوّة ، قاله ابن عباس . والثاني : الهداية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فعُمِّيت عليكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « فَعَمِيَتْ » بتخفيف الميم وفتح العين . قال ابن قتيبة : والمعنى : عميتم عنها ، يقال : عمي عليَّ هذا الأمر : إذا لم أفهمه ، وعميت عنه بمعنى . قال الفراء : وهذا مما حوّلت العرب الفعل إليه ، وهو في الأصل لغيره ، كقولهم : دخل الخاتم في يدي ، والخف في رجلي ، وإنما الإصبع تدخل في الخاتم ، والرجل في الخف ، واستجازوا ذلك إذ كان المعنى معروفاً . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « فعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم . قال ابن الأنباري : ومعنى ذلك : فعمّاها الله عليكم إذ كنتم ممن حُكم عليه بالشقاء . وكذلك قرأ أُبَيّ بن كعب ، والأعمش : « فعمّاها عليكم » .

وفي المشار إليها قولان : أحدهما : البيّنة . والثاني : الرحمة .

قوله تعالى : (أنلزمكموها) أي : أنُلزمكم قبولها ؟ وهذا استفهام معناه الإنكار ، يقول : لانقدر أن نُلزمكم من ذات أنفسنا . قال قتادة : والله لو استطاع نبي الله ﷺ لألزمها قومه ، ولكن لم يملك ذلك . وقيل : كان مراد نوح عليه السلام ردَّ قولهم : (وما نرى لكم علينا من فضل) فبيَّن فضله وفضل مَن آمن به بأنه على بيّنة من ربه ، وقد آتاه رحمةً من عنده ، وسُلب المكذّبون ذلك .

قوله تعالى : (لا أسألكم عليه) أي : على نصحي ودعائي إياكم (مالاً) فتتهموني . وقال ابن الأنباري : لما كانت الرحمة بمعنى الهدى والإيمان ، جاز تذكيرها .

قوله تعالى : (وما أنا بطارد الذين آمنوا) قال ابن جريج : سألوه طردهم أنفة منهم، فقال : لايجوز لي طردهم ، إذ كانوا يلقون الله فيجزيهم بإيمانهم، ويأخذ لهم ممن ظلمهم وصغّر شؤونهم .

وفي قوله : (ولكني أراكم قوماً تجهلون) قولان :

أحدهما : تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى ، قاله ابن عباس .

والثاني : تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين ، قاله أبو سليمان .

﴿ وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ . وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وياقوم من ينصرني) أي : من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم .

قوله تعالى : (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) قال ابن الأنباري : أراد بالخزائن : علمَ الغيب المطوي عن الخلق، لأنهم قالوا له : إنما اتّبعك هؤلاء في الظاهر وليسوا معك ، فقال لهم : ليس عندي خزائن غيوب الله فأعلم ماتنطوي عليه الضمائر . وإنما قيل للغيوب : خزائن ، لغموضها عن الناس واستتارها عنهم . قال سفيان بن عيينة : إنما آيات القرآن خزائن ، فاذا دخلتَ خزانةً فاجتهد أن لاتخرج منها حتى تعرف مافيها .

قوله تعالى : (ولا أعلم الغيب) قيل : إنما قال لهم هذا ، لأن أرضهم أجدبت ، فسألوه : متى يجيء المطر ؟ وقيل : بل سألوه : متى يجيء العذاب ؟ فقال : ولا أعلم الغيب . وقوله : (ولا أقول إني ملَك) جواب لقولهم : (ما نراك إلا بشراً مثلَنا) [هود : ٢٧] . (ولا أقول للذين تزدري أعينكم) أي : تحتقر وتستصغر المؤمنين . قال الزجاج : « تزدري » تستقل وتستخِس ، يقال : زريت على الرجل : إذا عبت عليه وخسست فعله ، وأزريت به : إذا قصرت به . وأصل تزدري : تزتري ، إلا أن هذه التاء تبدل بعد الزاي دالاً ، لأن التاء من حروف الهمس ، وحروف الهمس خفية ، فالتاء بعد الزاي تخفى ، فأبدلت منها الدال لجهرها .

قوله تعالى : (لن يؤتيهم الله خيراً) قال ابن عباس : إيماناً . ومعنى الكلام : ليس لي أن أطَّلِع على ما في نفوسهم فأقطع عليهم بشيء ، وليس لاحتقاركم إياهم يبطل أجرهم . (إني إذاً لمن الظالمين) إن قلت هذا الذي تقدم ذكره ، وقيل : إن طردتهم .

قوله تعالى : (قد جادلتنا) قال الزجاج : الجدال : هو المبالغة في الخصومة والمناظرة ، وهو مأخوذ من الجَدْل ، وهو شدة الفتل ، ويقال للصقر : أجدل ، لأنه من أشد الطير . ويُقرأ (فأكثرت جَدْلنا) .

قوله تعالى : (فائتنا بما تعدنا) قال ابن عباس : يعنون العذاب . (إن كنت من الصادقين) أنه يأتينا .

قوله تعالى : (إن أردت أن أنصح لكم) أي : أنصحكم . وفي هذه الآية شرطان ، فجواب الأول النصح ، وجواب الثاني النفع .

قوله تعالى : (إن كان الله يريد أن يُغويكم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : يُضلكم ، قاله ابن عباس . والثاني : يُهلككم ، حكاه ابن الأنباري . وقال : هو قول مرغوب عنه . والثالث : يضلكم ويهلككم ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (هو ربكم) أي : هو أولى بكم ، يتصرف في ملكه كما يشاء (وإليه تُرجعون) بعد الموت .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (أم يقولون) قال الزجاج : المعنى : أيقولون : (افتراه) ؟ قال ابن قتيبة : الافتراء : الاختلاق . (فعليّ إجرامي) أي : جرم ذلك الاختلاق إن كنتُ فعلت . (وأنا بريء مما تُجرمون) في التكذيب . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : « فعليَّ أجرامي » بفتح الهمزة .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) قال المفسرون : لما أوحي إليه هذا ، استجاز الدعاء عليهم ، فقال : (لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديَّاراً) [نوح : ٢٦] .

قوله تعالى : (فلا تبتئس) قال ابن عباس ، ومجاهد : لا تحزن . وقال الفراء ، والزجاج : لا تستكن ولا تحزن . قال أبو صالح عن ابن عباس : فلا تحزن إذا نزل بهم الغرق (بما كانوا يفعلون) .

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ . وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ

مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (واصنع الفلك) أي : واعمل السفينة .

وفي قوله : (بأعيننا) ثلاثة أقوال :

أحدها : بمرأىً منا ، قاله ابن عباس . والثاني : بحفظنا ، قاله الربيع . والثالث : بعلمنا ، قاله مقاتل . قال ابن الأنباري : إنما جمع على مذهب العرب في إيقاعها الجمع على الواحد ، تقول : خرجنا إلى البصرة في السفن ، وإنما جمع ، لأن من عادة الملك أن يقول : أمرنا ونهينا .

وفي قوله : (ووحينا) قولان :

أحدهما : وأمرنا لك أن تصنعها . والثاني : وبتعليمنا إياك كيف تصنعها .

قوله تعالى : (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) فيه قولان :

أحدهما : لاتسألني الصفح عنهم . والثاني : لاتخاطبني في إمهالهم . وإنما نهي عن الخطاب في ذلك صيانة له عن سؤال لايجاب فيه .

الإشارة إلى كيفية عمل السفينة

روى الضحاك عن ابن عباس قال : كان نوح يُضرب ثم يُلف في لِبْدٍ فيُلقى في بيته ، يُرَوْنَ أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم . حتى إذا يئس من إيمان قومه ، جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصاً ، فقال : يابني ، انظر هذا الشيخ لايغررك ، قال : ياأبت أمكني من العصا ، فأخذها فضربه ضربةً شجه

مُوضِحَةً [١] ، وسالت الدماء على وجهه ، فقال : رب قد ترى مايفعل بي عبادك ، فان يكن لك فيهم حاجة فاهدهم ، وإلا فصبّرني إلى أن تحكم ، فأوحى الله إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) إلى قوله : (واصنع الفلك) ، قال : يارب ، وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجري على وجه الماء أُنجّي فيه أهل طاعتي ، وأُغْرِق أهل معصيتي ، قال : يارب ، وأين الماء ؟ قال : إني على ما أشاء قدير ، قال : يارب ، وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج [٢] عشرين سنة ، وكفّ عن دعائهم ، وكفّوا عنه ، إلا أنهم يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه ، فقطعه وجفّفه ولفّقه ، فقال : يارب ، كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : أجعله على ثلاث صور ، رأسه كرأس الطاووس ، وجؤجؤه كجؤجؤ الطائر ، وذنبه كذنب الديك ، واجعلها مطبقة ، وبعث الله إليه جبريل يعلمه ، وأوحى الله إليه أن عجّل عمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَنْ عصاني ، فاستأجر نجارين يعملون معه ، وسام ، وحام ، ويافث ، معه ينحتون السفينة ، فجعل طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعاً ، وعلوها ثلاثاً وثلاثين ، وفجّرَ الله له عين القار تغلي غلياناً حتى طلاها . وعن ابن عباس قال : جعل لها ثلاث بطون ، فحمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوام ، وفي الأوسط الدواب والأنعام ، وركب هو ومن معه البطن الأعلى . وروي عن الحسن أنه قال : كانت سفينة نوح طولها ألف ذراع ، ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وقال قتادة : كانت

---

(١) الموضحة : الشجة التي بلغت العظم ، فأوضحت عنه . ولا قصاص في شيء من الشجاج إلا في الموضحة ، وفي غيرها الدية .

(٢) الساج : شجر يعظم جداً ، ويذهب طولاً وعرضاً ، وله ورق أمثال التراس الديلمية ، يتغطى الرجل بورقةٍ منه ، فتكنه من المطر ، وله رائحة طيبة تشابه رائحة ورق الجوز مع رقةٍ ونعمة .

فيما ذُكر لنا طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسمائة ذراع ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً . وقال ابن جريج : كان طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ومائة ذراع ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وكان في أعلاها الطير ، وفي وسطها الناس ، وفي أسفلها السباع . وزعم مقاتل أنه عمل السفينة في أربعمائة سنة .

قوله تعالى : (وكلَّما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه) فيه قولان :

أحدها : أنهم رأوه يبني السفينة وما رأوا سفينة قط ، فكانوا يسخرون ويقولون : صرت بعد النبوَّة نجاراً ؛ وهذا قول ابن إسحاق .

والثاني : أنهم قالوا له : ماتصنع ؟ فقال : أبني بيتاً يمشي على الماء ، فسخروا من قوله ، وهذا قول مقاتل .

وفي قوله : (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم) خمسة أقوال :

أحدها : إن تسخروا من قولنا فانا نسخر من غفلتكم .

والثاني : إن تسخروا من فعلنا عند بناء السفينة ، فانا نسخر منكم عند الغرق ، ذكره المفسرون .

والثالث : إن تسخروا منا في الدنيا ، فانا نسخر منكم في الآخرة ، قاله ابن جرير .

والرابع : إن تستجهلونا ، فانا نستجهلكم ، قاله الزجاج .

والخامس : إن تسخروا منا ، فانا نستنصر الله عليكم ، فسمى هذا سخرية ، ليتفق اللفظان كما بينا في قوله : (الله يستهزىء بهم) [البقرة : ١٥] ، هذا قول ابن الأنباري . قال ابن عباس : لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ، فلذلك سخروا منه ، وإنما مياه البحار بقية الطوفان .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فسوف تعلمون) هذا وعيد ، ومعناه : فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية ، ومن هو أحمد عاقبة .

قوله تعالى : (من يأتيه عذاب يخزيه) أي : يُذلـُّه ، وهو الغرق . (ويحل عليه) أي : ويجب عليه (عذاب مقيم) في الآخرة .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (حتى إذا جاء أمرنا) فيه قولان :

أحدهما : جاء أمرنا بعذابهم وإهلاكهم . والثاني : جاء عذابنا وهو الماء ، ابتدأ بجنبات الأرض فدار حولها كالإكليل ، وجعل المطر ينزل من السماء كأفواه القرب ، فجعلت الوحوش يطلبن وسط الأرض هرباً من الماء حتى اجتمعن عند السفينة ، فحينئذ حمل فيها من كل زوجين اثنين .

قوله تعالى : (وفار التنُّورُ) الفور : الغليان ؛ والفوّارة : مايفور من القِدْر ، قاله ابن فارس :

قال المصنف : وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي عن ابن دريد قال : التنور : اسم فارسي معرَّب لاتعرف له العرب اسماً غير هذا ، فلذلك جاء في التنزيل ، لأنهم خوطبوا بما عرفوا . وروي عن ابن عباس أنه قال : التنور ، بكل لسان عربي وعجمي .

وفي المراد بهذا التنور ستة أقوال :

أحدها : أنه اسم لوجه الأرض ، رواه عكرمة عن علي عليه السلام . وروى الضحاك عن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، قال : قيل له : إذا رأيت الماء قد علا وجهَ الأرض ، فاركب أنت وأصحابك ، وهذا قول عكرمة ، والزهري .

والثاني : أنه تنوير الصبح ، رواه أبو جحيفة عن علي رضي الله عنه . وقال ابن قتيبة : التنوير عند الصلاة .

والثالث : أنه طلوع الفجر ، روي عن علي أيضاً ، قال : « وفار التنور » : طلع الفجر .

والرابع : أنه طلوع الشمس ، وهو منقول عن علي أيضاً .

والخامس : أنه تنّور أهله ، روى العوفي عن ابن عباس قال : إذا رأيت تنّور أهلك يخرج منه الماء ، فانه هلاك قومك . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنه تنّور آدم عليه السلام ، وهبه الله لنوح ، وقيل له : إذا فار الماء منه ، فاحمل ما أُمرتَ به . وقال الحسن : كان تنوراً من حجارة ، وهذا قول مجاهد ، والفراء ، ومقاتل .

والسادس : أنه أعلى الأرض وأشرفها [1] .

قال ابن الأنباري : شُبهت أعالي الأرض وأماكنها المرتفعة لعلوها ، بالتنانير .

واختلفوا في المكان الذي فار منه التنور على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه فار من مسجد الكوفة ، رواه حبة العرني عن علي عليه السلام . وقال زِرّ بن حُبَيْش : فار التنور من زاوية مسجد الكوفة اليمنى . وقال مجاهد : نبع الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فأخبرته ، وكان ذلك بناحية الكوفة . وكان الشعبي يحلف بالله ما كان التنور إلا بناحية الكوفة .

---

(١) قال ابن كثير ٢/٤٤٥ بعد أن ساق أكثر هذه الأقوال : وهذه أقوال غريبة .

والثاني : أنه فار بالهند ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنه كان في أقصى دار نوح ، وكانت بالشام في مكان يقال له : عين وردة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (قلنا احمل فيها) أي : في السفينة (من كل زوجين اثنين) . وروى حفص عن عاصم : « من كُلٍّ » بالتنوين . قال ابو علي : والمعنى : من كل شيء ، ومن كل زوج زوجين ، فحذف المضاف . وانتصاب « اثنين » على أنها صفة لزوجين ، وقد علم أن الزوجين اثنان ، ولكنه توكيد . قال مجاهد : من كل صنف ، ذكراً وأنثى . وقال ابن قتيبة : الزوج يكون واحداً ، ويكون اثنين ، وهو هاهنا واحد ، ومعنى الآية : احمل من كل ذكر وأنثى اثنين . وقال الزجاج : المعنى : احمل زوجين اثنين من كل شيء ، والزوج في كلام العرب يجوز أن يكون معه واحد ، والاثنان يقال لهما : زوجان ، يقال : عندي زوجان من الطير ، إنما يريد ذكراً وأنثى فقط . وقال ابن الأنباري : إنما قال « اثنين » فثنَّى الزوج ، لأنه قصد قصْد الذكر والأنثى من الحيوان ، وتقديره : من كل ذكر وأنثى .

قوله تعالى : (وأهلك) أي : واحمل أهلك . قال المفسرون : أراد بأهله : عياله وولده . (إلا من سبق عليه القول) أي : سبق عليه القول من الله بالإهلاك . قال الضحاك : وهم امرأته وابنه كنعان .

قوله تعالى : (ومن آمن) معناه : واحمل من آمن . (وما آمن معه إلا قليل) وفي عددهم ثمانية أقوال :

أحدها : أنهم كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلوهم ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أن نوحاً حمل معه ثمانين إنساناً ، وبنيه الثلاثة ، وثلاث نسوة لبنيه ، وامرأة نوح ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس .

والثالث : كانوا ثمانين إنساناً ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة .

والرابع : كانوا أربعين ، ذكره ابن جريج عن ابن عباس .

والخامس : كانوا ثلاثين رجلاً ، رواه أبو نهيك عن ابن عباس .

والسادس : كانوا ثمانية ، قال الحكم بن عتيبة : كان نوح وثلاثة بنيه وأربع كنائنه . قال قتادة : ذُكر لنا أنه لم ينج في السفينة إلا نوح وامرأته وثلاثة بنين له ، ونساؤهم ، فجماعتهم ثمانية ، وهذا قول القرظي ، وابن جريج .

والسابع : كانوا سبعة ، نوح ، وثلاث كنائن له وثلاثة بنين ، قاله الأعمش .

والثامن : كانوا عشرة سوى نسائهم ، قاله ابن إسحاق . وروي عنه أنه قال : الذين نجَوْا مع نوح بنوه الثلاثة ، ونساؤهم ثلاث ، وستة ممن آمن به [1] .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وقال) يعني نوحاً للذين أُمر بحملهم (اركبوا) السفينة . قال ابن عباس : ركبوا فيها لعشر مضين من رجب ، وخرجوا منها يوم عاشوراء . وقال ابن جريج : رفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر مضين من رجب ، فأتت

(١) قال أبو جعفر الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله : (وما آمن معه إلا قليل) يصفهم بأنهم كانوا قليلاً ، ولم يحد عددهم بمقدار ، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح ، فلا ينبغي أن يتجاوز في ذلك حد الله ، إذ لم يكن لمبلغ عدد ذلك حد من كتاب الله ، أو أثر عن رسول الله ﷺ .

موضع البيت فطافت به أسبوعاً ، وكان البيت قد رُفع في ذلك الوقت ، ورست بباقِرْدى [١] على الجودي يوم عاشوراء . قال ابن عباس : قرض الفأر حبال السفينة ، فشكا نوح ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه ، فمسح ذنب الأسد ، فخرج سِنَّوْرانِ ، وكان في السفينة عَذِرة ، فشكا ذلك إلى ربه ، فأوحى الله تعالى إليه ، فمسح ذنب الفيل ، فخرج خنزيران فأكلا ذلك [٢] .

قوله تعالى : (بسم الله مجراها ومرساها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « مُجراها » بضم الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « مَجراهـا » بفتح الميم ، وكسر الراء . وكلهم قرؤوا بضم الميم من « مرساها » ، إلا أن ابن كثير ، وأبا عمرو ، وابن عامر ، وحفصاً عن عاصم ، كانوا يفتحون السين . ونافع ، وأبو بكر عن عاصم ، كانا يقرآنها بين الكسر والتفخيم . وكان حمزة ، والكسائي ، وخلف ، يميلونها . وليس في هؤلاء أحد جعلها نعتاً لله ، وإنما جعل الوصفين نعتاً لله تعالى ، الحسن ، وقتادة ، وحُميد الأعرج ، وإسماعيل بن مجالد عن عاصم ، فقرؤوا « مُجرِيها ومُرسِيها » بضم الميم ، وبياءين صحيحتين ، مثل مبديها ومنشيها . وقرأ ابن مسعود : « مجراها » بفتح الميم ، وإمالة الراء بعدها ألف ، « ومرساها » برفع الميم ، وإمالة السين بعدها ألف . وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : « مجراها » بفتح الميم والراء ، وبألف بعدها ، ومرساها ، برفع الميم وفتح السين ، وبألف بعدها . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : « مَجراها ومَرساها » بفتح الميم فيهما جميعاً ، وفتح الراء والسين ، وبألف بعدهما .

(١) ضبطه ياقوت بكسر القاف وفتح الدال ، وهو موضع بالجزيرة بالقرب من جبل الجودي .

(٢) الخبر ذكره الطبري : ١٥/٣٤٢ عن ابن عباس وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ، وأورده ابن كثير عن ابن جرير واستغربه ، وليس يشك عاقل أن هذا الخبر من بقية أخبار بني إسرائيل ، ولا يبلغ أن يكون شيئاً .

وقرأ يحيى بن وثاب بفتح الميمين ، إلا أنه أمال الراء والسين فيهما . وقرأ أبو عمران الجوني ، وابن جبير ، برفع الميم فيهما ، وفتح الراء والسين ، وبألف بعدهما جميعاً . فمن قرأ بضم الميمين ، جعله من أجرى وأرسى . ومن فتحهما ، جعله مصدراً من جرى الشيء يجري مَجرى ، ورسى يرسي مَرسى . قال الزجاج : قوله : (بسم الله) أي : بالله ، والمعنى : أنه أمرهم أن يسمُّوا في وقت جريها ووقت استقرارها .

ومن قرأ بضم الميمين ، فالمعنى : بالله إجراؤها ، وبالله إرساها . ومن فتحهما ، فالمعنى : بالله يكون جريها ، وبالله يقع إرساؤها ، أي : إقرارها . وسمعت شيخنا أبا منصور اللغوي يقول : من ضم الميم في « مُجراها » أراد : أجراها الله مُجرىً ، ومن فتحها ، أراد : جرت مَجرى . وقال الضحاك : كان إذا أراد أن تجري ، قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسي ، قال : بسم الله ، فرست .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وهي تجري بهم في موج كالجبال) شبهه بالجبال في عِظَمه وارتفاعه ، ويقال : إن الماء ارتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً ، ويروى خمس عشرة ذراعاً . وذكر بعض المفسرين أنه ارتفع نحو السماء سبعين فرسخاً من الأرض .

قوله تعالى : (ونادى نوح ابنه) لايختلفون أنه كان كافراً . وفي اسمه قولان :

أحدهما : كنعان ، وهو قول الأكثرين . والثاني : اسمه يام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عبيد بن عمير ، وابن إسحاق .

قوله تعالى : (وكان في مَعْزِلٍ) المعزل : المكان المنقطع . ومعنى العزل : التنحية . وفي معنى الكلام وجهان ذكرهما الزجاج .

أحدهما : في معزل من السفينة . والثاني : في معزل من دين أبيه .

قوله تعالى : (يابني اركب معنا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « يابني اركب » مضافة ، بكسر الياء . وروى أبو بكر عن عاصم « يابنيَ » مفتوحة الياء هاهنا ، وباقي القرآن مكسورة . وروى حفص عنه بالفتح في كل القرآن « يابنيّ » إذا كان واحداً . قال النحويون : الأصل في « بُنيّ » ثلاث ياءات ، ياء التصغير ، وياء بعدها هي لام الفعل ، وياء بعد لام الفعل هي ياء الإضافة . فمن قرأ « يابُني » أراد : يابنيي ، فحذف ياء الاضافة ، وترك الكسرة تدل عليها ، كما يقال : ياغلام أقبل . ومن فتح الياء ، أبدل من كسرة لام الفعل فتحة ، استثقالاً لاجتماع الياءات مع الكسرة ، فانقلبت ياء الإضافة ألفاً ، ثم حذفت الألف كما تحذف الياء ، فبقيت الفتحة على حالها . وقيل : إن المعنى : يابني آمن واركب معنا .

قوله تعالى : (سآوي) أي : سأصير وأرجع (إلى جبل يعصمني) أي : يمنعني (من الماء) أي : من تغريق الماء .

(قال لاعاصم اليوم) فيه قولان :

أحدهما : لامانع اليوم من أمر الله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لامعصوم ، ومثله : ماء دافق ، أي : مدفوق ، وسرٌّ كاتم ، وليلٌ نائم ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (إلا من رحم) قال الزجاج : هذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن من رحم الله فانه معصوم . قال مقاتل : إلا من رحم فركب السفينة .

قوله تعالى : (وحال بينهما الموج) في المكني عنها قولان .

أحدهما : أنهما ابن نوح والجبل الذي زعم أنه يعصمه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . والثاني : نوح وابنه ، قاله مقاتل .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) وقف قوم على ظاهر الآية ، وقالوا : إنما ابتلعت ما نبع منها ، ولم تبتلع ماء السماء ، فصار ذلك بحاراً وأنهاراً ، وهو معنى قول ابن عباس . وذهب آخرون إلى أن المراد : ابلعي ماءك الذي عليك ، وهو ما نبع من الأرض ونزل من السماء ، وذلك بعد أن غرق ما على وجه الأرض .

قوله تعالى : (ويا سماء أقلعي) أي : أمسكي عن إنزال الماء . قال ابن الأنباري : لما تقدم ذكر الماء ، عُلم أن المعنى : أقلعي عن إنزال الماء .

قوله تعالى : (وغيض الماء) أي : نقص . قال الزجاج : يقال : غاض الماء يغيض : إذا غاب في الأرض . ويجوز إشمام الضم في الغين .

قوله تعالى : (وقضي الأمر) قال ابن عباس : غرق مَنْ غرق ، ونجا مَنْ نجا . وقال مجاهد : قضي الأمر : هلاك قوم نوح . وقال ابن قتيبة : « وقضي

الأمر » أي : فرغ منه . قال ابن الأنباري : والمعنى : أُحكمتْ هلكة قوم نوح ، فلما دلت القصة على مايبيّن هلكتهم ، أغنى عن نعت الأمر .

قوله تعالى : (واستوت) يعني السفينة (على الجوديّ) وهو اسم جبل . وقرأ الأعمش ، وابن أبي عبلة : « على الجودي » بسكون الياء . قال ابن الأنباري : وتشديد الياء في « الجوديّ » لأنها ياء النسبة ، فهي كالياء في علوي ، وهاشمي . وقد خففها بعض القراء . ومن العرب من يخفف ياء النسبة ، فيسكنها في الرفع ، والخفض ، ويفتحها في النصب ، فيقول : قام زيد العلوي ، ورأيت زيداً العلوي . قال ابن عباس : دارت السفينة بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه .

واختلفوا أين هذا الجبل على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بالموصل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : بالجزيرة ، قاله مجاهد ، وقتادة . وقال مقاتل : هو بالجزيرة قريب من الموصل .

والثالث : أنه بناحية آمِد ، قاله الزجاج .

وفي علة استوائها عليه قولان :

أحدهما : أنه لم يغرق ، لأن الجبال تشامخت يومئذ وتطاولت ، وتواضع هو فلم يغرق ، فأرست عليه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه لما قلّ الماء أرْسَتْ عليه ، فكان استواؤها عليه دلالة على قلة الماء .

قوله تعالى : (وقيل بُعْداً للقوم الظالمين) قال ابن عباس : بُعداً من رحمة الله للقوم الكافرين .

فان قيل : ماذنب من أُغرق من البهائم والأطفال ؟

فالجواب : أنّ آجالهم حضرت ، فأُميتوا بالغرق ، قاله الضحاك ، وابن جريج .

قوله تعالى : (رب إنّ ابني من أهلي) إنما قال نوح هذا ، لأن الله تعالى وعده نجاة أهله ، فقال : (وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) قال ابن عباس : أعدل العادلين . وقال ابن زيد : فأنت أحكم الحاكمين بالحق .

واختلفوا في هذا الذي سأل فيه نوح على قولين :

أحدهما : أنه ابن نوح لصلبه ، قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك ، والجمهور .

والثاني : أنه ولد على فراشه لغير رِشدة [١] ولم يكن ابنه . روى ابن الأنباري باسناده عن الحسن أنه قال : لم يكن ابنَه ، إن امرأته فجرت . وعن الشعبي قال : لم يكن ابنه ، إن امرأته خانته ، وعن مجاهد نحوذلك [٢] . وقال ابن جريج : ناداه نوح وهو يحسب أنه ابنه ، وكان وُلد على فراشه . فعلى القول الأول ، يكون في معنى قوله : (إنه ليس من أهلك) قولان :

أحدهما : ليس من أهل دينك .

والثاني : ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم . قال ابن عباس : مابغت امرأة نبي قط [٣] ، وإنما المعنى : ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم . وعلى القول

---

(١) يقال : ولد لغير رشدة ، أي : لغير نكاح صحيح .

(٢) قال ابن كثير ٢/٤٤٨ وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زنية ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد ، والحسن ، وعبيد بن عمير ، وأبي جعفر الباقر ، وابن جريج .

(٣) قال ابن كثير ٢/٤٤٨ وكذا روي عن مجاهد أيضاً ، وعكرمة ، والضحاك ، وميمون بن مهران ، وثابت بن الحجاج ، وهو اختيار أبي جعفر ابن جرير الطبري ، وهو الصواب الذي لاشك فيه .

الآخر : الكلام على ظاهره ، والأول أصح ، لموافقته ظاهر القرآن ، ولاجتماع الأكثرين عليه ، وهو أولى من رمي زوجة نبي بفاحشة .

قوله تعالى : (إنه عملٌ غيرُ صالح) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة : « إنه عملٌ » رفع منون « غيرُ صالح » برفع الراء ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه يرجع إلى السؤال فيه ، فالمعنى : سؤالك إياي فيه عمل غير صالح ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وهذا ظاهر ، لأنه قد تقدم السؤال فيه في قوله : « رب إن ابني من أهلي » ، فرجعت الكناية إليه .

والثاني : أنه يرجع إلى المسؤول فيه .

وفي هذا المعنى قولان : أحدهما : أنه لغير رِشدة ، قاله الحسن . والثاني : أن المعنى : إنه ذو عمل غير صالح ، قاله الزجاج . قال ابن الأنباري : من قال : هو لغير رِشدة ، قال : المعنى : إن أصل ابنك الذي تظن أنه ابنك عملٌ غير صالح . ومن قال : إنه ذو عمل غير صالح ، قال : حذف المضاف ، وأقام العمل مقامه ، كما تقول العرب : عبد الله إقبال وإدبار ، أي : صاحب إقبال وإدبار . وقرأ الكسائي : « عَمِلَ » بكسر الميم وفتح اللام « غيرَ صالح » بفتح الراء ، يشير إلى أنه مشرك .

قوله تعالى : (فلا تسألنِ ما ليس لك به علم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « فلا تسألنَّ » بفتح اللام ، وتشديد النون ، غير أن نافعاً ، وابن عامر ، كسرا النون ، وفتحها ابن كثير ، وحذفوا الياء في الوصل والوقف . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، بسكون اللام وتخفيف النون ، غير أن أبا عمرو ،

وأبا جعفر ، أثبتا الياء في الوصل ، وحذفاها في الوقف ، ووقف عليها يعقوب بالياء ، والباقون يحذفونها في الحالين . قال أبو علي : من كسر النون ، فقد عدّى السؤال إلى مفعولين ، أحدهما : اسم المتكلم ، والآخر : الاسم الموصول ، وحذفت النون المتصلة بياء المتكلم لاجتماع النونات . وأما إثبات الياء في الوصل فهو الأصل ، وحذفها أخف ، والكسرة تدل عليها ، وتُعلِمُ أن المفعول مراد في المعنى .

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه نسبته إليه ، وليس منه .

والثاني : في إدخاله إياه في جملة أهله الذين وعده نجاتهم .

والثالث : سؤاله في إنجاء كافر من العذاب .

قوله تعالى : (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن تكون من الجاهلين في سؤالك مَنْ ليس مِنْ حزبك .

والثاني : من الجاهلين بوعدي ، لأني وعدت بإنجاء المؤمنين .

والثالث : من الجاهلين بنسبك ، لأنه ليس من أهلك .

﴿ قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (يانوح اهبط) قال ابن عباس : يريد : من السفينة إلى الأرض . (بسلام منا) أي : بسلامة .

قوله تعالى : (وبركات عليك) قال المفسرون : البركات عليه : أنه صار أبا للبشر جميعاً ، لأن جميع الخلق من نسله . (وعلى أمم ممن معك) قال ابن عباس : يريد : من ولدك . قال ابن الأنباري : المعنى : من ذراري من معك ، والمراد :

المؤمنون من ذريته . ثم ذكر الكفار ، فقال : (وأُممٌ) أي : من الذرية أيضاً ، والمعنى : وفيمن نَصِفُ لك أُمم ، وفيمن نقصُ عليك أمره أُمم . (سنمتّعهم) أي : في الدنيا (ثم يمسهم منا عذاب أليم) في الآخرة . قال محمد بن كعب القرظي : لم يبق مؤمن ولا مؤمنة في أصلاب الرجال وأرحام النساء يومئذ إلى أن تقوم الساعة إلا وقد دخل في ذلك السلام والبركات ، ولم يبق كافر إلا دخل في ذلك المتاع والعذاب .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ . وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ . يَاقَوْمِ لاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ . قَالُوا يَاهُودُ مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (تلك من أنباء الغيب) في المشار إليه بـ « تلك » قولان :

أحدهما : قصة نوح . والثاني : آيات القرآن ، والمعنى : تلك من أخبار ماغاب عنك وعن قومك .

فان قيل : كيف قال هاهنا : « تلك » ، وفي مكان آخر « ذلك » ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : « تلك » إشارة إلى آيات القرآن ، و « ذلك » إشارة إلى الخبر والحديث ، وكلاهما معروف في اللغة الفصيحة ، يقول

الرجل : قد قدم فلان ، فيقول سامعٌ قولَه : قد فرحت به ، وقد سررت بها ، فاذا ذكّر ، عنى القدوم ، وإذا أنّث ، ذهب إلى القَدْمَة .

قوله تعالى : (من قبل هذا) يعني القرآن . (فاصبر) كما صبر نوح على أذى قومه (إن العاقبة) أي : آخر الأمر بالظفر والتمكين (للمتقين) أي : لك ولقومك كما كان لمؤمني قوم نوح .

قوله تعالى : (إن أنتم إلا مفترون) أي : ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [يونس : ٧٢] إلى قوله : (يرسل السماء عليكم مدراراً) وهذا أيضاً قد سبق تفسيره في سورة (الأنعام : ٦١) . والسبب في قوله لهم ذلك ، أن الله تعالى حبس المطر عنهم ثلاث سنين ، وأعقم أرحام نسائهم ، فوعدهم إحياء بلادهم وبسط الرزق لهم إن آمنوا .

قوله تعالى : (ويزدكم قُوَّةً إلى قُوَّتِكم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الولد وولد الولد ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يزدكم شدة إلى شدتكم ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثالث : خِصباً إلى خصبكم ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : (ولا تتولَّوا مجرمين) قال مقاتل : لا تُعرضوا عن التوحيد مشركين .

قوله تعالى : (ماجئتنا ببينة) أي : بحجة واضحة . (وما نحن بتاركي آلهتنا) يعنون الأصنام . (عن قولك) أي : بقولك ، و«الباء» و«عن» يتعاقبان .

﴿ إنْ نَقُولُ إلَّا اعتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاتُنْظِرُونِ . إنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَامِنْ دَابَّةٍ إلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (إن نقول) أي : مانقول في سبب مخالفتك إيانا إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون لسبّك إياها ، فالذي ُتظهر من عيبها لما لحق عقلك من التغيير . قال ابن قتيبة : يقال : عراني كذا ، واعتراني : إذا ألمَّ بي . ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك : عارٍ ، ومنه قول النابغة :

أَتَيْتُكَ عَارِيًا خَلَقًا ثِيَابِي   على خَوْفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنُونُ [١]

قوله تعالى : (إني أشهد الله . . .) إلى آخر الآية . حرك ياء « إنيَ » نافع . ومعنى الآية : إن كنتم تقولون : إن الآلهة عاقبتني لطعني عليها ، فاني على يقين من عيبها والبراءة منها ، وها أنا ذا أزيد في الطعن عليها ، (فكيدوني جميعاً) أي : احتالوا أنتم وأوثانكم في ضرّي ، ثم لا تمهلون . قال الزجاج : وهذا من أعظم آيات الرسل ، أن يكون الرسول وحده وأمتُه متعاونة عليه ، فيقول لهم : كيدوني ، فلا يستطيع أحد منهم ضرَّه ، وكذلك قال نوح لقومه : (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) [يونس : ٧١] . وقال محمد ﷺ : (فان كان لكم كيد فكيدونِ) [المرسلات : ٣٩] .

قوله تعالى : (إلا هو آخذٌ بناصيتها) قال أبو عبيدة : المعنى : أنها في قبضته ومِلكه وسلطانه .

فان قيل : لم خص الناصية ؟

فالجواب : أن الناصية هي شعر مقدَّم الرأس ، فاذا أخذت بها من شخص ، فقد ملكت سائر بدنه ، وذلَّ لك .

قوله تعالى : (إن ربي على صراط مستقيم) قال مجاهد : على الحق . وقال غيره : في الكلام إضمار ، تقديره : إن ربي يدل على صراط مستقيم .

---

(١) ديوانه : ٩٤ بشرح ابن السكيت ، و « غريب القرآن » ٢٠٥ ، و « اللسان » : عري .

فان قيل : ماوجه المناسبة بين قوله : (إلا هو آخذ بناصيتها) وبين كونه على صراط مستقيم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه لما أخبر أنه آخذ بنواصي الخلق ، كان معناه : أنهم لايخرجون عن قبضته ، فأخبر أنه على طريق لا يعدل عنه هارب ، ولايخفى عليه مستتر .

والثاني : أن المعنى : أنه وإن كان قادراً عليهم ، فهو لايظلمهم ، ولا يريد إلا العدل [١] ، ذكرهما ابن الأنباري .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَاأُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماًغَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

قولهتعالى : (فان تولـَّوا) فيه قولان :

أحدهما : أنه فعل ماض ، ممناه : فان أعرضوا . فعلى هذا ، في الآية إضمار ، تلخيصه : فان أعرضوا فقل لهم : قد أبلغتكم ، هذا مذهب مقاتل في آخرين .

والثاني : أنه خطاب للحاضرين ، وتقديره : فان تتولـَّوا ، فاستثقلوا الجمع بين تاءين متحركتين ، فاقتُصر على إحداهما ، وأسقطت الأخرى ، كما قال النابغة :

المرء يَهْوى أنْ يَعِيـ ـشَ وطولُ عَيْشٍ قد يَضُرُّهْ [٢]

---

(١) قال ابن كثير ٢/٤٥٠ : وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ، ودلالة قاطعة على صدق ماجاءهم به ، وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التي لاتنفع ولا تضر ، بل هي جماد لاتسمع ولا تبصر ، ولا توالي ولا تعادي ، وإنما يستحق إخلاص العبادة ، الله وحده لاشريك له ، الذي بيده الملك والتصرف ، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(٢) الأبيات في « أمالي القالي » ٢/٩ ، و « الوحشيات » ١٥٥ ، و « أمالي المرتضى » ١/٢٦٦ ، و « حماسة البحتري » ١٣٦ ، و « الخزانة » ١/٥١٤ .

تَفْنَى بَشَاشَتُه وَيَبْـ ـقَى بَعْدَ حُلْوِ العَيْشِ مُرُّهْ
وَتَصَرَّفُ الأَيَّامُ حَتـ ـى مَايَرَى شيئاً يَسُرُّهْ

أراد : وتتصرف الأيام ، فأسقط إحدى التاءين ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ويستخلفُ ربي قوماً غيركم) فيه وعيد لهم بالهلاك . (إن ربي على كل شيء حفيظ) فيه قولان :

أحدهما : حفيظ على أعمال العباد حتى يجازيهم بها . والثاني : أن « على » بمعنى اللام ، فالمعنى : لكل شيء حافظ ، فهو يحفظني من أن تنالوني بسوء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

قوله تعالى : (ولما جاء أمرنا) فيه قولان :

أحدهما : جاء عذابنا ، قاله ابن عباس . والثاني : جاء أمرنا بهلاكهم .

قوله تعالى : (نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا) فيه قولان :

أحدهما : نجيناهم من العذاب بنعمتنا . والثاني : نجيناهم بأن هديناهم إلى الإيمان، وعصمناهم من الكفر ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : (ونجيناهم من عذاب غليظ) أي : شديد ، وهو ما استحقه قوم هود من عذاب الدنيا والآخرة .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (وتلك عاد) يعني القبيلة . (وعصوا رسله) لقائل أن يقول : إنما أرسل إليهم هود وحده ، فكيف ذُكر بلفظ الجمع ؟

فالجواب من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنه قد يذكر لفظ الجمع ويراد به الواحد ، كقوله : (أم يحسدون الناس) [النساء : ٥٤] والمراد به النبي ﷺ وحده .

والثاني : أن من كذَّب رسولاً واحداً فقد كذَّب الكلَّ .

والثالث : أن كل مرة ينذرهم فيها هي رسالة مجدَّدة وهو بها رسول .

قوله تعالى : (واتـَّبعوا) أي : واتبع الأتباع أمر الرؤساء .

والجبار : الذي طال وفات اليد .

وللعلماء في الجبار أربعة أقوال :

أحدها : أنه الذي يقتل على الغضب ويعاقب على الغضب ، قاله الكلبي .

والثاني : أنه الذي يجبر الناس على مايريد ، قاله الزجاج .

والثالث : أنه المسلـَّط .

والرابع : أنه العظيم في نفسه ، المتكبِّر على العباد ، ذكرهما ابن الأنباري . والذي ذكرناه يجمع هذه الأقوال ، وقد زدنا هذا شرحاً في (المائدة : ٢٢) .

وأما العنيد : فهو الذي لايقبل الحق . قال ابن قتيبة : العَنود ، والعنيد ، والعاند : المعارض لك بالخلاف عليك .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا

أَتَنْهَىٰنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ . فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ . وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

قوله تعالى : (وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنةً) أي : أُلحقوا لعنة تنصرف معهم . (ويوم القيامة) أي : وفي يوم القيامة لُعنوا أيضاً . (ألا إن عاداً كفروا ربهم) أي : بربهم ، فحذف الباء ، وأنشدوا :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بِهِ
[فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ][1]

قال الزجاج : قوله : « ألا » ابتداء وتنبيه ، و « بُعداً » منصوب على معنى : أبعدهم الله فبعدوا بعداً ، والمعنى : أبعدهم من رحمته .

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي في « الكتاب » ١/١٧ .

قوله تعالى : (هو أنشأكم من الأرض) فيه قولان :

أحدهما : خلقكم من آدم ، وآدم خُلق من الأرض . والثاني : أنشأكم في الأرض .

وفي قوله : (واستعمركم فيها) ثلاثة أقوال :

أحدها : أعمركم فيها ، أي : جعلكم ساكنيها مدة أعماركم ، ومنه العمرى [1] ، وهذا قول مجاهد .

والثاني : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ألف سنة إلى ثلاثمائة ، قاله الضحاك .

والثالث : جعلكم عُمَّارها ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : (قد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم ، لأنه كان ذا حسب وثروة ، قاله كعب .

والثاني : أنه كان يبغض أصنامهم ويعدل عن دينهم ، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما أظهر إنذارهم ، انقطع رجاؤهم منه ، وإلى نحو هذا ذهب مقاتل .

والثالث : أنهم كانوا يرجون خيره ، فلما أنذرهم ، زعموا أن رجاءهم لخيره قد انقطع ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وإننا لفي شك) إن قال قائل : لم قال هاهنا : « وإننا » وقال في (إبراهيم) : « وإنا » ؟

---

(١) « عمرى » بضم فسكون ، مصدر مثل الرجعى ، وأعمره الدار : جعله يسكنها مدة عمره ، فاذا مات عادت إلى صاحبها ، وكان ذلك من فعل الجاهلية ، فأبطله الله بالاسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « أيُّما رجل أُعْمِرَ عُمرى له ولعقبه ، فانها للذي أعطيها ، لاترجع إلى الذي أعطاها ، لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث » رواه مسلم في « صحيحه » : ١٢٤٥/٣ .

فالجواب : أنها لغتان من لغات قريش السبع التي نزل القرآن عليها . قال الفراء : من قال : « إننا » أخرج الحرف على أصله ، لأن كناية المتكلمين « نا » فاجتمعت ثلاث نونات ، نونا « إن » والنون المضمومة إلى الألف ؛ ومن قال : « إنا » استثقل الجمع بين ثلاث نونات ، وأسقط الثالثة ، وأبقى الأولتين ؛ وكذلك يقال : إني وإنني ، ولعلّي ولعلني ، وليتي وليتني ، قال الله في اللغة العليا : (لعلّي أبلغ الأسباب) [غافر : ٣٦] ، وقال الشاعر في اللغة الأخرى :

أريني جواداً مات هَزْلاً لعلّني أرى ماتَرَيْنَ أو بخيلاً مخلّدا[١]

وقال الله تعالى : (ياليتني كنتُ معهم) [النساء : ٧٣] ، وقال الشاعر :

كمُنيةِ جابرٍ إذ قال ليتي أصادفُه وأُتلفُ بعضَ مالي[٢]

فأما المريب ، فهو الموقع الريبة والتهمة . والرحمة يراد بها هاهنا : النبوّة .

قوله تعالى : (فما تزيدونني غير تخسير) التخسير : النقصان .

وفي معنى الكلام قولان :

أحدهما : فما تزيدونني غيرَ بَصَارَةٍ في خسارتكم ، قاله ابن عباس . وقال الفراء : المعنى : فما تزيدونني غيرَ تخسيرٍ لكم ، أي : كلما اعتذرتم عندي بعذر فهو يزيدكم تخسيراً . وقال ابن الأعرابي : غير تخسير لكم ، لا لي . وقال بعضهم : المعنى : فما تزيدونني بما قلتم إلا نسبتي لكم إلى الخسارة .

---

(١) البيت لحطائط بن يعفر ، أخي الأسود بن يعفر ، وهما أخوان من بني نهشل بن دارم ، جاهليان ، ويروى لحاتم الطائي ، ولمعن بن أوس ، وهو في « الشعر والشعراء » ٢٠٢ ، و « مجاز القرآن » ٥٥ ، و « الحماسة » ٢٥٤/٤ ، و « عيون الأخبار » ١٨١/٣ ، و « أمالي القالي » ٩٢/٢ ، و « القرطبي » ١٢٧/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : أنن ، و « الخزانة » ١٩٥/١ .

(٢) البيت لزيد الخيل ، وهو في « الكتاب » ٣٨٦/١ ، و « اللسان » : ليت ، و « الخزانة » ٤٤٦/٢ .

والقول الثاني : فما تزيدونني غير الخسران إن رجعتُ إلى دينكم ، وهذا معنى قول مقاتل .

فان قيل : فظاهر هذا أنه كان خاسراً ، فزادوه خساراً ، فقد أسلفنا الجواب في قوله : (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً) [التوبة : ٤٧] .

قوله تعالى : (هذه ناقةُ الله لكم آيةً) قد شرحناها في سورة (الأعراف : ٧٣)

قوله تعالى : (تمتعوا في داركم) أي : استمتعوا بحياتكم ، وعبَّر عن الحياة بالتمتع ، لأن الحيَّ يكون متمتِّعاً بالحواسِّ .

قوله تعالى : (ثلاثةَ أيام) قال المفسرون : لمَّا عُقرت الناقة صَعِدَ فصيلُها إلى الجبل ، ورغا ثلاث مرات ، فقال صالح : لكل رغوة أجل يوم ، ألا إن اليوم الأول تصبح وجوهُكم مُصْفَرَّةً ، واليوم الثاني مُحْمَرَّةً ، واليوم الثالث مُسْوَدَّةً ؛ فلما أصبحوا في اليوم الأول ، إذا وجوههم مصفرة ، فصاحوا وضجوا ، وبَكَوْا ، وعرَفوا أنَّه العذاب ، فلما أصبحوا في اليوم الثاني ، إذا وجوههم محمرة ، فضجوا ، وبكَوا ، فلما أصبحوا في اليوم الثالث ، إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فصاحوا جميعاً : ألا قد حضركم العذاب ؛ فتكفَّنوا وألقَوْا أنفسهم بالأرض ، لايدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما أصبحوا في اليوم الرابع ، أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كلِّ صاعقة ، فتقطَّعتْ قلوبُهم في صدورهم . وقال مقاتل : حفروا لأنفسهم قبوراً ، فلما ارتفعت الشمس من اليوم الرابع ، ولم يأتهم العذاب ، ظنوا أن الله قد رحمهم ، فخرجوا من قبورهم يدعو بعضهم بعضاً ، إذ نزل جبريل ، فقام فوق المدينة فسدَّ ضوءَ الشمس ، فلما عاينوه ، دخلوا قبورهم ، فصاح بهم صيحة : موتوا ، عليكم لعنة الله ، فخرجت أرواحهم ، وتزلزلت بيوتهم فوقعت على قبورهم .

قوله تعالى : (ذلك وعدٌ) أي : العذاب (غير مكذوب) أي : غير كذب .

قوله تعالى : (ومن خِزْيِ يومئِذٍ) قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر « يومئِذٍ » بكسر الميم . وقرأ الكسائي بفتحها مع الإضافة . قال مكي : من كسر الميم ، أعرب وخفض ، لإضافة الخزي إلى اليوم، ولم يَبْنِهِ ؛ ومن فتح ، بنى اليوم على الفتح ، لإضافته إلى غير متمكِّن ، وهو « إذ » . وقرأ ابن مسعود « ومن خزيٍ » بالتنوين ، « يومَئذ » بفتح الميم . قال ابن الأنباري: هذه الواو في قوله: « ومن خزي » معطوفة على محذوف، تقديره : نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ . قال : ويجوز أن تكون دخلت لفعل مضمر ، تأويله : نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من خِزْيِ يومئذ . قال: وإنما قال: « وأخذَ » لأن الصيحة محمولة على الصياح .

قوله تعالى : (ألا بعداً لثمود) اختلفوا في صرف « ثمود » وترك إجرائه في خمسة مواضع : في (هود : ٦٩) (ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود)، وفي (الفرقان : ٣٨) (وعاداً وثموداً وأصحابَ الرسِّ)، وفي (العنكبوت : ٣٨) (وعاداً وثموداً وقد تبين لكم) ، وفي (النجم : ٥١) (وثمودَ فما أبقى) . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر بالتنوين في أربعة مواضع منها ، وتركوا (ألا بعداً لثمود) فلم يصرفوه . وقرأ حمزة بترك صرف هذه الخمسة الأحرف ، وصرفهنَّ الكسائي . واختُلف عن عاصم ، فروى حسين الجعفي عن أبي بكر عنه أنه أجرى الأربعة الأحرف مثل أبي عمرو ؛ وروى يحيى بن آدم أنه أجرى ثلاثة ، في (هود : ٦٩) (ألا إن ثموداً) ، وفي (الفرقان : ٣٨) و (العنكبوت : ٣٨) . وروى حفص عنه أنه لم يجر شيئاً منها مثل حمزة .

واعلم أن ثموداً يراد به القبيلة تارة، ويراد به الحي تارة . فاذا أريد به القبيلة ،

لم يصرف ، وإذا أريد به الحي ، صرف . وما أخللنا به ، فقد سبق تفسيره [الأعراف : ٧٣ ، والتوبة : ٧٠] إلى قوله : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم) .

والرسل هاهنا : الملائكة . وفي عددهم ستة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا ثلاثة ، جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير . وقال مقاتل : جبريل ، وميكائيل ، وملك الموت . والثاني : أنهم كانوا اثني عشر ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : ثمانية ، قاله محمد بن كعب . والرابع : تسعة ، قاله الضحاك . والخامس : أحد عشر ، قاله السدي . والسادس : أربعة ، حكاه الماوردي .

وفي هذه البشرى أربعة أقوال :

أحدها : أنها البشرى بالولد ، قاله الحسن ، ومقاتل . والثاني : بهلاك قوم لوط ، قاله قتادة . والثالث : بنبوّته ، قاله عكرمة . والرابع : بأن محمداً يخرج من صلبه ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (قالوا سلاماً) قال ابن الأنباري : انتصب بالقول ، لأنه حرف مقول ، والسلام الثاني مرفوع باضمار « عليكم » . وقال الفراء : فيه وجهان .

أحدها : أنه أضمر « عليكم » كما قال الشاعر :

فَقُلْنَا السَّلَامُ فَاتَّقَتْ مِنْ أَمِيرِهَا   فما كان إلاَّ وَمْؤُهَا بِالْحَوَاجِبِ [١]

والعرب تقول : التقينا فقلنا : سلام سلام .

والثاني : أن القوم سلَّموا ، فقال حين أنكرهم هو : سلام ، فمن أنتم ؟ لإنكاره إياهم . وقرأ حمزة ، والكسائي : « قال سِلْم » ، وهو بمعنى سلام ، كما

---

(١) « اللسان » ر: ومأ .

قالوا : حِلّ وحلال ، وحِرم وحرام ؛ فعلى هذا ، يكون معنى « سِلم » : سلام عليكم . قال أبو علي : فيكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلف اللفظان . وقال الزجاج : من قرأ « سِلْم » فالمعنى : أمْرُنا سِلْم ، أي : لابأس علينا .

قوله تعالى : (فما لبث) أي : ما أقام حتى جاء بعجل حنيذ ، لأنه ظنهم أضيافاً ، وكانت الملائكة قد جاءته في صورة الغلمان الوِضاء .

وفي الحنيذ ستة أقوال :

أحدها : أنه النضيج ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه الذي يَقْطُر ماؤُه ودَسَمُه وقد شوي ، قاله شمر بن عطية .

والثالث : أنه ماحفرتَ الأرضَ ثم غممتَه ، وهو من فعل أهل البادية ، معروف ، وأصله : محنوذ ، فقيل : حنيذ ، كما قيل : طبيخ للمطبوخ ، وقتيل للمقتول . هذا قول الفراء .

والرابع : أنه المشوي ، قاله أبو عبيدة .

والخامس : المشوي بالحجارة المحماة ، قاله مقاتل ، وابن قتيبة .

والسادس : السميط ، ذكره الزجاج ، وقال : يقال : إنه المشوي فقط ، ويقال : المشوي الذي يقطر ، ويقال : المشوي بالحجارة .

﴿ فَلَمَّا رَآ أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَاتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾

قوله تعالى : (فلما رأى أيديَهمْ) يعني الملائكة (لَاتَصِلُ إليه) يعني العجل (نَكِرَهُمْ) أي : أنكرهم . قال أبو عبيدة : نَكِرهم وأنكرهم واستنكرهم ، سواء ، قال الأعشى :

فأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلا الشيب والصلعا[1]

قوله تعالى : (وأوجس منهم خيفةً) أي : أضمر في نفسه خوفاً . قال الفراء : وكانت سُنَّةً في زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسّوه ، ظنوا أنهم عدوٌّ أو لُصُوصٌ ، فهنالك أوجس في نفسه خيفة ، فرأوا ذلك في وجهه ، فقالوا : (لا تخف) .

قوله تعالى : (إنا أُرسلنا إلى قوم لوط) قال الزجاج : أي : أُرسلنا بالعذاب إليهم . قال ابن الأنباري : وإنما أُضمر ذلك هاهنا ، لقيام الدليل عليه بذكر الله تعالى له في سورة أخرى .

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَاوَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

قوله تعالى : (وامرأته قائمة) واسمها سارة . واختلفوا أين كانت قائمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : وراء الستر تسمع كلامهم ، قاله وهب .
والثاني : كانت قائمة تخدمهم ، قاله مجاهد ، والسدي .
والثالث : كانت قائمة تصلي ، قاله محمد بن إسحاق .

(١) قائله الأعشى الكبير ميمون بن قيس من قصيدة يمدح بها هوذة بن علي الحنفي ديوانه : ١٠١ و « الطبري » ١٥/٣٨٨ ، و « مجاز القرآن » ١/٢٩٣ ، و « القرطبي » ٩/٦٧ ، و « شواهد الكشاف » ١٦٩ . و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : نكر .

وفي قوله : (فضحكت) ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الضحك هاهنا بمعنى التعجب ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن معنى « ضحكت » : حاضت ، قاله مجاهد ، وعكرمة . قال ابن قتيبة : وهذا من قولهم : ضحكت الأرنب : إذا حاضت . فعلى هذا ، يكون حيضها حينئذ تأكيداً للبشارة بالولد ، لأن من لا تحيض لا تحمل . وقال الفراء : لم نسمع من ثقة أن معنى « ضحكت » حاضت . قال ابن الأنباري : أنكر الفراء ، وأبو عبيدة ، وأبو عبيد ، أن يكون « ضحكت » بمعنى حاضت ، وعرفه غيرهم . قال الشاعر :

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئْبَ لها يَسْتَهِلْ[1]

قال بعض أهل اللغة : معناه : تحيض .

والثالث : أنه الضحك المعروف ، وهو قول الأكثرين .

وفي سبب ضحكها ستة أقوال :

أحدها : أنها ضحكت من شدة خوف إبراهيم من أضيافه ، وقالت : من ماذا يخاف إبراهيم ، وإنما هم ثلاثة ، وهو في أهله وغلمانه ؟! رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : أنها ضحكت من بشارة الملائكة لإبراهيم بالولد ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، ووهب بن منبه ؛ فعلى هذا ، إنما ضحكت سروراً بالبشارة ، ويكون في الآية تقديم وتأخير ، المعنى : وامرأته قائمة فبشرناها فضحكت ، وهو اختيار ابن قتيبة .

---

(١) اللسان : ضحك .

والثالث : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم ، قاله قتادة .

والرابع : ضحكت من إمساك الأضياف عن الأكل ، وقالت : عجباً لأضيافنا ، نخدمهم بأنفسنا ، وهم لا يأكلون طعامنا ! قاله السدي .

والخامس : ضحكت سروراً بالأمن ، لأنها خافت كخوف إبراهيم ، قاله الفراء .

والسادس : أنها كانت قالت لإبراهيم : اضمم إليك ابن أخيك لوطاً ، فانه سينزل العذاب بقومه ، فلما جاءت الملائكة بعذابهم ، ضحكت سروراً بموافقتها للصواب ، ذكره ابن الأنباري .

قال المفسرون : قال جبريل لسارة : أبْشِري أيتها الضاحكة بولد اسمه إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فبشروها أنها تلد إسحاق ، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد .

وفي معنى الوراء قولان :

أحدهما : أنه بمعنى « بعد » ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره مقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : أن الوراء : ولد الولد ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الشعبي ، واختاره أبو عبيدة .

فان قيل : كيف يكون يعقوب وراء إسحاق وهو ولده لصلبه ، وإنما الوراء : ولد الولد ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : المعنى : ومن وراء المنسوب إلى إسحاق يعقوب ، لأنه قد كان الوراء لإبراهيم من جهة إسحاق ، فلو قال : ومن الوراء يعقوب ، لم يُعلَم أهذا الوراء منسوب إلى إسحاق ، أم إلى

إسماعيل ؟ فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس . قال : ويجوز أن ينسب ولد إبراهيم من غير إسحاق الى سارة على جهة المجاز ، فكان تأويل الآية : من الوراء المنسوب إلى سارة ، والى إبراهيم من جهة إسحاق ، يعقوب . ومن حمل الوراء على « بعد » لزم ظاهر العربية .

واختلف القراء في « يعقوب » ، فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يعقوبُ » بالرفع . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : « يعقوبَ » بالنصب .

قال الزجاج : وفي رفع « يعقوب » وجهان .

أحدهما : على الابتداء المؤخَّر ، معناه التقديم ؛ والمعنى : ويعقوبُ يَحْدُثُ لها من وراء إسحاق .

والثاني : وثبت لها من وراء إسحاق يعقوبُ .

ومن نصبه ، حمله على المعنى ، والمعنى : وهبنا لها إسحاقَ ، ووهبنا لها يعقوبَ .

قوله تعالى : (ياويلتى أألد وأنا عجوز) هذه الكلمة تقال عند الإيذان بورود الأمر العظيم . ولم تُرِد بها الدعاء على نفسها ، وإنما هي كلمة تخفُّ على ألسنة النساء عند الأمر العجيب . وقولها : (أألد) استفهام تعجب . قال الزجاج : و(شيخاً) منصوب على الحال . قال ابن الأنباري : إنما أشارت بقولها هذا لتنبِّه على شيخوخيَّته .

واختلفوا في سن إبراهيم وسارة يومئذ على أربعة أقوال :

أحدها : أنه كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة ، وسارة بنت ثمان وتسعين سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه كان إبراهيم ابن مائة سنة ، وسارة بنت تسع وتسعين ، قاله مجاهد .

والثالث : كان إبراهيم ابن تسعين ، وسارة مثله ، قاله قتادة .

والرابع : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، وسارة بنت تسعين ، قاله عبيد بن عمير ، وابن إسحاق .

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾

قوله تعالى : (قالوا أتعجبين من أمر الله) أي : من قضائه وقدرته ، وهو إيجاد ولد من بين كبيرين . قال السدي : قالت سارة لجبرئيل : ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتزّ أخضر ، فقالت : هو إذن لله ذبيحٌ .

قوله تعالى : (رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ البيت) فيه وجهان .

أحدهما : أنه من دعاء الملائكة لهم .

والثاني : أنه إخبار عن ثبوت ذلك لهم .

ومن تلك البركات وجود أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة .

والحميد بمعنى المحمود . فأما المجيد ، فقال ابن قتيبة : بمعنى الماجد ، وهو الشريف . وقال أبو سليمان الخطابي : هو الواسع الكرم . وأصل المجد في كلامهم : السَّعَة ، يقال : رجل ماجد : إذا كان سخياً واسع العطاء . وفي بعض الأمثال : في كل شجر نار ، واستمجدَ المرْخُ والعَفَارُ [1] ، أي : استكثرا منها [2] .

---

(١) المرخ والعفار : شجرتان فيها نار ليس في غيرهما من الشجر ، ويسوى من أغصانها الزناد فيقتدح بها .

(٢) أي : من النار ، كأنها أخذا من النار ماهو حسبها فصلحا للاقتداح بها ، فشبها بمن يكثر من العطاء طلباً للمجد .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

قوله تعالى : (فلما ذهب عن إبراهيم الرَّوْعُ) يعني الفزَع الذي أصابه حين امتنعوا من الأكل . (يجادلنا) فيه إضمار أخذ وأقبل يجادلنا ، والمراد : يجادل رسلنا .

قال المفسرون : لما قالوا له : (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) [العنكبوت : ٣١] ، قال : أتهلكون قرية فيها مائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أتهلكون قرية فيها خمسون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : أربعون ؟ قالوا : لا . فما زال ينقص حتى قال : فواحد ؟ قالوا : لا . فقال حينئذ : (إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها) [العنكبوت : ٣١] ، هذا قول ابن إسحاق . وقال غيره : قيل له : إن كان فيهم خمسة لم نعذِّبْهم ، فما كان فيهم سوى لوط وابنتيه . وقال سعيد بن جبير : قال لهم : أتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا ؛ وكان إبراهيم يَعُدُّهم أربعة عشر مع امرأة لوط ، فسكتَ واطمأنَّتْ نفسه ؛ وإنما كانوا ثلاثة عشر فأُهلكوا .

قوله تعالى (: إن إبراهيم لحليم أوَّاهٌ) قد فسرناه في (براءة : ١١٤) . فعند ذلك قالت الرسل لإبراهيم : (ياإبراهيم أعرض عن هذا) يعنون الجدال . (إنه قد جاء أمر ربك) بعذابهم . وقيل : قد جاء عذاب ربك ، فليس بمردود ، لأن الله قد قضى به .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا

يَعْمَلُونَ السَّيِّآتِ قَالَ يَاقَوْمِ هؤُلاَءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَانُرِيدُ . قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً) قال المفسرون : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فأتَوْهَا عشاءً . وقال السدي عن أشياخه : أتَوْهَا نصف النهار ، فلما بلغوا نهر سدوم ، لقوا بنت لوط تستقي الماء لأهلها ، فقالوا لها : ياجارية ، هل من منزل ؟ قالت : نعم ، مكانكم لاتدخلوا حتى آتيكم فَرَقاً عليهم من قومها ؛ فأتت أباها ، فقالت : ياأبتاه ، أدرك فتياناً على باب المدينة مارأيت وجوه قوم هي أحسن منهم ، لايأخذهم قومك فيفضحوهم ؛ وقد كان قومه نَهَوْهُ أن يضيف رجلاً ؛ فجاء بهم ، ولم يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط ؛ فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجاؤوا يُهْرَعُونَ إليه .

قوله تعالى : (سيء بهم) فيه قولان :

أحدهما : ساء ظنه بقومه ، قاله ابن عباس .

والثاني : ساءه مجيء الرسل ، لأنه لم يعرفهم ، وأشفق عليهم من قومه ، قاله ابن جرير .

قال الزجاج : وأصل « سيء بهم » سُوِىءَ بهم ، من السوء ، إلا أن الواو أسكنت ونقلت كسرتها إلى السين .

قوله تعالى : (وضاق بهم ذرعاً) قال ابن عباس : ضاق ذرعاً بأضيافه . قال الفراء : الأصل فيه : وضاق ذرعه بهم ، فنُقل الفعل عن الذرع إلى ضمير لوط ، ونُصب الذرع بتحول الفعل عنه ، كما قال : (واشتعل الرأس شيباً) [مريم : ٤] ومعناه : اشتعل شيب الرأس .

قال الزجاج : يقال : ضاق فلان بأمره ذرعاً : اذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً . وذكر ابن الأنباري فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : وقع به مكروه عظيم لا يصل إلى دفعه عن نفسه ؛ فالذرع كناية عن هذا المعنى .

والثاني : أن معناه : ضاق صبره وعظم المكروه عليه ؛ وأصله من ذرع فلاناً القيء : إذا غلبه وسبقه .

والثالث : أن المعنى : ضاق بهم وُسْعُه ، فناب الذرع والذراع عن الوسع ، لأن الذراع من اليد ، والعرب تقول : ليس هذا في يدي ، يعنون : ليس هذا في وُسْعِي ؛ ويدل على صحة هذا أنهم يجعلون الذراع في موضع الذرع ، فيقولون : ضقت بهذا الأمر ذراعاً ، قال الشاعر :

إِلَيْكَ إِلَيْكَ ضَاقَ بِهِم ذِرَاعَا

فأما العصيب ، فقال أبو عبيدة : العصيب : الشديد الذي يعصب الناس بالشر ، وأنشد :

يَوْمٌ عَصِيبٌ يَعْصِبُ الأَبْطَالاَ عَصْبَ القَوِيِّ السَّلَمَ الطِّوَالا [١]

وقال أبو عبيد : يقال : يوم عصيب ، ويوم عصبصب : إذا كان شديداً .

---

(١) البيت غير منسوب في « مجاز القرآن » ١/٢٩٤ ، و « الطبري » ١٥/٤١٠ .

قوله تعالى : (يهرعون إليه) قال ابن عباس ، ومجاهد : « يهرعون » يسرعون . وقال الفراء ، والكسائي : لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رِعدة . قال ابن قتيبة : الإهراع شبيه بالرِعدة ، يقال : أُهرع الرجل : إذا أُسرع ، على لفظ ما لم يسم فاعله ، كما يقال : أُرعد . قال ابن الأنباري : الإهراع فعل واقع بالقوم وهو لَهم في المعنى ، كما قالت العرب : قد أُولع الرجل بالأمر ، فجعلوه مفعولاً ، وهو صاحب الفعل ، ومثله : أُرعد زيد ، وسُهي عمرو من السهو ، كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول ، وهو صاحب الفعل لا يُعرف له فاعل غيره . قال : وقال بعض النحويين : لا يجوز للفعل أن يُجعل فاعله مفعولاً ، وهذه الأفعال المذكورة فاعلوها محذوفون ، وتأويل « أولع زيد » : أُولعه طبعه وجِبلّته ، و « أُرعد الرجل » : أرعده غضبه ، و « سهي عمرو » جعله ساهياً مالُه أو جهله ، و « أُهرع » معناه : أهرعه خوفه ورعبه ؛ فلهذه العلة خرّج هؤلاء الأسماء مخرج المفعول به . قال : وقال بعض اللغويين : لا يكون الإهراع إلا إسراع المذعور الخائف ؛ لا يقال لكل مسرع : مهرع حتى ينضم إلى إسراعه جزع وذعر . قال المفسرون : سبب إهراعهم ، أن امرأة لوط أخبرتهم بالأضياف .

(ومن قبل) أي : ومن قبل مجيئهم إلى لوط (كانوا يعملون السيئات) يعني فعلهم المنكر .

وفي قوله : (هؤلاء بناتي) قولان :

أحدهما : أنهن بناته لصلبه ، قاله ابن عباس .

فان قيل : كيف جمع ، وقد كن اثنتين ؟

فالجواب : أنه قد يقع الجمع على اثنين ، كقوله : (وكنا لحكمهم شاهدين) [الأنبياء : ٧٨] .

والثاني : أنه عنى نساء أُمته ، لأن كل نبي أبو أُمته ، والمعنى : أنه عرض عليهم التزويج ، أو أمرهم أن يكتفوا بنسائهم ، وهذا مذهب مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج .

فان قيل : كيف عرض تزويج المؤمنات على الكافرين ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه قد كان يجوز ذلك في شريعته ، وكان جائزاً في صدر الإسلام حتى نسخ ، قاله الحسن .

والثاني : أنه عرض ذلك عليهم بشرط إسلامهم ، قاله الزجاج ، ويؤكده أن عرضهن عليهم موقوف على عقد النكاح ، فجاز أن يقف على شرط آخر .

قوله تعالى : (هن أطهر لكم) قال مقاتل : هن أحل من إتيان الرجال .

قوله تعالى : (فاتقوا الله) فيه قولان :

أحدهما : اتقوا عقوبته . والثاني : اتقوا معصيته .

قوله تعالى : (ولا تُخزونِ في ضيفي) حرك ياء « ضيفي » أبو عمرو ، ونافع .

وفي معنى هذا الخزي ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الفضيحة ، قاله ابن عباس . والثاني : الاستحياء ، والمعنى : لاتفعلوا بأضيافي فعلاً يلزمني الاستحياء منه ، لأن المضيف يلزمه الاستحياء من كل فعل يصل إلى ضيفه . والعرب تقول : قد خزي الرجل يخزى خِزاية : إذا استحيى ، قال الشاعر :

مِنَ البِيْضِ لاتَخْزَى إذا الرِّيْحُ ألْصَقَتْ

بِها مِرْطَها أوْ زَايَلَ الحَلْيُ جِيْدَها

والثالث : أنه بمعنى الهلاك ، لأن المعرة التي تقع بالمضيف في هذه الحال تُلزمه هلكة ، ذكرها ابن الأنباري .

قال ابن قتيبة : والضيف هاهنا : بمعنى الأضياف ، والواحد يدل على الجميع ، كما تقول : هؤلاء رسولي ووكيلي .

قوله تعالى : (أليس منكم رجل رشيد) في المراد بالرشيد قولان :

أحدهما : المؤمن . والثاني : الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، رويا عن ابن عباس .

قال ابن الأنباري : يجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشِد ، فيكون المعنى : أليس منكم مرشِد يعظكم ويعرِّفكم قبيح ماتأتون ؟ فيكون الرشيد من صفة الفاعل ، كالعليم ، والشهيد . ويجوز أن يكون الرشيد بمعنى المرشَد ، فيكون المعنى : أليس منكم رجل قد أسعده الله بما منحه من الرشاد يصرفكم عن إتيان هذه المعرَّة ؟ فيجري رشيد مجرى مفعول ، كالكتاب الحكيم بمعنى المحكم .

قوله تعالى : (مالنا في بناتك من حق) فيه قولان :

أحدهما : مالنا فيهن حاجة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لسن لنا بأزواج فنستحقهن ، قاله ابن إسحاق ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (وإنك لتعلم مانريد) قال عطاء : وإنك لتعلم أنا نريد الرجال ، لا النساء .

قوله تعالى : (لو أن لي بكم قوة) أي : جماعة أقوى بهم عليكم . وقيل : أراد بالقوة البطش . (أو آوي إلى ركن شديد) أي : أنضم إلى عشيرة وشيعة تمنعني . وجواب « لو » محذوف على تقدير : لحلْتُ بينكم وبين المعصية . قال أبو عبيدة : قوله : « آوي » من قولهم : أويت إليك ، فأنا آوي أُويّاً ،

والمعنى : صرت إليك وانضممت . ومجاز الركن هاهنا : العشيرة العزيزة الكثيرة المنيعة ، وأنشد :

يأوي إلى رُكْنٍ مِنَ الأَرْكَانِ في عددٍ طَيْسٍ ومجدٍ باني [١]

والطَّيْس : الكثير ، يقال : أتانا لبن طيس ، وشراب طيس ، أي : كثير .

واختلفوا أي وقت قال هذا لوط ؛ فروي عن ابن عباس أن لوطاً كان قد أغلق بابه والملائكة معه في الدار ، وهو يناظرهم ويناشدهم وراء الباب ، وهم يعالجون الباب ويرومون تسوّر الجدار ؛ فلما رأت الملائكة مايلقى من الكرب ، قالوا : يالوط إنا رسل ربك ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب ، فدخلوا ،واستأذن جبريل ربه في عقوبتهم ، فأذن له ، فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم ، فانصرفوا يقولون : النجاءَ النجاءَ ، فان في بيت لوط أسحر قوم في الأرض ؛ وجعلوا يقولون : يالوط ، كما أنت حتى تصبح ، يوعدونه ؛ فقال لهم لوط : متى موعد هلاكهم ؟ قالوا : الصبح ، قال : لو أهلكتموهم الآن ، فقالوا : أليس الصبح بقريب ؟ وقال أبو صالح عن ابن عباس : إنهم لما تواعدوه ، قال في نفسه : ينطلق هؤلاء القوم غداً من عندي ، وأبقى مع هؤلاء فيهلكوني ، فقال : لو أن لي بكم قوة .

قلت : وإنما يتوجه هذا إذا قلنا : إنه كان قبل علمه أنهم ملائكة . وقال قوم : إنه إنما قال هذا لما كسروا بابه وهجموا عليه . وقال آخرون : لما نهاهم عن أضيافه فأبَوْا قال هذا .

وفي الجملة ، ما أراد بالركن نصر الله وعونه ، لأنه لم يخل من ذلك ، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رحم الله لوطاً ، لقد

---

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » ١٥/٤٣٢ وفي « مجاز القرآن » ١/٢٩٤ .

كان يأوي إلى ركن شديد ، وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه »[1] .

قوله تعالى : (لن يصلوا إليك) قال مقاتل : فيه إضمار ، تقديره : لن يصلوا إليك بسوء ، وذلك أنهم قالوا للوط : إنا نرى معك رجالاً سحروا أبصارنا ، فستعلم غداً ما تَلْقى أنت وأهلُك ؛ فقال له جبريل : (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) .

قوله تعالى : (فأسر بأهلك) قرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « فأسر » بإثبات الهمز في اللفظ من أسريت . وقرأ ابن كثير ، ونافع « فاسر بأهلك » بغير همز من سريت ، وهما لغتان . قال الزجاج : يقال : سريت ، وأسريت : إذا سرت ليلاً ، قال الشاعر :

سريت بهم حتى تكلَّ مَطيُّهم وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرسان

وقال النابغة :

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوْزَاءِ سَارِيَةٌ
تُزجِي الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرَدِ[2]

وقد رووه : سرت . فأما أهله ، فقال مقاتل : هم امرأته وابنتاه ، واسم ابنتيه : رُبْثا وزُعَرْثا . وقال السدي : اسم الكبرى : ريَّة ، واسم الصغرى : عروبة ،

---

(١) « الطبري » ١٥/٤١٩ - ٤٢٠ ، ورواه الترمذي ٢/١٣٩ وقال : حديث حسن ، والحاكم ٢/٥٦١ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ، ورواه البخاري : ٦/٢٩٧ دون قوله : « وما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » .

(٢) ديوانه : ٤ بشرح ابن السكيت ، و « مجاز القرآن » ١/٢٩٥ ، و « مختار الشعر الجاهلي » ١/١٥٠ ، و « القرطبي » ٩/٧٩ ، و « اللسان » ، و « التاج » : سرت . وأسرت : إذا أمطرت ليلاً ، وقوله : « من الجوزاء سارية » كقولك : سقينا بنوء كذا ، أي : أصابه المطر ليلاً ، وتزجي : تسوق وتدفع على الثور جامد البرد .

والمراد بأهله : ابنتاه . فأما القِطْع ، فهو بمعنى القطعة ؛ يقال : مضى قِطْع من الليل ، أي : قطعة . قال ابن عباس : يريد به : آخر الليل . وقال ابن قتيبة : « بقِطْع » أي : ببقية تبقى من آخره . وقال ابن الأنباري : ذكر القِطْع بمعنى القطعة مختص بالليل ، ولا يقال : عندي قِطْع من الثوب ، بمعنى : عندي قطعة.

قوله تعالى : (ولا يلتفت منكم أحد) فيه قولان :

أحدهما : أنه بمعنى : لا يتخلَّفْ منكم أحد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ،

والثاني : أنه الالتفات المعروف ، قاله مجاهد ، ومقاتل .

قوله تعالى : (إلا امرأتك) قرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بنصب التاء . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن جمّاز عن أبي جعفر برفع التاء . قال الزجاج : من قرأ بالنصب ، فالمعنى : فأسر بأهلك إلا امرأتكَ . ومن قرأ بالرفع ، حمله على « ولا يلتفتْ منكم أحد إلا امرأتك » . وإنما أُمروا بترك الالتفات لئلا يَرَوْا عظيم ما ينزل بهم من العذاب . قال ابن الأنباري : وعلى قراءة الرفع ، يكون الاستثناء منقطعاً ، معناه : لكن امرأتك ، فانها تلتفت فيصيبها ما أصابهم ؛ فاذا كان استثناءً منقطعاً ، كان التفاتُها معصيةً لربها ، لأنه ندب إلى ترك الالتفات . قال قتادة : ذُكر لنا أنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت هَدّة العذاب ، التفتت فقالت : واقوماه ، فأصابها حجر فأهلكها ، وهو قوله : (إنه مصيبُها ما أصابهم إن موعدهم) للعذاب (الصبح) .

قوله تعالى : (أليس الصبح بقريب) قال المفسرون : قالت الملائكة : « إن موعدهم الصبح » فقال : أريد أعجل من ذلك ، فقالوا له : « أليس الصبح بقريب » ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (فلما جاء أمرنا) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أمرُ الله الملائكةَ بعذابهم . والثاني : أن الأمر بمعنى العذاب . والثالث : أنه بمعنى القضاء بعذابهم .

قوله تعالى : (جعلنا عاليها سافلها) الكناية تعود إلى المؤتفكات ، وهي قرى قوم لوط ، وقد ذكرناها في (براءة : ٧٠) ، ونحن نشير إلى قصة هلاكهم هاهنا . قال ابن عباس : أمر جبريل لوطاً بالخروج ، وقال : اخرج وأخرج غنمك وبقرك ، فقال : كيف لي بذلك وقد أُغلقت أبواب المدينة ؟ فبسط جناحه ، فحمله وبنتيه ومالهم من شيء ، فأخرجهم من المدينة ، وسأل جبريل ربَّه ، فقال : يارب ولِّني هلاك هؤلاء القوم ، فأوحى الله إليه أن تولّ هلاكهم ؛ فلما أن بدا الصبح ، غدا عليهم جبريل فاحتملها على جناحه ، ثم صَعِدَ بها حتى خرج الطير في الهواء لايدري أين يذهب ، ثم كفأَها عليهم ، وسمعوا وَجْبَةً [1] شديدة ، فالتفتت امرأة لوط ، فرماها جبريل بحجر فقتلها ، ثم صَعِدَ حتى أشرف على الأرض ، فجعل يُتْبِعُهُمْ مُسافِرَهم وَرُعاتَهم ومَنْ تحوّل عن القرية ، فرماهم بالحجارة حتى قتلهم . وقال السدي : اقتلع جبريل الأرض من سبع أرضين ، فاحتملها حتى بلغ بها إلى أهل السماء الدنيا ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم قلبها . وقال غيره : كانت خمس قرى ، أعظمها سَدوم ، وكان القوم أربعة آلاف ألف . وقيل : كان في كل قرية مائة ألف مقاتل ، فلما رفعها إلى السماء ، لم ينكسر لهم إناء ولم

---

(١) الوجبة : صوت الشيء يسقط فيسمع له كالهَدّة .

يسقط حتى قلبها عليهم . وقيل : نجا من الخمس واحدة لم تكن تعمل مثل عملهم . وانفرد سعيد بن جبير ، فقال : إن جبريل وميكائيل تولـّيا قلبها .

قوله تعالى : (وأمطرنا عليها) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى القرى . والثاني : إلى الأمة .

وفي السِّجِيل سبعة أقوال :

أحدها : أنها بالفارسية سَنْك وكِلْ ، السنك : الحجر ، والكل : الطين ، هذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وقال مجاهد : أولها حجر ، وآخرها طين . وقال الضحاك : يعني الآجرّ . قال ابن قتيبة : من ذهب إلى هذا القول ، اعتبره بقوله : (حجارة من طين) [الذاريات : ٣٣] يعني الآجر . وحكى الفراء أنه طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الأرحاء .

والثاني : أنه بحر معلـّق في الهواء بين السماء والأرض ، ومنه نزلت الحجارة ، قاله عكرمة .

والثالث : أن السجيل : اسم السماء الدنيا ، فالمعنى : حجارة من السماء الدنيا ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنه الشديد من الحجارة الصلب ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لابن مقبل :

[وَرَجْلَةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُضٍ]
ضربًا تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينَا [1]

(١) ديوانه : ٣٣٣ ، و « مجاز القرآن » ٢٩٦ ، و « الطبري » ١٥/٤٣٤ ، و « جمهرة أشعار العرب » ١٦٢ ، و « منتهى الطلب » ٤٤ ، و « المعاني الكبير » ٩٩١ ، و « اللسان » : سجن .

وردّ هذا القول ابن قتيبة ، فقال : هذا بالنون ، وذاك باللام ، وإنما هو في هذا البيت فعيل من سجنت ، أي : حبست ، كأنه يثبت صاحبه .

والخامس : أن قوله : « من سجيل » كقولك : من سِجلّ ، أي : مما كُتب لهم أن يعذّبوا به ، وهذا اختيار الزجاج .

والسادس : أنه من أسجلته ، أي : أرسلته ، فكأنها مرسلة عليهم .

والسابع : أنه من أسجلت : إذا أعطيت ، حكى القولين الزجاج .

وفي قوله : (منضود) ثلاثة أقوال :

أحدها : يتبع بعضه بعضاً ، قاله ابن عباس . والثاني : مصفوف ، قاله عكرمة ، وقتادة . والثالث : نضد بعضه على بعض ، لأنه طين ُجمع فجُعل حجارة ، قاله الربيع بن أنس .

قوله تعالى : (مسوَّمةً) قال الزجاج : أي معلَّمة ، أُخذ من السُّومة ، وهي العلامة .

وفي علامتها ستة أقوال :

أحدها : بياض في حمرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثاني : أنها كانت مختومة ، فالحجر أبيض وفيه نقطة سوداء ، أو أسود وفيه نقطة بيضاء ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنها المخططة بالسواد والحمرة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : عليها نضح من حمرة فيها خطوط حمر على هيأة الجِزع ، قاله عكرمة ، وقتادة .

والخامس : أنها كانت معلَّمة بعلامة يُعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا ، قاله ابن جريج .

والسادس : أنه كان على كل حجر منها اسم صاحبه ، قاله الربيع . وحكي عن بعض من رأى تلك الحجارة أنه قال : كانت مثل رأس الإبل ، ومثل مبارك الإبل ، ومثل قبضة الرجل .

وفي قوله : (عند ربك) أربعة أقوال :

أحدها : أن المعنى : جاءت من عند ربك ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : عند ربك معدَّة ، قاله أبو بكر الهزلي .

والثالث : أن المعنى : هذا التسويم لزم هذه الحجارة عند الله إيذاناً بنفاذ قدرته وشدة عذابه ، قاله ابن الأنباري .

والرابع : أن معنى قوله : « عند ربك » : في خزائنه التي لايُتصرَّف في شيء منها إلا باذنه .

قوله تعالى : (وما هي من الظالمين ببعيد) في المراد بالظالمين هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد بالظالمين هاهنا : كفار قريش ، خوَّفهم الله بها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه عام في كل ظالم ؛ قال قتادة : والله ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط ، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر .

والثالث : أنهم قوم لوط ، فالمعنى : وما هي من الظالمين ، أي : من قوم لوط ببعيد ، والمعنى : لم تكن لتُخطئهم ، قاله الفراء .

وإلَى مَدْيَنَ أخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إنِّي أرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَاقَوْمِ أوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وإلى مدين) قد ذكرناه في (الأعراف : ٨٥) .

قوله تعالى : (ولا تنقصوا المكيال والميزان) أي : لاتطفِّفوا ؛ وكانوا يطفِّفون مع كفرهم .

قوله تعالى : (إني أراكم بخير) فيه قولان :

أحدهما : أنه رُخْص الأسعار ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : سَعَةُ المال ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة ، وابن زيد . وقال الفراء : أموالكم كثيرة ، وأسعاركم رخيصة ، فأي حاجة بكم إلى سوء الوزن والكيل ؟ !

قوله تعالى : (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه غلاء السعر ، قاله ابن عباس . وقال مجاهد : القحط والجدب والغلاء .

والثاني : العذاب في الدنيا ، وهو الذي أصابهم ، قاله مقاتل .

والثالث : عذاب النار في الآخرة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أي : أتمُّوا ذلك بالعدل . والإيفاء : الإتمام . (ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين) بنقص المكيال والميزان .

﴿ بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَانَشَؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَاأَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَااسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . وَيَاقَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَاأَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ . قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَانَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ . وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

قوله تعالى : (بقيَّةُ الله خير لكم) فيه ثمانية أقوال :

أحدها : ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن، خير من البخس ، قاله ابن عباس .

والثاني : رزق الله خير لكم ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال سفيان .

والثالث : طاعة الله خير لكم ، قاله مجاهد ، والزجاج .

والرابع : حظكم من الله خير لكم ، قاله قتادة .

والخامس : رحمة الله خير لكم ، قاله ابن زيد .

والسادس : وصية الله خير لكم ، قاله الربيع .

والسابع : ثواب الله في الآخرة خير لكم ، قاله مقاتل .

والثامن : مراقبة الله خير لكم ، ذكره الفراء .

وقرأ الحسن البصري :« تقية الله خير لكم » بالتاء .

قوله تعالى : (إن كنتم مؤمنين) شرطَ الإيمان في كونه خيراً لهم ، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله عز وجل ، عرفوا صحة مايقول .

وفي قوله : (وما أنا عليكم بحفيظ) ثلاثة أقوال :

أحدها : ما أُمرْتُ بقتالكم وإكراهكم على الإيمان .

والثاني : ما أُمرتُ بمراقبتكم عند كيلكم لئلا تبخسوا .

والثالث : ما أحفظكم من عذاب الله إن نالكم .

قوله تعالى : (أصلواتك تأمرك) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وحفص : « أصلاتك » على التوحيد .

وفي المراد بصلواته ثلاثة أقوال : أحدها : دينه ، قاله عطاء . والثاني : قراءته ، قاله الأعمش . والثالث : أنها الصلوات المعروفة . وكان شعيب كثيرَ الصلاة .

قوله تعالى : (أو أن نفعل في أموالنا مانشاء) قال الفراء : معنى الآية : أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟

وفي معنى الكلام على قراءة من قرأ بالنون قولان .

أحدها : أن فعلهم في أموالهم هو البخس والتطفيف ، قاله ابن عباس ؛ فالمعنى : قد تراضينا فيما بيننا بذلك .

والثاني : أنهم كانوا يقطعون الدراهم والدنانير ، فنهاهم عن ذلك ، قاله ابن زيد . وقال القرظي : عُذِّبوا في قطعهم الدراهم . قال ابن الأنباري : وقرأ الضحاك بن قيس الفهري « ماتشاء » بالتاء ، ونسق « أن تفعل » على « أن نترك » ، واستغنى عن الإضمار . قال سفيان الثوري : في معنى هذه القراءة أنه أمرهم بالزكاة فامتنعوا . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وابن أبي عبلة : « أو أن تفعل في أموالنا ماتشاء » بالتاء فيهما ؛ ومعنى هذه القراءة كمعنى قراءة الفهري .

وفي قوله : (إنك لأنت الحليم الرشيد) أربعة أقوال :

أحدها : أنهم قالوه استهزاءً به ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والفراء .

والثاني : أنهم قالوا له : إنك لأنت السفيه الجاهل ، فكنى بهذا عن ذلك ، ذكره الزجاج .

والثالث : أنهم سبّوه بأنه ليس بحليم ولا رشيد ، فأثنى الله عز وجل عليه فقال : بل إنك لأنت الحليم الرشيد ، لا كما قال لك الكافرون ، حكاه أبو سليمان الدمشقي عن أبي الحسن المصيصي .

والرابع : أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد حقيقة ، وقالوا : أنت حليم رشيد ، فلِمَ تنهانا أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟ حكاه الماوردي ، وذهب إلى نحوه ابن كيسان .

قوله تعالى : (إن كنتُ على بيّنةٍ من ربي) قد تقدم تفسيره [هود : ٢٨ و ٦٣] .

وفي قوله : (ورزقني منه رزقاً حسناً) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحلال ؛ قال ابن عباس : وكان شعيب كثيرَ المال .

والثاني : النبوّة . والثالث : العلم والمعرفة .

قال الزجاج : وجواب الشرط هاهنا متروك ، والمعنى : إن كنت على بينة من ربي ، أتبع الضلال ؟ فترك الجواب ، لعلم المخاطَبين بالمعنى ، وقد مرّ مثل هذا .

قوله تعالى : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه . وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم القصد إلى ارتكابه .

قوله تعالى : (إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت) أي : ما أريد بما آمركم به إلا إصلاح أموركم بقدر طاقتي . وقدر طاقتي : إبلاغكم لا إجباركم .

قوله تعالى : (وما توفيقي إلا بالله) فتح تاء « توفيقي » أهل المدينة ، وابن عامر . ومعنى الكلام : ما أصابتي الحق في محاولة صلاحكم إلا بالله . (عليه توكلت) أي : فوضت أمري ، وذلك أنهم تواعدوه بقولهم : (لنخرجنَّك ياشعيب) [الأعراف :٨٨] . (وإليه أنيب) أي : أرجع .

قوله تعالى : (لايجرمنَّكم شِقاقيَ) حرك هذه الياء ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع . قال الزجاج : لاتكسبنَّكم عداوتكم إيايَ أن تعذَّبوا .

قوله تعالى : (وما قوم لوط منكم ببعيد) فيه قولان :

أحدها : أنهم كانوا قريباً من مساكنهم .

والثاني : أنهم كانوا حديثي عهد بعذاب قوم لوط . قال الزجاج : كان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها . قال ابن الأنباري : إنما وحّد بعيداً ، لأنه أزاله عن صفة القوم ، وجعله نعتاً مكان محذوف ، تقديره : وما قوم لوط منكم بمكان بعيد .

قوله تعالى : (إن ربي رحيم ودود) قد سبق معنى الرحيم .

فأما الودود : فقال ابن الانباري : معناه : المحب لعباده ، من قولهم : ودِدت الرجل أوَدّه وُدّاً ووَدّاً ووِدّاً ، ويقال : ودِدت الرجل وِداداً ووَدادة ووِدادة.

وقال الخطابي : هو اسم مأخوذ من الوُدِّ ؛ وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون فعولاً في محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس رَكوب ، بمعنى مركوب ، فالله سبحانه مودود في قلوب أوليائه لما يتعرّفونه من إحسانه إليهم .

والوجه الآخر : أن يكون بمعنى الوادّ ، أي : أنه يودّ عباده الصالحين ، بمعنى أنه يرضى عنهم بتَقَبُّلِ أعمالهم ؛ ويكون معناه : أن يودّدهم إلى خلقه ، كقوله : (سيجعل لهم الرحمن وُدّاً) [مريم : ٩٦] .

قوله تعالى : (ما نفقه كثيراً مما تقول ،) قال ابن الانباري : معناه : ما نفقه صحة كثير مما تقول ، لأنهم كانوا يتديّنون بغيره ، ويجوز أن يكونوا لاستثقالهم ذلك كأنهم لا يفقهونه .

قوله تعالى : (وإنّا لنراك فينا ضعيفاً) فيه أربعة أقوال :

أحدها : ضريراً ؛ قال ابن عباس ، وابن جبير ، وقتادة : كان أعمى .

قال الزجاج : ويقال : إن حِمير تسمي المكفوف : ضعيفاً .

والثاني : ذليلاً ، قاله الحسن ، وأبو روق ، ومقاتل .

وزعم أبو رَوْق أن الله لم يبعث نبياً أعمى ، ولا نبياً به زمانة .

والثالث : ضعيف البصر ، قاله سفيان .

والرابع : عاجزاً عن التصرف في المكاسب ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ولولا رهطك لرجمناك) قال الزجاج : لولا عشيرتك لقتلناك بالرجم ، والرجم من سيء القتلات ، وكان رهطه من أهل ملّتهم ، فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم . وذكر بعضهم أن الرجم هاهنا بمعنى الشتم والأذى .

قوله تعالى : (وما أنت علينا بعزيز) فيه قولان :

أحدهما : بكريم . والثاني : بممتنع أن نقتلك .

قوله تعالى : (أرهطيَ أعزُّ عليكم من الله) وأسكن ياء « رهطي » أهل الكوفة ، ويعقوب ، والمعنى : أتراعون رهطي فيَّ ، ولا تراعون الله فيَّ ؟

قوله تعالى : (واتخذتموه وراءكم) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله الجمهور . قال الفراء : المعنى : رميتم بأمر الله وراء ظهوركم . قال الزجاج : والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر : قد جعل فلان هذا الأمر بظهر ، قال الشاعر :

تميمَ بنَ قيس لا تكونَنَّ حاجَتي بظَهْرٍ فلا يَعْيَا عليَّ جوَابُها[1]

والثاني : أنها كناية عما جاء به شعيب ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (إن ربي بما تعملون محيط) أي : عالم بأعمالكم ، فهو يجازيكم بها .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره إلى قوله : (سوف تعلمون) [الانعام : ١٣٥] .

فان قال قائل : كيف قال هاهنا « سوف » وفي سورة أخرى « فسوف » ؟ [الأنعام : ١٣٥]

فالجواب : أن كلا الأمرين حسن عند العرب ، إن أدخلوا الفاء ، دلّوا على اتصال ما بعد الكلام بما قبله ، وإن أسقطوها ، بَنَوْا الكلام الأول على أنه قد تم ،

(١) البيت تقدم ٥٢١/١ وهو أيضاً في « الكامل » ٤٣٠ ، و « ذيل الأمالي » ٧٨ ، و « أضداد ابن الأنباري » ٢٥٦ .

وما بعده مستأنف ، كقوله : (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً) [البقرة : ٦٧] ، والمعنى : فقالوا : أتتخذنا ، بالفاء ، فحذفت الفاء لتمام ما قبلها .
قال امرؤ القيس :

فقالتْ يَمينَ اللهِ ما لَكَ حيلةٌ   ومَا إنْ أرَى عنْكَ الغَوَايةَ تَنْجلي[1]
خَرَجْتُ بها أمْشي تَجُرّ وَرَاءَنا   على إثرِنا أذْيالَ مِرطٍ مُرحَّلِ

قال ابن الأنباري : أراد : فخرجتُ ، فأسقط الفاء لتمام ما قبلها . ويروى : فقمت بها أمشي .

قوله تعالى : (وارتقبوا إني معكم رقيب) قال ابن عباس : ارتقبوا العذاب ، فإني أرتقب الثواب .

قوله تعالى : (وأخذتِ الذين ظلموا الصيحةُ) قال المفسرون : صاح بهم جبريل فماتوا في أمكنتهم . قال محمد بن كعب : عُذّب أهل مدين بثلاثة أصناف من العذاب ، أخذتهم رجفة في ديارهم ، حتى خافوا أن تسقط عليهم ، فخرجوا منها فأصابهم حرٌّ شديد ، فبعث الله الظُلّة ، فتنادَوا : هلم إلى الظل ؛ فدخلوا جميعاً في الظُلّة ، فصيح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم . قال ابن عباس : لم تعذَّب أمتان قط بعذاب واحد ، إلا قوم شعيب وصالح ، فأما قوم صالح ، فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب ، فأخذتهم من فوقهم ، نشأت لهم سحابة كهيئة الظُلّة فيها ريح بعد أن امتنعت الريح عنهم ، فأتَوْها يستظلّون تحتها فأحرقتهم .

قوله تعالى : (كما بَعِدت ثمود) أي : كما هلكت ثمود .

---

(١) ديوانه : ١٤ ، والمرط : إزار خز له علم ، وإنما تجر مرطها ليخفى أثره وأثرها فلا يستدل عليها ، والمرحل : الموشى ، وهو ضرب من البرود .

قال ابن قتيبة : يقال : بَعِدَ يَبْعَدُ : إذا كان بُعْده هلكة ؛ وبَعُدَ يبعُد : إذا نأى .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) قال الزجاج : بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته . (وسلطان مبين) أي : حجة بيّنة .

قوله تعالى : (فاتَّبَعوا أمر فرعون) وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذه إلهاً . (وما أمر فرعون برشيد) أي : مرشد إلى خير .

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾

قوله تعالى : (يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة) قال الزجاج : يقال : قَدَمْت القوم أقدُمهم ، قَدْماً وقُدوماً : إذا تقدمتهم ؛ والمعنى : يقدمهم إلى النار ؛ ويدل عليه قوله : (فأوردهم النار) قال ابن عباس : أوردهم بمعنى أدخلهم . وقال قتادة : يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار .

قوله تعالى : (وبئس الورد المورود) قال المفسرون : الوِرد : الموضع الذي تَرِده . وقال ابن الأنباري : الوِرد : مصدر معناه : الورود ، تجعله العرب بمعنى الموضع المورود ؛ فتلخيص الحرف : وبئس المدخل المدخول النار .

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾

قوله تعالى : (وأُتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) .

في هذه اللعنة قولان :

أحدهما : أنها في الدنيا الغرق ، وفي الآخرة عذاب النار ، هذا قول الكلبي ، ومقاتل .

والثاني : أنها اللعنة في الدنيا من المؤمنين ، وفي الآخرة من الملائكة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (بئس الرفد المرفود) قال ابن قتيبة : الرفد : العطية ؛ يقول : اللعنة بئس العطية ؛ يقال : رفَدته أرفِده : إذا أعطيته وأعنته . والمرفود : المعطى .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

قوله تعالى : (ذلك من أنباء القرى) يعني ما تقدم من الخبر عن القرى المهلكة . (نقصّه عليك) أي : نخبرك به . (منها قائم وحصيد) قال قتادة : القائم : مايرى مكانه ، والحصيد : لايرى أثره . وقال ابن قتيبة : القائم : الظاهر العين ، والحصيد : الذي قد أبيد وحُصد . وقال الزجاج : القائم : ما بقيت حيطانه ، والحصيد : الذي خُسف به وما قد امَّحى أثره .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (وما ظلمناهم) أي : بالعذاب والإهلاك . (ولكن ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعاصي . (فما أغنت عنهم آلهتهم) أي : فما نفعتهم ولا دفعت عنهم شيئاً (لمَاَّ جاَءَ أَمْرُ ربك) بالهلاك . (وما زادوهم) يعني الآلهة (غير تتبيب) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه التخسير ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ،

وقتادة ، واختاره ابن قتيبة ، والزجاج . والثاني : أنه الشر ، قاله ابن زيد . والثالث : التدمير والإهلاك ، قاله أبو عبيدة .

فان قيل : الآلهة جماد ، فكيف قال : « زادوهم » ؟ فمنهْ جوابان :

أحدها : وما زادتهم عبادتها .

والثاني : أنها في القيامة تكون عوناً عليهم فتزيدهم شراً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك أخْذُ ربك) أي : وكما ذُكر من إهلاك الأمم وأخذهم بالعذاب أخْذُ ربك . (إذا أخذ القرى وهي ظالمة) وصف القرى بالظلم، والمراد أهلها . وقال ابن عباس : الظلم هاهنا : بمعنى الكفر .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾

قوله تعالى : (إن في ذلك لآية) يعني ما ذُكر من عذاب الأمم وأخْذِهم . والآية : العبرة والعظة . (ذلك يوم مجموع له الناس) لأن الخلق يُحشرون فيه ، ويَشهده البَرُّ والفاجر ، وأهل السماء والأرض . . (وما نؤخره) وروى زيد عن يعقوب ، وأبو زيد عن المفضل « وما يؤخره بالياء » والمعنى : وما نؤخر ذلك اليوم إلا لوقت معلوم لايعلمه إلا الله .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ .

خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

قوله تعالى : (يوم يأت) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي : « يوم يأتي » بياء في الوصل ، وحذفوها في الوقف ؛ غير أن ابن كثير كان يقف بالياء ، ويصل بالياء . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة بغير ياء في الوصل والوقف . قال الزجاج : الذي يختاره النحويون « يوم يأتي » باثبات الياء ، والذي في المصحف وعليه أكثر القراءات بكسر التاء ، وهذيل تستعمل حذف هذه الياءات كثيراً . وقد حكى الخليل ، وسيبويه ، أن العرب تقول : لاأدرِ ، فتحذف الياء ، وتجتزىء بالكسرة ، ويزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . وقال الفراء : كل ياء ساكنة وما قبلها مكسور ، أو واو ساكنة وما قبلها مضموم ، فان العرب تحذفها وتجتزىء بالكسرة من الياء ، وبالضمة من الواو ، وأنشدني بعضهم :

كفَّاكَ كَفٌّ مَاتُلِيقُ دِرْهَمَا ... جُودَاً وأُخْرَى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدَّما

قال المفسرون : وقوله : (يوم يأتي) يعني : يأتي ذلك اليوم ، لاتكلَّم نفس إلا باذن الله ، فكل الخلائق ساكتون ، إلا مَن أذن الله له في الكلام . وقيل : المراد بهذا الكلام الشفاعة .

قوله تعالى : (فمنهم شقي) قال ابن عباس : منهم من كُتبت عليه الشقاوة ، ومنهم من كُتبت له السعادة .

قوله تعالى : (لهم فيها زفير وشهيق) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الزفير كزفير الحمار في الصدر ، وهو أول ماينهق ، والشهيق كشهيق الحمار في الحلق ، وهو آخر مايفرغ من نهيقه ، رواه أبو صالح عن ابن

عباس ، وبه قال الضحاك ، ومقاتل ، والفراء . وقال الزجاج : الزفير : شديد الأنين وقبيحه ، والشهيق : الأنين الشديد المرتفع جداً ، وهما من أصوات المكروبين . وزعم أهل اللغة من الكوفيين والبصريين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في النهيق ، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق .

والثاني : أن الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدور ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال أبو العالية ، والربيع بن أنس . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف . وقال ابن فارس : الشهيق ضد الزفير ، لأن الشهيق ردُّ النَّفَس ، والزفير إخراج النَّفَس . وقال غيره : الزفير : الشديد ، مأخوذ من الزَّفْر ، وهو الحَمل على الظهر لشدته ؛ والشهيق : النَّفَس الطويل الممتد ، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق ، أي : طويل .

والثالث : أن الزفير زفير الحمار ، والشهيق شهيق البغال ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) المعروف فيه قولان :

أحدهما : أنها السموات المعروفة عندنا ، والأرض المعروفة ؛ قال ابن قتيبة ، وابن الأنباري : للعرب في معنى الأبد ألفاظ ؛ تقول : لاأفعل ذلك مااختلف الليل والنهار ، وما دامت السموات والأرض ، وما اختلفت الجِرَّة والدِرَّة [1] ، وما أطّت الإبل [2] ، في أشباه لهذا كثيرة ، ظناً منهم أن هذه الأشياء لاتتغير ، فخاطبهم الله بما يستعملون في كلامهم .

---

(١) الجرة : مايخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبتلعه ، والدرة : كثرة اللبن وسيلانه ، واختلافهما : أن الدرة تسفل إلى الرجلين ، والجرة : تعلو إلى الرأس .

(٢) يقال : أطت الابل تئط أطيطاً : أنت تعباً وحنيناً ، أو رزمة . وفي المثل : « لاأفعل ذلك ما أطت الابل » .

والثاني : أنها سموات الجنة والنار وأرضها .

قوله تعالى : (إلا ماشاء ربك) في الاستثناء المذكور في حق أهل النار سبعة أقوال .

أحدها : أن الاستثناء في حق الموحِّدين الذين يخرجون بالشفاعة ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : أنه استثناء لا يفعله ، تقول : والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك ، وعزيمتك على ضربه ، ذكره الفراء ، وهو معنى قول أبي صالح عن ابن عباس : « إلا ما شاء ربك » قال : فقد شاء أن يخلَّدوا فيها . قال الزجاج : وفائدة هذا ، أنه لو شاء أن يرحمهم لرحمهم ، ولكنه أعلمنا أنهم خالدون أبداً .

والثالث : أن المعنى : خالدين فيها أبداً ، غير أن الله تعالى يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ، فيرجع الاستثناء إلى تلك الحال ، قاله ابن مسعود .

والرابع : أن « إلا » بمعنى « سوى » تقول : لو كان معنا رجل إلا زيد ، أي : سوى زيد ؛ فالمعنى : : خالدين فيها مقدار دوام السموات والأرض سوى ماشاء ربك من الخلود والزيادة ، وهذا اختيار الفراء . قال ابن قتيبة : ومثله في الكلام أن تقول : لأُسْكِنَنَّك في هذه الدار حولاً إلا ما شئتَ ؛ تريد : سوى ما شئتَ أن أزيدك .

والخامس : أنهم إذا حُشروا وبُعثوا ، فهم في شروط القيامة ؛ فالاستثناء واقع في الخلود بمقدار موقفهم في الحساب ، فالمعنى : خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا مقدار موقفهم للمحاسبة ، ذكره الزجاج . وقال ابن كيسان : الاستثناء يعود إلى مكثهم في الدنيا والبرزخ والوقوف للحساب ؛ قال ابن قتيبة : فالمعنى : خالدين في النار وخالدين في الجنة دوام السماء والأرض إلا ما شاء ربك

من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك ، فكأنه جعل دوام السماء والأرض بمعنى الأبد على ما كانت العرب تستعمل ، وإن كانتا قد تتغيَّران . واستثنى المشيئة من دوامها ، لأن أهل الجنة والنار قد كانوا في وقت من أوقات دوام السماء والأرض في الدنيا ، لا في الجنة ، ولا في النار .

والسادس : أن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً ، إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تُذكر ؛ وكذلك لأهل الجنة نعيم مما ذُكر ، ولهم مما لم يُذكر ما شاء ربك ، ذكره الزجاج أيضاً .

والسابع : أن « إلا » بمعنى « كما » ، ومنه قوله : (ولا تَنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) [النساء : ٢٢] ، ذكره الثعلبي .

فأما الاستثناء في حق أهل الجنة ، ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه استثناء لا يفعله . والثاني : أن « إلا » بمعنى « سوى » . والثالث : أنه يرجع إلى وقوفهم للحساب ولبثهم في القبور . والرابع : أنه بمعنى : إلا ما شاء أن يزيدَهم من النعيم الذي لم يُذكر . والخامس : أن « إلا » كـ« ما » ، وهذه الأقوال قد سبق شرحها . والسادس : أن الاستثناء يرجع إلى لبث من لبث في النار من الموحِّدين ، ثم أُدخل الجنة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل . قال ابن قتيبة : فيكون الاستثناء من الخلود مُكث أهل الذنوب من المسلمين في النار ، فكأنه قال : إلا ما شاء ربك من إخراج المذنبين إلى الجنة ، وخالدين في الجنة إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النارَ مدّةً .

واختلف القراء في « سعِدوا » فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن

عامر، وأبو بكر عن عاصم : « سَعِدوا » بفتح السين . وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم : بضمها ، وهما لغتان .

قوله تعالى : (عطاءً غير مجذوذ) نُصب عطاء بما دل عليه الكلام ، كأنه قال : أعطاهم النعيم عطاءً . والمجذوذ : المقطوع ؛ قال ابن قتيبة : يقال : جذذت، وجددت، وجذفت ، وجدفت : إذا قطعت .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾

قوله تعالى : (فلا تك في مرية) أي : فلا تك يامحمد في شك (مما يعبد هؤلاء) المشركون من الأصنام، أنه باطل وضلال، إنما يقلّدون آباءهم، (وإنا لموفّوهم نصيبهم) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ما قدّر لهم من خير وشر ، قاله ابن عباس . والثاني : نصيبهم من الرزق ، قاله أبو العالية . والثالث : نصيبهم من العذاب ، قاله ابن زيد . وقال بعضهم : لاينقصهم من عذاب آبائهم .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (فاختُلف فيه) فمن مصدِّق به ومكذِّب كما فعل قومك بالقرآن . قال المفسرون : وهذه تعزية للنبي ﷺ .

قوله تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك) قال ابن عباس : يريد : إني أخّرت أمتك إلى يوم القيامة ، ولولا ذلك لعجّلت عقاب من كذبك . وقال ابن قتيبة : لولا نَظِرةٌ لهم إلى يوم الدين لقُضي بينهم في الدنيا . وقال ابن جرير :

سبقت من ربك أنه لا يعجِّل على خلقه بالعذاب ، لقضي بين المصدِّق منهم والمكذِّب باهلاك المكذب وإنجاء المصدق [١] .

قوله تعالى : (وإنهم لفي شك منه) أي : من القرآن (مريب) أي : موقع للريب .

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (وإن كُلاًّ) يشير إلى جميع من قصَّ قصته في هذه السورة . وقال مقاتل : يعني به كفار هذه الأمة . وقيل : المعنى : وإن كلاًّ لخلق أو بشر (ليوفينَّهم) . قرأ أبو عمرو ، والكسائي « وإنَّ » مشددة النون ، « لما » خفيفة . واللام في « لما » لام التوكيد ، دخلت على « ما » وهي خبر « إنّ » . واللام في « لَيوفينَّهم » اللام التي يُتلقَّى بها القَسم ، والتقدير : والله ليوفينَّهم ، ودخلت « ما » للفصل بين اللامين . قال مكي بن أبي طالب : وقيل : إن « ما » زائدة ، لكن دخلت لتفصل بين اللامين اللَّذَيْن يتلقَّيان القسم ، وكلاهما مفتوح ، ففُصل بـ« ما » بينهما . وقرأ ابن كثير « وإنْ » بالتخفيف ، وكذلك « لما » . قال سيبويه : حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول : إنْ عَمْراً لمنطلق ، فيخففون « إنّ » ويُعملونها ، وأنشد :

وَوَجْهٍ حَسَنِ النَّحرِ كأنْ ثَدْيَيْه حُقَّانِ [٢]

---

(١) نص ابن جرير في « التفسير » : ولولا كلمة سبقت يا محمد من ربك بأنه لا يعجل على خلقه بالعذاب ، ولكن يتأنى حتى يبلغ الكتاب أجله « لقضي بينهم » يقول : لقضي بين المكذب منهم به والمصدق باهلاك الله المكذب به منهم ، وإنجائه المصدق به .

(٢) البيت غير منسوب في « سيبويه » ٢٨١/١ ، و « أمالي ابن الشجري» ٢٣٧/١ ، و « الخزانة » ٣٥٨/٤ .

وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : « وإن » خفيفة ، « لمّا » مشددة ، والمعنى : وما كلاً إلا ؛ وهذا كما تقول : سألتك لمّا فعلت ، وإلّا فعلت ، ومثله قوله : (إن كل نفس لما عليها حافظ) [الطارق : ٤] . وقرأ حمزة ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « وإنّ » بالتشديد ، « لمّا » بالتشديد أيضاً . قال أبو علي : هذه قراءة مشكلة ، لأنه كما لا يحسن : إنّ زيداً إلا منطلق ، كذلك لا يحسن تثقيل « إنّ » وتثقيل « لمّا » . وحكي عن الكسائي أنه قال : لا أعرف وجه التثقيل في « لمّا » ، ولم يُبعِد فيما قال . وقال مكي بن أبي طالب : الأصل فيها « لَمِن ما » ثم أدغمت النون في الميم ، فاجتمعت ثلاث ميمات في اللفظ ، فحذفت الميم المكسورة ؛ والتقدير : وإنّ كُلاً لَمِن خَلْقٍ ليوفينّهم . قال : وقيل : التقدير : « لَمَن ما » بفتح الميم في « مَن » فتكون « ما » زائدة ، وتحذف إحدى الميمات لتكرير الميم في اللفظ ؛ والتقدير : لَخلقٌ ليوفينّهم ، ومعنى الكلام : ليوفينّهم جزاء أعمالهم .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (فاستقم كما أُمرت) قال ابن عيينة : استقم على القرآن . وقال ابن قتيبة : امض على ما أُمرت به .

قوله تعالى : (ومن تاب معك) قال ابن عباس : من تاب معك من الشرك .

قوله تعالى : (ولا تَطْغَوْا) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تطغوا في القرآن ، فتُحلّوا وتحرّموا مالم آمركم به ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا تعصوا ربكم ولا تخالفوه ، قاله ابن زيد .

والثالث : لا تخلطوا التوحيد بشك ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) روى عبد الوارث عن أبي عمرو : « تَركُنوا » بفتح التاء وضم الكاف ، وهي قراءة قتادة . وروى هارون عن أبي عمرو « تَركِنوا » بفتح التاء وكسر الكاف . وروى محبوب عن أبي عمرو : « تِركَنوا » بكسر التاء وفتح الكاف . وقرأ ابن أبي عبلة « تُركَنوا » بضم التاء وفتح الكاف على مالم يُسم فاعله . وفي المراد بهذا الركون أربعة أقوال :

أحدها : لا تميلوا إلى المشركين ، قاله ابن عباس . والثاني : لا ترضوا أعمالهم ، قاله أبو العالية . والثالث : لا تلحقوا بالمشركين ، قاله قتادة . والرابع : لا تُداهنوا الظلمة ، قاله السدي ، وابن زيد .

وفي قوله : (فتمسكم النار) وجهان : أحدهما : فتصيبكم النار ، قاله ابن عباس . والثاني : فيتعدّى إليكم ظلمهم كما تتعدّى النار إلى إحراق ماجاورها ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وما لكم من دون الله من أولياء) أي : ليس لكم أعوان يمنعونكم من العذاب .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وأقم الصلاة طرفي النهار) أما سبب نزولها ، فروى علقمة والأسود عن ابن مسعود أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إني أخذت امرأة في البستان فقبّلتها ، وضممتُها إليّ ، وباشرتُها ، وفعلتُ بها كل شيء ، غير أني لم أجامعها ؛

فسكت النبي ﷺ ، فأنزل الله تعالى (وأقم الصلاة طرفي النهار ...) الآية ، فدعا الرجل فقرأها عليه ، فقال عمر : أهي له خاصّة ، أم للناس كافّة ؟ قال : « لا ، بل للناس كافة » [(١)] . وفي رواية أخرى عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى رسول الله ، فذكر ذلك له ، فنزلت هذه الآية ، فقال الرجل : ألي هذه الآية ؟ فقال : « لمن عمل بها من أمتي » [(٢)] . وقال معاذ بن جبل : كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل ، فقال : يارسول الله ، ماتقول في رجل أصاب من امرأة مالا يحل له ، فلم يدَع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا أصابه منها ، غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبي ﷺ : « توضأ وضوءاً حسناً ، ثم قم فصلِّ » ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقال معاذ : أهي له خاصة ، أم للمسلمين عامة ؟ فقال : « بل هي للمسلمين عامة » [(٣)] . واختلفوا في اسم هذا الرجل ، فقال أبو صالح عن ابن عباس : هو عمرو بن غزيّة الأنصاري ، وفيه نزلت هذه الآية ، كان يبيع التمر ، فأتته امرأة تبتاع منه تمراً ، فأعجبته ، فقال : إن في البيت تمراً أجود من هـذا ، فانطلقي معي حتى أعطيك منه ؛ فذكر نحو

---

(١) « الطبري » ١٥/٥١٦ عن علقمة والأسود عن ابن مسعود ، ورواه أحمد في « المسند » رقم (٤٢٥٠) و (٤٢٩٠) ، ومسلم في « صحيحه » ٤/٢١١٦ ، وأبو داود في « سننه » رقم (٤٤٦٨) ، والترمذي ٢/١٣٩ .

(٢) « الطبري » ١٥/٥١٩ ، ومسند أحمد رقم (٣٦٥٣) و (٤٠٩٤) ، ورواه البخاري ٨/٢٦٨ - ٢٦٩ ، ومسلم ٤/٢١١٥ ، والترمذي ٢/١٣٩ وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) « الطبري » ١٥/٥٢٠ - ٥٢٢ ، ورواه الترمذي ٢/١٣٩ من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل ، وقال : هذا حديث ليس إسناده بمتصل ، عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ بن جبل ، ومعاذ بن جبل مات في خلافة عمر ، وقتل عمر وعبد الرحمن ابن أبي ليلى غلام صغير ابن ست ، وقد روى عن عمر ورآه ، وروى شعبة هذا الحديث عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ مرسلاً ، والحديث بمعنى الذي قبله .

حديث معاذ [١] . وقال مقاتل : هو أبو مقبل عامر بن قيس الأنصاري . وذكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب الحافظ أنه أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري [٢] . وُذكر في الذي قال للنبي ﷺ ، أله خاصة ؟ ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أبو اليسر صاحب القصة . والثاني : معاذ بن جبل . والثالث : عمر بن الخطاب .

فأما التفسير ، فقوله : (وأقم الصلاة) أي : أتم ركوعها وسجودها .

فأما طرفا النهار ، ففي الطرف الأول قولان :

أحدها : أنه صلاة الفجر ، قاله الجمهور . والثاني : أنه الظهر ، حكاه ابن جرير .

وفي الطرف الثاني ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه صلاة المغرب ، قاله ابن عباس ، وابن زيد . والثاني : العصر ، قاله قتادة . وعن الحسن كالقولين . والثالث : الظهر ، والعصر ، قاله مجاهد ، والقرظي . وعن الضحاك كالأقوال الثلاثة .

قوله تعالى : (وَزُلَفاً من الليل) وقرأ أبو جعفر ، وشيبة « وَزُلُفاً » بضم اللام . قال أبو عبيدة : الزُلَف : الساعات ، واحدها : زُلْفَة ، أي : ساعة ومنزلة وقربة ، ومنه سميت المزدلفة ، قال العجّاج :

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٢٦٩/٨ : وأما قصة ابن غزية ، فأخرجها ابن مندة من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى : (أقم الصلاة طرفي النهار) قال : نزلت في عمرو بن غزية وكان يبيع التمر ، فأتته امرأة تبتاع تمراً فأعجبته . . . الحديث اهـ . والكلبي وأبو صالح : ضعيفان .

(٢) لقد فصل الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٢٦٨/٨ ، ٢٦٩ القول في اسم هذا الرجل ، فارجع إليه إن شئت .

ناجٍ طواه الأينُ مما أوجفا   طَيَّ اللَّيَالي زُلَفاً فزُلَفا

سَماوةَ الهِلاَل حتَّى احقَوقَفَا (١)

قال ابن قتيبة : ومنه يقال : أزلفني كذا عندك ، أي : أدناني ؛ والمزالف : المنازل والدَّرَج ، وكذلك الزُّلَف .

وفيها المفسرين قولان :

أحدها : أنها صلاة العتمة ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وعوف عن الحسن ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد .

والثاني : أنها صلاة المغرب والعشاء ، روي عن ابن عباس أيضاً ، ورواه يونس عن الحسن ، ومنصور عن مجاهد ، وبه قال قتادة ، ومقاتل ، والزجاج .

قوله تعالى : (إن الحسنات يُذهبن السيئات) في المراد بالحسنات قولان :

أحدها : أنها الصلوات الخمس ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن المسيب ، ومسروق ، ومجاهد ، والقرظي ، والضحاك ، والمقاتلان : ابن سليمان ، وابن حيان .

والثاني : أنها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، رواه منصور عن مجاهد . والأول أصح ، لأن الجمهور عليه ، وفيه حديث مسند عن رسول الله ﷺ ، رواه عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ أنه توضأ ، وقال : « من توضأ وضوئي هذا ، ثم صلى الظهر ، غُفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ،

---

(١) ديوانه ١/٨٤ ، و « الطبري » ١٢/٧٧ ، و « اللسان » : حقف ، و « الكامل » للمبرد ١/١٢٩ ، ٣/٨٣٤ . وسماوة الهلال : أعلاه . واحقوقف : يريد : اعوج ، وإنما هو افعوعل ، من الحقف ، والحقف : النقـا من الرمل يعوج ويدق ، يريد : طواه الأين كما طوت الليالي سماوة الهلال .

ومن صلى العصر ، غفر له مابينها وبين صلاة الظهر ، ومن صلى المغرب ، غفر له ما بينها وبين صلاة العصر ، ثم صلى العشاء ، غُفر له مابينها وبين صلاة المغرب ، ثم لعله أن يبيت ليلته يتمرَّغ ، ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح ، غُفر له مابينه وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات »[١] .

فأما السيئات المذكورة هاهنا ، فقال المفسرون : هي الصغائر من الذنوب . وقد روى معاذ بن جبل ، قال : قلت : يارسول الله ، أوصني ؛ قال : « اتق الله حيثما كنت » ، قال : قلت : زدني ؛ قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، قلت : زدني ؛ قال : « خالِقِ الناس بخُلُق حسن »[٢] .

قوله تعالى : (ذلك ذكرى للذاكرين) في المشار إليه بـ « ذلك » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه القرآن . والثاني : إقام الصلاة . والثالث : جميع ما تقدم من الوصية بالاستقامة ، والنهي عن الطغيان ، وترك الميل إلى الظالمين ، والقيام بالصلاة .

---

(١) « الطبري » ٥١٢/١٥ ، ورواه أحمد في « المسند » رقم (٥١٣) وفي آخره زيادة ، « قالوا : هذه الحسنات ، فما الباقيات ياعثمان ؟ قال : « هن : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » وخرجه الهيثمي في « المجمع » ٢٩٧/١٠ بنحو حديث أحمد ، وهو حديث صحيح .

(٢) هذا الحديث خرجه أحمد في « المسند » ٢٢٨/٥ عن معاذ بن جبل ، وخرجه أيضاً ١٥٣/٥ عن أبي ذر الغفاري ، وخرجه الترمذي ٢٠/٢ عن أبي ذر ، ومعاذ ، ولفظه عند الترمذي : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » وقال : هذا حديث حسن صحيح . وفي بعض النسخ : حسن ، ورواه الحاكم في « المستدرك » ٥٤/١ عن أبي ذر بلفظ الترمذي ، ورواه عن معاذ بلفظ « فقال : يارسول الله أوصني ، قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، قال : يارسول الله زدني ، قال : إذا أسأت فأحسن ، قال : يارسول الله زدني ، قال : استقم ، ولتحسن خلقك » وقال : صحيح الاسناد من رواية البصريين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوصى بهذه الوصية معاذاً وأبا ذر من وجوه أخر .

وفي المراد بالذكرى قولان .

أحدها : أنه بمعنى التوبة . والثاني : بمعنى العظة .

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (واصبر) فيما أمر بالصبر عليه قولان :

أحدها : لما يلقاه من أذى قومه . والثاني : الصلاة .

وفي المراد بالمحسنين ثلاثة أقوال :

أحدها : المصلّون ، قاله ابن عباس . والثاني : المخاصون ، قاله مقاتل . والثالث : أنهم المحسنون في أعمالهم ، قاله أبو سليمان .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلولا كان من القرون) قال ابن عباس ، والفراء : المعنى : فلم يكن . وقال ابن قتيبة : المعنى : فهلاّ كان من القرون من قبلكم أولو بقية . وروى ابن جماز عن أبي جعفر « أولو بِقْيَةٍ » بكسر الباء وسكون القاف وتخفيف الياء .

وفي معنى « أولو بقيّة » ثلاثة أقوال .

أحدها : أولو دين ، قاله ابن عباس . قال ابن قتيبة : يقال : قوم لهم بقية ، وفيهم بقية : إذا كانت بهم مُسكة وفيهم خير . والثاني : أولو تمييز . والثالث : أولو طاعة ، ذكرها الزجاج ، وقال : إذا قلت : فلان فيه بقية ، فمعناه : فيه فضل .

قوله تعالى : (إلا قليلاً) استثناء منقطع ، أي : لكنّ قليلاً ممن أنجينا منهم

ممن نهى عن الفساد . قال مقاتل : لم يكن من القرون من ينهى عن المعاصي والشرك إلا قليلاً ممن أنجينا من العذاب مع الرسل .

قوله تعالى : (واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أي : اتبعوا مع ظلمهم ما أُترفوا فيه مع استدامة نعيمهم ، فلم يقبلوا ماينقص من ترفهم . قال الفراء : آثروا اللذات على أمر الآخرة . قال : ويقال : اتبعوا ذنوبهم السيئة إلى النار .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) فيه قولان :

أحدها : بغير جرم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : بشرك ، ذكره ابن جرير ، وأبو سليمان . وفي قوله : (وأهلها مصلحون) ثلاثة أقوال :

أحدها : ينتصف بعضهم من بعض ، رواه قيس بن أبي حازم عن جرير . قال أبو جعفر الطبري : فيكون المعنى : لايهلكهم إذا تناصفوا وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا .

والثاني : مصلحون لأعمالهم ، متمسكون بالطاعة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : مؤمنون ، قاله مقاتل .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولو شاء ربُّكَ لجعلَ الناس أمةً واحدةً) قال ابن عباس : لو شاء أن يجعلهم كلَّهم مسلمين لفعل .

قوله تعالى : (ولا يزالون مختلفين) في المشار إليهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الحق وأهل الباطل ، رواه الضحاك عن ابن عباس ؛ فيكون المعنى : إن هؤلاء يخالفون هؤلاء.

والثاني : أنهم أهل الأهواء لا يزالون مختلفين ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (إلا من رحم ربك) قال ابن عباس : هم أهل الحق . وقال الحسن : أهل رحمة الله لا يختلفون .

قوله تعالى : (ولذلك خلقهم) في المشار إليه بذلك أربعة أقوال :

أحدها : أنه يرجع إلى ما هم عليه . قال ابن عباس : خلقهم فريقين ، فريقاً يُرحم فلا يختلف ، وفريقاً لا يُرحم يختلف .

والثاني : أنه يرجع إلى الشقاء والسعادة ، قاله ابن عباس أيضاً ، واختاره الزجاج ، قال : لأن اختلافهم مؤدّيهم إلى سعادة وشقاوة . قال ابن جرير : واللام في قوله : « ولذلك » بمعنى « على » .

والثالث : أنه يرجع إلى الاختلاف ، رواه مبارك عن الحسن .

والرابع : أنه يرجع إلى الرحمة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ؛ فعلى هذا يكون المعنى : ولرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم .

قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك) قال ابن عباس : وجب قول ربك : (لأملأن جهنم) من كفار الجِنَّة ، وكفار الناس .

﴿ وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وكلاً نقصُّ) قال الزجاج : « كلاً » منصوب بـ « نقص » ،

المعنى : كل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك . و « ما » منصوبة بدلاً من كل ، المعنى : نقص عليك ماتثبِّت به فؤادك ؛ ومعنى تثبيت الفؤاد تسكين القلب هاهنا ، ليس للشك ، ولكن كلما كان البرهان والدلالة أكثر ، كان القلب أثبت .

قوله تعالى : (وجاءك في هذه الحق) في المشار إليه بـ « هذه » أربعة أقوال :

أحدها : أنها السورة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وأبو العالية ، ورواه شيبان عن قتادة .

والثاني : أنها الدنيا ، فالمعنى : وجاءك في هذه الدنيا ، رواه سعيد عن قتادة ؛ وعن الحسن كالقولين .

والثالث : أنها الأقاصيص المذكورة .

والرابع : أنها هذه الآية بعينها ، ذكر القولين ابن الأنباري .

وفي المراد بالحق ها هنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها البيان . والثاني : صدق القصص والأنباء . والثالث : النبوة .

فان قيل : أليس قد جاءه الحق في كل القرآن ، فلم خص هذه السورة ؟

فالجواب أنا إن قلنا : إن الحق النبوة ، فالإشارة بـ « هذه » إلى الدنيا ، فيكون المعنى : وجاءك في هذه الدنيا النبوة ، فيرتفع الإشكال . وإن قلنا : إنها السورة ، فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أن المراد بالحق البيان ، وهذه السورة جمعت من تبيين إهلاك الأمم ، وشرح مآلهم ، ما لم يجمع غيرها ، فبان أثر التخصيص ، وهذا مذهب بعض المفسرين .

والثاني : أن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا ،

ولهذا يقول الناس : فلان في الحق : إذا كان في الموت ، وإن لم يكن قبله في باطل ، ولكن لتعظيم ماهو فيه ، فكأن الحق المبين في هذه السورة أجلى من غيره ، وهذا مذهب الزجاج .

والثالث : أنه خص هذه السورة بذلك لبيان فضلها ، وإن كان في غيرها حق أيضاً ، فهو كقوله : (والصلاةِ الوسطى) [البقرة:٢٣٨] ، وقوله : (وجبريل وميكال) [البقرة:٩٨] ، وهذا مذهب ابن الأنباري .

والرابع : أن المعنى : وجاءك في هذه السورة الحق مع ماجاءك من سائر السور ، قاله ابن جرير الطبري .

قوله تعالى : (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أي : يتعظون إذا سمعوا هذه السورة وما نزل بالأمم فتلين قلوبهم .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) هذا تهديد ووعيد ، والمعنى : اعملوا ما أنتم عاملون ، فستعلمون عاقبة أمركم ، (وانتظروا) مايعدكم الشيطان (إنا منتظرون) مايعدنا ربنا .

فصل

قال المفسرون : وهذه الآية اقتضت تركهم على أعمالهم ، والاقتناع بانذارهم ، وهي منسوخة بآية السيف .

واعلم أنه إذا قلنا : إن المراد بالآية التهديد ، لم يتوجه نسخ .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولله غيب السموات والأرض) أي : علم ما غاب عن العباد فيها . (وإليه يُرجَع الأمرُ كلُّه) قرأ نافع ، وحفص عن عاصم « يُرجع الأمر كله » بضم الياء . وقرأ الباقون ، وأبو بكر عن عاصم « يَرجع » بفتح الياء ، والمعنى : إن كل الأمور ترجع إليه في المعاد . (فاعبده) أي : وحِّده . (وتوكَّلْ عليه) أي : ثِقْ به . (وما ربك بغافل عما يعملون) قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم « تعملون » بالتاء . وقرأ الباقون بالياء . قال أبو علي : فمن قرأ بالياء ، فالمعنى : قل لهم : وما ربك بغافل عما يعملون . ومن قرأ بالتاء ، فالخطاب للنبي ﷺ ولجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو أعم من الياء ، وهذا وعيد ، والمعنى : إنه يجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . قال كعب : خاتمة التوراة خاتمة « هود » .

* * *

سورة يوسف

[عليه السلام]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

فصل في نزولها

هي مكية بالإجماع . وفي سبب نزولها قولان : أما القول الأول ، فروي عن سعد بن أبي وقاص قال : أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ ، فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يارسول الله ، لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى : (الر . تلك آيات الكتاب المبين) إلى قوله : (نحن نقص عليك أحسن القصص) ، فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يارسول الله ، لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى (الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) [الزمر : ٢٣] [1] كل ذلك يؤمرون بالقرآن . وقال

---

(١) « الطبري » ١٥/٥٥٣ ، والحاكم في « المستدرك » ٢/٣٤٥ وقال : هــذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٤/٣ وزاد نسبته إلى إسحاق بن راهويه ، والبزار ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه .

عون بن عبد الله : ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ ملَّة ، فقالوا : يارسول الله حدِّثنا ، فأنزل الله عز وجل (الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) [الزمر : ٢٣] ، ثم إنهم ملّوا ملّة أخرى ، فقالوا : يارسول الله ، فوق الحديث ، ودون القرآن ، يعنون القصص ، فأنزل الله (نحن نقص عليك أحسن القصص) ، فأراد الحديث ، فدلَّهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص ، فدلهم على أحسن القصص [(١)] . والثاني : رواه الضحاك عن ابن عباس قال : سألت اليهود النبي ﷺ ، فقالوا : حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف ، فأنزل الله عز وجل (الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً) وذلك أن التوراة بالعبرانية ، والإنجيل بالسريانية ، وأنتم قوم عرب ، ولو أنزلته بغير العربية مافهمتموه . وقد بينا تفسير أول هذه السورة في أول (يونس) ، إلا أنه قد ذكر ابن الأنباري زيادة وجه في هذه السورة ، فقال : لما لحق أصحابَ رسول الله ﷺ مللٌ وسآمة ، فقالوا له : حدثنا بما يزيل عنا هذا الملل ، فقال : « تلك الأحاديث التي تقدرون الانتفاع بها وانصراف الملل ، هي آيات الكتاب المبين » .

وفي معنى « المبين » خمسة أقوال :

أحدها : البيّن حلاله وحرامه ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . والثاني : المبيّن للحروف التي تسقط عن ألسن الأعاجم ، رواه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل . والثالث : البيّن هداه ورشده ، قاله قتادة . والرابع : المبيِّن للحق من الباطل . والخامس : البيِّن إعجازه فلا يعارَض ، ذكرهما الماوردي .

---

(١) « الطبري » ١٥/٥٥٢ ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٤/٣ من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود ، فهو مرسل . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٥٥ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنا أنزلناه) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الكتاب ، قاله الجمهور . والثاني : إلى خبر يوسف ، ذكره الزجاج ، وابن القاسم .

قوله تعالى : (قرآناً عربياً) قد ذكرنا معنى القرآن واشتقاقه في سورة (النساء : ٨٢) . وقد اختلف الناس ، هل في القرآن شيء بغير العربية ، أم لا ، فمذهب أصحابنا أنه ليس فيه شيء بغير العربية . وقال أبو عبيدة : من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول ، واحتج بقوله : (إنا جعلناه قرآناً عربياً)[الزخرف : ٣] وروي عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة أن فيه من غير لسان العرب، مثل « سجيل » و « المشكاة » و «اليم » و «الطور » و «أباريق » و « إستبرق » وغير ذلك . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال : قال أبو عبيد [١] : وهؤلاء أعلم من أبي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هو إلى غيره ، وكلاهما مصيب إن شاء الله ، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال : أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحالة ، أعجمية الأصل ، فهذا القول يصدّق الفريقين جميعاً .

قوله تعالى : (لعلكم تعقلون) قال ابن عباس : لكي تفهموا .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (نحن نقص عليك أحسن القصص) قد ذكرنا سبب نزولها في

---

(١) في الأصل : أبو عبيدة ، وهو خطأ ، لأن الكلام الآتي كلام أبي عبيد القاسم بن سلام يرد به على شيخه أبي عبيدة ، وانظر « المعرب » : ٥ للجواليقي .

أول الكلام . وقد خُصَّت بسبب آخر ، فروي عن سعيد بن جبير قال : اجتمع أصحاب محمد ﷺ إلى سلمان ، فقالوا : حدِّثنا عن التوراة فإنها حسن مافيها ، فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) يعني : قصص القرآن أحسن مما في التوراة . قال الزجاج : والمعنى نحن نبين لك أحسن البيان ، والقاصُّ : الذي يأتي بالقصة على حقيقتها . قال : وقوله : (بما أوحينا إليك) أي : بوحينا إليك هذا القرآن .

قال العلماء : وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص ، لأنها جمعت ذكر الأنبياء ، والصالحين ، والملائكة ، والشياطين ، والأنعام ، وسير الملوك ، والمماليك ، والتجار ، والعلماء ، والرجال ، والنساء ، وحيلهن ، وذكر التوحيد ، والفقه ، والسرّ ، وتعبير الرؤيا ، والسياسة ، والمعاشرة ، وتدبير المعاش ، والصبر على الأذى ، والحلم ، والعزّ ، والحكم ، إلى غير ذلك من العجائب .

قوله تعالى : (وإن كنت) في « إن » قولان :

أحدهما : أنها بمعنى « قد » . والثاني : بمعنى « ما » .

قوله تعالى : (من قبله) قال ابن عباس : من قبل نزول القرآن . (لَمِن الغافلين) عن علم خبر يوسف وما صنع به إخوته .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَابُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (إذ قال يوسف لأبيه) في « إذ » قولان :

أحدهما : أنها صلة للفعل المتقدّم ، والمعنى : نحن نقص عليك إذ قال يوسف .

والثاني : أنها صلة لفعل مضمر ، تقديره : اذكر إذ قال يوسف ، ذكرها الزجاج ، وابن الأنباري .

قوله تعالى : (يا أبت) قرأ أبو جعفر ، وابن عامر بفتح التاء ، ووقفا بالهاء ، وافقهما ابن كثير في الوقف بالهاء ، وقرأ الباقون بكسر التاء . فمن فتح التاء ، أراد : يا أبتا ، فحذف الألف كما تحذف اليـاء ، فبقيت الفتحة دالة على الألف ، كما أن الكسرة تبقى دالة على الياء . ومن وقف على الهاء ، فلأن تاء التأنيث تبدل منها الهاء في الوقف . وقرأ أبو جعفر أحد عشر ، وتسعة عشر ، بسكون العين فيهما .

وفي مارآه يوسف قولان :

أحدهما : أنه رأى الشمس والقمر والكواكب ، وهو قول الأكثرين . قال الفراء : وإنما قال : « رأيتهم » على جمع ما يعقل ، لأن السجود فعل مايعقل ، كقوله : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) [النمل : ١٨] . قال المفسرون : كانت الكواكب في التأويل إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أباه ، فلما قصَّها على يعقوب أشفق من حسد إخوته . وقال السدي : الشمس أبوه ، والقمر خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت .

والثاني : أنه رأى أبويه وإخوته ساجدين له ، فكنى عن ذكرهم ، وهذا مروي عن ابن عباس ، وقتادة . فأما تكرار قوله : (رأيتهم) فقال الزجاج : إنما كرره لمَّا طال الكلام توكيداً .

وفي سن يوسف لما رأى هذا المنام ثلاثة أقوال :

أحدها : سبع سنين . والثاني : اثنتا عشرة سنة والثالث : سبع عشرة سنة .

قال المفسرون : علم يعقوب أن إخوة يوسف يعلمون تأويل رؤياه ، فقال : (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً) ، قال ابن قتيبة : يحتالوا لك

حيلة ويغتالوك . وقال غيره : اللام صلة ، والمعنى : فيكيدوك . والعدو المبين : الظاهر العداوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك يجتبيك ربك) قال الزجاج ، وابن الأنباري : ومثل مارأيت من الرفعة والحال الجليلة ، يختارك ربك ويصطفيك من بين إخوتك . وقد شرحنا في (الأنعام : ٨٧) معنى الاجتباء . وقال ابن عباس : يصطفيك بالنبوة .

قوله تعالى : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تعبير الرؤيا ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، فعلى هذا سمي تأويلاً لأنه بيان مايؤول أمر المنام إليه .

والثاني : أنه العلم والحكمة ، قاله ابن زيد .

والثالث : تأويل أحاديث الأنبياء والأمم والكتب ، ذكره الزجاج . قال مقاتل : و « من » هاهنا صلة .

قوله تعالى : (ويتم نعمته عليك) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بالنبوة ، قاله ابن عباس .

والثاني : باعلاء الكلمة .

والثالث : بأن أحوج إخوته إليه حتى أنعم عليهم ، ذكرها الماوردي .

وفي (آل يعقوب) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم ولده ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : يعقوب وامرأته وأولاده الأحد عشر ، أتم عليهم نعمته بالسجود ليوسف ، قاله مقاتل .

والثالث : أهله ، قاله أبو عبيدة ، واحتج بأنك إذا صغَّرت الآل ، قلت : أُهيل .

قوله تعالى : (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) قال عكرمة : فنعمته على إبراهيم أن نجاه من النار ، ونعمته على إسحاق أن نجاه من الذبح .

قوله تعالى : (إن ربك عليم) أي : عليم حيث يضع النبوة (حكيم) في تدبير خلقه .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (لقد كان في يوسف وإخوته) أي : في خبر يوسف وقصة إخوته (آيات) أي : عِبَر لمن سأل عنهم ، فكل حال من أحواله آية . وقرأ ابن كثير « آيةٌ » . قال المفسرون : وكان اليهود قد سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف ، فأخبرهم بها كما في التوراة ، فعجبوا من ذلك .

وفي وجه هذه الآيات خمسة أقوال :

أحدها : الدلالة على صدق محمد ﷺ حين أخبر أخبار قوم لم يشاهدهم ، ولا نظر في الكتب . والثاني ما أظهر الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه . والثالث : صدق رؤياه وصحة تأويله . والرابع : ضبط نفسه وقهر شهوته حتى قام بحق الأمانة . والخامس : حدوث السرور بعد اليأس .

فان قيل : لم خص السائلين ، ولغيرهم فيها آيات أيضاً ؟ فعنه جوابان :

أحدهما : أن المعنى : للسائلين وغيرهم ، فاكتفى بذكر السائلين من غيرهم ، كما اكتفى بذكر الحر من البرد في قوله : (تقيكم الحر) [النحل : ٨١] .

والثاني : أنه إذا كان للسائلين عن خبر يوسف آية ، كان لغيرهم آية أيضاً ؛ وإنما خص السائلين ، لأن سؤالهم نتج الأعجوبة وكشف الخبر .

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (إذ قالوا) يعني إخوة يوسف . (لَيُوسُفُ وأخوه) يعنون ابن يامين . وإنما قيل له : ابن يامين ، لأن أمه ماتت نفساء . ويامين بمعنى الوجع ، وكان أخاه لأمه وأبيه . والباقون إخوته لأبيه دون أمه .

فأما العصبة ، فقال الزجاج : هي في اللغة الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعضهم بعضاً في الفعل ، ويتعصب بعضهم لبعض .

وللمفسرين في العصبة ستة أقوال :

أحدها : أنها ما كان أكثر من عشرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : أنها مابين العشرة إلى الأربعين ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال قتادة . والثالث : أنها ستة أو سبعة ، قاله سعيد بن جبير . والرابع : أنها من عشرة إلى خمسة عشر ، قاله مجاهد . والخامس : الجماعة ، قاله ابن زيد ، وابن قتيبة ، والزجاج . والسادس : عشرة ، قاله مقاتل . وقال الفراء : العصبة عشرة فما زاد .

قوله تعالى : (إن أبانا لفي ضلال مبين) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لفي خَطَأٍ من رأيه ، قاله ابن زيد . والثاني : في شَقَاء ، قاله مقاتل ؛ والمراد به عناء الدنيا . والثالث : لفي ضلال عن طريق الصواب الذي يقتضي تعديل المحبة بيننا ، لأن نفعنا له أعم . قال الزجاج : ولو نسبوه إلى الضلال في الدين كانوا كفاراً ، إنما أرادوا : إنه قدَّم ابنين صغيرين علينا في المحبة ونحن جماعة نفعنا أكثر .

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (اقتلوا يوسف) قال أبو علي : قرأ ابن كثير ، ونافع ، والكسائي : « مبينٌ اقتلوا » بضم التنوين ، لأن تحريكه يلزم لالتقاء الساكنين ، فحركوه بالضم ليُتبعوا الضمة الضمة ، كما قالوا : « مدُّ » « وظُلُمات » . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، بكسر التنوين ، فلم يتبعوا الضمة كما قالوا : « مدِّ » « ظُلُمات » . قال المفسرون : وهذا قولهم بينهم (أو اطرحوه أرضاً) قال الزجاج : نصب « أرضاً » على إسقاط « في » ، وأفضى الفعل إليها ؛ والمعنى : أو اطرحوه أرضاً يبعد بها عن أبيه . وقال غيره : أرضاً تأكله فيها السباع .

قوله تعالى : (يخلُ لكم وجه أبيكم) أي : يفرغ لكم من الشغل بيوسف . (وتكونوا من بعده) أي : من بعد يوسف . (قوماً صالحين) فيه قولان :

أحدهما : صالحين بالتوبة من بعد قتله ، قاله ابن عباس .

والثاني : يصلح حالكم عند أبيكم ، قاله مقاتل . وفي قصتهم نكتة عجيبة ، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب ، وكذلك المؤمن لاينسى التوبة وإن كان مرتكباً للخطايا .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لاتَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال قائل منهم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يهوذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبه ،

والسدي ، ومقاتل . والثاني : أنه شمعون ، قاله مجاهد . والثالث : روبيل ، قاله قتادة ، وابن إسحاق . فأما غيابة الجب ، فقال أبو عبيدة : كل شيء غيَّب عنك شيئاً فهو غيابة ، والجب : الرَّكية التي لم تطو . وقال الزجاج : الغيابة : كل ما غاب عنك ، أو غيَّب شيئاً عنك ، قال المنخّل :

فإنْ أنا يَوْماً غيَّبَتْني غَيَابَتي فسيروا بِسَيْري في العشيرة والأهْلِ

والجب : البئر التي لم تطو ؛ سميت جباً من أجل أنها قُطعت قطْعاً ، ولم يحدث فيها غير القطع من طي وما أشبهه . وقال ابن عباس : « في غيابة الجب » أي : في ظلمانه . وقال الحسن : في قعره . وقرأ نافع : « غيابات الجب » فجعل كل منه غيابة . وروى خارجة عن نافع : « غيَّابات » بتشديد الياء . وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومجاهد : « غيبة الجب » بغير ألف مع إسكان الياء . وأين كان هذا الجب ، فيه قولان :

أحدهما : بأرض الأردن ، قاله وهب . وقال مقاتل : هو بأرض الأردن على ثلاث فراسخ من منزل يعقوب . والثاني : ببيت المقدس ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (يلتقطه بعض السيارة) قال ابن عباس : يأخذه بعض من يسير . (إن كنتم فاعلين) أي : إن أضمرتم له ما تريدون . وأكثر القراء قرؤوا « يلتقطه » بالياء . وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابن أبي عبلة بالتاء . قال الزجاج : وجميع النحويين يجيزون ذلك ، لأن بعض السيارة سيارة ، فكأنه قال : تلتقطه سيارة بعض السيارة . وقال ابن الأنباري : من قرأ بالتاء ، فقد أنَّث فعل بعض ، وبعض مذكر ، وإنما فعل ذلك حملاً على المعنى ، إذ التأويل : تلتقطه السيارة ، قال الشاعر :

رأت مَرَّ السِّنِينَ أخَذْنَ مني كما أخَذَ السِّرارُ مِنَ الهِلاَلِ [1]

(١) البيت لجرير ، ديوانه ٤٢٦ ، و « مجاز القرآن » ١/٩٨ ، و « الطبري » ١٥/٥٦٧ ، و « الكامل » للمبرد ٤٨٦ ، والسرار : آخر ليلة من الشهر يستسر فيها الهلال ، أي : يختفي .

أراد : رأت السنين ، وقال الآخر :

طولُ الليالي أسرعتْ في نَقْضي طَوَيْنَ طولي وطَوَيْنَ عَرْضي (١)

أراد : الليالي أسرعت ، وقال جرير :

لمّا أتى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَواضَعَتْ سُورُ المَدينَةِ والجِبالُ الخُشَّعُ (٢)

أراد : تواضعت المدينة ، وقال الآخر :

وتشْرَقُ بالقَوْلِ الذي قد أذَعْتَهُ كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ مِنَ الدَّمِ (٣)

أراد : كما شرقت القناة .

قال المفسرون : فلما عزم القوم على كيد يوسف ، قالوا لأبيه : (مالك لاتأمنّا) قرأ الجماعة « تأمنا » بفتح الميم وإدغام النون الأولى في الثانية والإشارة إلى إعراب النون المدغمة بالضم ؛ قال مكي : لأن الأصل « تأمننا » ثم أدغمت النون الأولى ، وبقي الإشمام يدل على ضمة النون الأولى . والإشمام : هو ضم شفتيك من غير صوت يُسمع ، فهو بعد الإدغام وقبل فتحه النون الثانية . وابن كيسان يسمي الإشمام الإشارة ، ويسمى الرَّوم إشماماً ؛ والرَّوْم : صوت ضعيف يُسمع خفياً . وقرأ أبو جعفر « تأمنّا » بفتح النون من غير إشمام إلى إعراب المدغم . وقرأ الحسن « مالَكَ لاتأمُنّا » بضم الميم . وقرأ ابن مقسم « تأمننا » بنونين

(١) البيت للعجاج في ملحق ديوانه ٨١ ، و « الكتاب » ١/١٩ ، و « مجاز القرآن » ١/٩٩ ، و « الطبري » ٧/٨٧ ، و « البيان والتبيين » : ٤/٦٠ ، و « شواهد المغني » ٢٩٧ ، و « العيني » ٣/٣٩٥ ، و « الخزانة » : ٢/١٦٨ .

(٢) « ديوانه » ٣٤٥ ، و « مجاز القرآن » ١/١٩٧ ، و « النقائض » ٩٦٩ ، و « الكتاب » ١/٢٥ ، و « الكامل » للمبرد ٤٨٦ ، و « الطبري » ٢/١٧ ، و « الأضداد » : ٢٩٦ لابن الأنباري ، و « اللسان » و « التاج » سور : و « الخزانة » ٢/١٦٦ .

(٣) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس ، ديوانه : ١٢٣ ، و « اللسان » شرق ، ومعنى تشرق : تغص ، وصدر القناة : أعلاها .

على الأصل ، والمعنى : مالك لاتأمنا على يوسف فترسله معنا ، فانه قد كبر ولا يعلم شيئاً من أمر المعاش (وإنا له لناصحون) فيما أشرنا به عليك ؛ (أرسله معنا غداً) إلى الصحراء . وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وذلك أنهم قالوا له : أرسله معنا ، فقال : إني لَيَحْزُنُني أن تذهبوا به ، فقالوا : مالك لاتأمنا .

قوله تعالى : (نرتع ونلعب) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو « نرتع ونلعب » بالنون فيهما ، والعين ساكنة ؛ وافقهم زيد عن يعقوب في « نرتع » فحسب .

وفي معنى « نرتع » ثلاثة أقوال :

أحدها : نَلْهُ ، قاله الضحاك . والثاني : نَسْعَ ، قاله قتادة . والثالث : نأكل ؛ يقال : رتعت الإبل : إذا رعت ، وأرتعتها : إذا تركتها ترعى . قال الشاعر :

وَحَبِيبٍ لي إذَا لاَقَيْتُهُ وإذَا يَخْلُو لهُ لَحْمِي رَتَعْ [(١)]

أي : أكله ، هذا قول ابن الأنباري ، وابن قتيبة . وقرأ عاصم ، وحمزة والكسائي : « يرتع ويلعب » بالياء فيهما وجزْم العين والباء ، يعنون « يوسف » . وقرأ نافع : « نرتعِ » بكسر العين من « نرتع » من غير بلوغ إلى الياء . قال ابن قتيبة : ومعناها : نتحارس ، ويرعى بعضنا بعضاً ، أي : يحفظ ؛ ومنه يقال : رعاك الله ، أي : حفظك . وقد رويت عن ابن كثير أيضاً « نرتعي » باثبات ياء بعد العين في الوصل والوقف . وقرأ أنس ، وأبو رجاء « نُرتِعْ » بنون مرفوعة وكسر التاء وسكون العين ، و « نلعبْ » بالنون . قال أبو عبيدة : أي : نرتع إبلنا .

فأما قوله : (ونلعب) فقال ابن عباس : نلهو .

---

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري من قصيدة في « المفضليات » : ١٩٠ - ٢٠٢ ، تعد من أعلى الشعر وأنفسه ، وقد فضلها الأصمعي ، وقال : كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها ، وكانت في الجاهلية تسميها اليتيمة لما اشتملت عليه من الأمثال . وهو أيضاً في « الشعر والشعراء » : ٣٨٤ ، و « الخزانة » : ٥٤٧/٢ ، ورواية الشطر الأول فيها : « ويحيّيني إذا لاقيته » .

فإن قيل : كيف لم ينكر عليهم يعقوب ذِكر اللعب ؟

فالجواب من وجهين . أحدهما : أنهم لم يكونوا حينئذ أنبياء ، قاله أبو عمرو ابن العلاء . والثاني : أنهم عَنَوْا مباح اللعب ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (إني ليحزنني أن تذهبوا به) أي : يحزنني ذهابكم به ، لأنه يفارقني فلا أراه . (وأخاف أن يأكلَهُ الذئب) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : « الذئب » بالهمز في الثلاثة المواضع . وقرأ الكسائي ، وأبو جعفر ، وشيبة بغير همز . قال أبو علي : « الذئب » مهموز في الأصل . يقال : تذاءبَتِ الريح : إذا جاءت من كل جهة كما يأتي الذئب .

وفي علة تخصيص الذئب بالذكر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه رأى في منامه أن الذئب شد على يوسف ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن أرضهم كانت كثيرة الذئاب ، قاله مقاتل . والثالث : أنه خافهم عليه فكنى بذكر الذئب ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (وأنتم عنه غافلون) فيه قولان :

أحدها : غافلون في اللعب . والثاني : مشتغلون برعيتكم .

قوله تعالى : (لئن أكله الذئب ونحن عُصْبَةٌ) أي : جماعة نرى الذئب قد قصده ولا نرد عنه (إنا إذاً لخاسرون) أي : عاجزون . قال ابن الأنباري : ومن قرأ « عصبةً » بالنصب ، فتقديره : ونحن نجتمع عصبة .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلما ذهبوا به) في الكلام اختصار وإضمار ، تقديره : فأرسله معهم فلما ذهبوا . (وأجمعوا) أي : عزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب .

الإشارة إلى قصة ذهابهم

قال المفسرون : قالوا ليوسف : أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد ؟ قال : بلى ، قالوا : فسل أباك أن يرسلك معنا ، قال : أفعل ، فدخلوا بجماعتهم على يعقوب ، فقالوا : ياأبانا إن يوسف قد أحب أن يخرج معنا ، فقال : ماتقول يابني؟ قال : نعم ياأبت ، قد أرى من إخوتي اللين واللطف ، فأنا أحب أن تأذن لي ، فأرسله معهم ، فلما أصحروا ،أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة ، وأغلظوا له القول ، وجعل يلجأ إلى هذا ، فيضربه ، وإلى هذا ، فيؤذيه ، فلما فطن لما قد عزموا عليه ، جعل ينادي : ياأبتاه ، يايعقوب ،لو رأيت يوسف وما ينزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك ، ياأبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك ، وضيّعوا وصيّتك ؛ وجعل يبكي بكاءً شديداً . قال الضحاك عن ابن عباس : فأخذه روبيل فجلد به الأرض ، ثم جثم على صدره وأراد قتله ، فقال له يوسف : مهلاً يا أخي لاتقتلني ، قال : يا ابن راحيل صاحبَ الأحلام ، قل لرؤياك تخلصك من أيدينا ، ولوى عنقه ليكسرها ، فنادى يوسف : يايهوذا اتق الله فيّ ، وخل بيني وبين مَنْ يريد قتلي ، فأدركته له رحمة ، فقال يهوذا : ياإخوتاه ، ألا أدلكم على أمرٍ هو خير لكم وأرفق به ؟ قالوا : وما ذاك ؟ قال : تلقونه في هذا الجب فيلتقطه بعض السيارة ، قالوا : نفعل ؛ فانطلقوا به إلى الجب ، فخلعوا قميصه ، فقال : ياإخوتاه ، لِمَ نزعتم قميصي ؟ ردوه عليَّ أستر به عورتي ويكون كفناً لي في مماتي ؛ فأخرج الله له حجراً في البئر مرتفعاً من الماء ، فاستقرت عليه قدماه . وقال السدي : جعلوا يدلونه في البئر ، فيتعلق بشفير البئر ؛ فربطوا يديه ونزعوا قميصه ، فقال : ياإخوتاه ،

ردوا عليَّ قميصي أتوارى به ، فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ، فدلّوه في البئر ، حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت ، فكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها ؛ فلما أَلْقَوْهُ في الجب جعل يبكي ، فنادوه ، فظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم ، فأرادوا أن يرضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام . وقال كعب : جمعوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه ، فبعث الله إليه مَلَكاً ، فحلَّ عنه وأخرج له حجراً من الماء ، فقعد عليه ؛ وكان يعقوب قد أدرج قميص إبراهيم الذي كساه الله إياه يوم أُلْقي في النار في قصبة ، وجعلها في عنق يوسف ، فألبسه إياه الملك حينئذ ، وأضاء له الجب . وقال الحسن : أُلقي في الجب ، فعَذُبَ ماؤه ، فكان يغنيه عن الطعام والشراب ؛ ودخل عليه جبريل ، فأنس به ، فلما أمسى ، نهض جبريل ليذهب ، فقال له يوسف : إنك إذا خرجت عني استوحشت ، فقال : إذا رهبت شيئاً فقل : ياصريخ المستصرخين ، وياغوث المستغيثين ، ويامفرِّج كرب المكروبين ، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري . فلما قالها حفّته الملائكة ، فاستأنس في الجب ومكث فيه ثلاثة أيام ، وكان إخوته يرعون حول الجب . وقال محمد بن مسلم الطائفي : لما أُلقي يوسف في الجُبِّ ، قال : ياشاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي فرجاً مما أنا فيه ؛ قال : فما بات فيه .

وفي مقدار سنِّه حين أُلقي في الجب أربعة أقوال :

أحدها : اثنتا عشرة سنة ، قاله الحسن . والثاني : ست سنين ، قاله الضحاك . والثالث : سبع عشرة ، قاله ابن السائب ، وروي عن الحسن أيضاً . والرابع : ثمان عشرة .

قوله تعالى : (وأوحينا إليه) فيه قولان :

أحدهما : أنه إلهام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أنه وحي حقيقة .

قال المفسرون : أُوحي إليه لتخبرنّ إخوتك بأمرهم ، أي : بما صنعوا بك وأنت عالٍ عليهم .

وفي قوله : (وهم لايشعرون) قولان :

أحدهما : لايشعرون أنك يوسف وقت إخبارك لهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني لايشعرون بالوحي ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . فعلى الأول يكون الكلام من صلة « لتنبئنهم » ؛ وعلى الثاني من صلة « وأوحينا إليه » . قال حميد : قلت للحسن : أيحسد المؤمنُ المؤمنَ ؟ قال : لا أبالك ، مانساك بني يعقوب ؟

﴿ وَجَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وجاؤوا أباهم عشاء يبكون) وقرأ أبو هريرة ، والحسن ، وابن السميفع ، والأعمش : « عُشاءً » بضم العين .

قال المفسرون : جاؤوا وقت العتمة ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار بالكذب ، فلما سمع صوتهم فزع ، وقال : مالكم يابَنِيَّ ، هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما أصابكم ؟ وأين يوسف ؟ (قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ننتضل ، قاله ابن عباس ، وابن قتيبة ، قال : والمعنى ، يسابق بعضنا

بعضاً في الرمي . والثاني : نشتد ، قاله السدي . والثالث : نتصيد ، قاله مقاتل . فيكون المعنى على الأول : نستبق في الرمي لننظر أينا أسبق سهماً ؛ وعلى الثاني : نستبق على الأقدام ؛ وعلى الثالث : للصيد .

قوله تعالى : (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي : ثيابنا . (وما أنت بمؤمن لنا) أي : بمصدّق .

وفي قوله : (ولو كنا صادقين) قولان :

أحدهما : أن المعنى : وإن كنا قد صدقنا ، قاله ابن إسحاق والثاني : لو كنا عندك من أهل الصدق لاتهمتنا في يوسف لمحبتك إياه ، وظننت أنا قد كذبناك ، قاله الزجاج .

﴿ وَجَاؤُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَاتَصِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجاؤوا على قميصه بدم كذب) قال اللغويون : معناه : بدم مكذوب فيه ، والعرب تجعل المصدر في كثير من الكلام مفعولاً ، فيقولون للكذب مكذوب ، وللعقل معقول ، وللجلد مجلود ، قال الشاعر :

حتَّى إذا لَمْ يَتْرُكُوا لِعِظَامِهِ لَحْماً وَلا لِفُؤَادِهِ مَعْقُولاَ [1]

أراد : عقلاً . وقال الآخر :

قد والذي سَمَكَ السماءَ بِقُدْرَةٍ بَلَغَ العَزَاءُ وأُدْرِكَ المَجْلُودُ

يريد : أدرك الجلد . ويقولون : ليس لفلان عقد رأي ، ولا معقود رأي ، ويقولون : هذا ماء سكب ، يريدون : مسكوباً ، وهذا شراب صب ، يريدون : مصبوباً ،

---

(١) البيت للراعي النميري من قصيدة له يمدح بها عبد الملك بن مروان ويشكو من السعاة ، ديوانه : ١٣٧ ، وأساس البلاغة : عقل .

وماء غور ، يعنون : غائراً ، ورجل صوم ، يريدون : صائماً ، وامرأة نَوْح ، يريدون : نائحة ؛ وهذا الكلام مجموع قول الفراء ، والأخفش ، والزجاج ، وابن قتيبة في آخرين .

قال ابن عباس : أخذوا جدياً فذبحوه ، ثم غمسوا قميص يوسف في دمه ، وأتوه به وليس فيه خرق ، فقال : كذبتم ، لو كان أكله الذئب لخرّق القميص . وقال قتادة : كان دم ظبية . وقرأ ابن أبي عبلة : « بدمٍ كذباً » بالنصب . وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وأبو العالية : « بدم كدب » بالدال غير معجمة ، أي : بدم طريّ .

قوله تعالى : (بل سَوَّلَتْ) أي : زَيَّنَتْ (لكم أنفسكم أمراً) غير ما تصفون (فصبر جميل) قال الخليل : المعنى : فشأني صبر جميل ، والذي أعتقده صبر جميل . وقال الفراء : الصبر مرفوع ، لأنه عزّى نفسه وقال : ماهو إلا الصبر ، ولو أمرهم بالصبر ، لكان نصباً . وقال قطرب : المعنى : فصبري صبر جميل . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ ، وأبو المتوكل : « فصبراً جميلاً » بالنصب . قال الزجاج : والصبر الجميل ، لاجزع فيه ، ولا شكوى إلى الناس .

قوله تعالى : (والله المستعان على ما تصفون) فيه قولان .

أحدهما : على ما تصفون من الكذب . والثاني : على احتمال ماتصفون .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجاءت سيارة) أي : قوم يسيرون (فأرسلوا واردهم) قال الأخفش : أنّث السيارة وذكّر الوارد ، لأن السيارة في المعنى للرجال . وقال الزجاج : الوارد : الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم .

وفي اسم هذا الوارد قولان :

أحدهما : مالك بن ذُعْر بن يؤيب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : مجلث بن رعويل ، قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : (فأدلى دَلْوَهُ) أي : أرسلها . قال الزجاج : يقال : أدليت الدلو : إذا أرسلتها لتملأها ، ودلوتها : إذا أخرجتها . (قال يابشراي) قرأه ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « يابشرايَ » بفتح الياء وإثبات الألف . وروى ورش عن نافع « بشرايْ » و « محيايْ » [الأنعام : ١٦٢] و « مثواي » [يوسف : ٢٣] بسكون الياء . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي « يابشرى » بألف بغير ياء . وعاصم بفتح الراء ، وحمزة ، والكسائي يميلانها . قال الزجاج : من قرأ « يابشراي » فهذا النداء تنبيه للمخاطبين ، لأن البشرى لاتجيب ولا تعقل ؛ فالمعنى : أبشروا ، ويا أيها البشرى هذا من أوانك ، وكذلك إذا قلت : ياعجباه ، فكأنك قلت : اعجبوا ، ويا أيها العجب هذا من حينك ؛ وقد شرحنا هذا المعنى [هود : ٦٩ و ٧٤] .

فأما قراءة من قرأ « يابشرى » فيجوز أن يكون المعنى : يامن حضر ، هذه بشرى . ويجوز أن يكون المعنى : يابشرى هذا أوانك على ما سبق بيانه من تنبيه الحاضرين . وذكر السدي أنه نادى بذاك أحدهم وكان اسمه بشرى . وقال ابن الأنباري : يجوز فيه هذه الأقوال ، ويجوز أن يكون اسم امرأة . وقرأ أبو رجاء ، وابن أبي عبلة : « يابُشْرَيَّ » بتشديد الياء وفتحها من غير ألف . قال ابن عباس : لما أدلى دَلْوَه ؛ تعلق يوسف بالحبل فنظر إليه فاذا غلام أحسن مايكون من الغلمان ، فقال لأصحابه : البشرى ، فقالوا : ماوراءك ؟ قال : هذا غلام في البئر ، فأقبلوا يسألونه الشركة فيه ، واستخرجوه من الجُبّ ،

فقال بعضهم لبعض : اكتموه عن أصحابكم لئلا يسألونكم الشركة فيه ، فان قالوا : ماهذا ؟ فقولوا : استبضعناه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ؛ فجاء إخوة يوسف فطلبوه فلم يجدوه في البئر ، فنظروا ، فاذا هم بالقوم ومعهم يوسف ، فقالوا لهم : هذا غلام أبق منا ، فقال مالك بن ذعر : فأنا أشتريه منكم ، فباعوه بعشرين درهماً وحُلَّة ونعلين ، وأسره مالك بن ذعر من أصحابه ، وقال : استبضعناه أهل الماء لنبيعه لهم بمصر .

قوله تعالى : (وأسرُّوه بضاعة) قال الزجاج : « بضاعةً » منصوب على الحال ، كأنه قال : وأسرّوه جاعليه بضاعة . وقال ابن قتيبة : أسرّوا في أنفسهم أنه بضاعة وتجارة . وفي الفاعلين لذلك قولان :

أحدهما : أنهم واردو الجب ، أسرّوا ابتياعه عن باقي أصحابهم ، وتواصَوا أنه بضاعة استبضعهم إياها أهل الماء ؛ وقد ذكرنا هذا المعنى عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : أنهم إخوته ، أسروّا أمره ، وباعوه ، وقالوا : هو بضاعة لنا ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس أيضاً [١] .

قوله تعالى : (والله عليم بما يعملون) يعمّ الباعة والمشترين .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٢/١٦٩ ، طبع البابي الحلبي : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال : وأسرّ وارد القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقته السيارة أمر يوسف أنهم اشتروه خيفة منهم أن يستشركوهم ، وقالوا لهم : هو بضاعة أبضعها معنا أهل الماء ، وذلك أنه عقيب الخبر عنه ، فلأن يكون ما وليه من الخبر خبراً عنه ، أشبه من أن يكون خبراً عمن هو بالخبر عنه غير متصل .

قوله تعالى : (وشروه) هذا حرف من حروف الأضداد ، تقول : شريت الشيء ، بمعنى بعته ؛ وشريته ، بمعنى اشتريته . فان كان بمعنى باعوه، ففيهم قولان :

أحدها : أنهم إخوته ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنهم السيارة ، ولم يبعه إخوته ، قاله الحسن ، وقتادة . وإن كان بمعنى اشتروه ، فانهم السيارة .

قوله تعالى : (بثمن بَخْسٍ) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الحرام ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة في آخرين .

والثاني : أنه القليل ، قاله عكرمة ، والشعبي . قال ابن قتيبة : البخس : الخسيس الذي بُخس به البائع .

والثالث : الناقص ، وكانت الدراهم عشرين درهماً في العدد ، وهي تنقص عن عشرين في الميزان ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (دراهم معدودة) قال الفراء : إنما قيل : « معدودة » ليُستدَل بها على القلّة . وقال ابن قتيبة : أي : يسيرة ، سهل عددها لقلّتها ، فلو كانت كثيرة لثقل عددها . وقال ابن عباس : كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُون أقل من أربعين درهماً ، وقيل : إنما لم يَزِنُوها لزهدهم فيه .

وفي عدد تلك الدراهم خمسة أقوال :

أحدها : عشرون درهماً ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، وعكرمة في رواية ، ونوف الشامي ، ووهب بن منبّه ، والشعبي ، وعطية ، والسدي ، ومقاتل في آخرين .

والثاني : عشرون درهماً وحُلّة ، ونعلان ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : اثنان وعشرون درهماً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والرابع : أربعون درهماً ، قاله عكرمة في رواية ، وابن إسحاق .

والخامس : ثلاثون درهماً ، ونعلان ، وحُلَّة ، وكانوا قالوا له بالعبرانية : إما أن تُقرَّ لنا بالعبودية ، وإما أن نأخذك منهم فنقتلَك ، قال : بل أُقِرُّ لكم بالعبودية ، ذكره إسحاق بن بشر عن بعض أشياخه .

قال المفسرون : اقتسموا ثمنه ، فاشتَرَوا به نعالاً وخفافاً .

وكان بعض الصالحين يقول : والله ما يوسف ـ وإن باعه أعداؤه ـ بأعجبَ منك في بيعكَ نفسَكَ بشهوةِ ساعةٍ من معاصيك .

قوله تعالى : (وكانوا فيه من الزاهدين) الزهد : قلَّة الرغبة في الشيء . وفي المشار إليهم قولان : أحدهما : أنهم إخوته ، قاله ابن عباس ؛ فعلى هذا ، في هاء « فيه » قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى يوسف ، لأنهم لم يعلموا مكانه من الله تعالى ، قاله الضحاك ، وابن جريج . والثاني : أنها ترجع إلى الثمن . وفي علَّة زهدهم قولان : أحدهما : رداءته . والثاني : أنهم قصدوا بُعد يوسف ، لا الثمن .

والثاني : أنهم السيارة الذين اشترَوه .

وفي علَّة زهدهم ثلاثة أقوال . أحدها : أنهم ارتابوا لقلة ثمنه . والثاني : أن إخوته وصفوه عندهم بالخيانة والإباق . والثالث : لأنهم علموا أنه حر .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذي اشتراه من مصر) قال وهب : لما ذهبت به السيارة إلى مصر ، وقفوه في سوقها يعرضونه للبيع ، فتزايد الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنَه مسكاً ، ووزنه ورِقاً ، ووزنه حريراً ، فاشتراه بذلك الثمن رجل يقال له : قطفير ، وكان أمين فرعون وخازنه ، وكان مؤمناً . وقال ابن عباس : إنما اشتراه قطفير من مالك بن ذعر بعشرين ديناراً ، وزوجَيْ نعل ، وثوبَيْن أبيضين ، فلما رجع إلى منزله قال لامرأته : أكرمي مثواه . وقال قوم : اسمه أُطفير .

وفي اسم المرأة قولان : أحدهما : راعيل بنت رعاييل ، قاله ابن إسحاق . والثاني : أزليخا بنت تمليخا ، قاله مقاتل . قال ابن قتيبة : « أكرمي مثواه » يعني أكرمي منزله ومقامه عندك ، من قولك : ثويت بالمكان : إذا أقمت به . وقال الزجاج : أحسني إليه في طول مُقامه عندنا . قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرَّس في يوسف ، فقال لامرأته : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا » ، وابنة شعيب حين قالت : (يا أبت استأجره) [القصص : ٢٦] ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

وفي قوله : (عسى أن ينفعنَا) قولان :

أحدهما : يكفينَا إذا بلغ أمورنا . والثاني : بالربح في ثمنه .

قوله تعالى : (أو نتخذه ولداً) قال ابن عباس : نتبنَّاه . وقال غيره : لم يكن لهما ولد ، وكان العزيز لا يأتي النساء .

قوله تعالى : (وكذلك مكنَّا ليوسف) أي : وكما أنجيناه من إخوته وأخرجناه من ظلمة الجُبِّ ، مكنَّا له في الأرض ، أي : ملَّكناه في أرض مصر فجعلناه على خزائنها . (ولنعلِّمه) قال ابن الأنباري : إنما دخلت الواو في « ولنعلِّمه » لفعل مضمر هو المجتلب للام ، والمعنى : مكنَّا ليوسف في الأرض ، واختصصناه

بذلك لكي نعلّمه من تأويل الأحاديث . وقد سبق تفسير « تأويل الأحاديث » [يوسف : ٦] .

(والله غالب على أمره) في هاء الكناية قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : أنه غالب على ما أراد من قضائه ، وهذا معنى قول ابن عباس .

والثاني : أنها ترجع إلى يوسف ، فالمعنى : غالب على أمر يوسف حتى يبلّغه ما أراده له ، وهذا معنى قول مقاتل . وقال بعضهم : والله غالب على أمره حيث أمر يعقوبُ يوسفَ أن لايقصّ رؤياه على إخوته ، فعلموا بها ، ثم أراد يعقوب أن لايكيدوه ، فكادوه ، ثم أراد إخوة يوسف قتْلَه ، فلم يقدَّر لهم ، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة فيندرس أمره ، فعلا أمره ، ثم باعوه ليكون مملوكاً ، فغلب أمره حتى ملك ، وأرادوا أن يعطفوا أباهم ، فأباهم ، ثم أرادوا أن يغرّوا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوْه على القميص ، فلم يَخْفَ عليه ، ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين ، فنسوا ذنبهم إلى أن أقرّوا به بعد سنين . فقالوا : (إنا كنا خاطئين) [يوسف : ٩٧] ، ثم أرادوا أن يمحوا محبّته من قلب أبيه ، فازدادت ، ثم أرادت أزليخا أن تلقي عليه التهمة بقولها : (ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً) [يوسف : ٢٥] ، فغلب أمره ، حتى شهد شاهد من أهلها ، وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي ، فنسي الساقي حتى لبث في السجن بضع سنين .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولما بلغ أشده) قد ذكرنا معنى الأشد في (الأنعام : ١٥٢) ،

واختلف العلماء في المراد به هاهنا على ثمانية أقوال :

أحدها : أنه ثلاث وثلاثون سنة ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة . والثاني : ثماني عشرة سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة . والثالث : أربعون سنة ، قاله الحسن . والرابع : بلوغ الحلم ، قاله الشعبي ، وربيعة ، وزيد بن أسلم ، وابنه . والخامس : عشرون سنة ، قاله الضحاك . والسادس : أنه من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين ، قاله الزجاج . والسابع : أنه بلوغ ثمان وثلاثين سنة ، حكاه ابن قتيبة . والثامن : ثلاثون سنة ، ذكره بعض المفسرين [١] .

قوله تعالى : (آتيناه حكماً) فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الفقه والعقل ، قاله مجاهد . والثاني : النبوّة ، قاله ابن السائب . والثالث : أنه جُعل حكيماً ، قاله الزجاج ، قال : وليس كل عالم حكيماً ، إنما الحكيم : العالم المستعمِل علمه ، الممتنع به من استعمال مايجهّل فيه . والرابع : أنه الإصابة في القول ، ذكره الثعلبي . قال اللغويون : الحكم عند العرب مايصرف عن الجهل والخطأ ، ويمنع منها ، ويردّ النفس عما يشينها ويعود عليها بالضرر ، ومنه : حكَمة الدابة . وأصل أحكمت في اللغة : منعت ، وسمي الحاكم حاكماً ، لأنه يمنع من الظلم والزيغ .

(١) قال أبو جعفر ابن جرير الطبري ١٢/١٧٧ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أنه آتى يوسف ـ لما بلغ أشده ـ حكماً وعلماً . والأشد : هو انتهاء قوته وشبابه ، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة ، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، ولا دلالة في كتاب الله ، ولا أثر عن رسول الله ﷺ ، ولا في إجماع الأمة على أي ذلك كان ، وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجه الذي ذكرت ، فالصواب أن يقال فيه كما قال عز وجل حتى تثبت حجة بصحة ماقيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له ، فيسلم لها حينئذ .

وفي المراد بالعلم هاهنا قولان : أحدهما : الفقه . والثاني : علم الرؤيا .

قوله تعالى : (وكذلك نجزي المحسنين) أي : ومثل ماوصفنا من تعليم يوسف وحراسته ، نثيب من أحسن عمله ، واجتنب المعاصي ، فنجّيه من الهلكة ، ونستنقذه من الضلالة فنجعله من أهل العلم والحكمة كما فعلنا بيوسف .

وفي المراد بالمحسنين هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : الصابرون على النوائب . والثاني : المهتدون ، رويا عن ابن عباس . والثالث : المؤمنون . قال محمد بن جرير : هذا ، وإن كان مخرج ظاهره على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ ، والمعنى : كما فعلتُ بيوسف بعد مالقي من البلاء فمكّنته في الأرض وآتيته العلم ، كذلك أفعل بك وأُنجيك من مشركي قومك .

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) أي : طلبت منه المواقعة ، وقد سبق اسمها . قال الزجاج : المعنى : راودته عما أرادته مما يريد النساء من الرجال . (وقالت هيت لك) قرأ ابن كثير : « هَيْتُ لك » بفتح الهاء وتسكين الياء وضم التاء . وقرأ نافع ، وابن عامر : « هِيتَ لك » بكسر الهاء وتسكين الياء وفتح التاء ، وهي مروية عن علي بن أبي طالب . وروى الحُلواني عن هشام عن ابن عامر مثله ، إلا أنه همزه . قال أبو علي الفارسي : هو خطأ . وروي عن ابن عامر : « هِئْتُ لك » بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء ، وهي قراءة ابن عباس ، وأبي الدرداء ، وقتادة . قال الزجاج : هو من الهيئة ، كأنها قالت : تهيأت لك . وعن ابن محيصن ، وطلحة بن مصرف مثل قراءة ابن عباس ؛

إلا أنها بغير همز . وعن ابن محيصن بفتح الهاء وكسر التاء ، وهي قراءة أبي رزين ، وحميد . وعن الوليد بن عتبة بكسر الهاء والتاء مع الهمز ، وهي قراءة أبي العالية . وقرأ ابن خثيم مثله ، إلا أنه لم يهمز . وعن الوليد بن مسلم عن نافع بكسر الهاء وفتح التاء مع الهمز . وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع ، وابن يعمر ، والجحدري : « هُيِّئتُ لك » برفع الهاء والتاء وياء مشددة مكسورة بعدها همزة ساكنة . وقرأ أُبَيُّ بن كعب : « هاأنالك » . وقرأ الباقون بفتح الهاء والتاء بغير همز . قال الزجاج : وهو أجود اللغات ، وأكثرها في كلام العرب ، ومعناها : هلم لك ، أي : أقبل على ما أدعوك إليه ، وقال الشاعر :

أَبْلِغْ أميرَ المُؤْمِنِينَ أخَا العِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا [1]

أَنَّ العِرَاقَ وَأَهْلَهُ عُنُقٌ إِلَيْكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

أي : فأقبل وتعال . وقال ابن قتيبة : يقال : هيَّت فلان لفلان : إذا دعاه وصاح به ، قال الشاعر :

قد رابني أنَّ الكَرِيَّ أَسْكَتَا لو كانَ مَعْنِيّاً بها لَهَيَّتَا [2]

أي : صار ذا سكوت . واختلف العلماء في قوله : « هيت لك » بأي لغة هي ، على أربعة أقوال :

أحدها : أنها عربية ، قاله مجاهد . وقال ابن الأنباري : وقد قيل : إنها من كلام

---

(١) البيتان في « مجاز القرآن » : ١/٣٠٥ ، و « الطبري » ١٢/١٧٩ ، و « القرطبي » ٩/١٦٤ ، و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : « هيت » . وقوله : عنق ، أي : مائلون إليك ومنتظروك .

(٢) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » ٢١٥ ، و « اللسان » : « هيت » ، و « القرطبي » ٩/١٦٥ ، والشطر الثاني في « الصحاح » هيت . والكريّ : المستأجر .

قريش ، إلا أنها مما درس وقلَّ في أفواههم آخراً ، فأتى الله به ، لأن أصله من كلامهم ، وهذه الكلمة لا مصدر لها ، ولا تصرُّف ، ولا تثنية ، ولا جمع ، ولا تأنيث ، يقال للاثنين : هيت لكما ، وللجميع : هيت لكم ، وللنسوة : هيت لَكُنَّ .

والثاني : أنها بالسريانية ، قاله الحسن .

والثالث : بالحورانية ، قاله عكرمة ، والكسائي . وقال الفراء : يقال : إنها لغة لأهل حوران ، سقطت إلى أهل مكة فتكلموا بها .

والرابع : أنها بالقبطية ، قاله السدي .

قوله تعالى : (قال معاذ الله) قال الزجاج : هو مصدر ، والمعنى : أعوذ بالله أن أفعل هذا ، يقال : عذت عياذاً ومعاذاً ومعاذة . (إنه ربي) أي : إن العزيز صاحبي (أحسن مثواي) ، قال : ويجوز أن يكون « إنه ربي » يعني الله عز وجل « أحسن مثواي » أي : تولاني في طول مُقامي .

قوله تعالى : (إنه لا يفلح الظالمون) أي : إن فعلت هذا فخنته في أهله بعدما أكرمني فأنا ظالم . وقيل : الظالمون هاهنا : الزناة .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد همَّت به) الهم بالشيء في كلام العرب : حديث المرء نفسه بمواقعته ما لم يواقع . فأما همّ أزليخا ، فقال المفسرون : دعته إلى نفسها واستلقت له . واختلفوا في همّه بها على خمسة أقوال :

أحدها : أنه كان من جنس همّها ، فلولا أن الله تعالى عصمه لفعل ، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدي ، وهو قول

عامة المفسرين المتقدمين ، واختاره من المتأخرين جماعة منهم ابن جرير ، وابن الأنباري . وقال ابن قتيبة : لايجوز في اللغة : هممت بفلان ، وهمّ بي ، وأنت تريد : اختلاف الهمَّين . واحتج مَنْ نصر هذا القول بأنه مذهب الأكثرين من السلف والعلماء الأكابر ، ويدل عليه ما سنذكره من أمر البرهان الذي رآه . قالوا : ورجوعه عما همّ به من ذلك خوفاً من الله تعالى يمحو عنه سيء الهمّ ، ويوجب له علوّ المنازل ، ويدل على هذا الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : أن ثلاثة خرجوا فلجؤوا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة ، فقالوا : ليذكر كل واحد منكم أفضل عمله . فقال أحدهم : اللهم إنك تعلم أنه كانت لي بنت عم فراودتها عن نفسها فأبت إلا بمائة دينار ، فلما أتيتها بها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة ، أرعدتْ وقالت : إن هذا لعملٌ ما عملته قطّ ، فقمت عنها وأعطيتها المائة الدينار ، فان كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرِج عنا ، فزال ثلث الحجر . والحديث معروف [(١)] ، وقد ذكرته في « الحدائق » فعلى هذا تقول : إنما همت ، فترقّت همّتها إلى العزيمة ، فصارت مصرّةً على الزنا . فأما هو ، فعارضه ما يعارض البشر من خَطَرَاتِ القلب ، وحديث النفس ، من غير عزم ، فلم يلزمه هذا الهمْ ذنباً ، فان الرجل الصالح قد يخطر بقلبه وهو صائم شرب الماء البارد ، فاذا لم يشرب لم يؤاخذ بما هجس في نفسه ، وقد قال ﷺ « عفي لأمتي عما حدثت به أنفسها مالم تتكلم أو تعمل » [(٢)] وقال ﷺ « هلك المصرّون » ، وليس

(١) هو في صحيح البخاري ٤/٣٤٠ و ٣٦٩ و ٥/١٢ و ٦/٣٦٧ ، ومسلم ٤/٢٠٩٩ ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(٢) رواه البخاري ٥/١١٦ و ١١/٤٧٨ ولفظه « إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها مالم تعمل به أو تكلم » ، ورواه مسلم ١/١١٧ ، ولفظه « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تكلم به » . ورواه أيضاً أصحاب « السنن » الأربعة ، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

الإصرار إلا عزم القلب ، فقد فرّق بين حديث النفس وعزم القلب . وسئل سفيان الثوري : أيؤاخذ العبد بالهمة ؟ فقال : إذا كانت عزماً ، ويؤيده الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : إذا همّ عبدي بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتها عليه سيئة »[1] . واحتج القاضي أبو يعلى على أن همته لم تكن من جهة العزيمة ، وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله : « قال معاذ الله إنه ربي » وقوله : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وكل ذلك إخبار ببراءة ساحته من العزيمة على المعصية .

فان قيل : فقد سوّى القرآن بين الهمتين ، فلم فرقتم ؟

فالجواب : أن الاستواء وقع في بداية الهمة ، ثم ترقت همتها إلى العزيمة ، بدليل مراودتها واستلقائها بين يديه ، ولم تتعد همته مقامها ، بل نزلت عن رتبتها ، وانحل معقودها ، بدليل هربه منها ، وقوله : « معاذ الله » ، وعلى هذا تكون همته مجرد خاطر لم يخرج إلى العزم . ولا يصح ما يروى عن المفسرين أنه حلّ السراويل وقعد منها مقعد الرجل ، فانه لو كان هذا ، دل على العزم ، والأنبياء معصومون من العزم على الزنا .

والقول الثاني : أنها همت به أن يفترشها ، وهمّ بها ، أي : تمنّاها أن تكون له زوجة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والقول الثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، فلما رأى البرهان ، لم يقع منه الهم ، فقُدّم جواب « لولا » عليها ، كما يقال : قد كنتَ من الهالكين ، لولا أن فلاناً خلّصك ، لكنت من الهالكين ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) رواه مسلم ١/١١٧ .

فَلا يَدْعُنِي قَوْمِي صَرِيحاً لِحُرَّةٍ لئن كُنْتُ مَقْتُولاً وَتَسْلَمَ عَامِرُ

أراد : لئن كنت مقتولاً وتسلم عامر ، فلا يدعني قومي ، فقدم الجواب . وإلى هذا القول ذهب قطرب ، وأنكره قوم ، منهم ابن الأنباري ، وقالوا : تقديم جواب « لولا » عليها شاذ مستكره ، لايوجد في فصيح كلام العرب ، فأما البيت المستشهَد به ، فمن اضطرار الشعراء ، لأن الشاعر يضيق الكلام به عند اهتمامه بتصحيح أجزاء شعره ، فيضع الكلمة في غير موضعها ، ويقدّم ما حكمه التأخير ، ويؤخّر ما حكمه التقديم ، ويعدل عن الاختيار إلى المستقبح للضرورة ، قال الشاعر :

جَزَى رَبُّه عَنِّي عَدِيَّ بنَ حَاتِمٍ بِتَرْكِي وَخِذْلانِي جَزَاءً موفَّراً

تقديره : جزى عني عديَّ بن حاتم ربُّه ، فاضطر إلى تقديم الرب ، وقال الآخر :

لَمَّا جَفَا إِخوانُه مُصْعَبَا أدَّى بِذَاكَ البَيعِ صَاعاً بِصاعِ

أراد : لما جفا مصعباً إخوانه ، وأنشد الفراء :

طَلَبَا لعُرْفِكَ يَاابْنَ يحيى بَعْدَمَا تَتَقَطَّعَت بي دُونَكَ الأسْبَابُ

فزاد تاء على « تقطعت » لا أصل لها ليصلح وزن شعره ، وأنشد ثعلب :

إنَّ شَكْلِي وَإنَّ شَكْلَكَ شَتَّى فَالزَمِي الخَفْضَ وانعمي تَبْيَضِضِي[1]

فزاد ضاداً لا أصل لها لتكمل أجزاء البيت ، وقال الفرزدق :

هُمَا تَفَلا في فِيَّ مِن فَمَوَيْهِمَا عَلَى النَّابِحِ العَاوِي أشدُّ لِجَامِيا

فزاد واواً بعد الميم ليصلح شعره . ومثل هذه الأشياء لايحمل عليها كتاب الله النازل بالفصاحة ، لأنها من ضرورات الشعراء .

والقول الرابع : أنه همّ أن يضربها ويدفعها عن نفسه ، فكان البرهان الذي

---

(١) البيت في « مشكل القرآن » ٢٣٥، و « الطبري » : ١/٢١٤ ، وأمالي ابن الشجري : ١/١٩٧ ، و « اللسان » : بيض ، خفض .

رآه من ربه أن الله أوقع في نفسه أنه إن ضربها كان ضربه إياها حجة عليه ، لأنها تقول : راودني فمنعته فضربني ، ذكره ابن الأنباري .

والقول الخامس : أنه همّ بالفرار منها ، حكاه الثعلبي ، وهو قول مرذول ، أفتراه أراد الفرار منها ، فلما رأى البرهان ، أقام عندها ؟ ! قال بعض العلماء : كان همّ يوسف خطيئة من الصغائر الجائزة على الأنبياء ، وإنما ابتلاهم بذلك ليكونوا على خوف منه ، وليعرفهم مواقع نعمته في الصفح عنهم ، وليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة . قال الحسن : إن الله تعالى لم يقصص عليكم ذنوب الأنبياء تعييراً لهم ، ولكن لئلا تقنطوا من رحمته . يعني الحسن : أن الحجة للأنبياء ألزم ، فاذا قبل التوبة منهم ، كان إلى قبولها منكم أسرع . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد همّ بخطيئة أو عملها ، إلا يحيى بن زكريا ، فانه لم يهم ولم يعملها »[1] .

قوله تعالى : (لولا أن رأى برهان ربه) جواب « لولا » محذوف . قال الزجاج : المعنى : لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به . قال ابن الأنباري : لزنا ، فلما رأى البرهان كان سبب انصراف الزنا عنه .

وفي البرهان ستة أقوال :

أحدها : أنه مُثّل له يعقوب . روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : نُودي يايوسف ، أتزني فتكون مثل الطائر الذي نُتف ريشه فذهب يطير فلم

(١) الحديث في الطبري ٦/٣٧٧ ، ٣٧٨ موقوفاً ومرفوعاً بألفاظ مختلفة ، وأورده ابن كثير ١/٣٦١ من رواية ابن أبي حاتم مرفوعاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وموقوفاً ، ووصف المرفوع بأنه غريب جداً ، وقال بعد أن ذكر الموقوف : فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع ، وذكره السيوطي في « الدر » ٢/٢٢ مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، وقال : وهو أقوى إسناداً من المرفوع .

يستطع ؟ فلم يعط على النداء شيئاً ، فنودي الثانية ، فلم يعط على النداء شيئاً ، فتمثل له يعقوب فضرب صدره ، فقام ، فخرجت شهوته من أنامله . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : رأى صورة أبيه يعقوب في وسط البيت عاضّاً على أنامله ، فأدبر هارباً ، وقال : وحقّك ياأبت لا أعود أبداً . وقال أبو صالح عن ابن عباس : رأى مثال يعقوب في الحائط عاضّاً على شفتيه . وقال الحسن : مثّل له جبريل في صورة يعقوب في سقف البيت عاضّاً على إبهامه أو بعض أصابعه . وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن سيرين ، والضحاك في آخرين . وقال عكرمة : كل ولد يعقوب ، قد ولد له اثنا عشر ولداً ، إلّا يوسف فانه ولد له أحد عشر ولداً ، فنُقص بتلك الشهوة ولداً .

والثاني : أنه جبريل عليه السلام . روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : مثّل له يعقوب فلم يزدجر ، فنودي : أتزني فتكون مثل الطائر نتف ريشه ؟! فلم يزدجر حتى ركضه جبريل في ظهره ، فوثب .

والثالث : أنها قامت إلى صنم في زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال لها يوسف : أي شيء تصنعين ؟ قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني على هذه السوأة ، فقال : أتستحين من صنم لايعقل ولا يسمع ، ولا أستحي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت ؟ فهو البرهان الذي رأى ، قاله علي بن أبي طالب ، وعلي بن الحسين ، والضحاك .

والرابع : أن الله بعث إليه ملكاً ، فكتب في وجه المرأة بالدم : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) قاله الضحاك عن ابن عباس . وروي عن محمد ابن كعب القرظي : أنه رأى هذه الآية مكتوبة بين عينيها ، وفي رواية أخرى عنه ،

أنه رآها مكتوبة في الحائط . وروى مجاهد عن ابن عباس قال : بدت فيما بينهما كف ليس فيها عضد ولا معصم ، وفيها مكتوب (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) [الاسراء: ٣٢] ، فقام هارباً ، وقامت ، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فلما قعد إذا بكفٍّ قد بدت فيما بينهما فيها مكتوب (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . .) [البقرة : ٢٨١] ، فقام هارباً ، فلما عاد ، قال الله تعالى لجبرئيل : أدركْ عبدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل عاضّاً على كفه أو أصبعه وهو يقول : يايوسف ، أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء ؟! . وقال وهب بن منبه : ظهرت تلك الكف وعليها مكتوب بالعبرانية (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) [الرعد : ٣٣] ، فانصرفا ، فلما عادا رجعت وعليها مكتوب (وإنَّ عليكم لحافظين . كراماً كاتبين) [الانفطار : ١١ ، ١٢] ، فانصرفا ، فلما عادا عادت وعليها مكتوب (ولا تقربوا الزنا . . .) الآية ، فعاد ، فعادت الرابعة وعليها مكتوب (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) ، فولَّى يوسف هارباً .

والخامس : أنه سيّدُه العزيز دنا من الباب ، رواه ابن إسحاق عن بعض أهل العلم . وقال ابن إسحاق : يقال : إن البرهان خيال سيّده ، رآه عند الباب فهرب .

والسادس : أن البرهان أنه علِم ما أحل الله مما حرّم الله ، فرأى تحريم الزنا ، روي عن محمد بن كعب القرظي . قال ابن قتيبة : رأى حجة الله عليه ، وهي البرهان ، وهذا هو القول الصحيح ، وما تقدَّمه فليس بشيء ، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص ، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب « المغني في التفسير » .

وكيف يُظن بنبيٍّ لله كريمٍ أنه يُخوَّف ويرعَّب ويُضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مصرّ ؟! هذا غاية القبح [١] .

قوله تعالى : (كذلك) أي : كذلك أريناه البرهان (لنصرف عنه السوء) وهو خيانة صاحبه (والفحشاءَ) ركوبَ الفاحشة (إنه من عبادنا المخلصين) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بكسر اللام ، والمعنى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بفتح اللام ، أرادوا : من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش . وبعض المفسرين يقول : السوء : الزنى ، والفحشاء : المعاصي .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (واستبقا الباب) يعني يوسف والمرأة ، تبادرا إلى الباب يجتهد

---

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٢/١٩١ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله جل ثناؤه أخبر عن همّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربه ، وذلك آية من آيات الله زجرته عن ركوب ما همّ به يوسف من الفاحشة ، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب ، وجائز أن تكون صورة الملك ، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنى ، ولا حجة للعذر قاطعة بأي ذلك من أيٍّ ، والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى ، والايمان به ، وترك ما عدا ذلك إلى عالِمه .

كل واحد منهما أن يسبق صاحبه ، وأراد يوسف أن يسبق ليفتح الباب ويخرج ، وأرادت هي إن سبقت إمساك الباب لئلا يخرج ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبته إليها ، فقدَّت قميصه من دبر ، أي : قطعته من خلفه ، لأنه كان هو الهارب وهي الطالبة له . قال المفسرون : قطعت قميصه نصفين ، فلما خرجا ، أُلفيا سيدها ، أي : صادفا زوجها عند الباب ، فحضرها في ذلك الوقت كيد ، فقالت سابقةً بالقول مبرِّئةً لنفسها من الأمر (ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً) قال ابن عباس : تريد الزنى (إلا أن يسجن) أي : ماجزاؤه إلا السجن (أو عذاب أليم) تعني الضرب بالسياط ، فغضب يوسف حينئذ وقال : (هي راودتني) . وقال وهب ابن منبِّه : قال له العزيز حينئذ : أخنتني يايوسف في أهلي ، وغدرتَ بي ، وغررتني بما كنت أرى من صلاحك ؟ فقال حينئذ : (هي راودتني عن نفسي) .

قوله تعالى : (وشهد شاهد من أهلها) وذلك أنه لما تعارض قولاهما ، احتاجا إلى شاهد يُعلَم به قول الصادق .

وفي ذلك الشاهد ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه كان صبياً في المهد ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وشهر بن حوشب عن أبي هريرة ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، وهلال بن يساف في آخرين .

والثاني : أنه كان من خاصة الملك ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس . وقال أبو صالح عن ابن عباس : كان ابن عم لها ، وكان رجلاً حكيماً ، فقال : قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب ، فان كان شقُّ القميص من قدَّامه فأنتِ صادقة وهو كاذب ، وإن كان من خلفه فهو صادق وأنت كاذبة . وقال بعضهم : كان ابن خالة المرأة .

والثالث : أنه شقّ القميص ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وفيه ضعف ، لقوله : « من أهلها » .

فان قيل : كيف وقعت شهادة الشاهد هاهنا معلّقة بشرط ، والشارط غير عالم بما يشرطه ؟

فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أن الشاهد شاهد بأمر قد علمه ، فكأنه سمع بعض كلام يوسف وأزليخا ، فعلم ، غير أنه أوقع في شهادته شرطاً ليلزم المخاطبين قبولُ شهادته من جهة العقل والتمييز ، فكأنه قال : هو الصادق عندي ، فان تدبرتم ما أشترطه لكم ، عقلتم قولي . ومثل هذا قول الحكماء : إن كان القدَر حقاً ، فالحرص باطل ، وإن كان الموت يقيناً ، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

والجواب الثاني : أن الشاهد لم يقطع بالقول ، ولم يعلم حقيقة ما جرى ، وإنما قال ما قال على جهة إظهار ما يسنح له من الرأي ، فكان معنى قوله : « وشهد شاهد » : أعلم وبيَّن . فقال : الذي عندي من الرأي أن نقيس القميص ليوقَف على الخائن . فهذان الجوابان يدلان على أن المتكلم رجل . فان قلنا : إنه صبي في المهد ، كان دخول الشرط مصحِّحاً لبراءة يوسف ، لأن كلام مثله أعجوبة ومعجزة لا يبقى معها شك .

﴿ فَلَمَّا رَآ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فلما رأى قميصه) في هذا الرائي والقائل : (إنه من كيدكن) قولان :

أحدهما : أنه الزوج . والثاني : الشاهد .

وفي هاء الكناية في قوله : « إنه من كيدكن » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى تمزيق القميص ، قاله مقاتل .

والثاني : إلى قولها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » ، فالمعنى : قولكِ هذا من كيدكن ، قاله الزجاج .

والثالث : إلى السوء الذي دعته إليه ، ذكره الماوردي . قال ابن عباس : « إن كيدكن » أي : عملكن « عظيم » تخلطن البريء والسقيم .

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ . وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (يوسف أعرض عن هذا) المعنى : يا يوسف أعرض .

وفي القائل له هذا قولان :

أحدهما : أنه ابن عمها وهو الشاهد ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الزوج ، ذكره جماعة من المفسرين . قال ابن عباس : أعرضْ عن هذا الأمر فلا تذكره لأحد ، واكتمه عليها . وروى الحلبي عن عبد الوارث : « يوسف أعرَضَ عن هذا » بفتح الراء على الخبر .

قوله تعالى : (واستغفري لذنبك) فيه قولان :

أحدها : استعفي زوجك لئلا يعاقبكِ ، قاله ابن عباس .

والثاني : توبي من ذنبكِ فانكِ قد أثمتِ .

وفي القائل لهذا قولان : أحدهما : ابن عمها . والثاني : الزوج .

قوله تعالى : (إنكِ كنتِ من الخاطئين) يعني : من المذنبين . قال المفسرون : ثم شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدّث بذلك النساء ، وهو قوله : (وقال نسوة في المدينة) ، وفي عددهن قولان :

أحدها : أنهن كن أربعاً : امرأة ساقي الملك ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة خبّازه ، وامرأة صاحب سجنه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهن خمس : امرأة الخبّاز ، وامرأة الساقي ، وامرأة السجّان ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة الآذن ، قاله مقاتل .

فأما العزيز ، فهو بلغتهم الملك ، والفتى بمعنى العبد . قال الزجاج : كانوا يسمون المملوك فتى . وإنما تكلم النسوة في حقها ، طعناً فيها ، وتحقيقاً لبراءة يوسف .

قوله تعالى : (قد شغفها حباً) أي : بلغ حبُّه شَغاف قلبها .

وفي الشَّغاف أربعة أقوال :

أحدها : أنه جلدةٌ بين القلب والفؤاد ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أنه غلاف القلب ، قاله أبو عبيدة . قال ابن قتيبة : ولم يُرِدِ الغلاف ، إنما أراد القلب ، يقال : شغفت فلاناً : إذا أصبت شغافه ، كما يقال : كبدته : إذا أصبت كبده ، وبطنته : إذا أصبت بطنه .

والثالث : أنه حبَّة القلب وسويداؤه .

والرابع : أنه داء يكون في الجوف في الشراسيف ، وأنشدوا :

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ دَاخِلٌ
دُخُولَ الشَّغافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ (١)

ذكر القولين الزجاج . وقال الأصمعي : الشَّغاف عند العرب : داء يكون تحت الشراسيف في الجانب الأيمن من البطن ، والشَّراسيف : مقاطّ رؤوس الأضلاع ،

(١) البيت للنابغة الذبياني ، ديوانه : ٧٩ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٠٨ ، و « الطبري » ١٢/١١٠ ، و « الأمالي » للقالي ١/٢٠٥ ، و « السمط » ٤٨٩ . و « الصحاح » ، و « اللسان » ، و « التاج » : شغف ، و « القرطبي » ٩/١٧٦ ، و « الخزانة » ١/٤٢٩ .

واحدها : شُرسوف .

وقرأ عبد الله بن عمرو ، وعلي بن الحسين ، والحسن البصري ، ومجاهد ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة « قد شعفها » بالعين . قال الفراء : كأنه ذهب بها كل مذهب ، والشَّعَف : رؤوس الجبال .

قوله تعالى : (إنا لنراها في ضلال مبين) أي : عن طريق الرشد ، لحبها إياه . والمبين : الظاهر .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما سمعت) يعني : امرأة العزيز ، (بمكرهن) وفيه قولان :

أحدهما : أنه قولهن وعيبهن لها ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة قال الزجاج : وإنما سمي هذا القول مكراً ، لأنها كانت أطلعتهن على أمرها ، واستكتمتهن ، فمكرن وأفشين سرها .

والثاني : أنه مكر حقيقة ، وإنما قلن ذلك مكراً بها لتريَهنّ يوسف ، قاله ابن إسحاق .

قوله تعالى : (وأعتدت) قال الزجاج : أفعلت من العتاد ، وكل ما اتخذته عُدَّةً لشيء فهو عتاد ، والعتاد : الشيء الثابت اللازم . وقال ابن قتيبة : أعتدت بمعنى أعدَّت . فأما المتكأ ، ففيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه المجلس ؛ فالمعنى : هيأت لهن مجلساً ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه الوسائد اللائي يتكئن عليها ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .
وقال الزجاج : المتكأ : ما يُتَّكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث .

والثالث : أنه الطعام ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة . قال ابن قتيبة :
يقال : اتكأنا عند فلان : إذا طعمنا ، قال جميل بن معمر :

فَظَلِلْنَا في نِعْمةٍ واتَّكأْنا وشَرِبْنا الحَلالَ مِنْ قُلَلِهْ[1]

والأصل في هذا أن من دَعوْتَه ليطعم ، أعددت له التُّكأَة للمقام والطمأنينة ،
فسمي الطعام متَّكأً على الاستعارة . قال الأزهري : إنما قيل للطعام : متكأ ،
لأن القوم إذا قعدوا على الطعام اتكؤوا ، ونُهيت هذه الأمة عن ذلك[2] . وقرأ مجاهد
« مُتْكاً » بإسكان التاء خفيفة ، وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الأُتْرُجّ ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ويحيى بن يعمر في آخرين ،
ومنه قول الشاعر :

[نَشْرَبُ الإِثْمَ بالصُّواعِ جِهَاراً] وتَرى المُتْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً[3]

يريد : الأُتْرُجّ .

والثاني : أنه الطعام أيضاً ، قاله عكرمة . والثالث : أنه كل شيء يُحَزُّ
بالسكاكين ، قاله الضحاك . والرابع : أنه الزُّماورد[4] ، روي عن الضحاك أيضاً . وقد

(١) ديوانه : ١٨٨ ، و « مشكل القرآن » : ١٣٨ ، و « أساس البلاغة » قلل ، و « الاغاني » ٩٧/٧ ، و « القرطبي » ١٧٨/٩ ، و « شرح شواهد المغني » ١٢٦ .

(٣) روى البخاري في « صحيحه » عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا آكل وأنا متكئ » .

(٣) البيت غير منسوب في « القرطبي » ١٧٨/١٢ ، و « اللسان » : أثم ، و « التاج » : متك .

(٤) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم ، وغيره ، أو هو شيء يشبه الأترج . وفي « الطبري » البزماورد ، بدل : الزماورد .

روي عن جماعة أنهم فسروا المتَّكأَ بما فسروا به الُمتك ، فروي عن ابن جريج أنه قال : المتَّكأُ : الأُترج ، وكل ما يُحَزّ بالسكاكين . وعن الضحاك قال : المتَّكأُ : كل ما يُحَزّ بالسكاكين . وفرق آخرون بين القراءتين ، فقال مجاهد : من قرأ « متَّكأً » بالتثقيل ، فهو الطعام ، ومن قرأ بالتخفيف ، فهو الأُتْرُجّ . قال ابن قتيبة : من قرأ « مُتْكاً » فانه يريد الأُترج ، ويقال : الزُّماورد . وأيًا ما كان ، فاني لا أحسبه سمي مُتْكاً إلا بالقطع ، كأنه مأخوذ من البَتْك ، فأبدلت الميم منه باءً ، كما يقال : سَمَد رأسه وسَبَده : إذا استأصله ، وشر لازم ، ولازب ، والميم تبدل من الباء كثيراً ، لقرب مخرجيهما .

قوله تعالى : (وآتت كلّ واحدة منهن سكيناً) إنما فعلت ذلك ، لأن الطعام الذي قدمتْ لهن يحتاج إلى السكاكين . وقيل : كان مقصودها افتضاحهن بتقطيع أيديهن كما فضحنها . قال وهب بن منبه : ناولت كل واحدة منهن أُتْرُجَّةً وسكيناً ، وقالت لهن : لاتقطعن ولاتأكلن حتى أُعلمكن ، ثم قالت ليوسف : اخرج عليهن . قال الزجاج : إن شئت ضممت التاء من قوله : « وقالت » ، وإن شئت كسرت ، والكسر الأصل لسكون التاء والخاء ، ومن ضم التاء ، فلثقل الضمة بعد الكسرة . ولم يمكنه أن لايخرج ، لأنه بمنزلة العبد لها . وذكر بعض أهل العلم أنها إنما قالت : « اخرج » وأضمرت في نفسها « عليهن » ، فأخبر الحق عما في النفس كأن اللسان قد نطق به ، ومثله (إنما نطعمكم لوجه الله . . .) الآية [الانسان : ٩] ، لم يقولوا ذلك ، إنما أضمروه ، ويدل على صحة هذا أنها لو قالت له وهو شاب مستحسَن : اخرج على نسوة من طبعهن الفتنة ، مافعل .

وفي قوله : (أَكْبَرْنَهُ) قولان :

أحدها : أعْظَمْنَهُ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة ، وابن زيد .

والثاني : حِضْنَ ، رواه الضحاك عن ابن عباس . وروى علي بن عبد الله ابن عباس عن أبيه قال : حضن من الفَرَح ، قال : وفي ذلك يقول الشاعر :

نَأْتي النساءَ لدى أطهارِهِنَّ ولا نأتي النساءَ إذا أكبرنَ إكبارا (١)

وقد روى هذا المعنى ليث عن مجاهد ، واختاره ابن الأنباري ، وردّه بعض اللغويين ، فروي عن أبي عبيدة أنه قال : ليس في كلام العرب « أكبرن » بمعنى « حِضن » ، ولكن عسى أن يكنّ من شدة ما أعظمنه حضن ، وكذلك روي عن الزجاج أنه أنكره .

قوله تعالى : (وقطّعن أيدَيهن) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : حَزَزْنَ أيديَهن ، وكن يحسبن أنهن يقطّعن طعاماً ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : قطّعن أيدَيهن حتى ألقينها ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثالث : كلَمن الأكُفَّ وأبنَّ الأنامل ، قاله وهب بن منبه .

قوله تعالى : (وقلن حاشا لله) قرأ أبو عمرو « حاشا » بألف في الوصل في الموضعين ، واتفقوا على حذف الألف في الوقف ، وأبو عمرو جاء به على التمام والأصل ، والباقون حذفوا . وهذه الكلمة تستعمل في موضعين . أحدهما : الاستثناء ، والثاني : التبرئة من الشر . والأصل « حاشا » وهي مشتقة من قولك : كنت في حشا فلان ، أي : في ناحيته . والحشا : الناحية ، وأنشدوا :

بأيِّ الحَشَا أمْسَى الخَلِيْطُ المُبَايِنُ

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » ١٢/٢٠٥ ، و « القرطبي » ١٢/١٨٠ ، و « اللسان » : كبر .

أي : بأي النواحي ، والمعنى : صار يوسف في حشاً من أن يكون بشراً ، افرط جماله . وقيل : صار في حشاً مما قرفته به امرأة العزيز . وقال ابن عباس ، ومجاهد : « حاش لله » بمعنى : معاذ الله . قال الفراء : و « بشراً » منصوب ، لأن الباء قد استعملت فيه ، فلا يكاد أهل الحجاز ينطقون إلا بالباء ، فلما حذفوها أحبوا أن يكون لها أثر فيما خرجت منه ، فنصبوا على ذلك ، وكذلك قوله : (ماهن أمهاتِهم) [المجادلة : ٢] ، وأما أهل نجد فيتكلمون بالباء وبغير الباء ، فاذا أسقطوها ، رفعوا ، وهو أقوى الوجهين في العربية . قال الزجاج : قوله : الرفع أقوى الوجهين ، غلط ، لأن كتاب الله أقوى اللغات ، ولم يقرأ بالرفع أحد . وزعم الخليل ، وسيبويه ، وجميع النحويين القدماء أن « بشراً » منصوب ، لأنه خبر « ما » و « ما » بمنزلة « ليس » . قلت : وقد قرأ أبو المتوكل ، وأبو نهيك ، وعكرمة ، ومعاذ القارىء في آخرين : « ماهذا بشر » بالرفع . وقرأ أُبَيُّ بنُ كعبٍ ، وأبو الجوزاء ، وأبو السَّوَّار : « ماهذا بِشِرىً » بكسر الباء والشين مقصوراً منوّناً . قال الفراء : أي : ماهذا بمشترى . وقرأ ابن مسعود : « بشراءٍ » بالمد والهمز مخفوضاً منوّناً .

قوله تعالى : (إنْ هذا إلا مَلَكٌ) قرأ أُبَيٌّ ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وأبو حيوة ، والجحدري : « ملِك » بكسر اللام .

قوله تعالى : (فذلكن الذي لمتنّني فيه) قال المفسرون : لما ذهلت عقولهن فقطّعن أيديَهن ، قالت لهن ذلك .

فان قيل : كيف أشارت إليه وهو حاضر بقولها : « فذلكن » ؟ فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أنها أشارت بـ « ذلكن » إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس .

والثاني : أن في الكلام إضمار « هذا » تقديره : فهذا ذلكن . ومعنى

« لمتنّني فيه » أي : في حبه . ثم أقرت عندهن ، فقالت : (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أي : امتنع .

قوله تعالى : (وليكونن من الصاغرين) قال الزجاج : القراءة الجيدة تخفيف « وليكوناْ » والوقف عليها بالألف ، لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف ، تقول : اضربنْ زيداً ، وإذا وقفت قلت : اضربا . وقد قرئت « وليكوننّ » بتشديد النون ، وأكرهُها ، لخلاف المصحف ، لأن الشديدة لا يبدل منها شيء . والصاغرون : المذَلّون .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (قال رب السجن أحب إلي) قال وهب بن منبه : لما قالت : « فذلكن الذي لمتنّني فيه » قلن : لا لوم عليكِ ، قالت : فاطلبن إلى يوسف أن يسعفني بحاجتي ، فقلن : يايوسف افعل ، فقالت : لئن لم يفعل لأخلدنّه السجن ، فعند ذلك قال : (رب السجن أحب إلي) . وقرأ يعقوب : « السَّجن » بفتح السين هاهنا فحسب . قال الزجاج : من كسر سين « السجن » فعلى اسم المكان ، فيكون المعنى : نزول السجن أحب إليّ من ركوب المعصية ، ومن فتح ، فعلى المصدر ، المعنى : أن أُسجن أحب إلي . (وإلّا تصرفْ عني كيدهن) أي : إلّا تعصمني (أصب إليهن) أي : أمِل إليهن . يقال : صبا إلى اللهو يصبو صَبْواً وصُبُوّاً وصَباءً : إذا مال . وقال ابن الأنباري : ومعنى هذا الكلام : اللهم اصرف عني كيدهن ، ولذلك قال : (فاستجاب له ربّه) .

قال : فان قيل : إنما كادته امرأة العزيز وحدها ، فكيف قال : « كيدهن » ؟

فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن العرب توقع الجمع على الواحد ، فيقول قائلهم : خرجت إلى البصرة في السفن ، وهو لم يخرج إلا في سفينة واحدة .

والثاني : أن المكنيَّ عنه امرأة العزيز والنسوة اللاتي عاضدنها على أمرها .

والثالث : أنه عنى امرأة العزيز وغيرها من نساء العالَمين اللاتي لهن مثل كيدها .

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾

قوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات) في المراد بالآيات ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها شق القميص ، وقضاء ابن عمها عليها ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها قدّ القميص ، وشهادة الشاهد ، وقطع الأيدي ، وإعظام النساء إياه ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثالث : جَمَاله وعِفّتُه ، ذكره الماوردي . قال وهب بن منبه : فأشار النسوة عليها بسجنه رجاء أن يستهوينه حين يخلو لهن في السجن ، وقلن : متى سجنتيه قطع ذلك عنكِ قَالَةَ الناس التي قد شاعت ، ورأوا أنكِ تبغضينه ، ويذلّه السجن لك ، فلما انصرفن عادت إلى مراودته فلم يزدد إلا بُعداً عنها ، فلما يئست ، قالت لسيدها : إن هذا العبد قد فضحني ، وقد أبغضتُ رؤيته ، فائذن لي في سجنه ، فأذن لها ، فسجنته وأضرّتْ به . وقال السدي : قالت : إما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر بعذري ، وإما أن تحبسه كما حبستني ، فظهر للعزيز وأصحابه من الرأي حبس يوسف . قال الزجاج : كان العزيز أمر بالإعراض فقط ، ثم تغيّر رأيه عن ذلك . قال ابن الأنباري : وفي معنى الآية قولان :

أحدها : « ثم بدا لهم » أي : ظهر لهم بالقول والرأي والفكر سجنه .

والثاني : ثم بدا لهم في يوسف بَدَاءٌ ، فقالوا : والله لنسجننّه ، فاللام جواب يمين مضمرة . فأما الحين ، فهو يقع على قصير الزمان وطويله .

وفي المراد به هاهنا للمفسرين خمسة أقوال :

أحدها : خمس سنين ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : سنة ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : سبع سنين ، قاله عكرمة . والرابع : إلى انقطاع القالَة ، قاله عطاء . والخامس : أنه زمان غير محدود ، ذكره الماوردي ، وهذا هو الصحيح ، لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة ، وإنما ذكر المفسرون قدر مالبث .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ودخل معه السجن فتيان) قال الزجاج : فيه دليل على أنه حُبِس ، وإن لم يُذكر ذلك . و « فتيان » جائز أن يكونا حدَثين أو شيخين ، لأنهم يسمون المملوك فتى . قال ابن الأنباري : إنما قال : « فتيان » لأنهما كانا مملوكين ، والعرب تسمي المملوك فتى ، شاباً كان أو شيخاً . قال المفسرون : عُمِّر ملك مصر فملّوه ، فدسّوا إلى خبّازه وصاحب شرابه أن يسمّاه ، فبلغه ذلك فحبسهما ، فكان يوسف قال لأهل السجن : إني أعبّر الأحلام ، فقال أحد الفتيين : هلم فلنجرب هذا العبد العبراني .

واختلفوا هل كانت رؤياهما صادقة ، أم لا ؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها كانت كذباً ، وإنما سألاه تجريباً ، قاله ابن مسعود ، والسدي .

والثاني : أنها كانت صدقاً ، قاله مجاهد ، وابن إسحاق . والثالث : أن الذي صُلب منهما كان كاذباً ، وكان الآخر صادقاً ، قاله أبو مجلز .

قوله تعالى : (قال أحدهما) يعني الساقي (إني أراني) أي : في النوم (أعصر خمراً) أي : عنباً . وفي تسمية العنب خمراً ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه سماه باسم ما يؤول إليه ، لأن المعنى لا يلتبس ، كما يقال : فلان يطبخ الآجُرَّ ويعمل الدبس ، وإنما يطبخ اللبِن ويصنع التمر ، وهذا قول أكثر المفسرين . قال ابن الأنباري : وإنما كان كذلك ، لأن العرب توقع بالفرع ما هو واقع بالأصل ، كقولهم : فلان يطبخ آجُرّاً .

والثاني : أن الخمر في لغة أهل عُمان اسم للعنب ، قاله الضحاك ، والزجاج . قال ابن القاسم : وقد نطقت قريش بهذه اللغة وعرفتها .

والثالث : أن المعنى : أعصر عنب خمر ، وأصل خمر ، وسبب خمر ، فحذف المضاف ، وخلفه المضاف إليه ، كقوله : (واسأل القرية) [يوسف : ٨٢] .

قال أبو صالح عن ابن عباس : رأى يوسف ذات يوم الخباز والساقي مهمومَين ، فقال : ما شأنكما ؟ قالا : رأينا رؤيا ، قال : قُصّاها عليّ ، قال الساقي : إني رأيت كأني دخلت كرماً فجنيت ثلاثة عناقيد عنب ، فعصرتهن في الكأس ، ثم أتيت به الملك فشربه ، وقال الخباز : رأيت أني خرجت من مطبخ الملك أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز ، فوقع طير على أعلاهن فأكل منها ، (نبئنا بتأويله) أي : أخبرنا بتفسيره . وفي قوله : (إنا نراك من المحسنين) خمسة أقوال :

أحدها : أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزّي الحزين ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والثاني : إنا نراك محسناً إن أنبأتنا بتأويله ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : إنا نراك من العالمين قد أحسنت العلم ، قاله الفراء . قال ابن الأنباري : فعلى هذا يكون مفعول الإحسان محذوفاً ، كما حُذف في قوله : (وفيه يعصرون) [يوسف : ٤٩] يعني العنب والسمسم . وإنما علموا أنه عالم ، لنشره العلم بينهم .

والرابع : إنا نراك ممن يحسن التأويل ، ذكره الزجاج .

والخامس : إنا نراك محسناً إلى نفسك بلزومك طاعة الله ، ذكره ابن الأنباري .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

قوله تعالى : (قال لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه) في معنى الكلام قولان :

أحدها : لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه في اليقظة إلا أخبرتكما به قبل أن يصل إليكما ، لأنه كان يخبر بما غاب كعيسى عليه السلام ، وهو قول الحسن .

والثاني : لا يأتيكما طعام تُرْزَقانه في المنام إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما في اليقظة ، هذا قول السدي . قال ابن عباس : فقالا له : وكيف تعلم ذلك ، ولست بساحر ، ولا عرّاف ، ولا صاحب نجوم ؟ فقال : (ذلكما مما علّمني ربي) .

فان قيل: هذا كله ليس بجواب سؤالهما ، فأين جواب سؤالهما ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أنه لما علم أن أحدهما مقتول ، دعاهما إلى نصيبهما من الآخرة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه عدل عن الجواب لما فيه من المكروه لأحدهما ، قاله ابن جريج .

والثالث : أنه ابتدأ بدعائهما إلى الإيمان قبل جواب السؤال ، قاله الزجاج .

والرابع : أنه ظنهما كاذبَين في رؤياهما ، فعدل عن جوابهما ليُعرضا عن مطالبته بالجواب ، فلما ألحّا أجابهما ، ذكره ابن الأنباري . فأما الملّة فهي الدين . وتكرير قوله : (هم) للتوكيد .

قوله تعالى : (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) قال ابن عباس : يريد : أن الله عصمنا من الشرك (ذلك من فضل الله علينا) أي : اتّباعنا الإيمان بتوفيق الله . (وعلى الناس) يعني المؤمنين بأن دلهم على دينه . وقال ابن عباس : « ذلك من فضل الله علينا » أن جعلنا أنبياء « وعلى الناس » أن بعثنا إليهم ، (ولكنّ أكثر الناس) من أهل مصر (لا يشكرون) نعم الله فيوحّدونه .

قوله تعالى : (أأرباب متفرقون) يعني : الأصنام من صغير وكبير (خيرٌ) أي : أعظم صفة في المدح (أم الله الواحد القهار) يعني أنه أحق بالإلهية من الأصنام ؟ . فأما الواحد ، فقال الخطابي : هو الفرد الذي لم يزل وحده ، وقيل : هو المنقطع القرين ، المعدوم الشريك والنظير ، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلّفة ، فان كل شيء سواه يُدعى واحداً من جهة ، غير واحد من جهات ، والواحد لا يثنَّى من لفظه ، لا يقال : واحدان . والقهار : الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلّهم بالموت . وقال غيره : القهار : الذي قهر كل شيء فذلّله ، فاستسلم وذلّ له .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا

إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

قوله تعالى : (ما تعبدون من دونه) إنما جمع في الخطاب لهما ، لأنه أراد جميع من شاركهما في شركهما . وقوله : « من دونه » أي : من دون الله (إلا أسماءً) يعني : الأرباب والآلهة ، ولا يصح معاني تلك الأسماء للأصنام ، فكأنها أسماء فارغة ، فكأنهم يعبدون الأسماء ، لأنها لا تصح معانيها . (ما أنزل الله بها من سلطان) أي : من حجة بعبادتها . (إن الحكم إلا لله) أي : ما القضاء والأمر والنهي إلا له . (ذلك الدّين القيّم) أي : المستقيم ، يشير إلى التوحيد .

(ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون) فيه قولان :

أحدها : لا يعلمون أنه لا يجوز عبادة غيره . والثاني : لا يعلمون ما للمطيعين من الثواب وللعاصين من العقاب .

قوله تعالى : (أمَّا أحدكما فيسقي ربَّه خمراً) الرب هاهنا : السيد . قال ابن السائب : لما قص الساقي رؤياه على يوسف ، قال له : ما أحسن ما رأيت ! أما الأغصان الثلاثة ، فثلاثة أيام ، يبعث إليك الملك عند انقضائها ، فيردك إلى عملك ، فتعود كأحسن ما كنت فيه ، وقال للخبَّاز : بئس ما رأيت ، السلال الثلاث ، ثلاثة أيام ، ثم يبعث إليك الملك عند انقضائهن ، فيقتلك ويصلبك ويأكل الطير من رأسك ، فقالا : ما رأينا شيئاً ، فقال : (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) أي : فُرغ منه ، وسيقع بكما ، صدقتما أو كذبتما .

فان قيل : لم حتّم على وقوع التأويل ، وربما صدق تأويل الرؤيا وكذب ؟ فمنه جوابان.

أحدهما : أنه حتم ذلك لوحي أتاه من الله ، وسبيل المنام المكذوب فيه أن لا يقع تأويله ، فلما قال : « قضي الأمر » ، دل على أنه بوحي .

والثاني : أنه لم يحتم ، بدليل قوله : « وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما » ، قال أصحاب هذا الجواب : معنى « قضي الأمر » : قُطع الجواب الذي التمستماه من جهتي ، ولم يعنِ أن الأمر واقع بكما . وقال أصحاب الجواب الأول : الظن هاهنا بمعنى العلم .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقال للذي ظن أنه ناجٍ منهما) يعني الساقي .

وفي هذا الظن قولان :

أحدهما : أنه بمعنى العلم ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الظن الذي يخالف اليقين ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (اذكرني عند ربك) أي : عند صاحبك ، وهو الملك ، وقل له : إن في السجن غلاماً حُبس ظلماً . واسم الملك : الوليد بن الريّان .

قوله تعالى : (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فيه قولان :

أحدهما : فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف لربه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن إسحاق .

والثاني : فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ، وأمره بذكر الملك ابتغاء الفرج من عنده ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، والزجاج ، وهذا نسيان عمد ، لانسيان سهو ، وعكسه القول الذي قبله .

قوله تعالى : (فلبث في السجن بضع سنين) أي : غير ما كان قد لبث قبل ذلك ، عقوبة له على تعلُّقه بمخلوق .

وفي البضع تسعة أقوال :

أحدها : ما بين السبع والتسع ، روى ابن عباس أن أبا بكر لما ناحب [1] قريشاً عند نزول (آلم غلبت الروم) [الروم: ١، ٢] ، قال له رسول الله ﷺ « ألا احتطت ، فان البضع ما بين السبع إلى التسع » [2] . والثاني : اثنتا عشرة سنة ، قاله الضحاك عن ابن عباس . والثالث : سبع سنين ، قاله عكرمة . والرابع : أنه ما بين الخمس إلى السبع ، قاله الحسن . والخامس : أنه ما بين الأربع إلى التسع ، قاله مجاهد . والسادس : ما بين الثلاث إلى التسع ، قاله الأصمعي ، والزجاج . والسابع : أن البضع يكون بين الثلاث والتسع والعشر ، قاله قتادة . والثامن : أنه ما دون العشرة ، قاله الفراء ، وقال الأخفش : البضع : من واحد إلى عشرة . والتاسع : أنه ما لم يبلغ العقد ولا نصفه ، قاله أبو عبيدة . قال ابن قتيبة : يعني ما بين الواحد إلى الأربعة . وروى الأثرم عن أبي عبيدة : البضع : ما بين ثلاث وخمس .

وفي جملة ما لبث في السجن ثلاثة أقوال :

أحدها : اثنتا عشرة سنة ، قاله ابن عباس . والثاني : أربع عشرة ، قاله الضحاك . والثالث : سبع سنين ، قاله قتادة . قال مالك بن دينار : لما قال يوسف

---

(١) ناحب : راهن ، والمناحبة : المراهنة . قال الجحي : وذلك قبل أن يكون تحريم ذلك (أي : الرهان) .

(٢) « المسند » : ٤/١٦٨ وإسناده صحيح ، و « الطبري » ٢١/١٧ ، والترمذي ٢/١٥٠ ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

للساقي « اذكرني عند ربك » ، قيل له : يايوسف ، أتخذت من دوني وكيلاً ؟ لأطيلنَّ حبسك ، فبكى ، وقال : يارب ، أنسى قلبيَ كثرةُ البلوى ، فقلت كلمة ، فويل لإخوتي .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الملك) يعني ملك مصر الأكبر (إني أرى) يعني في المنام ، ولم يقل : رأيت ، وهذا جائز في اللغة أن يقول القائل : أرى ، بمعنى رأيت . قال وهب بن منبه : لما انقضت المدة التي وقتها الله تعالى ليوسف في حبسه ، دخل عليه جبريل إلى السجن ، فبشّره بالخروج وملكِ مصر ولقاء أبيه ، فلما أمسى الملك من ليلتئذ ، رأى سبع بقرات سمان خرجن من البحر ، في آثارهن سبع عجاف ، فأقبلت العجاف على السمان ، فأخذن بأذنابهن فأكلنهن إلى القرنين ، ولم يزد في العجاف شيء ، ورأى سبع سنبلات خضر وقد أقبل عليهن سبع يابسات فأكلنهن حتى أتين عليهن ، ولم يزدد في اليابسات شيء ، فدعا أشراف قومه فقصها عليهم ، فقالوا : (أضغاث أحلام) . قال الزجاج : والعجاف : التي قد بلغت في الهزال الغاية . والملأ : الذين يُرجع إليهم في الأمور ويقتدى برأيهم ، واللام في قوله : (للرؤيا) دخلت على المفعول للتبيين ، المعنى : إن كنتم تعبرون . ثم بيّن باللام فقال . « للرؤيا » . ومعنى عبرتُ الرؤيا وعبّرتها : أخبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها ، واشتقاقه من عبر النهر ، وهو شاطئ النهر ، فتأويل عبرت النهر : بلغت إلى عِبْره ، أي : إلى شطه ، وهو آخر عرضه .

وذكر ابن الأنباري في اللام قولين :

أحدهما : أنها للتوكيد . والثاني : أنها أفادت معنى « إلى » والمعنى : إن كنتم توجّهون العبارة إلى الرؤيا .

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا أضغاث أحلام) قال أبو عبيدة : واحدها ضِغث ، مكسورة ، وهي ما لا تأويل له من الرؤيا تراه جماعات ، تُجمع من الرؤيا كما يُجمع الحشيش ، فيقال : ضغث ، أي : ملء كف منه . وقال الكسائي : الأضغاث : الرؤيا المختلطة . وقال ابن قتيبة : « أضغاث أحلام » أي : أخلاط مثل أضغاث النبات يجمعها الرجل ، فيكون فيها ضروب مختلفة . وقال الزجاج : الضغث في اللغة : الحزمة والباقة من الشيء ، كالبقل وما أشبهه ، فقالوا له : رؤياك أخلاط أضغاث ، أي : حزم أخلاط ، ليست برؤيا بيّنة ، (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أي : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . وقال غيره : وما نحن بتأويل الأحلام الذي هذا وصفها بعالمين . والأحلام : جمع حُلُم ، وهو ما يراه الإنسان في نومه مما يصح ومما يبطل .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ . قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذي نجا منهما) يعني الذي تخلص من القتل من الفتيين ، وهو الساقي ، (وادَّكر) أي : تذكر شأن يوسف وما وصَّاه به . قال الزجاج : وأصل ادَّكر : اذتكر ، ولكن التاء أبدلت منها الدال ، وأدغمت الذال في الدال . وقرأ الحسن : « واذَّكر » بالذال المشددة . وقوله : (بعد أمة) أي : بعد حين ، وهو الزمان الذى لبثه يوسف بعده في السجن ، وقد سبق بيانه . وقرأ ابن عباس ، والحسن « بعد أمَهٍ » أراد : بعد نسيان .

فان قيل : هذا يدل على أن الناسي في قوله : « فأنساه الشيطان ذكر ربه » هو الساقي ، ولا شك أن من قال : إن الناسي يوسف يقول : لم ينس الساقي .

فالجواب : أن من قال : إن يوسف نسي ، يقول : معنى قوله : « وادَّكر » ذكر ، كما تقول العرب : احتلب بمعنى حلب ، واغتدى بمعنى غدا ، فلا يدل إذاً على نسيان سبقه . وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما لم يذكر الساقي خبر يوسف للملك حتى احتاج الملك إلى تأويل رؤياه ، خوفاً من أن يكون ذكره ليوسف سبباً لذكره الذنب الذي من أجله حبس ، ذكر هذا الجواب ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أنا أنبئكم بتأويله) أي : من جهة يوسف (فأرسلون) أثبت الياء فيها وفي (ولا تقربون) [يوسف:٦٠] (أن تفنّدون) [يوسف:٩٤] يعقوب في الحالين ، فخاطب الملك وحده بخطاب الجميع ، تعظيماً ، وقيل : خاطبه وخاطب أتباعه . وفي الكلام اختصار ، المعنى : فأرسلوه فأتى يوسف فقال : يايوسف يأيها الصدّيق . والصدّيق : الكثير الصدق ، كما يقال : فسّيق ، وسكّير ، وقد سبق بيانه [النساء : ٦٩] .

قوله تعالى : (لعلّي أرجع إلى الناس) يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم لتعبير رؤياه . وفي قوله : (لعلهم يعلمون) قولان :

أحدهما : يعلمون تأويل رؤيا الملك . والثاني: يعلمون بمكانك فيكون سبب خلاصك.

وذكر ابن الأنباري في تكرير لعلّي » قولين : أحدهما : أن « لعل » الأولى متعلقة بالإفتاء ، والثانية مبنية على الرجوع ، وكلتاهما بمعنى « كي » .

والثاني : أن الأولى بمعنى « عسى » ، والثانية بمعنى « كي » فأعيدت لاختلاف المعنيين،وهذا هو الجواب عن قوله : (لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون) [يوسف:٦٢] . قال المفسرون : كان سيّده العزيز قد مات ، واشتغلت عنه امرأته . وقال بعضهم : لم يكن العزيز قد مات ، فقال يوسف للساقي : قل للملك : هذه سبع سنين مُخصبات ، ومن بعدهن سبع سنين شداد ، إلا أن يُحتال لهن ، فانطلق الرسول إلى الملك فأخبره ، فقال له الملك : ارجع إليه فقل له : كيف يُصنع ؟ فقال : (تزرعون سبع سنين دَأَباً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم « دأْباً » ساكنة الهمزة ، إلا أن أبا عمرو كان إذا أدرج القراءة لم يهمزها . وروى حفص عن عاصم « دأَباً » بفتح الهمزة . قال أبو علي : الأكثر في « دأب » الإسكان ، ولعل الفتح لغة ، ومعنى « دأباً » أي : زراعة متوالية على عادتكم ، والمعنى : تزرعون دائبين . فناب « دأب » عن « دائبين » . وقال الزجاج : المعنى : تدأبون دأباً ، ودل على تدأبون « تزرعون » والدأب : الملازمة للشيء والعادة .

فان قيل : كيف حكم بعلم الغيب ، فقال : « تزرعون » ولم يقل : إن شاء الله ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أنه كان بوحي من الله عز وجل . والثاني : أنه بنى على علم ماعلّمه الله من التأويل الحق ، فلم يشك . والثالث : أنه أضمر « إن شاء الله » كما أضمر إخوته في قولهم : (ونمير أهلنا ونحفظ أخانا) [يوسف : ٦٥] ، فاضمروا الاستثناء في نياتهم ، لأنهم على غير ثقة مما وعدوا ، ذكره ابن الأنباري . والرابع . أنه كالآمر لهم ، فكأنه قال : ازرعوا .

قوله تعالى : (فذروه في سنبله) فانه أبقى له ، وأبعد من الفساد . والشِّداد : المجدبات التي تشتد على الناس . (يأكلن) أي : يُذهبن ماقدمتم لهن في السنين المخصبات ، فوصف السنين بالأكل ، وإنما يؤكل فيها ، كما يقال : ليل نائم .

قوله تعالى : (إلا قليلاً مما تحصنون) أي : تحرزون وتدَّخرون .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾

قوله تعالى : (ثم يأتي من بعد ذلك عام) إن قيل : لِمَ أشار إلى السنين وهي مؤنثة بـ « ذلك » ؟

فمنه جوابان ذكرهما ابن القاسم :

أحدهما : أن السبع مؤنثة ، ولا علامة للتأنيث في لفظها ، فأشبهت المذكَّر ، كقوله : (السماءُ منفطرٌ به) [المزمل : ١٨] فذكَّر منفطراً لمّا لم يكن في السماء علم التأنيث ، قال الشاعر :

فلا مُزْنةٌ وَدَقَتْ وَدْقَها وَلاَ أَرْضٌ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا[1]

فذكَّر « أبقل » لِما وصفنا .

---

(١) البيت من شعر عامر بن جوين الطائي في « سيبويه » : ١/٢٤٠ ، و « معاني القرآن » ١/١٢٧ ، و « الكامل » ١/٦٦٠ ، و « شرح شواهد المغني » : ٣١٩ ، و « الخزانة » ١/٢١ ، ٢٢ .

والثاني : أن « ذلك » إشارة إلى الجدب ، وهذا قول مقاتل ، والأول قول الكلبي . قال قتادة : زاده الله علم عام لم يسألوه عنه .

قوله تعالى : (فيه يغاث الناس) فيه قولان :

أحدهما : يصيبهم الغيث ، قاله ابن عباس . والثاني : يغاثون بالخصب . ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (وفيه يعصرون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « يعصرون » بالياء . وقرأ حمزة ، والكسائي بالتاء ، فوجَّها الخطاب إلى المستفتين .

وفي قوله : « يعصرون » خمسة أقوال :

أحدها : يعصرون العنب والزيت والثمرات ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والجمهور .

والثاني : « يعصرون » بمعنى يحتلبون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وروى ابن الأنباري عن أبيه عن أحمد بن عبيد قال : تفسير « يعصرون » يحتلبون الألبان لِسَعَةِ خيرهم واتِّساع خصبهم ، واحتج بقول الشاعر :

فما عِصْمَةُ الأَعْرَابِ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُم
طَعَامٌ وَلاَ دَرٌّ مِنَ المَالِ يُعْتَصَرُ

أي : يُحلب .

والثالث : ينجون ، وهو من العَصَر ، والعَصَر : النجاء ، والعُصْرة : المنجاة . ويقال : فلان في عُصْرة : إذا كان في حصن لا يُقدَر عليه ، قال الشاعر :

صَادِياً يَسْتَغِيثُ غَيْرَ مُغَاثٍ ... وَلَقَدْ كان عُصْرَةَ المَنْجُودِ (١)

أي : غياثاً للمغلوب المقهور ، وقال عدي :

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِي شَرِقٌ ... كُنْتُ كالغصَّانِ بالماءِ اعْتِصَارِي (٢)

هذا قول أبي عبيدة .

والرابع : يصيبون مايحبون ، روي عن أبي عبيدة أيضاً أنه قال : المعتصر : الذي يصيب الشيء ويأخذه ، ومنه هذه الآية . ومنه قول ابن أحمر :

فانَّما العَيْشُ بربّانِه ... وأنْتَ من أفْنَانِه مُعْتَصَر

والخامس : يعطون ويفضلون لِسَعَةِ عيشهم ، رواه ابن الأنباري عن بعض أهل اللغة . وقرأ سعيد بن جبير : « يُعصَرون » بضم الياء وفتح الصاد . وقال الزجاج : أراد : يُمطرون من قوله : (وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً) [النبأ : ١٤] .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَابَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

---

(١) البيت لأبي زبيد الطائي من قصيدة يرثي بها اللجاج ابن أخته وكان من أحب الناس إليه ، وهو في « الطبري » ١٢/٢٣٣ ، و« مجاز القرآن » ١/٣١٣ ، و« الاقتضاب » ٣٩٠ و « القرطبي » ٩/٢٠٥ ، و « اللسان » عصر .

(٢) البيت لعدي بن زيد ، في « الكتاب » ١/٤٦٢ ، و « مجاز القرآن » ١/٣١٤ ، و« الجمهرة » ٢/١٥٤ ، و « اللسان » ، و« التاج » عصر ، و« العيني » ٤/٤٥٤ ، و « شواهد المغني » ٢٥٥ ، و « الخزانة » ٣/٥٩٤ و ٤/٤٦٠ ، ٥٢٤ .

قوله تعالى : (وقال الملك ائتوني به) قال المفسرون : لما رجع الساقي إلى الملك وأخبره بتأويل رؤياه ، وقع في نفسه صحة ما قال ، فقال : ائتوني بالذي عبّر رؤياي ، فجاءه الرسول ، فقال : أجب الملك ، فأبى أن يخرج حتى تبين براءته مما قُرف به ، فقال : (ارجع إلى ربك) يعني الملك (فاسأله ما بال النسوة) وقرأ ابن أبي عبلة : « النُّسوة » بضم النون ، والمعنى : فاسأل الملك أن يتعرف ماشأن تلك النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي ، وإنما أشفق أن يراه الملك بعين مشكوك في أمره أو متّهم بفاحشة ، وأحب أن يراه بعد استقرار براءته عنده .

وظاهر قوله : (إن ربي بكيدكن عليم) أنه يعني الله تعالى ، وحكى ابن جرير الطبري أنه أراد به سيده العزيز ، والمعنى : أنه يعلم براءتي . وقد روي عن نبينا ﷺ أنه استحسن حزم يوسف وصبره عن التسرع إلى الخروج ، فقال ﷺ : « إن الكريم بن الكريم بن الكريم [ابن الكريم] يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءني الداعي لأجبت » (١) .

وفي ذكره للنسوة دون امرأة العزيز أربعة أقوال :

أحدها : أنه خلطها بالنسوة ، لحسن عِشرةٍ فيه وأدبٍ ، قاله الزجاج . والثاني : لأنها زوجة ملك ، فصانها . والثالث : لأن النسوة شاهدات عليها له . والرابع : لأن في ذكره لها نوع تهمة ، ذكر الأقوال الثلاثة الماوردي . قال المفسرون : فرجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك النسوة وفيهن

---

(١) « الترمذي » ٢/١٣٩ من حديث أبي هريرة ، وقال : حديث حسن . ورواه البخاري ٨/٢٧٧ ، عن أبي هريرة بهذا الصدد بلفظ « لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » . ورواه مسلم ١/١٣٣ و ٤/١٨٣٩ بنحو حديث البخاري .

امرأة العزيز ، فقال : (ماخطبكن) أي : ماشأنكن وقصتكن (إذْ راودتُنَّ يوسف) .

فان قيل : إنما راودته واحدة ، فلم جمعهن ؟ فعنه ثلاثة أجوبه :

أحدها : أنه جمعهن في السؤال ليُعلم عينُ المراوِدة . والثاني : أن أزليخا راودته على نفسه ، وراوده باقي النسوة على القبول منها . والثالث : أنه جمعهنّ في الخطاب ، والمعنى لواحدة منهن ، لأنه قد يوقع على النوع وصف الجنس إذا أُمن من اللبس ، يدل عليه قول النبي ﷺ للنساء : « إنكن أكثر أهل النار » [1] ، فجمعهن في الخطاب والمعنى لبعضهن ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (قلن حاش لله) قال الزجاج : قرأ الحسن بتسكين الشين ، ولا اختلاف بين النحويين أن الإسكان غير جائز ، لأن الجمع بين ساكنين لا يجوز ، ولا هو من كلام العرب . فأعلم النسوةُ الملكَ براءة يوسف من السوء ، فقالت امرأة العزيز : (الآن حصحص الحق) أي : برز وتبين ، واشتقاقه في اللغة من الحِصَّة ، أي : بانت حصة الحق وجهته من حصة جهة الباطل . وقال ابن القاسم :

---

(١) هذه قطعة من حديث طويل رواه البخاري ٣٤٥/١ من حديث أبي سعيد الخدري ، بلفظ « إني أريتكن أكثر أهل النار » ، و « مسلم » ٨٦/١ من حديث عبد الله بن عمر ، ولفظ مسلم بتمامه « يامعشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة (ذات عقل ورأي) ومالنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » قالت : يارسول الله ! وما نقصان العقل والدين ؟ قال : « أما نقصان العقل ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالي ماتصلي ، وتفطر في رمضان ، فهذا نقصان الدين » .

«حصحص» بمعنى وضح وانكشف ، تقول العرب : حصحص البعير في بروكه : إذا تمكن ، وأثّر في الأرض ، وفرّق الحصى .

وللمفسرين في ابتداء أزليخا بالإقرار قولان :

أحدهما : أنها لما رأت النسوة قد برّأنه ، قالت : لم يبق إلا أن يُقبلن علي بالتقرير ، فأقرت ، قاله الفراء .

والثاني : أنها أظهرت التوبة وحققت صدق يوسف ، قاله الماوردي .

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قال مقاتل : « ذلك » بمعنى هذا . وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع وأشباهه ، لقرب الخبر من أصحابه ، فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا ، ولمّا كان متقضياً ، أمكن أن يشار إليه بذلك ، لأن المتقضّي كالغائب .

واختلفوا في القائل لهذا على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يوسف ، وهو من أغمض ما يأتي من الكلام أن تحكي عن شخص شيئاً ثم تصله بالحكاية عن آخر ، ونظير هذا قوله : يريد أن يخرجكم من أرضكم) [الأعراف : ١١٠] هذا قول الملأ (فماذا تأمرون) قول فرعون . ومثله (وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة) [النمل : ٣٤] هذا قول بلقيس (وكذلك يفعلون) قول الله تعالى . ومثله (مَنْ بعثنا من مرقدنا) [يس : ٥٢] هذا قول الكفار ، فقالت الملائكة : (هذا ما وعد الرحمن) وإنما يجوز مثل هذا في الكلام ، لظهور الدلالة على المعنى .

واختلفوا ، أين قال يوسف هذا ؟ على قولين :

أحدها : أنه لما رجع الساقي إلى يوسف فأخبره وهو في السجن بجواب امرأة العزيز والنسوة الملك ، قال حينئذ : « ذلك ليعلم » ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال ابن جريج .

والثاني : أنه قاله بعد حضوره مجلس الملك ، رواه عطاء عن ابن عباس .

قوله تعالى : (ذلك ليعلم) أي : ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك ، ليعلم.

واختلفوا في المشار إليه بقوله : « ليعلم » وقوله : (لم أخنه) على أربعة أقوال :

أحدها : أنه العزيز ، والمعنى : ليعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته (بالغيب) أي : إذا غاب عني ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أن المشار إليه بقوله : « ليعلم » الملك ، والمشار إليه بقوله : « لم أخنه » العزيز ، والمعنى : ليعلم الملك أني لم أخن العزيز في أهله بالغيب ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أن المشار إليه بالشيئين ، الملك ، فالمعنى : ليعلم الملك أني لم أخنه ، يعني الملك أيضاً ، بالغيب .

وفي وجه خيانة الملك في ذلك قولان :

أحدهما : لكون العزيز وزيره ، فالمعنى : لم أخنه في امرأة وزيره ، قاله ابن الأنباري .

والثاني : لم أخنه في بنت أخته ، وكانت أزليخا بنت أخت الملك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : أن المشار إليه بقوله : « ليعلم » الله ، فالمعنى : ليعلم الله أني لم أخنه ، روي عن مجاهد ، قال ابن الأنباري : نسب العلم إلى الله في الظاهر ، وهو في المعنى للمخلوقين ، كقوله : (حتى نعلم المجاهدين منكم) [محمد : ٣١] .

فان قيل : إن كان يوسف قال هذا في مجلس الملك ، فكيف قال : « ليعلم » ولم يقل : لتعلم ، وهو يخاطبه ؟

فالجواب : أنا إن قلنا : إنه كان حاضراً عند الملك ، فانما آثر الخطاب بالياء توقيراً للملك ، كما يقول الرجل للوزير : إن رأى الوزير أن يوقّع في قصتي . وإن قلنا : إنه كان غائباً ، فلا وجه لدخول التاء ، وكذلك إن قلنا : إنه عنى العزيز ، والعزيز غائب عن مجلس الملك حينئذ .

والقول الثاني : أنه قول امرأة العزيز ، فعلى هذا يتصل بما قبله ، والمعنى : ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته الآن بالكذب عليه .

والثالث : أنه قول العزيز ، والمعنى : ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب ، فلم أغفل عن مجازاته على أمانته ، حكى القولين الماوردي .

قوله تعالى : (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) قال ابن عباس : لا يصوّب عمل الزناة ، وقال غيره : لا يرشد من خان أمانته ويفضحه في عاقبته .

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ . قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما أبرِّئ) في القائل لهذا ثلاثة أقوال ، وهي التي تقدمت في الآية قبلها .

فالذين قالوا : هو يوسف ، اختلفوا في سبب قوله لذلك على خمسة أقوال :

أحدها : أنه لما قال : « ليعلم أني لم أخُنه بالغيب » غمزه جبريل ، فقال : ولا حين هممتَ ؟ فقال : « وما أبرئ نفسي » ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الأكثرون .

والثاني : أن يوسف لما قال : « لم أخنه » ، ذكر أنه قد همّ بها فقال : « وما أبرئ نفسي » ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما قال ذلك ، خاف أن يكون قد زكّى نفسه ، فقال : « وما أبرئ نفسي » ، قاله الحسن .

والرابع : أنه لما قاله ، قال له الملَك الذي معه : اذكر ما هممتَ به ، فقال : « وما أبرئ نفسي » ، قاله قتادة .

والخامس : أنه لما قاله ، قالت امرأة العزيز : ولا يوم حللتَ سراويلك ؟ فقال : « وما أبرئ نفسي » ، قاله السدي .

والذين قالوا : هذا قول امرأة العزيز ، فالمعنى : وما أبرئ نفسي أني كنت راودته .

والذين قالوا : هو العزيز ، فالمعنى : وما أبرئ نفسي من سوء الظن بيوسف ، لأنه قد خطر لي .

قوله تعالى : (لأمّارة بالسوء) قرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة ، ويعقوب إلا رويساً : « بالسوء إلا » بتحقيق الهمزتين . وقرأ أبو عمرو ، وابن شنبوذ عن قنبل بتحقيق الثانية وحذف الأولى . وروى نظيف عن قنبل بتحقيق الأولى وقلب الثانية ياءً . وقرأ أبو جعفر ، وورش ، ورويس بتحقيق الأولى وتليين الثانية

بين بين ، مثل : « السُّوء عِلاَّ » . وروى ابن فليح بتحقيق الثانية وقلب الأولى واواً ، وأدغمها في الواو التي قبلها ، فتصير واواً مكسورة مشددة قبل همزة « إلا » .

قوله تعالى : (إلا ما رحم ربي) قال ابن الأنباري : قال اللغويون : هذا استثناء منقطع ، والمعنى : إلا أن رحمة ربي عليها المعتمَد . قال أبو صالح عن ابن عباس : المعنى : إلا من عصم ربي . وقيل : « ما » بمعنى « من » . قال الماوردي : ومن قال : هو قول امرأة العزيز ، فالمعنى : إلا من رحم ربي في قهره لشهوته ، أو في نزعها عنه . ومن قال : هو قول العزيز ، فالمعنى : إلا من رحم ربي بأن يكفيَه سوء الظن ، أو يثبِّته ، فلا يعجل . قال ابن الأنباري : والقول بأن هذا قول يوسف ، أصح ، لوجهين :

أحدهما : لأن العلماء عليه . والثاني : لأن المرأة كانت عابدة وثن ، وما تضمنته الآية ، أليق أن يكون قول يوسف من قول من لا يعرف الله عز وجل . وقال المفسرون : فلما تبين الملك عذر يوسف وعلِم أمانته ، قال : (ائتوني به أستخلصه لنفسي) أي : أجعله خالصاً لي ، لا يشركني فيه أحد .

فان قيل : فقد رويتم في بعض ما مضى أن يوسف قال في مجلس الملك : « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب » ، فكيف قال الملك : « ائتوني به » وهو حاضر عنده ؟!

فالجواب : أن أرباب هذا القول يقولون : أمر الملك باحضاره ليقلِّده الاعمال في غير المجلس الذي استحضره فيه لتعبير الرؤيا . قال وهب : لما دخل يوسف على الملك ، وكان الملك يتكلَّم بسبعين لساناً ، كان كلما كلَّمه بلسان ، أجابه يوسف بذلك اللسان ، فعجب الملك ، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فقال : إني أحب أن أسمع رؤياي منك شِفاهاً ، فذكرها له ، قال : فما ترى أيها الصِّدِّيق ؟

قال : أرى أن تزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجمع الطعام، فيأتيك الناس فيمتارون ، وتجمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد ، فقال الملك : ومن لي بهذا ؟ فقال يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض » . قال ابن عباس : ويريد بقوله : (مكين أمين) أي : قد مكّنتكَ في ملكي وائتمنتكَ فيه . وقال مقاتل : المكين : الوجيه ، والأمين : الحافظ .

قوله تعالى : (اجعلني على خزائن الأرض) أي : خزائن أرضك .

وفي المراد بالخزائن قولان :

أحدهما : خزائن الأموال ، قاله الضحاك ، والزجاج .

والثاني : خزائن الطعام فحسب ، قاله ابن السائب . قال الزجاج : وإنما سأل ذلك ، لأن الأنبياء بُعثوا بالعدل ، فعلم أنه لا أحد أقوَم بذلك منه .

وفي قوله : (إني حفيظ عليم) ثلاثة أقوال :

أحدها : حفيظ لِما ولَّيتني ، عليم بالمجاعة متى تكون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني حفيظ لما استودعتني ، عليم بهذه السنين ، قاله الحسن .

والثالث : حفيظ للحساب ، عليم بالألسن ، قاله السدي ، وذلك أن الناس كانوا يَرِدُون على الملك من كل ناحية فيتكلمون بلغات مختلفة .

واختلفوا ، هل ولّاه الملك يومئذ ، أم لا ؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه ولّاه بعد سنة ، روى الضحاك عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخَّر ذلك سنة » . وذكر مقاتل أن النبي ﷺ

قال : « لو أن يوسف قال إني حفيظ عليم إن شاء الله ، لملك من وقته » . قال مجاهد : أسلم الملك على يد يوسف . وقال أهل السِّيَر : أقام في بيت الملك سنة ، فلما انصرمت ، دعاه الملك ، فتوّجه ، وردّاه بسيفه ، وأمر له بسرير من ذهب ، وضرب عليه كِلّةً[1] من إستبرق ، فجلس على السرير كالقمر ، ودانت له الملوك ، ولزم الملك بيته ، وفوّض أمره إليه ، وعزل قُطَفِير عما كان عليه ، وجعل يوسف مكانه ، ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي ، فزوّج الملكُ يوسفَ بامرأة قطفير ، فلما دخل عليها ، قال : أليس هذا خيراً مما تريدين ؟ فقالت : أيها الصِّدّيق لاتلمني ، فاني كنت امرأة حسناء في مُلك ودنيا ، وكان صاحبي لايأتي النساء ، فغلبتني نفسي ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء ، فولدت له ابنين ، إفَرايم ، ومِيشا ، واستوسق له ملك مصر .

والقول الثاني : أنه ملّكه بعد سنة ونصف ، حكاه مقاتل عن ابن عباس .

والثالث : أنه سلّم إليه الأمر من وقته ، قاله وهب ، وابن السائب .

فان قيل : كيف قال يوسف : « إني حفيظ عليم » ولم يقل : إن شاء الله ؟ فمنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن ترك الاستثناء أوجب عقوبة بأن أخّر تمليكُه ، على ما ذكرنا عن النبي ﷺ .

والثاني : أنه أضمر الاستثناء ، كما أضمروه في قولهم : (ونمير أهلنا) .

والثالث : أنه أراد أن حفظي وعلمي يزيدان على حفظ غيري وعلمه ، فلم يحتج هذا إلى الاستثناء ، لعدم الشك فيه ، ذكر هذه الأقوال ابن الأنباري .

فان قيل : كيف مدح نفسه بهذا القول ، ومن شأن الأنبياء والصالحين التواضع ؟

---

(١) الكِلّة : ستر رقيق يخاط شبه البيت يتوقى فيه من البعوض .

فالجواب : أنه لما خلا مدحُه لنفسه من بغي وتكبر ، وكان مراده به الوصول إلى حق يقيمه وعدل يحييه وجور يبطله ، كان ذلك جميلاً جائزاً ، وقد قال نبينا ﷺ : « أنا أكرم ولد آدم على ربه » [1] ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : والله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت ، أم بنهار . وقال ابن مسعود : لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لأتيته . فهذه الأشياء ، خرجت مخرج الشكر لله ، وتعريف المستفيد ما عند المفيد ، ذكر هذا محمد بن القاسم . قال القاضي أبو يعلى : في قصة يوسف دلالة على أنه يجوز للانسان أن يصف نفسه بالفضل عند من لا يعرفه ، وأنه ليس من المحظور في قوله : (فلا تزكّوا أنفسكم) [النجم : ٣٢] .

قوله تعالى : (وكذلك مكّنّا ليوسف) في الكلام محذوف ، تقديره : اجعلني على خزائن الأرض ، قال : قد فعلت ، فحُذف ذلك ، لأن قوله : « وكذلك مكنا ليوسف » يدل عليه ، والمعنى : ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في دفع المكروه عنه ، وتخليصه من السجن ، وتقريبه من قلب الملك ، أقدرناه على ما يريد في أرض مصر (يتبوّأ منها حيث يشاء) قال ابن عباس : ينزل حيث أراد . وقرأ ابن كثير ، والمفضل : « حيث نشاء » بالنون .

قوله تعالى : (نصيب برحمتنا) أي : نختصُّ بنعمتنا من النبوّة والنجاة (مَن نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) يعني المؤمنين . يقال : إن يوسف باع أهل مصر الطعام بأموالهم ، وحُليّهم ، ومواشيهم ، وعقارهم ، وعبيدهم ، ثم بأولادهم ، ثم برقابهم ، ثم قال للملك : كيف ترى صُنع ربي ؟ فقال الملك : إنما نحن لك تبع ، قال :

---

(١) رواه الترمذي في « جامعه » ٢٠١/٢ عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ « أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » وقال : هذا حديث حسن غريب ، وهو جزء من حديث طويل . وفي سنده الحسين بن يزيد الكوفي ، قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » : لين الحديث .

فاني أُشهد الله وأُشهدك أني قد أعتقت أهل مصر ورددت عليهم أملاكهم . وكان يوسف لا يَشبع في تلك الأيام ، ويقول : إني أخاف أن أنسى الجائع .

﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولأجر الآخرة خير) المعنى : ما نُعطي يوسف في الآخرة، خير مما أعطيناه في الدنيا ، وكذلك غيره من المؤمنين ممن سلك طريقه في الصبر .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وجاء إخوة يوسف) روى الضحاك عن ابن عباس قال : لما فوَّض الملك إلى يوسف أمْر مصر ، تلطَّف يوسف للناس ، ولم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، فآمنوا به وأحبُّوه ، فلما أصاب الناسَ القحطُ ، نزل ذلك بأرض كنعان ، فأرسل يعقوبُ ولده للميرة ، وذاع أمر يوسف في الآفاق ، وانتشر عدله ورحمته ورأفته ، فقال يعقوب : يابَني ، إنه قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً ، فانطلقوا إليه وأقرئوه مني السلام ، وانتسبوا له لعله يعرفكم ، فانطلقوا فدخلوا عليه ، فعرفهم وأنكروه ، فقال : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، ولنا شيخ يقال له : يعقوب ، وهو يقرئك السلام ، فبكى وعصر عينيه وقال : لعلكم جواسيس جئتم تنظرون عورة بلدي ، فقالوا : لا والله ، ولكنَّا من كنعان ، أصابنا الجَهد، فأمرَنا أبونا أن نأتيَك ، فقد بلغه عنك خير ، قال : فكم أنتم ؟ قالوا : أحد عشر أخاً ، وكنا اثني عشر فأكل أحدَنا الذئبُ ، قال : فمن يعلم صدقكم ؟ ائتوني بأخيكم الذي من أبيكم . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : لما دخلوا عليه كلَّموه بالعبرانية ، فأمر الترجمان فكلَّمهم ليشبِّه عليهم ، فقال للترجمان : قل لهم : أنتم عيون ، بعثكم ملككم لتنظروا إلى أهل مصر فتخبرونه فيأتينا بالجنود ، فقالوا : لا ،

ولكنا قوم لنا أب شيخ كبير ، وكنا اثني عشر ، فهلك منا واحد في الغنم ، وقد خلّفنا عند أبينا أخاً له من أمه ، فقال : إن كنتم صادقين ، فخلِّفوا عندي بعضكم رهنا ، وائتوني بأخيكم ، فحبس عنده شمعون .

واختلفوا بماذا عرفهم يوسف على قولين : أحدهما : أنه عرفهم برؤيتهم ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه ماعرفهم حتى تعرّفوا إليه ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وهم له منكرون) قال مقاتل : لايعرفونه .

وفي علـّة كونهم لم يعرفوه قولان :

أحدهما : أنهم جاؤوه مقدّرين أنه ملك كافر ، فلم يتأملوا منه مايزول به عنهم الشك .

والثاني : أنهم عاينوا من زِيّه وحليته ما كان سبباً لإنكارهم . وقد روى أبو صالح عن ابن عباس أنه كان لابساً ثياب حرير ، وفي عنقه طوق من ذهب .

فان قيل : كيف يخفى من قد أُعطي نصف الحسن ، وكيف يشتبه بغيره ؟

فالجواب : أنهم فارقوه طفلاً ورأوه كبيراً ، والأحوال تتغير ، وما توهموا أنه ينال هذه المرتبة . وقال ابن قتيبة : معنى كونه أُعطي نصف الحسن ، أن الله جعل للحسن غاية وحدّاً ، وجعله لمن شاء من خَلقه ، إما الملائكة ، أو للحور ، فجعل ليوسف نصف ذلك الحسن ، فكأنه كان حُسناً مقارباً لتلك الوجوه الحسنة ، وليس كما يزعم الناس من أنه أُعطي هذا الحسن ، وأُعطي الناس كلهم نصف الحسن .

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾

قوله تعالى : (ولما جهَّزهم بِجَهَازِهِم) يقال : جهَّزت القوم تجهيزاً : إذا هيأت

لهم مايصلحهم ، وجهاز البيت : متاعه . قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بعيراً ، وقال : (ألا ترون أني أوفي الكيل) أي : أُتمه ولا أبْخَسُه ، (وأنا خير المنزِلين) يعني : المضيِفين ، وذلك أنه أحسنَ ضيافتهم . ثم أوعدهم على ترك الإتيان بأخيهم ، فقال : (فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) وفيه قولان :

أحدهما : أنه يعني به : فيما بعد ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنه منعهم الكيل في الحال ، قاله وهب بن منبه .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا سنراود عنه أباه) أي : نطلبه منه ، والمراودة : الاجتهاد في الطلب .

وفي قوله : (وإنا لفاعلون) ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : وإنا لجاؤوك به ، وضامنون لك المجيء به ، هذا مذهب الكلبي .

والثاني : أنه توكيد ، قاله الزجاج ، فعلى هذا ، يكون الفعل الذي ضمنوه عائداً إلى المراودة ، فيصح معنى التوكيد .

والثالث : وإنا لمدعون المطالبة به لأبينا ، ومتابعون المشورة عليه بتوجيهه ، وهذا غير المراودة ، ذكره ابن الأنباري .

فان قيل : كيف جاز ليوسف أن يطلب أخاه ، وهو يعلم ما في ذلك من إدخال الحزن على أبيه ؟ فعنه خمسة أجوبة :

أحدها : أنه يجوز أن يكون ذلك بأمر عن الله تعالى زيادة لبلاء يعقوب ليعظم ثوابه ، وهذا الأظهر .

والثاني : أنه طلبه لا ليحبسه ، فلما عرفه قال : لا أفارقك يايوسف ، قال : لا يمكنني حبسك إلا أن أنسبك إلى أمر فظيع ، قال : افعل ما بدا لك ، قاله كعب .

والثالث : أن يكون قصد تنبيه يعقوب بذلك على حال يوسف .

والرابع : ليتضاعف سرور يعقوب برجوع ولديه .

والخامس : ليعجّل سرور أخيه باجتماعه به قبل إخوته . وكل هذه الأجوبة مدخولة ، إلا الأول ، فانه الصحيح . ويدل عليه ما روينا عن وهب بن منبه ، قال : لما جمع الله بين يوسف ويعقوب ، قال له يعقوب : بيني وبينك هذه المسافة القريبة ، ولم تكتب إليَّ تعرّفني ؟ ! فقال : إن جبريل أمرني أن لا أعرِّفك ، فقال له : سل جبريل ، فسأله ، فقال : إن الله أمرني بذلك ، فقال : سل ربك ، فسأله ، فقال : قل ليعقوب : خفتَ عليه الذئب ، ولم تُؤمِنّي ؟

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال لفتيته) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : « لفتيته » . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « لفتيانه » . قال أبو علي : الفتية جمع فتى في العدد القليل ، والفتيان في الكثير . والمعنى : قال لغلمانه : (اجعلوا بضاعتهم) وهي التي اشترَوا بها الطعام (في رحالهم) ، والرحل : كل شيء يُعَدّ للرحيل . (لعلهم يعرفونها) أي : ليعرفوها (إذا انقلبوا) أي : رجعوا (إلى أهلهم ، لعلهم يرجعون) أي : لكي يرجعوا .

وفي مقصوده بذلك خمسة أقوال :

أحدها : أنه تخوّف أن لا يكون عند أبيه من الورِق ما يرجعون به مرة أخرى ، فجعل دراهمهم في رحالهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه أراد أنهم إذا عرفوها ، لم يستحلُّوا إمساكها حتى يردُّوها ، قاله الضحاك .

والثالث : أنه استقبح أخذ الثمن من والده وإخوته مع حاجتهم إليه ، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون سبب رده تكرماً وتفضلاً ، ذكره ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي ،

والرابع : ليعلموا أنّ طلبه لعَوْدهم لم يكن طمعاً في أموالهم ، ذكره الماوردي .

والخامس : أنه أراهم كرمه وبِرَّه ليكون أدعى إلى عَوْدهم .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما رجعوا إلى أبيهم) قال المفسرون : لما عادوا إلى يعقوب ، قالوا : ياأبانا ، قَدِمنا على خير رجل ، أنزلنا ، وأكرمنا كرامة ، لو كان رجلاً من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته .

وفي قوله : (مُنع منا الكيل) قولان قد تقدما في قوله : (فلا كيل لكم عندي) [يوسف : ٦١] .

فان قلنا : إنه لم يكل لهم ، فلفظ « مُنع » بيّن .

وإن قلنا : إنه خوّفهم منع الكيل ، ففي المعنى قولان :

أحدها : حُكم علينا بمنع الكيل بعد هذا الوقت ، كما تقول للرجل : دخلت والله النار بما فعلت .

والثاني : أن المعنى : يا أبانا يُمنع منا الكيل إن لم ترسله معنا ، فناب « مُنع » عن « يُمنع » كقوله : (يَحْسَبُ أنَّ ماله أخلده) [الهمزة : ٣] أي : يخلده ، وقوله : (ونادى أصحابُ النار) [الأعراف : ٥٠] ، (وإذ قال الله يا عيسى) [المائدة : ١١٦] أي : وإذ يقول ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (فأرسل معنا أخانا نكتَل) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « نكتل » بالنون . وقرأ حمزة ، والكسائي : « يكتل » بالياء . والمعنى : إن أرسلته معنا اكتلنا ، وإلا فقد مُنعنا الكيل .

قوله تعالى : (هل آمنكم عليه) أي : لا آمنكم إلا كأمني على يوسف ، يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن إذ خانوه . (فالله خير حفظاً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « حفظاً » ، والمعنى : خير حفظاً من حفظكم . وقرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم : « خير حافظاً » بألف . قال أبو علي : ونصبُه على التمييز دون الحال .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ . قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ . وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولما فتحوا متاعهم) يعني أوعية الطعام (وجدوا بضاعتهم) التي حملوها ثمناً للطعام (رُدَّت) قال الزجاج : الأصل « رُدِدَتْ » ، فأدغمت الدال الأولى في الثانية ، وبقيت الراء مضمومة . ومن قرأ بكسر الراء جعل كسرتها منقولة من الدال ، كما فُعل ذلك في : قيل ، وبيع ، ليدل على أن أصل الدال الكسر .

قوله تعالى : (ما نبغي) في « ما » قولان :

أحدهما : أنها استفهام ، المعنى : أي شيء نبغي وقد رُدَّت بضاعتنا إلينا ؟

والثاني : أنها نافية ، المعنى : ما نبغي شيئاً ، أي : لسنا نطلب منك دراهم نرجع بها إليه ، بل تكفينا هذه في الرجوع إليه ، وأرادوا بذلك تطييب قلبه ليأذن لهم بالعَود . وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، والجحدري ، وأبو حيوة « ما تبغي » بالتاء ، على الخطاب ليعقوب .

قوله تعالى : (ونمير أهلنا) أي : نجلب لهم الطعام . قال ابن قتيبة : يقال : مار أهله يميرهم مَيْراً ، وهو مائر لأهله : إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده .

قوله تعالى : (ونحفظ أخانا) فيه قولان :

أحدهما : نحفظ أخانا بنيامين الذي ترسله معنا ، قاله الأكثرون .

والثاني : ونحفظ أخانا شمعون الذي أخذه رهينة عنده ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

قوله تعالى : (ونزداد كيل بعير) أي : وِقْر بعير ، يعنون بذلك نصيب أخيهم ، لأن يوسف كان لايعطي الواحد أكثر من حِمل بعير .

قوله تعالى : (ذلك كيل يسير) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ذلك كيل سريع ، لاحبس فيه ، يعنون : إذا جاء معنا ، عجّل الملك لنا الكيل ، قاله مقاتل .

والثاني : ذلك كيل سهل على الذي نمضي إليه ، قاله الزجاج .

والثالث : ذلك الذي جئناك به كيل يسير لايُقنِعُنا ، قاله الماوردي .

قوله تعالى : (حتى تؤتون موثقاً من الله) أي : تعطوني عهداً أثق به ، والمعنى : حتى تحلفوا لي بالله (لتأتُنَّني به) أي : لتَرُدُّنَّه إلي . قال ابن الأنباري : وهذه اللام جواب لمضمَر ، تلخيصه : وتقولوا : والله لتأتُنّني به .

قوله تعالى : (إلا أن يحاط بكم) فيه قولان :

أحدهما . أن يهلك جميعكم ، قاله مجاهد .

والثاني : أن يُحال بينكم وبينه فلا تقدرون على الإتيان به ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (فلما آتَوْه موثقهم) أي : أعطَوْه العهد ، وفيه قولان :

أحدهما : أنهم حلفوا له بحق محمد ﷺ ومنزلته من ربه ، قاله الضحاك عن ابن عباس . والثاني : أنهم حلفوا بالله تعالى[1] ، قاله السدي .

قوله تعالى : (قال الله على مانقول وكيل) فيه قولان :

أحدهما : أنه الشهيد . والثاني : كفيل بالوفاء ، رُويا عن ابن عباس .

قوله تعالى : (لاتدخلوا من باب واحد) قال المفسرون : لما تجهزوا الرحيل ، قال لهم يعقوب : « لاتدخلوا » يعني مصر « من باب واحد » .

وفي المراد بهذا الباب قولان :

أحدهما : أنه أراد باباً من أبواب مصر ، وكان لمصر أربعة أبواب ، قاله الجمهور .

(١) وهو الذي عليه أكثر المفسرين .

والثاني : أنه أراد الطرق لا الأبواب ، قاله السدي ، وروى نحوه أبو صالح عن ابن عباس .

وفي ما أراد بذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه خاف عليهم العين ، وكانوا أُولي جمال وقوة ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه خاف أن يُغتَالوا لِما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : أنه أحب أن يلقَوا يوسف في خَلوة ، قاله إبراهيم النخعي .

قوله تعالى : (وما أُغني عنكم من الله من شيء) أي : لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله ، فانه إن شاء أهلككم متفرقين ، ومصداقه في الآية التي بعدها (ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها) وهي إرادته أن يكون دخولهم كذلك شفقة عليهم . قال الزجاج : « إلا حاجة » استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكنْ حاجةٌ في نفس يعقوب قضاها . قال ابن عباس : « قضاها » أي : أبداها وتكلم بها .

قوله تعالى : (وإنه لذو عِلم لما علَّمناه) فيه سبعة أقوال :

أحدها : إنه حافظ لما علَّمناه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وإنه لذو علم أن دخولهم من أبواب متفرقة لا يغني عنهم من الله شيئاً ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : وإنه لعامل بما عُلِّم ، قاله قتادة . وقال ابن الأنباري : سمي العمل علماً ، لأن العلم أول أسباب العمل .

والرابع : وإنه لمتيقن لوعدنا ، قاله الضحاك .

والخامس : وإنه لحافظ لوصيّتنا ، قاله ابن السائب .

والسادس : وإنه لعالم بما علـّمناه أنه لايصيب بنيه إلا ماقضاه الله ، قاله مقاتل .

والسابع : وإنه لذو علم لتعليمنا إياه ، قاله الفراء .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولما دخلوا على يوسف) يعني إخوته (آوى إليه أخاه) يعني بنيامين ، وكان أخاه لأبيه وأمه ، قاله قتادة ، وضمه إليه وأنزله معه . قال ابن قتيبة : يقال : آويتُ فلاناً إليّ ، بمد الألف : إذا ضممتَه إليك ، وأويت إلى بني فلان ، بقصر الألف : إذا لجأت إليهم .

وفي قوله : (قال إني أنا أخوك) قولان :

أحدهما : أنهم لما دخلوا عليه حبسهم بالباب ، وأدخل أخاه، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : بنيامين ، قال : فما اسم أمك ؟ قال : راحيل بنت لاوَي ، فوثب إليه فاعتنقه ، فقال : « إني أنا أخوك » ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وكذلك قال ابن إسحاق : أخبره أنه يوسف .

والثاني : أنه لم يعترف له بذلك ، وإنما قال : أنا أخوك مكان أخيك الهالك ، قاله وهب بن منبه . وقيل : إنه أجلسهم كل اثنين على مائدة ، فبقي بنيامين وحيداً يبكي ، وقال : لو كان أخي حياً لأجلسني معه ، فضمَّه يوسف إليه ، وقال : إني أرى هذا وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته . فلما جاء الليل ، نام كل اثنين على منام ، فبقي وحيداً ، فقال يوسف : هذا ينام معي . فلما خلا به ،

قال : هل لك أخ من أمك ؟ قال : كان لي أخ من أمي فهلك ، فقال : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ فقال : أيها الملك ، ومن يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف ، وقام إليه فاعتنقه ، وقال : (إني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) قال قتادة : لاتأس ولا تحزن ، وقال الزجاج : لاتحزن ولا تستكِنْ . قال ابن الأنباري : « تبتئس » : تفتعل ، من البؤس ، وهو الضُرُّ والشدة ، أي : لايلحقنَّك بؤس بالذي فعلوا .

قوله تعالى : (بما كانوا يعملون) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم كانوا يعيِّرون يوسف وأخاه بعبادة جدِّهما أبي أُمهما للأصنام، فقال : لاتبتئس بما كانوا يعملون من التعيير لنا ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : لاتحزن بما سيعملون بعد هذا الوقت حين يسرِّقونك ، فتكون « كانوا » بمعنى « يكونون » قال الشاعر :

فَأَدْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ أَدَعْ
لِمَنْ كَانَ بَعْدِي في القَصَائِد مَصْنَعَا

وقال آخر :

وانْضَحْ جَوانِبَ قَبْرِهِ بِدِمَائِهَا فَلَقَدْ يَكُونُ أخَا دَمٍ وَذَبَائِحِ

أراد : فقد كان ، وهذا مذهب مقاتل .

والثالث : لا تحزن بما عملوا من حسدنا ، وحرصوا على صرف وجه أبينا عنّا ، وإلى هذا المعنى ذهب ابن إسحاق .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ . قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ . قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فلما جهزهم بجهازهم) قال المفسرون : أوفى لهم الكيل ، وحمَّل لـ « بنيامين » بعيراً باسمه كما حمَّل لهم ، وجعل السقاية في رحل أخيه ، و هي الصواع ، فهما اسمان واقعان على شيء واحد ، كالبُرّ والحنطة ، والمائدة والخُوان. وقال بعضهم : الاسم الحقيقي : الصواع ، والسقاية وصف ، كما يقال : كوز ، وإناء ، فالاسم الخاص : الكوز . قال المفسرون : جعل يوسف ذلك الصاع مكيالاً لئلا يُكال بغيره . وقيل : كال لإخوته بذلك ، إكراماً لهم . قالوا : ولما ارتحل إخوة يوسف وأمعنوا ، أرسل الطلب في أثرهم ، فأُدركوا وحبسوا ، (ثم أذَّن مؤذِّن) قال الزجاج : أعلم مُعْلِم ، يقال : آذنته بالشيء ، فهو مؤذن به ، أي : أعلمته ، وآذنت : أكثرت الإعلام بالشيء ، يعني : أنه إعلام بعد إعلام . (أيتها العير) يريد : أهل العير ، فأنث لأنه جعلها للعير . قال الفراء : لا يقال : عير ، إلا لأصحاب الإبل . وقال أبو عبيدة : العير : الإبل المرحولة المركوبة . وقال ابن قتيبة : العير : القوم على الإبل .

فان قيل : كيف جاز ليوسف أن يُسرِّق من لم يسرق ؟ فعنه أربعة أجوبة :

أحدها : أن المعنى : إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب ، قاله الزجاج .

والثاني : أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه ، فكان غير كاذب في قوله ، قاله ابن جرير .

والثالث : أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف .

والرابع : أن المعنى : إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم ، كقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) [الدخان : ٤٩] أي: عند نفسك ، لا عندنا ، وقولِ النبي ﷺ : « كذب إبراهيم ثلاث كَذَبات »[١] أي : قال قولاً يشبه الكذب ، وليس به .

قوله تعالى : (قالوا) يعني : إخوة يوسف (وأقبلوا عليهم) فيه قولان .

أحدهما : على المؤذن وأصحابه . والثاني : أقبل المنادي ومن معه على إخوة يوسف بالدعوى . (ماذا تفقدون) ما الذي ضلّ عنكم ؟ (قالوا نفقد صواع الملك) قال الزجاج : الصواع هو الصاع بعينه ، وهو يذكّر ويؤنّث ، وكذلك الصاع يذكّر ويؤنّث . وقد قرئ : « صياع » بياء ، وقرئ : « صَوْغ » بغين معجمة ، وقرئ : « صَوع » بعين غير معجمة مع فتح الصاد ، وضمها ، وقرأ أبو هريرة : « صاع الملك » وكل هذه لغات ترجع إلى معنى واحد ، إلا أن الصوغ ، بالغين المعجمة ، مصدر صغت ، وُصف الإناء به ، لأنه كان مصوغاً من ذهب .

واختلفوا في جنسه على خمسة أقوال :

أحدها : أنه كان قدحاً من زبرجد . والثاني : أنه كان من نحاس ، رويا عن ابن عباس . والثالث : أنه كان شربة من فضة مرصّعة بالجوهر ، قاله عكرمة .

---

(١) انظر حديث الشفاعة الطويل ، البخاري ٨/ ٣٠٠ ، ومسلم ١/ ١٨٤ . والكذبات الثلاث ، قوله : « إني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله في سارة زوجته : « أختي » .

والرابع : كان كأساً من ذهب ، قاله ابن زيد . والخامس : كان من مِسٍّ [١] ، حكاه الزجاج .

وفي صفته قولان :

أحدهما : أنه كان مستطيلاً يشبه المكوك . والثاني : أنه كان يشبه الطاس .

قوله تعالى : (ولمن جاء به) يعني الصواع (حمل بعير) من الطعام (وأنا به زعيم) أي : كفيل لمن ردَّه بالحِمل ، يقوله المؤذِّن .

﴿ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ . قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ . قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا تالله) قال الزجاج : « تالله » بمعنى : والله ، إلا أن التاء لا يقسم بها إلا في الله عز وجل . ولا يجوز : تالرحمن لأفعلن ، ولا : تربي لأفعلن . والتاء تُبدل من الواو ، كما قالوا في وُراث : تراث ، وقالوا : يتَّزن ، وأصله : يوتزن ، من الوزن . قال ابن الأنباري : أبدلت التاء من الواو ، كما أبدلت في التخمة والتراث والتُّجاه ، وأصلهن من الوخمة والوراث والوجاه ، لأنهن من الوخامة والوِراثة والوَجه . ولا تقول العرب : تالرحمن ، كما قالوا : تالله ، لأن الاستعمال في الإقسام كثر بالله ، ولم يكن بالرحمن ، فجاءت التاء بدلاً من الواو في الموضع الذي يكثر استعماله .

قوله تعالى : (لقد علمتم) يعنون يوسف (ما جئنا لنفسد في الأرض) أي : لنظلم أحداً أو نسرق .

فان قيل : كيف حلفوا على عِلم قوم لا يعرفونهم ؟

(١) في « اللسان » : المس : النحاس .

فالجواب من ثلاثة أوجه .

أحدها : أنهم قالوا ذلك ، لأنهم ردّوا الدراهم ولم يستحلّوها ، فالمعنى : لقد علمتم أنا رددنا عليكم دراهمكم وهي أكثر من ثمن الصاع ، فكيف نستحل صاعكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : لأنهم لما دخلوا مصر كمموا [1] أفواه إبلهم وحميرهم حتى لا تتناول شيئاً ، وكان غيرهم لا يفعل ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أن أهل مصر كانوا قد عرفوهم أنهم لا يظلمون أحداً .

قوله تعالى : (فما جزاؤه) المعنى : قال المنادي وأصحابه : فما جزاؤه . قال الأخفش : إن شئت رددت الكناية إلى السارق ، وإن شئت رددتها إلى السرق .

قوله تعالى : (إن كنتم كاذبين) أي : في قولكم ، (وما كنا سارقين) .

(قالوا) يعني : إخوة يوسف (جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه) أي : يُستعبَد بذلك . قال ابن عباس : وهذه كانت سُنَّة آل يعقوب .

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فبدأ بأوعيتهم) قال المفسرون : انصرف بهم المؤذن إلى يوسف ، وقال : لا بد من تفتيش أمتعتكم ، (فبدأ) يوسف (بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) لإزالة التهمة ، فلما وصل إلى وعاء أخيه ، قال : ما أظن هذا أخذ شيئاً ، فقالوا : والله لا نبرح حتى تنظر في رحله ، فهو أطيب لنفسك . فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع ، فذلك قوله : (ثم استخرجها) .

---

(١) كمم البعير : شد فاه ، وقيل : شد فاه في هياجه لئلا يعض أو يأكل ، والكمام : ما كممه به .

وفي هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى السرقة ، قاله الفراء . والثاني : إلى السقاية ، قاله الزجاج . والثالث : إلى الصواع على لغة من أنَّثه ، ذكره ابن الأنباري . قال المفسرون : فأقبلوا على بنيامين ، وقالوا : أي شيء صنعت ؟ ! فضحتنا وأزريت بأبيك الصدِّيق ، فقال : وضع هذا في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم ، وقد كان يوسف أخبر أخاه بما يريد أن يصنع به .

قوله تعالى : (كذلك كدنا ليوسف) فيه أربعة أقوال :

أحدها : كذلك صنعنا له ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : احتلنا له ، والكيد : الحيلة ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أردنا ليوسف ، ذكره ابن القاسم .

والرابع : دبَّرنا له بأن ألهمناه مافعل بأخيه ليتوصل إلى حبسه . قال ابن الأنباري : لما دبَّر الله ليوسف مادبَّر من ارتفاع المنزلة وكمال النعمة على غير ماظن إخوتُه ، شُبِّه بالكيد من المخلوقين ، لأنهم يسترون مايكيدون به عمن يكيدونه .

قوله تعالى : (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) في المراد بالدين هاهنا قولان :

أحدها : أنه السلطان ، فالمعنى : في سلطان الملك ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه القضاء ، فالمعنى : في قضاء الملك ، لأن قضاء الملك أن من سرق إنما يُضرب ويُغرَّم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وبيانه أنه لو أجرى أخاه على حكم الملك ما أمكنه حبسه ، لأن حكم الملك الغرم والضرب فحسب ، فأجرى الله على ألسنة إخوته أن جزاء السارق الاسترقاق ، فكان ذلك مما كاد الله ليوسف لطفاً حتى أظفره بمراده بمشيئة الله ، فذلك معنى قوله : (إلا أن يشاء الله) . وقيل : إلا أن يشاء الله إظهار علَّة يستحق بها أخاه .

قوله تعالى : (نرفع درجات من نشاء) وقرأ يعقوب « يرفع درجاتِ من يشاء » بالياء فيهما . وقرأ أهل الكوفة « درجاتٍ » بالتنوين ، والمعنى : نرفع الدرجات بصنوف العطاء ، وأنواع الكرامات ، وأبواب العلوم ، وقهر الهوى ، والتوفيق للهدى ، كما رفعنا يوسف . (وفوق كل ذي علم عليم) أي : فوق كل ذي علم رفعه الله بالعلم مَن هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى ، والكمال في العلم معدوم من غيره .

وفي مقصود هذا الكلام ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : يوسف أعلم من إخوته ، وفوقه من هو أعلم منه .

والثاني : أنه نبَّه على تعظيم العلم ، وبيَّن أنه أكثر من أن يُحاط به .

والثالث : أنه تعليم للعالم التواضع لئلا يُعجب .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ . قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا) يعني : إخوة يوسف (إن يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يعنون يوسف . قال المفسرون : عوقب يوسف ثلاث مرات ، قال للساقي : « اذكرني عند ربك » فلبث في السجن بضع سنين ، وقال للعزيز : « ليعلم أني لم أخنه بالغيب » ، فقال له جبريل : ولا حين هممت ؟ فقال : « وما أبرىء نفسي » ، وقال لإخوته : « إنكم لسارقون » ، فقالوا : « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

وفي ماعنوا بهذه السرقة سبعة أقوال .

أحدها : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه في سني المجاعة ، فيطعمه المساكين ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثاني : أنه سرق مكحلة لخالته ، رواه أبو مالك عن ابن عباس .

والثالث : أنه سرق صنماً لجده أبي أمه ، فكسره وألقاه في الطريق ، فعيَّره إخوته بذلك ، قاله سعيد بن جبير ، ووهب بن منبه ، وقتادة .

والرابع : أن عمة يوسف ـ وكانت أكبر ولد إسحاق ـ كانت تحضن يوسف وتحبه حباً شديداً ، فلما ترعرع ، طلبه يعقوب ، فقالت : ما أقدر أن يغيب عني ، فقال : والله ما أنا بتاركه ، فعمدت إلى منطقة إسحاق ، فربطتها على يوسف تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسحاق ، فانظروا من أخذها ، فوجدوها مع يوسف ، فأخبرت يعقوب بذلك ، وقالت : والله إنه لي أصنع فيه ماشئت ، فقال : أنت وذاك ، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، فذاك الذي عيَّره به إخوته ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : أنه جاءه سائل يوماً ، فسرق شيئاً ، فأعطاه السائل ، فعيَّروه بذلك . وفي ذلك الشيء ثلاثة أقوال : أحدها : أنه كان بيضة ، قاله مجاهد . والثاني : أنه شاة ، قاله كعب . والثالث : دجاجة ، قاله سفيان بن عيينة .

والسادس : أن بني يعقوب كانوا على طعام ، فنظر يوسف إلى عَرْق ، فخبأه ، فعيَّروه بذلك ، قاله عطية العوفي ، وإدريس الأودي . قال ابن الأنباري : وليس في هذه الأفعال كلِّها مايوجب السرقة ، لكنها تشبه السرقة ، فعيَّره إخوته بذلك عند الغضب .

والسابع : أنهم كذبوا عليه فيما نسبوه إليه ، قاله الحسن . وقرأ أبو رزين ، وابن أبي عبلة : « فقد سُرِّق » بضم السين وكسر الراء وتشديدها .

قوله تعالى : (فأسرَّها يوسف في نفسه) في هاء الكناية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى الكلمة التي ذُكرت بعد هذا ، وهي قوله : (أنتم شر مكاناً) ، روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنها ترجع إلى الكلمة التي قالوها في حقه ، وهي قولهم : « فقد سرق أخ له من قبل » ، وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس ، فعلى هذا يكون المعنى : أسرَّ جواب الكلمة فلم يجبهم عليها .

والثالث : أنها ترجع إلى الحُجة ، المعنى : فأسر الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أنتم شرٌّ مكاناً) فيه قولان :

أحدها : شرٌّ صنيعاً من يوسف لما قدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم ، قاله ابن عباس .

والثاني : شرٌّ منزلة عند الله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (والله أعلم بما تصفون) فيه قولان :

أحدها : تقولون ، قاله مجاهد . والثاني : بما تكذبون ، قاله قتادة . قال الزجاج : المعنى : والله أعلم أسرق أخ له ، أم لا . وذكر بعض المفسرين أنه لما استخرج الصواع من رحل أخيه ، نقر الصواع ، ثم أدناه من أذنه ، فقال : إنَّ صواعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر رجلاً ، وأنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه ، فقال بنيامين : أيها الملك ، سل صواعك عن أخي ، أحيّ هو ؟ فنقره ، ثم قال :

هو حي ، وسوف تراه ، فقال : سل صواعك ، من جعله في رحلي ؟ فنقره ، وقال : إنّ صواعي هذا غضبان ، وهو يقول : كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت ؟ فغضب روبيل ، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا ، فاذا مسّ أحدهم الآخر ذهب غضبه ، فقال : والله أيها الملك لتتركنّا ، أو لأصيحنّ صيحة لايبقى بمصر امرأة حامل إلا ألقتْ ما في بطنها ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنب روبيل فامسسه ، ففعل الغلام ، فذهب غضبه ، فقال روبيل : ما هذا ؟ ! إن في هذا البلد من ذرية يعقوب ؟ قال يوسف : ومَن يعقوب ؟ فقال : أيها الملك ، لا تذكر يعقوب ، فانه إسرائيل الله بن ذبيح الله بن خليل الله . فلمّا لم يجدوا إلى خلاص أخيهم سبيلاً ، سألوه أن يأخذ منهم بديلاً به ، فذلك قوله : (يا أيها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً) أي : في سنّه ، وقيل : في قدره ، (فخذ أحدنا مكانه) أي : تستعبده بدلاً عنه (إنّا نراك من المحسنين) فيه قولان :

أحدهما : فيما مضى . والثاني : إن فعلت . (قال معاذَ الله) قد سبق تفسيره [يوسف : ٢٣] ، والمعنى : أعوذ بالله أن نأخذ بريئاً بسقيم .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَافَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . إرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما استيأسوا منه) أي : أيسوا .

وفي هاء « منه » قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى يوسف ، فالمعنى : يئسوا من يوسف أن يخلّي سبيل أخيهم .

والثاني : إلى أخيهم ، فالمعنى : يئسوا من أخيهم .

قوله تعالى : (خلصوا نجياً) أي : اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم ، يتناجَون ويتناظرون ويتشاورون ، يقال : قوم نجي ، والجمع أنجية ، قال الشاعر :

إني إذا ما القومُ كانوا أَنْجِيَـهْ وَاضْطربَتْ أعْنَاقُهم كالأَرْشِيَهْ[1]

وإنما وحَّد « نجياً » لأنه يجري مجرى المصدر الذي يكون للاثنين ، والجمع والمؤنث بلفظ واحد . وقال الزجاج : انفردوا متناجين فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم وليس معهم أخوهم .

قوله تعالى : (قال كبيرهم) فيه قولان :

أحدهما : أنه كبيرهم في العقل ، ثم فيه قولان : أحدهما : أنه يهوذا ، ولم يكن أكبرهم سناً ، وإنما كان أكبرهم سناً روبيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك ، ومقاتل . والثاني : أنه شمعون ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه كبيرهم في السن وهو روبيل ، قاله قتادة ، والسدي .

قوله تعالى : (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) في حفظ

---

(١) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي ، كما في « اللسان » نجا ، وروايته فيه : « واضطرب القوم اضطراب الأرشية » وهو غير منسوب في « مشكل القرآن » ٢٢٠ ، و « القرطبي » ٢٤١/٩ . قال ابن بري : حكى القاضي الجرجاني عن الأصمعي وغيره : أنه يصف قوماً أتعبهم السير والسفر ، فرقدوا على ركابهم ، واضطربوا عليها ، وشد بعضهم على ناقته حذار سقوطه من عليها . وقيل : إنما ضربه مثلاً لنزول الأمر المهم .

أخيكم وردّه إليه (ومن قبل مافرطتم في يوسف) قال الفراء : « ما » في موضع رفع ، كأنه قال : ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف ، وإن شئت جعلتها نصباً ، المعنى : ألم تعلموا هذا ، وتعلموا من قبل تفريطكم في يوسف . وإن شئت جعلت « ما » صلة ، كأنه قال : ومن قبل فرّطتم في يوسف . قال الزجاج : وهذا أجود الوجوه ، أن تكون « ما » لغواً .

قوله تعالى : (فلن أبرح الأرض) أي : لن أخرج من أرض مصر ، يقال: بَرِح الرجل بَراحاً : إذا تنحّى عن موضعه . (حتى يأذن لي) قال ابن عباس : حتى يبعث إليّ أن آتيه ، (أو يحكم الله لي) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أو يحكم الله لي ، فيردّ أخي عليّ . والثاني : يحكم الله لي بالسيف ، فأحارب من حبس أخي . والثالث : يقضي في أمري شيئاً ، (وهو خير الحاكمين) أي : أعدلهم وأفضلهم .

قوله تعالى : (إن ابنك سرق) وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وابن أبي سريج عن الكسائي : « سُرِّق » بضم السين وتشديد الراء وكسرها .

قوله تعالى : (وما شهدنا إلا بما علمنا) فيه قولان :

أحدهما : وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمنا ، لأنا رأينا المسروق في رحله ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يؤخذ بسرقته إلا بما علمنا من دينك ، قاله ابن زيد .

وفي قوله : (وما كنا للغيب حافظين) ثمانية أقوال :

أحدها : أن الغيب هو الليل ، والمعنى : لم نعلم ماصنع بالليل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وهذا يدل على أن التهمة وقعت به ليلاً .

والثاني : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال عكرمة ، وقتادة ، ومكحول . قال ابن قتيبة : فالمعنى : لم نعلم الغيب حين أعطيناك الموثق لنأتينَّك به أنه يسرق فيؤخذ .

والثالث : لم نستطع أن نحفظه فلا يسرق ، رواه عبد الوهاب عن مجاهد .

والرابع : لم نعلم أنه سرق للملك شيئاً ، ولذلك حكمنا باسترقاق السارق ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن المعنى : قد رأينا السرقة قد أُخذت من رحله ، ولا علم لنا بالغيب فلعلهم سرَّقوه ، قاله ابن إسحاق .

والسادس : ما كنا لغيب ابنك حافظين ، إنما نقدر على حفظه في محضره ، فاذا غاب عنا ، خفيت عنا أموره .

والسابع : لو علمنا من الغيب أن هذه البلية تقع بابنك ماسافرنا به ، ذكرهما ابن الأنباري .

والثامن : لم نعلم أنك تُصَابُ به كما أُصبتَ بيوسف ، ولو علمنا لم نذهب به ، قاله ابن كيسان .

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

قوله تعالى : (واسأل القرية) المعنى : قولوا لأبيكم : سل أهل القرية (التي كنا فيها) يعنون مصر (والعير التي أقبلنا فيها) أي : وأهل العير ، وكان قد صحبهم قوم من الكنعانيين . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون المعنى : وسل القرية والعير فانها تعقل عنك لأنك نبي ، والأنبياء قد تخاطبهم الأحجار والبهائم ، فعلى هذا تسلم الآية من إضمار .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (قال بل سوّلت لكم أنفسكم) في الكلام اختصار ، والمعنى : فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ذلك ، فقال لهم هذا ، وقد شرحناه في أول السورة [يوسف : ١٨] .

واختلفوا لأي علّة قال لهم هذا القول ، على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه ظن أن الذي تخلّف منهم ، إنما تخلّف حيلة ومكراً ليصدّقهم ، قاله وهب بن منبه .

والثاني : أن المعنى : سوّلت لكم أنفسكم أنّ خروجكم بأخيكم يجلب نفعاً ، فجرّ ضرراً ، قاله ابن الأنباري .

والثالث : سوّلت لكم أنه سرق ، وما سرق .

قوله تعالى : (عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً) يعني : يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر . وقال مقاتل : أقام بمصر يهوذا وشمعون ، فأراد بقوله : « أن يأتيني بهم » يعني : الأربعة .

قوله تعالى : (إنه هو العليم) أي : بشدة حزني ، وقيل : بمكانهم ، (الحكيم) فيما حكم عليّ .

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وتولّى عنهم) أي : أعرض عن ولده أن يطيل معهم الخطب ، وانفرد بحزنه ، وهيّج عليه ذِكر يوسف (وقال يا أسفى على يوسف) قال ابن

عباس : يا طول حزني على يوسف . قال ابن قتيبة : الأسف : أشد الحسرة . قال سعيد بن جبير : لقد أُعطيتْ هذه الأمة عند المصيبة ما لم يُعْطَ الأنبياء قبلهم (إنا لله وإنا إليه راجعون) [البقرة : ١٥٦] ، ولو أعطيها الأنبياء لأعطيها يعقوب ؛ إذ يقول : « يا أسفى على يوسف » .

فان قيل : هذا لفظ الشكوى ، فأين الصبر ؟

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أنه شكا إلى الله تعالى ، لا منهُ . والثاني : أنه أراد به الدعاء ، فالمعنى : يا رب ارحم أسفي على يوسف . وذكر ابن الأنباري عن بعض اللغويين أنه قال : نداء يعقوب الأسف في اللفظ من المجاز الذي يُعنى به غير المظهر في اللفظ ، وتلخيصه : يا إلهي ارحم أسفي ، أو أنت راءٍ أسفي ، وهذا أسفي ، فنادى الأسف في اللفظ ، والمنادى في المعنى سواه ، كما قال : « ياحسرتنا » والمعنى : يا هؤلاء تنبهوا على حسرتنا ، قال : والحزن ونفور النفس من المكروه والبلاء لاعيب فيه ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثِم ولم يشكُ إلا إلى ربه ، فلما كان قوله : « يا أسفى » شكوى إلى ربه ، كان غير ملوم . وقد روي عن الحسن أن أخاه مات ، فجزع الحسن جزعاً شديداً ، فعوتب في ذلك ، فقال : ما وجدت الله عاب على يعقوب الحزن حيث قال : « يا أسفى على يوسف » .

قوله تعالى : (وابيضت عيناه من الحزن) أي : انقلبت إلى حال البياض . وهل ذهب بصره ، أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهما : أنه ذهب بصره ، قاله مجاهد .

والثاني : ضعف بصره لبياضٍ تغشّاه من كثرة البكاء ، ذكره الماوردي . وقال مقاتل : لم يُبصر بعينيه ست سنين .

قال ابن عباس : وقوله : « من الحزن » أي : من البكاء ، يريد أن عينيه ابيضتا لكثرة بكائه ، فلما كان الحزن سبباً للبكاء ، سمي البكاء حزناً . وقال ثابت البُناني : دخل جبريل على يوسف ، فقال : أيها الملك الكريم على ربه ، هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم . قال : ما فعل ، قال : ابيضت عيناه ، قال : ما بلغ حزنه ؟ قال : حزن سبعين ثكلى ، قال : فهل له على ذلك من أجر ؟ قال : أجر مائة شهيد . وقال الحسن البصري : ما فارق يعقوبَ الحزنُ ثمانين سنة ، وما جفَّت عينه ، وما أحد يومئذ أكرم على الله منه حين ذهب بصره .

قوله تعالى : (فهو كظيم) الكظيم بمعنى الكاظم ، وهو الممسك على حزنه فلا يظهره ، قاله ابن قتيبة ، وقد شرحنا هذا عند قوله : (والكاظمين الغيظ) [آل عمران: ١٣٤] .

﴿ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضَاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ . قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ . يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَيَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف) قال ابن الأنباري : معناه : والله ، وجواب هذا القسم « لا » المضمرة التي تأويلها : تالله لا تفتأ ، فلما كان موضعها معلوماً خفف الكلام بسقوطها من ظاهره ، كما تقول العرب : والله أقصدك أبداً ، يعنون : لا أقصدك ، قال امرؤ القيس :

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً
وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي (١)

يريد : لا أبرح ، وقالت الخنساء :

فَأَقْسَمْتُ آسَى عَلَى هَالِكٍ أَوِ اسْأَلُ نَائِحَةً مَا لَهَا (٢)

أرادت : لا آسى ، وقال الآخر :

لَمْ يَشْعُرِ النَّعْشُ مَا عَلَيْهِ مِنَ الـ ـعُرْفِ وَلاَ الحَامِلُونَ مَا حَمَلُوا
تَاللهِ أَنْسَى مُصِيبَتِي أَبَداً مَا أَسْمَعَتْنِي حَنِينَهَا الإِبِلُ

وقرأ أبو عمران ، وابن محيصن ، وأبو حيوة : « قالوا بالله » بالباء ، وكذلك كل قسم في القرآن . وأما قوله : « تفتأ » فقال المفسرون وأهل اللغة : معنى « تفتأ » تزال ، فمعنى الكلام : لا تزال تذكر يوسف ، وأنشد أبو عبيدة :

فَمَا فَتِئَتْ خَيْلٌ تَثُوبُ وَتَدَّعِي وَيَلْحَقُ مِنْهَا لاَحِقٌ وَتَقَطَّعُ (٣)

وأنشد ابن القاسم :

فَمَا فَتِئَتْ مِنَّا رِعَالٌ كَأَنَّهَا رِعَالُ القَطَا حَتَّى احْتَوَيْنَ بَنِي صَخْرِ

قوله تعالى : (حتى تكون حرضاً) فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الدَّنِف ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال ابن قتيبة : يقال :

---

(١) ديوانه : ٣٢ ، و « الطبري » ١٣/٤٢ ، و « تأويل مشكل القرآن » ١٧٤ ، و « الصناعتين » ١٣٨ ، و « القرطبي » ٩/٢٤٩ ، و « اللسان » : يمن .

(٢) ديوانها : ١٢٠ .

(٣) البيت لأوس بن حجر التميمي ديوانه : ٥٨ وقد استشهد به أبو عبيدة في « مجاز القرآن » ١/٣١٦ ، و « الطبري » ١٣/٣٩ ، و « شواهد الكشاف » ١٦٨ .

أحرضه الحزن ، أي : أدنفه . قال أبو عبيدة : الحرض : الذي قد أذابه الحزن أو الحُب ، وهي في موضع مُحْرَض . وأنشد .

إني امرؤٌ لجَّ بي حُبٌّ فأَحْرَضَنِي   حتى بَلِيتُ وحتى شفَّني السَّقَم [١]

أي : أذابني . وقال الزجاج : الحرض : الفاسد في جسمه ، والمعنى : حتى تكون مدنفاً مريضاً .

والثاني : أنه الذاهب العقل ، قاله الضحاك عن ابن عباس . وقال ابن إسحاق : الفاسد العقل . قال الزجاج : وقد يكون الحرض : الفاسد في أخلاقه .

والثالث : أنه الفاسد في جسمه وعقله ، يقال : رجل حارض وحرض ، فحارض يثنَّى ويُجمع ويُؤنث ، وحرض لا يُجمع ولا يثنَّى ، لأنه مصدر ، قاله الفراء .

والرابع : أنه الهرم ، قاله الحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قوله تعالى : (أو تكون من الهالكين) يعنون : الموتى .

فان قيل : كيف حلفوا على شيء يجوز أن يتغير ؟

فالجواب : أن في الكلام إضماراً ، تقديره : إن هذا في تقديرنا وظننا .

قوله تعالى : (إنما أشكو بَثِّي) قال ابن قتيبة : البثُّ : أشد الحزن ، سمي بذلك ، لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثَّه .

قوله تعالى : (إلى الله) المعنى : إني لا أشكو إليكم ، وذلك لما عنَّفوه بما تقدم ذِكره . وروى الحاكم أبو عبد الله في « صحيحه » من حديث أنس بن

(١) البيت لعبد الله بن عمر بن عبد الله العرجي في « مجاز القرآن » ١/٣١٧ ، و « الطبري » ١٣/٤٢ ، و « القرطبي » ٩/٢٥٠ ، و « الاشتقاق » ٤٨ ، و « السمط » ٤٢٢ ، و « الصحاح » و « اللسان » : حرض .

مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كان ليعقوب أخ مؤاخٍ ، فقال له ذات يوم : يا يعقوب ، ما الذي أذهب بصرك ؟ وما الذي قوّس ظهرك ؟ قال : أمّا الذي أذهب بصري ، فالبكاء على يوسف ، وأما الذي قوّس ظهري ، فالحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل ، فقال : يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك : أما تستحي أن تشكو إلى غيري ؟ فقال : إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله ، فقال جبريل : الله أعلم بما تشكو ، ثم قال يعقوب : أي رب ، أما ترحم الشيخ الكبير ؟ أذهبتَ بصري ، وقوّستَ ظهري ، فاردد عليّ ريحاني أشمه شمّة قبل الموت ، ثم اصنع بي يا رب ما شئت ، فأتاه جبريل ، فقال : يا يعقوب ، إن الله يقرأ عليك السلام ويقول : أبشر ، فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك ، اصنع طعاماً للمساكين ، فإن أحب عبادي إليّ ، المساكين ، وتدري لم أذهبتُ بصرك ، وقوّست ظهرك ، وصنع إخوة يوسف بيوسف ما صنعوا ؟ لأنكم ذبحتم شاة ، فأتاكم فلان المسكين وهو صائم ، فلم تطعموه منها . فكان يعقوب بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى : ألا مَن أراد الغداء من المساكين فليتغدّ مع يعقوب ، وإذا كان صائماً ، أمر منادياً فنادى : من كان صائماً فليُفطر مع يعقوب »(١) . وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى يعقوب : أتدري لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال : لا ،

---

(١) الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٤٨ وقال : هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير ، وأظن الزبير وهماً من الراوي ، فانه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري ابن أخي أنس بن مالك ، فان كان كذلك فالحديث صحيح ، وقد رواه اسحاق بن راهويه مرسلاً .اه . وذكره ابن كثير في « التفسير » ٢/٤٨٨ من رواية ابن أبي حاتم ، وقال : وهذا حديث غريب فيه نكارة . وخرجه الهيثمي في « المجمع » : ٧/٤٠ ، وقال : رواه الطبراني في « الصغير » و « الأوسط » عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جداً . وأورده السيوطي في « الدر » ٤/٣٢ ، وزاد نسبته لابن أبي الدنيا في كتاب « الفرج بعد الشدة » وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » .

قال : لأنك شويت عناقاً وقتَّرت على جارك وأكلت ولم تطعمه . وذكر بعضهم أن السبب في ذلك أن يعقوب ذبح عجل بقرة بين يديها، وهي تخور ، فلم يرحمها .

فان قيل : كيف صبر يوسف عن أبيه بعد أن صار ملكاً ؟

فقد ذكر المفسرون عنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه يجوز أن يكون ذلك عن أمر الله تعالى ، وهو الأظهر .

والثاني : لئلا يظن الملك بتعجيل استدعائه أهله ، شدة فاقتهم .

والثالث : أنه أحب بعد خروجه من السجن أن يدرِّج نفسه إلى كمال السرور .

والصحيح أن ذلك كان عن أمر الله تعالى ، ليرفع درجة يعقوب بالصبر على البلاء . وكان يوسف يلاقي من الحزن لأجل حزن أبيه عظيماً ، ولا يقدر على دفع سببه .

قوله تعالى : (وأعلم من الله مالا تعلمون) فيه أربعة أقوال :

أحدها : أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنـّا سنسجد له ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أعلم من سلامة يوسف مالا تعلمون . قال ابن السائب : وذلك أن ملك الموت أتاه ، فقال له يعقوب : هل قبضت روح ابني يوسف ؟ قال : لا .

والثالث : أعلم من رحمة الله وقدرته مالا تعلمون ، قاله عطاء .

والرابع : أنه لما أخبره بنوه بسيرة العزيز ، طمع أن يكون هو يوسف ، قاله السدي ، قال : ولذلك قال لهم : (اذهبوا فتحسسوا) . وقال وهب بن منبه : لما قال له ملك الموت : ماقبضت روح يوسف ، تباشر عند ذلك ، ثم أصبح ، فقال لبنيه : (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) . قال أبو عبيدة : « تحسسوا » أي : تخبَّروا والتمِسوا في المظانّ .

فان قيل : كيف قال : « من يوسف » والغالب أن يقال : تحسست عن كذا ؟

فعنه جوابان ذكرهما ابن الأنباري :

أحدهما : أن المعنى : عن يوسف ، ولكن نابت عنها « من » كما تقول العرب : حدثني فلان من فلان ، يعنون عنه .

والثاني : أن « مِن » أوثرت للتبعيض ، والمعنى : تحسَّسُوا خبراً من أخبار يوسف .

قوله تعالى : (ولا تيأسوا من رَوْحِ الله) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : من رحمة الله ، قاله ابن عباس ، والضحاك . والثاني : من فرج الله ، قاله ابن زيد . والثالث : من توسعة الله ، حكاه ابن القاسم . قال الأصمعي : الروح : الاستراحة من غم القلب . وقال أهل المعاني : لاتيأسوا من الروح الذي يأتي به الله ، (إنه لاييأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون) لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ . قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَافَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ . قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ . قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما دخلوا عليه) في الكلام محذوف ، تقديره : فخرجوا إلى مصر ، فدخلوا على يوسف ، ف(قالوا : يا أيها العزيز) وكانوا يسمُّون ملكهم بذلك ، (مسَّنا وأهلنا الضرُّ) يعنون الفقر والحاجة (وجئنا ببضاعة مزجاة) .

وفي ماهية تلك البضاعة سبعة أقوال :

أحدها : أنها كانت دراهم ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : أنها كانت متاعاً رثّاً كالحبل والغرارة[1] ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس . والثالث : كانت أقِطاً[2] قاله الحسن . والرابع : كانت نعالاً وأدَماً ، رواه جويبر عن الضحاك . والخامس : كانت سويق المُقْل[3] ، روي عن الضحاك أيضاً . والسادس : حبة الخضراء وصنوبر ، قاله أبو صالح . والسابع : كانت صوفاً وشيئاً من سمن ، قاله عبد الله بن الحارث .

وفي المزجاة خمسة أقوال :

أحدها : أنها القليلة . روى العوفي عن ابن عباس قال : دراهم غير طائلة ، وبه قال مجاهد ، وابن إسحاق ، وابن قتيبة . قال الزجاج : تأويله في اللغة أن التزجية : الشيء الذي يدافَع به ، يقال : فلان يزجي العيش ، أي : يدفع بالقليل ويكتفي به ، فالمعنى : جئنا ببضاعة إنما ندافع بها ونتقوَّت ، وليست مما يُتَّسع به ، قال الشاعر :

---

(١) الغرارة ، بكسر الغين : الجُوالق ، واحدة الغرائر ، وربما كان معرباً .

(٢) الأقط : اللبن المجفف الذي لم ينزع زبده .

(٣) السويق : طعام يتخذ من دقيق الشعير أو الحنطة المقلو ، ويقال لسويق المقل : الحتِّي ، ولسويق النبق : الفتِّي ، وقال أعرابي يصفه : هو عدة المسافر ، وطعام العجلان ، وبلغة المريض .

الوَاهِبُ المائَةَ الهِجَانَ وَعَبْدَهَا عُوذاً تُزَجِّي خَلْفَهَا أَطْفَالَهَا (١)

أي : تدفع أطفالها .

والثاني : أنها الرديئة ، رواه الضحاك عن ابن عباس . قال أبو عبيدة : إنما قيل للرديئة : مزجاة ، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها ، قال : وهي من الإزجاء ، والإزجاء عند العرب : السَّوق والدفع ، وأنشد :

لِيَبْكِ على مِلحانَ ضيفٌ مُدفَّع وَأَرْمَلَةٌ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ أَرْمَلاَ (٢)

أي : تسوقه .

والثالث : الكاسدة ، رواه الضحاك أيضاً عن ابن عباس .

والرابع : الرثّة ، وهي المتاع الخَلَق ، رواه ابن أبي مليكة عن ابن عباس .

والخامس : الناقصة ، رواه أبو حصين عن عكرمة .

قوله تعالى : (فأوف لنا الكيل) أي : أتمه لنا ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا .

قوله تعالى : (وتصدق علينا) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : تصدّق علينا بما بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جبير ، والسدي . قال ابن الأنباري : كان الذي سألوه من المسامحة يشبه التصدّق ، وليس به .

والثاني : بردِّ أخينا ، قاله ابن جريج ، قال : وذلك أنهم كانوا أنبياء ، والصَّدَقَةُ لاتحل للأنبياء .

---

(١) البيت للأعشى في ديوانه : ٢٩ من قصيدة يمدح بها قيس بن معد يكرب ، والهجان : جمع هجين ، وهو الأبيض الكريم ، يقال : إبل هجان ، والعوذ : الحديثات النتاج ، وزجى الشيء : دفعه برفق ، يقول : إن الممدوح يهب المائة من الابل وعبدها ، تتبعها أطفالها تسعى خلفها .

(٢) البيت في « اللسان » « رمل » أنشده ابن بري شاهداً على أن الأرمل : المرأة التي لازوج لها .

والثالث : وتصدَّقْ علينا بالزيادة على حقِّنا ، قاله ابن عيينة ، وذهب إلى أن الصدقة قد كانت تحل للأنبياء قبل نبينا ﷺ ، حكاه عنه أبو سليمان الدمشقي ، وأبو الحسن الماوردي ، وأبو يعلى بن الفراء .

قوله تعالى : (إن الله يجزي المتصدقين) أي : بالثواب . قال الضحاك : لم يقولوا : إن الله يجزيك إن تصدقت علينا ، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن .

قوله تعالى : (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) في سبب قوله لهم هذا ، ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أخرج إليهم نسخة الكتاب الذي كتبوه على أنفسهم ببيعه من مالك بن ذعر ، وفي آخر الكتاب : « وكتب يهوذا » فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا : هذا كتاب كتبناه على أنفسنا عند بيع عبدٍ كان لنا ، فقال يوسف عند ذلك : إنكم تستحقون العقوبة ، وأمر بهم ليُقتَلوا ، فقالوا : إن كنت فاعلاً ، فاذهب بأمتعتنا إلى يعقوب ، ثم أقبل يهوذا على بعض إخوته ، وقال : قد كان أبونا متصل الحزن لفقد واحد من ولده ، فكيف به إذا أُخبر بهُلكنا أجمعين ؟ فرقَّ يوسف عند ذلك وكشف لهم أمره ، وقال لهم هذا القول ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم لما قالوا : « مسَّنا وأهلنا الضرُّ » أدركته الرحمة ، فقال لهم هذا ، قاله ابن إسحاق .

والثالث : أن يعقوب كتب إليه كتاباً : إن رددتَ ولدي ، وإلا دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابعَ من ولدك ، فبكى ، وقال لهم هذا .

وفي « هل » قولان :

أحدها : أنها استفهام لتعظيم القصة لا يراد به نفس الاستفهام . قال ابن

الأنباري : والمعنى : ما أعظم ما ارتكبتم ، وما أسمج ما آثرتم من قطيعة الرحم وتضييع الحق ، وهذا مثل قول العربي : أتدري من عصيت ؟ هل تعرف من عاديت ؟ لا يريد بذلك الاستفهام، ولكن يريد تفظيع الأمر ، قال الشاعر :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي

لم يرد الاستفهام ، إنما أراد أن هذا غير مرجوٍّ عندهم . قال : ويجوز أن يكون المعنى : هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله لهما من المكروه ؟ وهذه الآية تصديق قوله : (لتنبِّئنَّهم بأمرهم) .

والثاني : أن « هل » بمعنى « قد » ذكره بعض أهل التفسير .

فان قيل : فالذي فعلوا بيوسف معلوم ، فما الذي فعلوا بأخيه ، وماسعَوا في حبسه ولا أرادوه ؟

فالجواب من وجوه . أحدها : أنهم فرّقوا بينه وبين يوسف ، فنغّصوا عيشه بذلك . والثاني : أنهم آذَوْهُ بعد فَقْدِ يوسف . والثالث : أنهم سبّوه لما قُذف بسرقة الصاع .

وفي قوله : (إذ أنتم جاهلون) أربعة أقوال :

أحدها : إذ أنتم صبيان ، قاله ابن عباس . والثاني : مذنبون ، قاله مقاتل . والثالث : جاهلون بعقوق الأب ، وقطع الرحم ، وموافقة الهوى . والرابع : جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (أئنك لأنت يوسف) قرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، وابن محيصن : « إنك » على الخبر ، وقرأه آخرون بهمزتين محققتين ، وأدخل بعضهم بينهما ألفاً[1] .

---

(١) قال أبو جعفر ابن جرير الطبري ١٢/٥٥ : والصواب من القراءة في ذلك عندنا ، قراءة من قرأ بالاستفهام ، لاجماع الحجة من القراء عليه . وقال ابن كثير ٢/٤٨٩ : والقراءة ـــ

واختلف المفسرون ، هل عرفوه ، أم شبّهوه ؟ على قولين :

أحدهما : أنهم شبّهوه بيوسف ، قاله ابن عباس في رواية .

والثاني : أنهم عرفوه ، قاله ابن إسحاق . وفي سبب معرفتهم له ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه تبسم ، فشبّهوا ثناياه بثنايا يوسف ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنه كانت له علامة كالشامة في قرنه ، وكان ليعقوب مثلها ، ولإسحاق مثلها ، ولسارة مثلها ، فلما وضع التاج عن رأسه ، عرفوه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه كشف الحجاب ، فعرفوه ، قاله ابن إسحاق .

قوله تعالى : (قال أنا يوسف) قال ابن الأنباري : إنما أظهر الاسم ، ولم يقل : أنا هو ، تعظيماً لما وقع به من ظلم إخوته ، فكأنه قال : أنا المظلوم المستحَلّ منه ، المراد قتلُه ، فكفى ظهور الاسم من هذه المعاني ، ولهذا قال : (وهذا أخي) وهم يعرفونه ، وإنما قصد : وهذا المظلوم كظلمي .

قوله تعالى : (قد منّ الله علينا) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بخير الدنيا والآخرة . والثاني : بالجمع بعد الفرقة . والثالث : بالسلامة ثم بالكرامة .

قوله تعالى : (إنه من يتق ويصبر) قرأ ابن كثير في رواية قنبل : « من يتقي ويصبر » بياء في الوصل والوقف ، وقرأ الباقون بغير ياء في الحالين .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال :

أحدها : من يتق الزنى ويصبر على البلاء . والثاني : من يتق الزنى ويصبر

ـــ المشهورة هي الأولى ، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام ، أي : أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : « أئنك لأنت يوسف » ؟

على العزبة . والثالث : من يتق الله ويصبر على المصائب ، رويت هذه الأقوال عن ابن عباس . والرابع : يتق معصية الله ويصبر على السجن ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (فان الله لايضيع أجر المحسنين) أي : أجر مَنْ كان هذا حاله .

قوله تعالى : (لقد آثرك الله علينا) أي : اختارك وفضَّلك .

وبماذا عنوا أنه فضَّله فيه ؟ أربعة أقوال :

أحدها : بالملك ، قاله الضحاك عن ابن عباس . والثاني : بالصبر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : بالحِلم والصفح عنا ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . والرابع : بالعلم والعقل والحسن وسائر الفضائل التي أعطاه .

قوله تعالى : (وإن كنا لخاطئين) قال ابن عباس : لمذنبين آثمين في أمرك . قال ابن الأنباري : ولهذا اختير « خاطئين » على « مخطئين » ، وإن كان « أخطأَ » على ألسن الناس أكثر من « خطىء يخطأ » لأن معنى خطىءَ يخطأ ، فهو خاطىء : آثم ، ومعنى أخطأ يخطىء ، فهو مخطىء : ترك الصواب ولم يأثم ، قال الشاعر :

عِبَادُكَ يَخْطَأُونَ وَأَنْتَ رَبٌّ بِكَفَّيْكَ المَنَايَا والحُتُومُ (١)

أراد : يأثمون . قال : ويجوز أن يكون آثر « خاطئين » على « مخطئين » لموافقة رؤوس الآيات ، لأن « خاطئين » أشبه بما قبلها .

وذكر الفراء في معنى « إن » قولين :

أحدهما : وقد كنا خاطئين . والثاني : وما كنا إلا خاطئين .

قوله تعالى : (لا تثريب عليكم اليوم) قال أبو صالح عن ابن عباس : لا أعيِّركم بعد اليوم بهذا أبداً . قال ابن الأنباري : إنما أشار إلى ذلك اليوم ، لأنه أول أوقات العفو ، وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة . وقال ثعلب : قد ثرَّب

(١) البيت غير منسوب في « اللسان » : خطأ .

فلان على فلان : إذا عدَّد عليه ذنوبه . وقال ابن قتيبة : لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم ، وأصل التثريب : الإفساد ، يقال : ثرَّب علينا : إذا أفسد ، وفي الحديث : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدَّ ، ولا يثرِّب »[1] أي : لا يعيِّرها بالزنى . قال ابن عباس : جعلهم في حِلّ ، وسأل الله المغفرة لهم . وقال السدي : لما عرّفهم نفسه ، سألهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصَه ، وقال : (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) وهذا القميص كان في قصبة من فضة معلّقاً في عنق يوسف لما أُلقي في الجب ، وكان من الجنة ، وقد سبق ذكره [يوسف : ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨] .

قوله تعالى : (يأت بصيراً) قال أبو عبيدة : يعود مبصراً .

فان قيل : من أين قطع على الغيب ؟

فالجواب . أن ذلك كان بالوحي إليه ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وائتوني بأهلكم أجمعين) قال الكلبي : كان أهله نحواً من سبعين إنساناً .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾

قوله تعالى : (ولما فصلت العير) أي : خرجت من مصر متوجهة إلى كنعان . وكان الذي حمل القميص يهوذا . قال السدي : قال يهوذا ليوسف : أنا الذي حملت القميص إلى يعقوب بدم كذب فأحزنتُه ، وأنا الآن أحمل قميصك لأسرَّه ، فحمله ، قال ابن عباس : فخرج حافياً حاسراً يعدو ، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها .

---

(١) البخاري ٣١٠/٤ ، ومسلم ١٣٢٨/٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قوله تعالى : (قال لهم أبوهم) يعني يعقوب لمن حضره من أهله وقرابته وولد ولده (إني لأجد ريح يوسف) . ومعنى أجد : أشم ، قال الشاعر :

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَاتَسْمَعُونَه   وَلَكِنَّها أَصْلاَبُ قَوْمٍ تَقَصَّفُ

وَلَيْسَ فَتِيقُ المِسْكِ مَاتَجِدُونَه   وَلَكِنَّه ذَاكَ الثَّنَاءُ المُخَلَّفُ

فان قيل : كيف وجد يعقوب ريحه وهو بمصر ، ولم يجد ريحه من الجب وبعد خروجه منه ، والمسافة هناك أقرب ؟

فعنه جوابان : أحدهما : أن الله تعالى أخفى أمر يوسف على يعقوب في بداية الأمر لتقع البلية التي يتكامل بها الأجر ، وأوجده ريحه من المكان النازح عند تقضِّي البلاء ومجيء الفرج .

والثاني : أن هذا القميص كان في قصبة من فضة معلَّقاً في عنق يوسف على ماسبق بيانه ، فلما نشره فاحت روائح الجنان في الدنيا فاتصلت بيعقوب ، فعلم أن الرائحة من جهة ذلك القميص . قال مجاهد : هبت ريح فضربت القميص ، ففاحت روائح الجنة في الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا ماكان من ذلك القميص ، فمن ثم قال : (إني لأجد ريح يوسف) . وقيل : إن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل البشير فأذن لها ، فلذلك يستروح كل محزون إلى ريح الصبا ، ويجد المكروبون لها رَوْحاً ، وهي ريح لينة تأتي من ناحية المشرق ، قال أبو صخر الهذلي :

إذا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو يَهِيْجُنِي
نَسِيْمُ الصَّبَا مِنْ حَيْثُ يَطَّلِعُ الفَجْرُ[1]

قال ابن عباس : وجد ريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال ثمانين فرسخاً .

(١) « شرح أشعار الهذليين » : ٩٥٧ .

قوله تعالى : (لولا أن تفنّدونِ) فيه خمسة أقوال .

أحدها : تجهّلونِ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل .

والثاني : تسفّهونِ ، رواه عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، وقتادة ، ومجاهد في رواية . وقال في رواية أخرى : لولا أن تقولوا: ذهب عقلك .

والثالث : تكذّبونِ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك .

والرابع : تهرّمونِ ، قاله الحسن ، ومجاهد في رواية . قال ابن فارس : الفَنَد : إنكار العقل من هرم .

والخامس : تعجّزونِ ، قاله ابن قتيبة . وقال أبو عبيدة : تسفّهون وتعجّزون وتلومون ، وأنشد :

يَا صاحِبَيَّ دَعَا لَوْمِي وَتَفْنِيدِي فَلَيْسَ مَا فَاتَ مِنْ أَمْرٍ بِمَرْدُودِ [1]

قال ابن جرير : وأصل التفنيد : الإفساد ، وأقوال المفسرين تتقارب معانيها ، وسمعت الشيخ أبا محمد ابن الخشاب يقول : قوله : « لولا أن تفنّدون » فيه إضمار ، تقديره : لأخبرتكم أنه حيّ .

﴿ قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

قوله تعالى : (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) قال ابن عباس : بنو بنيه خاطبوه بهذا ، وكذلك قال السدي : هذا قول بني بنيه ، لأن بنيه كانوا بمصر .

وفي معنى هذا الضلال ثلاثة أقوال :

---

(١) البيت لهانىء بن شكيم العدوي في « مجاز القرآن » ٣١٨/١ ، و « الطبري » ٥٩/١٣ ، و « القرطبي » ٢٦٠/٩ .

أحدها : أنه بمعنى الخطأ ، قاله ابن عباس ، وابن زيد . والثاني : أنه الجنون ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : الشقاء والعناء ، قاله مقاتل ، يريد بذلك شقاء الدنيا .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ . قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ . قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (فلما أن جاء البشير) فيه قولان :

أحدها : أنه يهوذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال وهب بن منبه ، والسدي ، والجمهور . والثاني : أنه شمعون ، قاله الضحاك .

فإن قيل : ما الفرق بين قوله هاهنا : (فلما أن جاء) وقال في موضع : (فلما جاءهم) [البقرة : ٨٩] ؟

فالجواب : أنهما لغتان لقريش خاطبهم الله بهما جميعاً ، فدخول « أن » لتوكيد مُضيِّ الفعل ، وسقوطها للاعتماد على إيضاح الماضي بنفسه ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (ألقاه) يعني القميص (على وجهه) يعني يعقوب (فارتدَّ بصيراً) ، الارتداد : رجوع الشيء إلى حال قد كان عليها . قال ابن الأنباري : إنما قال : ارتد ، ولم يقل : رُدَّ ، لأن هذا من الأفعال المنسوبة إلى المفعولين ، كقولهم : طالت النخلة ، والله أطالها ، وتحركت الشجرة ، والله حركها . قال الضحاك : رجع إليه بصره بعد العمى ، وقوّته بعد الضعف ، وشبابه بعد الهرم ، وسروره بعد الحزن .

وروى يحيى بن يمان عن سفيان قال : لما جاء البشيرُ يعقوبَ ، قال : على أيِّ دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة .

قوله تعالى : (ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) فيه أقوال قد سبق ذكرها قبل هذا بقليل .

قوله تعالى : (يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) سألوه أن يستغفر لهم ما أتوا ، لأنه نبيّ مجاب الدعوة . (قال سوف أستغفر لكم ربي) في سبب تأخيره لذلك ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه أخّرهم لانتظار الوقت الذي هو مَظِنَّة الإجابة ، ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه أخّرهم إلى ليلة الجمعة ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ [1] . قال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيّف وعشرين سنة . والثاني : إلى وقت السَّحَر من ليلة الجمعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال طاووس : فوافق ذلك ليلة عاشوراء . والثالث : إلى وقت السَّحَر ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، وابن عمر ، وقتادة ، والسدي ، ومقاتل . قال الزجاج : إنما أراد الوقت الذي هو أخلق لإجابة الدعاء ، لا أنه ضَنَّ عليهم بالاستغفار ، وهذا أشبه بأخلاق الأنبياء عليهم السلام .

والقول الثاني : أنه دفعهم عن التعجيل بالوعد . قال عطاء الخراساني : طلبُ الحوائج إلى الشباب أسهل منها عند الشيوخ ، ألا ترى إلى قول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم » وإلى قول يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربي » .

والثالث : أنه أخّرهم ليسأل يوسف ، فان عفا عنهم ، استغفر لهم ، قاله الشعبي . وروي عن أنس بن مالك أنهم قالوا : يا أبانا إنْ عفا الله عنا ، وإلا فلا

---

(١) « الطبري » ١٣/٦٥ عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قد قال أخي يعقوب : سوف أستغفر لكم ربي ، يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة » . وسنده ضعيف ، وقد أورده ابن كثير في « تفسيره » ٢/٤٩٠ وقال : وهذا غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر ، والله أعلم .

قُرَّة عيْن لنا في الدنيا ، فدعا يعقوبُ وأمَّن يوسف ، فلم يُجب فيهم عشرين سنة ، ثم جاء جبريل فقال : إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك ، وعفا عما صنعوا به ، واعتقد مواثيقهم من بَعْدُ على النبوَّة . قال المفسرون : وكان يوسف قد بعث مع البشير إلى يعقوب جَهازاً ومائتي راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله وولده . فلما ارتحل يعقوب ودنا من مصر ، استأذن يوسف الملِك الذي فوقه في تلقّي يعقوب ، فأذن له ، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه ، فخرج في أربعة آلاف من الجند ، وخرج معهم أهل مصر .

وقيل : إن الملك خرج معهم أيضاً . فلما التقى يعقوب ويوسف ، بكيا جميعاً ، فقال يوسف : يا أبت بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصرك ، أما علمتَ أن القيامة تجمعني وإياك ؟ قال : أي بني ، خشيت أن تسلب دينك فلا نجتمع .

وقيل : إن يعقوب ابتدأه بالسلام ، فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلما دخلوا على يوسف) يعني : يعقوب وولده .

وفي هذا الدخول قولان :

أحدهما : أنه دخول أرض مصر ، ثم قال لهم : (ادخلوا مصر) يعني البلد .

والثاني : أنه دخول مصر ، ثم قال لهم : « ادخلوا مصر » أي : استوطنوها .

وفي قوله : (آوى إليه أبويه) قولان :

أحدهما : أبوه وخالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، قاله ابن عباس والجمهور .

والثاني : أبوه وأمه ، قاله الحسن ، وابن إسحاق .

وفي قوله : (إن شاء الله آمنين) أربعة أقوال .

أحدها : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، فالمعنى : سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله ، إنه هو الغفور الرحيم ، هذا قول ابن جريج .

والثاني : أن الاستثناء يعود إلى الأمن . ثم فيه قولان : أحدهما : أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم . والثاني : أن الناس كانوا فيما خلا يخافون ملوك مصر ، فلا يدخلون إلا بجوارهم .

والثالث : أنه يعود إلى دخول مصر ، لأنه قال لهم هذا حين تلقَّاهم قبل دخولهم ، على ما سبق بيانه .

والرابع : أن « إن » بمعنى : « إذ » كقوله : (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) [النور : ٣٣] . قال ابن عباس : دخلوا مصر يومئذ وهم نيّف وسبعون من ذكر وأنثى . وقال ابن مسعود : دخلوا وهم ثلاثة وتسعون ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ورفع أبويه على العرش) في « أبويه » قولان قد تقدما في

الآية التي قبلها . والعرش هاهنا : سرير المملكة ، أجلس أبويه عليه (وخرّوا له) يعني : أبويه وإخوته .

وفي هاء « له » قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى يوسف ، قاله الجمهور . قال أبو صالح عن ابن عباس : كان سجودهم كهيأة الركوع كما يفعل الأعاجم . وقال الحسن : أمرهم الله بالسجود لتأويل الرؤيا . قال ابن الأنباري : سجدوا له على جهة التحية ، لا على معنى العبادة ، وكان أهل ذلك الدهر يحيّي بعضهم بعضاً بالسجود والانحناء ، فحظره رسول الله ﷺ ، فروى أنس بن مالك قال : « قال رجل : يارسول الله ، أحدنا يلقى صديقه ، أينحني له ؟ قال : لا » [1] .

والثاني : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : وخرّوا لله سجّداً ، رواه عطاء ، والضحاك عن ابن عباس ، فيكون المعنى : أنهم سجدوا شكراً لله إذ جمع بينهم وبين يوسف .

قوله تعالى : (هذا تأويل رؤياي) أي : تصديق مارأيت ، وكان قد رآهم في المنام يسجدون له ، فأراه الله ذلك في اليقظة .

واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها على سبعة أقوال :

أحدها : أربعون سنة ، قاله سلمان الفارسي ، وعبد الله بن شداد بن الهاد ، ومقاتل . والثاني : اثنتان وعشرون سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : ثمانون سنة ، قاله الحسن ، والفضيل بن عياض . والرابع : ست وثلاثون سنة ،

---

(١) روى الترمذي في « جامعه » ٢/٩٧ ، وابن ماجه في « سننه » ٢/١٢٢٠ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه ، أينحني له ؟ قال : « لا » قال : أفيلتزمه ويقبّله ؟ قال : « لا » قال : فيأخذه بيده ويصافحه ؟ قال : « نعم » . وقال الترمذي: هذا حديث حسن .

قاله سعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي. والخامس: خمس وثلاثون سنة، قاله قتادة. والسادس: سبعون سنة، قاله عبد الله بن شوذب والسابع: ثماني عشرة سنة، قاله ابن إسحاق.

قوله تعالى: (وقد أحسن بي) أي: إليّ. والبَدْوُ: البَسْطُ من الأرض. وقال ابن عباس: البدو: البادية، وكانوا أهل عمود وماشية.

قوله تعالى: (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) أي: أفسد بيننا. قال أبو عبيدة: يقال: نزغ بينهم يَنْزَغ، أي: أفسد وهيَّج، وبعضهم يكسر زاي ينزِغ. (إن ربي لطيف لما يشاء) أي: عالم بدقائق الأمور. وقد شرحنا معنى «اللطيف» في (الأنعام: ١٠٢).

فان قيل: قد توالت على يوسف نعم خمسة، فما اقتصاره على ذِكر السجن، وهلاّ ذكر الجُبِّ، وهو أصعب؟

فالجواب من وجوه.

أحدها: أنه ترك ذِكر الجُبِّ تكرماً، لئلا يذكِّر إخوته صنيعهم، وقد قال: «لا تثريب عليكم اليوم».

والثاني: أنه خرج من الجُبِّ إلى الرق، ومن السجن إلى الملك، فكانت هذه النعمة أوفى.

والثالث: أن طول لبثه في السجن كان عقوبة له، بخلاف الجُبِّ، فشكر الله على عفوه.

قال العلماء بالسِّيَر: أقام يعقوب بعد قدومه مصر أربعاً وعشرين سنة. وقال بعضهم: سبع عشرة سنة في أهنأ عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف

أن يُحمَل إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ، ففعل به ذلك ، وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ثم إن يوسف تاق إلى الجنة ، وعلم أن الدنيا لا تدوم فتمنّى الموت ، قال ابن عباس ، وقتادة : ولم يتمنَّ الموتَ نبيّ قبله ، فقال : (ربِّ قد آتيتني من الملك) يعني : ملك مصر (وعلّمتني من تأويل الأحاديث) وقد سبق تفسيرها [يوسف : ٦] .

وفي « مِنْ » قولان :

أحدهما : أنها صلة ، قاله مقاتل . والثاني : أنها للتبعيض ، لأنه لم يؤتَ كلَّ الملك ، ولا كلَّ تأويل الأحاديث .

قوله تعالى : (فاطر السموات والأرض) قد شرحناه في (الأنعام : ٦) .

(أنت وليي) أي : الذي تلي أمري . (توفَّني مسلماً) قال ابن عباس : يريد : لا تسلبني الإسلام حتى تتوفاني عليه . وكان ابن عقيل يقول : لم يتمنَّ يوسف الموت ، وإنما سأل أن يموت على صفة ، والمعنى : توفني إذا توفيتني مسلماً ، قال الشيخ : وهذا الصحيح .

قوله تعالى : (وألحقني بالصالحين) والمعنى : ألحقني بدرجاتهم ، وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل الجنة ، قاله عكرمة .

والثاني : آباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، قاله الضحاك ، قالوا : فلما احتُضر يوسف ، أوصى إلى يهوذا ، ومات ، فتشاحّ الناس في دفنه ، كل يُحبُّ أن يُدفن في محلّته رجاء البركة ، فاجتمعوا على دفنه في النيل ليمر الماء عليه ويصل إلى الجميع ، فدفنوه في صندوق من رخام ، فكان هنالك إلى أن حمله موسى حين خرج من مصر ودفنه بأرض كنعان . قال الحسن : مات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة . وذكر مقاتل أنه مات بعد يعقوب بسنتين .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ذلك من أنباء الغيب) أي : ذلك الذي قصصنا عليك من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك ، فأنزله الله عليك دليلاً على نبوّتك . (وما كنت لديهم) أي : عند إخوة يوسف (إذ أجمعوا أمرهم) أي : عزموا على إلقائه في الجب (وهم يمكرون) بيوسف ، وفي هذا احتجاج على صحة نبوّة نبينا ﷺ ، لأنه لم يشاهد تلك القصة ، ولا كان يقرأ الكتاب ، وقد أخبر عنها بهذا الكلام المعجز ، فدلّ على أنه أخبر بوحي .

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) قال ابن الأنباري : إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته ، فشرحها شرحاً شافياً ، وهو يؤمّل أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم ، فخالفوا ظنه ، فحزن رسول الله ﷺ ، فعزّاه الله تعالى بهذه الآية . قال الزجاج : ومعناها : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم . (وما تسألهم عليه) أي : على القرآن وتلاوته وهدايتك إيّاهم (من أجر ، إن هو) أي : ما هو إلا تذكرة لهم لما فيه صلاحهم ونجاتهم .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكأيّن) أي : وكم (من آية) أي : علامة ودلالة تدلهم

على توحيد الله، من أمر السموات والأرض ، (يمرّون عليها) أي : يتجاوزونها غير متفكرين ولا معتبرين .

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) فيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم المشركون ، ثم في معناها المتعلق بهم قولان : أحدهما : أنهم يؤمنون بأن الله خالقهم ورازقهم وهم يشركون به ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، والشعبي ، وقتادة . والثاني : أنها نزلت في تلبية مشركي العرب ، كانوا يقولون : لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنهم النصارى ، يؤمنون بأنه خالقهم ورازقهم ، ومع ذلك يشركون به ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنهم المنافقون ، يؤمنون في الظاهر رئاء الناس ، وهم في الباطن كافرون ، قاله الحسن .

فان قيل : كيف وصف المشرك بالإيمان ؟

فالجواب : أنه ليس المراد به حقيقة الإيمان ، وإنما المعنى : أن أكثرهم ، مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم ، مشركون .

﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) قال ابن قتيبة : الغاشية : المجلّلة تغشاهم . وقال الزجاج : المعنى : يأتيهم ما يغمرهم من العذاب . والبغتة : الفجأة من حيث لم تتوقع .

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

قوله تعالى : (قل هذه سبيلي) المعنى : قل يا محمد للمشركين : هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، سبيلي ، أي : سُنَّتي ومنهاجي . والسبيل تذكَّر وتؤنَّث ، وقد ذكرنا ذلك في (آل عمران : ١٩٥) . (أدعو إلى الله على بصيرة) أي : على يقين . قال ابن الأنباري : وكل مسلم لا يخلو من الدعاء إلى الله عز وجل ، لأنه إذا تلا القرآن ، فقد دعا إلى الله بما فيه . ويجوز أن يتم الكلام عند قوله : (إلى الله) ، ثم ابتدأ فقال : (على بصيرة أنا ومن اتَّبعني) .

قوله تعالى : (وسبحان الله) المعنى : وقل : سبحان الله تنزيهاً له عما أشركوا .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً) هذا نزل من أجل قولهم : هلاَّ بعث الله ملكاً ، فالمعنى : كيف تعجَّبوا من إرسالنا إياك ، وسائر الرسل كانوا على مثل حالك (يوحى إليهم) ؟ وقرأ حفص عن عاصم : « نوحي » بالنون . والمراد بالقرى : المدائن . وقال الحسن : لم يبعث الله نبيّاً من أهل البادية ، ولا من الجن ، ولا من النساء ، قال قتادة : لأن أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العَمود .

قوله تعالى : (أفلم يسيروا في الأرض) يعني : المشركين المنكرين نبوَّتك (فينظروا) إلى مصارع الأمم المكذِّبة فيعتبروا بذلك . (ولَدار الآخرة) يعني : الجنة (خير) من الدنيا (للذين اتقوا) الشرك . قال الفراء : أُضيفت الدار إلى الآخرة ، وهي الآخرة ، لأن العرب قد تضيف الشيء إلى نفسه إذا

اختلف لفظه ، كقوله : (لَهُوَ حَقُّ اليقين) [الواقعة : ٩٦] والحق : هو اليقين ، وقولهم : أتيتك عام الأول ، ويوم الخميس .

قوله تعالى : (أفلا يعقلون) قرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وحفص ، والمفضَّل ، ويعقوب : « تعقلون » بالتاء ، وقرأ الآخرون بالياء ، والمعنى : أفلا يعقلون هذا فيؤمنوا .

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) المعنى متعلق بالآية الأولى ، فتقديره : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ، فدعَوا قومهم ، فكذَّبوهم ، وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الرسل ، وفيه قولان :

أحدهما : استيأسوا من تصديق قومهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : من أن نعذّب قومهم ، قاله مجاهد . (وظنوا أنهم قد كُذبوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « كُذِّبوا » مشددة الذال مضمومة الكاف ، والمعنى : وتيقَّن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم ، فيكون الظن هاهنا بمعنى اليقين ، هذا قول الحسن ، وعطاء ، وقتادة . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « كُذِبوا » خفيفة ، والمعنى : ظن قومهم أن الرسل قد كُذِبوا فيما وُعدوا به من النصر ، لأن الرسل لا يظنون ذلك . وقرأ أبو رزين ، ومجاهد ، والضحاك : « كَذَبوا » بفتح الكاف والذال خفيفة ، والمعنى : ظن قومهم أيضاً أنهم قد كَذَبوا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (جاءهم نصرنا) يعني : الرسل (فنُنْجِيْ من نشاء) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « فننجي » بنونين ، الأولى

مضمومة والثانية ساكنة والياء ساكنة . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر ، وحفص، جميعاً عن عاصم ، ويعقوب : « فَنُجِّيَ » مشدده الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة ، يعني : المؤمنين ، نَجَوْا عند نزول العذاب .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (لقد كان في قصصهم) أي : في خبر يوسف وإخوته . وروى عبد الوارث كسر القاف ، وهي قراءة قتادة ، وأبي الجوزاء . (عبرة) أي : عظة (لأولي الألباب) أي : لذوي العقول السليمة ، وذلك من وجهين :

أحدهما : ما جرى ليوسف من إعزازه وتمليكه بعد استعباده ، فانَّ من فَعَلَ ذلك به ، قادر على إعزاز محمد ﷺ وتعلية كلمته .

والثاني : أن من تفكّر ، علم أن محمداً ﷺ مع كونه أمّيا ، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة مِنْ قبل نفسه ، فاستدل بذلك على صحة نبوّته .

قوله تعالى : (ما كان حديثاً يُفترى) في المشار إليه قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله قتادة .

والثاني : ما تقدم من القصص ، قاله ابن إسحاق ، فعلى القول الأول ، يكون معنى قوله : (ولكن تصديق الذي بين يديه) : ولكن كان تصديقاً لما بين يديه من الكتب (وتفصيل كل شيء) يُحتاج إليه من أمور الدين (وهدىً) بياناً

(ورحمةً لقوم يؤمنون) أي : يصدِّقون بما جاء به محمد ﷺ . وعلى القول الثاني : وتفصيل كل شيءٍ من نبأ يوسف وإخوته [١] .

★ ★ ★

(١) قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ٢/٤٩٨ : وتفصيل كل شيء ، من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات ، وما شاكلها من المكروهات ، والاخبار عن الأمور الجلية ، وعن الغيوب المجملة والتفصيلية ، والاخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان هدىً ورحمة لقوم يؤمنون ، تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد ، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ويوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة .

سورة الرعد

فصل في نزولها

اختلفوا في نزولها على قولين :

أحدهما : أنها مكية ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، وقتادة . وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية ، إلا آيتين منها ، قوله : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ...) إلى آخر الآية [الرعد : ٣١] ، وقوله : (ويقول الذين كفروا لست مرسلاً) [الرعد : ٤٣] .

والثاني : أنها مدنية ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس ، وبه قال جابر ابن زيد . وروي عن ابن عباس أنها مدنية ، إلا آيتين نزلتا بمكة ، وهما قوله : (ولو أن قرآناً سُيِّرت به الجبال . . .) إلى آخرها [الرعد : ٣١] . وقال بعضهم : المدني منها قوله : (هو الذي يريكم البرق) إلى قوله : (له دعوة الحق) [الرعد : ١٤] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ آلمرا تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ . اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (الٓمٓر) قد ذكرنا في سورة (البقرة) جملةً من الكلام في معاني هذه الحروف . وقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الكلمة ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناها : أنا الله أعلم وأرى ، رواه أبو الضحى عنه . والثاني : أنا الله أرى ، رواه سعيد بن جبير عنه . والثالث : أنا الله الملك الرحمن ، رواه عطاء عنه .

قوله تعالى : (تلك آيات الكتاب) في « تلك » قولان ، وفي « الكتاب » قولان قد تقدمت في أول (يونس) .

قوله تعالى : (والذي أُنزل إليك من ربك الحق) يعني : القرآن وغيره من الوحي (ولكنَّ أكثر الناس لايؤمنون) قال ابن عباس : يعني : أهل مكة . قال الزجاج : لما ذكر أنهم لايؤمنون ، عرَّف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق فقال : (الله الذي رفع السموات بغير عمد) قال أبو عبيدة : العَمَد : متحرك الحروف بالفتحة ، وبعضهم يحركها بالضمة ، لأنها جمع عمود ، وهو القياس ، لأن كل كلمة هجاؤها أربعة أحرف الثالث منها ألف أو ياء أو واو ، فجميعه مضموم الحروف ، نحو رسول ، والجمع : رسل ، وحمار ، والجمع : حُمُر ، غير أنه قد جاءت أسامي استعملوا جميعها بالحركة والفتحة ، نحو عمود ، وأديم ، وإهاب ، قالوا : أَدَم ،

وأَهَب . ومعنى « عمدٍ » : سَوارٍ ، ودعائم ، وما يَعْمِد البناء . وقرأ أبو حيوة : « بغير عُمُد » بضم العين والميم .

وفي قوله : (ترونها) قولان :

أحدهما : أن هاء الكناية ترجع إلى السموات ، فالمعنى : ترونها بغير عَمَد ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، والجمهور . وقال ابن الأنباري : « ترونها » خبر مستأنف ، والمعنى : رفع السموات بلا دعامة تمسكها ، ثم قال : « ترونها » أي : ماتشاهدون من هذا الأمر العظيم ، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه .

والثاني : أنها ترجع إلى العَمَد ، فالمعنى : إنها بعمد لا ترونها ، رواه عطاء ، والضحاك عن ابن عباس ، وقال : لها عَمَد على قاف ، ولكنكم لا ترون العَمَد ، وإلى هذا القول ذهب مجاهد ، وعكرمة ، والأول أصح [١] .

قوله تعالى : (وسخر الشمس والقمر) أي : ذلّلهما لما يُراد منهما (كل يجري لأجل مسمى) أي : إلى وقت معلوم ، وهو فناء الدنيا . (يدبِّر الأمر) أي : يصرِّفه بحكمته . (يفصِّل الآيات) أي : يبيِّن الآيات التي تدل أنه قادر على البعث لكي توقنوا بذلك . وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، والنخعي : « ندبِّر الأمر نفصِّل الآيات » بالنون فيهما .

---

(١) قال ابن جرير الطبري ٩٤/١٣ : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى : (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) فهي مرفوعة بغير عمد نراها ، كما قال ربنا جل ثناؤه ، ولا خبر بغير ذلك ، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه . وقال ابن كثير ٤٩٩/٢ بعد أن ذكر قول إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، يعني بلا عمد ، وكذا روي عن قتادة ، وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله تعالى : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) ، فعلى هذا يكون قوله : (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك ، أي : هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قولهتعالى : (وهو الذي مَدَّ الأرض) قال ابن عباس : بسطها على الماء .

قولهتعالى : (وجعل فيها رواسي) قال الزجاج : أي جبالاً ثوابت ، يقال : رسا الشيء يرسو رُسُوّاً ، فهو راسٍ : إذا ثبت . و (وجعل فيها زوجين اثنين) أي : نوعين . والزوج : الواحد الذي له قرين من جنسه . قال المفسرون : ويعني بالزوجين : الحلو والحامض ، والعذب والملح ، والأبيض والأسود .

قولهتعالى : (يغشي الليل النهار) قد شرحناه في (الأعراف : ٥٤) .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

قولهتعالى : (وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات) فيها قولان :

أحدها : أنها الأرض السَّبِخَة ، والأرض العذبة ، تنبت هذه ، وهذه إلى جنبها لا تنبت ، هذا قول ابن عباس ، وأبي العالية ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنها القرى المتجاورات ، قاله قتادة ، وابن قتيبة ، وهو يرجع إلى معنى الأول .

قولهتعالى : (وزرع ونخيل) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ) رفعاً في الكُلّ . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ

وغيرِ صنوانٍ » خفضاً في الكُلِّ . قال أبو علي : من رفع ،فالمعنى : وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات ، وفي الأرض زرع ، ومن خفض حمله على الأعناب ، فالمعنى : جنّاتٌ من أعناب ،ومن زرع ، ومن نخيل .

قوله تعالى : (صنوان وغير صنوان) هذا من صفة النخيل . قال الزجاج : الصنوان : جمع صِنْوٍ وصُنْوٍ ، ومعناه : أن يكون الأصل واحداً وفيه النخلتان والثلاثُ والأربع . وكذلك قال المفسرون : الصنوان : النخل المجتمع وأصله واحد ، وغير صنوان : المتفرّق . وقرأ أبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وابن جبير ، وقتادة : « صُنوانٌ » بضم الصاد . قال الفراء : لغة أهل الحجاز « صِنوانٍ » بكسر الصاد ، وتميم وقيس يضمون الصاد .

قوله تعالى : (تسقى بماء واحد) قرأ ابن كثير ، ونافع ،وأبو عمرو « تسقى » بالتاء ، « ونفضِّل » بالنون . وقرأ حمزة ، والكسائي « تسقى » بالتاء أيضاً ، لكنهما أمالا القاف . وقرأ الحسن « ويفضِّل » بالياء . وقرأ عاصم ، وابن عامر « يُسقى » بالياء ، « ونفضِّل » بالنون ،وكلهم كسر الضاد . وروى الحلبي عن عبد الوارث ضمَّ الياء من « يُفضَّل » وفتح الضاد ، « بعضُها » برفع الضاد . وقال الفراء : من قرأ « تُسقى » بالتاء ذهب إلى تأنيث الزرع ، والجنّات ، والنخيل ، ومن كسر ذهب إلى النبت ، وذلك كلّه يُسقى بماء واحد ، وأُكُلُه مختلف حامِض وحُلو ، ففي هذا آية . قال المفسرون : الماء الواحد : ماء المطر ، والأُكُل : الثمر ، بعضه أكبر من بعض ، وبعضه أفضل من بعض ، وبعضه حامض وبعضه حلو ، إلى غير ذلك ، وفي هذا دليل على بطلان قول الطبائعيين ، لأنه لو كان حدوث الثمر على طبع الأرض والهواء ، والماء ، وجب أن يتفق مايحدث لاتفاق ما أوجب

الحدوث ، فلما وقع الاختلاف ، دلَّ على مدبّرٍ قادر ، (إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون) أنه لاتجوز العبادة إلا لمن يقدر على هذا .

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن تعجب) أي : من تكذيبهم وعبادتهم مالا ينفع ولا يضر بعدما رأوا من تأثير قدرة الله عز وجل في خلق الأشياء ، فانكارهم البعث موضعُ عجب . وقيل : المعنى : وإن تعجب بما وقفت عليه من القِطَع المتجاورات وقدرةِ ربك في ذلك ، فعجب جحدهم البعث ، لأنه قد بان لهم من خلق السموات والأرض مايدل على أن البعث أسهل في القدرة .

قوله تعالى : (أإذا كنا تراباً) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو « آيذا كنا تراباً آينَّا » جميعاً بالاستفهام ، غير أن أبا عمرو يمدّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة ، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدٍّ . وقرأ نافع « آيذا » مثل أبي عمرو ، واختُلف عنه في المَدِّ ، وقرأ « إنا لفي خلق » مكسورة على الخبر . وقرأ عاصم ، وحمزة « أإذا كُنَّا » « أإنا » بهمزتين فيهما . وقرأ ابن عامر « إذا كُنَّا تراباً » مكسورة الألِف من غير استفهام ، « أآإنا » يهمز ثم يَمُدُّ ثم يهمز على وزن : عاعِنَّا . وروي عن ابن عامر أيضاً « أإذا » بهمزتين لا ألِف بينهما .

والأغلال جمع غُلٍّ ، وفيها قولان : أحدهما : أنها أغلال يوم القيامة ، قاله الأكثرون . والثاني : أنها الأعمال التي هي أغلال ، قاله الزجاج .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ . وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾

قوله تعالى : (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في كفار مكة ، سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب ، استهزاءً منهم بذلك ، قاله ابن عباس .

والثاني : في مشركي العرب ، قاله قتادة .

والثالث : في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك ، قاله مقاتل .

وفي السيئة والحسنة قولان :

أحدهما : بالعذاب قبل العافية ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : بالشرّ قبل الخير ، قاله قتادة .

فأما (المَثُلات) فقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ عثمان ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والحسن، وابن أبي عبلة برفع الميم .

ثم في معناها قولان :

أحدها : أنها العقوبات ، قاله ابن عباس . وقال الزجاج : المعنى : قد تقدَّم

من العذاب ما هو مثله وما فيه نكال ، لو أنهم اتعظوا . وقال ابن الأنباري : المُثْلَةُ : العقوبة التي تُبقي في المعاقَب شيْئاً بتغيير بعض خَلْقِه ، من قولهم : مثَّل فلان بفلان ، إذا شان خَلْقَه بقَطْعِ أنفه أو أُذُنِهِ ، أو سملِ عينيه ونحو ذلك .

والثاني : أن المثلاتِ : الأمثالُ التي ضربها الله عز وجل لهم ، قاله مجاهد ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ابن عباس : لذو تجاوزٍ عن المشركين إذا آمنوا ، وإنه لشديد العقاب للمصرّين على الشرك . وقال مقاتل : لذو تجاوز عن شركهم في تأخير العذاب ، وإنه لشديد العقاب إذا عذّب .

فصل

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله : (إن الله لا يغفر أن يُشرك به) [النساء : ٤٨] ، والمحققون على أنها محكَمة [١] .

قوله تعالى : (لولا أُنزل عليه آية من ربه) « لولا » بمعنى هلاَّ ، والآية التي طلبوها ، مثلُ عصا موسى وناقة صالح . ولم يقنعوا [٢] بما رأوا ، فقال الله تعالى : (إنما أنت منذر) أي : مخوِّفٌ عذاب الله ، وليس لك من الآيات شيء .

وفي قوله : (ولكلِّ قوم هادٍ) ستة أقوال :

---

(١) وهو الصحيح ، فانه وإن كان معنى « الظلم » كما يتبادر من سياق الآية هو الشرك ، ولكن لا يترتب على هذا التفسير قبول دعوى النسخ ، ذلك أن الله عز وجل وصف نفسه في الآية بأنه « شديد العقاب » كما وصف نفسه بأنه « ذو مغفرة » ومعنى هذا أنه إنما يغفر لمن رجع عن الشرك ، وأناب إلى الله ، أما المصرون على الكفر ، فانه شديد العقاب لهم على كفرهم .

(٢) في نسخة : يقتنعوا .

أحدها : أن المراد بالهادي : اللهُ عز وجل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، والنخعي ، فيكون المعنى : إنما إليك الإنذار ، والله الهادي .

والثاني : أن الهادي : الداعي ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن الهادي : النبيُّ ﷺ ، قاله الحسن ، وعطاء ، وقتادة ، وابن زيد ، فالمعنى : ولكل قوم نبيٌّ ينذرهم .

والرابع : أن الهادي : رسولُ الله ﷺ أيضاً ، قاله عكرمة ، وأبو الضحى ، والمعنى : أنت منذرٌ ، وأنت هادٍ .

والخامس : أن الهادي : العملُ ، قاله أبو العالية .

والسادس : أن الهاديَ : القائدُ إلى الخير أو إلى الشر قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره ، فقال : « أنا المنذِر » ، وأومأ بيده إلى منكب عليٍّ ، فقال : « أنت الهادي يا عليُّ بك يُهتدى من بعدي » (١) . قال المصنف : وهذا من موضوعات الرافضة .

(١) ابن جرير الطبري ١٣/١٠٨ وفي سنده الحسن بن الحسين العوفي الكوفي ، قال أبو حاتم : لم يكن بصدوق عندهم ، وقال ابن عدي : لا يشبه حديثه حديث الثقات ، وقال ابن حبان : يأتي عن الأثبات بالملزقات ، ويروي المقلوبات . وقد ساق الذهبي هذا الحديث في ترجمته ، وعده من منكراته ، ثم قال : رواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن يحيى عن الحسن عن معاذ ، ومعاذ نكرة فلعل الآفة منه ، وقال في ترجمة معاذ بن مسلم : مجهول وله عن عطاء بن السائب خبر باطل سقناه في الحسن بن الحسين . وذكره ابن كثير ٢/٥٠٢ من رواية ابن جرير وقال : وهذا الحديث فيه نكارة شديدة .

ثم إن الله تعالى أخبرهم عن قدرته ، رداً على منكري البعث ، فقال : (الله يعلم ما تَحمِل كُلُّ أنثى) أي : من علقة أو مُضغة ، أو زائد أو ناقص ، أو ذكَرٍ أو أنثى ، أو واحد أو اثنين أو أكثر ، (وما تغيض الأرحام) أي : وما تنقص ، (وما تزداد) وفيه أربعة أقوال :

أحدها : ما تغيض : بالوَضع لأقل من تسعة أشهر ، وما تزداد : بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، والضحاك ، ومقاتل ، وابن قتيبة ، والزجاج .

والثاني : وما تغيض : بالسِّقْطِ الناقص ، وما تزداد : بالولد التامِّ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وعن الحسن كالقولين .

والثالث : وما تغيض : بإراقة الدم في الحَمْل حتى يتضاءل الولد ، وما تزداد : إذا أمسكَتِ الدمَ فيعظم الولد ، قاله مجاهد .

والرابع : ما تغيض الأرحام : مَنْ ولدته من قبل ، وما تزداد : مَنْ تلده من بعد ، روي عن قتادة ، والسُّدِّي .

قوله تعالى : (وكل شيء عنده بمقدار) أي : بقدر . قال أبو عبيدة : هو مِفعالٌ من القَدَرِ . قال ابن عباس : علِمَ كُلَّ شيء فقدَّره تقديراً .

قوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) قد شرحنا ذلك في (الأنعام : ٦) . و (الكبير) بمعنى : العظيم ، ومعناه : يعود إلى كبر قدره واستحقاقه صفات العلوِّ ، فهو أكبر من كُلِّ كبير ، لأن كل كبير يصغر بالإضافة إلى عظمته . ويقال : « الكبير » الذي كَبُر عن مشابهة المخلوقين .

فأمّا (المتعال) فقرأ ابن كثير « المتعالي » بياء في الوصل والوقف ، وكذلك

روى عبدالوارث عن أبي عمرو ، وأثبتها في الوقف دون الوصل ابنُ شَنَبُوذَ عن قُنبُل ، والباقون بغير ياء في الحالين . والمتعالي هو المتنزّه عن صفات المخلوقين ، قال الخطّابي : وقد يكون بمعنى العالي فوق خَلْقه . وروي عن الحسن أنه قال: المتعالي عمّا يقول المشركون .

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾

قوله تعالى : (سواء منكم) قال ابن الأنباري : ناب « سواء » عن مُستوٍ ، والمعنى : مستوٍ منكم (من أسرَّ القول) أي : أخفاه وكتمه (ومن جهر به) أعلنه وأظهره ، والمعنى : أن السرَّ والجهر سواء عنده .

قوله تعالى : (ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار) فيه قولان :

أحدهما : أن المستخفي : هو المستتر المتواري في ظلمة الليل ، والسارب بالنهار : الظاهر المتصرّف في حوائجه . يقال : سرَبتِ الإبل تَسرِب : إذا مضت في الأرض ظاهرةً ، وأنشدوا :

أرى كُلَّ قَوْمٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِم وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ[1]

(١) البيت من قصيدة في « المفضليات » : ٢٠٨ ، و « منتهى الطلب » : ٢٩٥ ، و « الحماسة » بشرح المرزوقي : ٧٢٨ ، و « اللسان » : سرب . للأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن عدي بن معاوية بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل ، وهو فارس العصا ، والعصا فرسه ، وهو شاعر جاهلي قديم قبل الاسلام بدهر . وقوله : فهو سارب ، أي : توجه للمرعى ، يريد أن الناس أقاموا في موضع لايجترئون على النقلة إلى غيره ، ونحن أعزاء نذهب حيث شئنا لايقدر أحد على منعنا .

أي : ذاهب . ومعنى الكلام : أن الظاهر والخفيّ عنده سواء ، هذا قول الأكثرين .
وروى العوفي عن ابن عباس : « ومَنْ هو مستخف » قال : صاحب ريبة بالليل ، فاذا خرج بالنهار ، أرى الناسَ أنه بريء من الإثم .

والثاني : أن المستخفيَ بالليل : الظاهر ، والساربَ بالنهار : المستتر ، يقال : انسرب الوحش : إذا دخل في كِناسِهِ ، وهذا قول الأخفش ، وذكره قطرب أيضاً ، واحتج له ابن جرير بقولهم : خَفَيْتُ الشيء : إذا أظهرتَه ، ومنه (أكاد أَخفيها) [طه : ١٥] بفتح الألف ، أي : أُظهرها ، قال : وإنما قيل للمتواري : ساربٌ ، لأنه صار في السرَبِ مستخفياً .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لايُغَيِّرُ مابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مابِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ ﴾

قوله تعالى : (له معقبات) في هاء « له » أربعة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني : إلى الملِك من ملوك الدنيا ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثالث : إلى الإنسان ، قاله الزجاج .

والرابع : إلى الله تعالى ، ذكره ابن جرير ، وأبو سليمان الدمشقي .

وفي المعقّبات قولان :

أحدها : أنها الملائكة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة في آخرين . قال الزجاج : والمعنى : للانسان ملائكة يعتقبون ، يأتي بعضهم بِعَقِب بعض . وقال أكثر المفسرين : هم الحَفَظَة ، اثنان بالنهار

واثنان بالليل ، إذا مضى فريق ، خلف بعده فريق ، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر [١] . وقال قوم ، منهم ابن زيد : هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ ، عزم عامر بن الطُّفَيْل وأربد بن قيس على قتله ، فمنعه الله منهما ، وأنزل هذه الآية .

والقول الثاني : أن المعقِّبات حُرَّاس الملوك الذين يتعاقبون الحَرْس ، وهذا مروي عن ابن عباس ، وعكرمة . وقال الضحّاك : هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى .

وفي قوله : (يحفظونه من أمر الله) سبعة أقوال :

أحدها : يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون ، هذا على قول من قال : هي في المشركين المحترسين من أمر الله .

والثاني : أن المعنى : حِفْظُهم له من أمر الله ، قاله ابن عباس ، وابن جُبير ، فيكون تقدير الكلام : هذا الحفظ مما أمرهم الله به .

والثالث : يحفظونه بأمر الله ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة . قال اللغويون : والباء تقوم مقام « مِنْ » ، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض .

---

(١) روى البخاري ٢/٢٨ ، ومسلم ١/٤٣٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » . قال ابن كثير ٢/٥٠٣ أي : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل ، وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وآخر من قدامه . فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان .

والرابع : يحفظونه من الجن ، قاله مجاهد ، والنخعي . وقال كعب : لولا أن الله تعالى وكّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعَوْرَاتِكم ، إذاً لتخطّفتْكم الجن . وقال مجاهد : مامن عَبْدٍ إلا ومَلَكٌ موكّل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوامّ ، فاذا أراده شيء ، قال : وراءك وراءك ، إلا شيء قد قضي له أن يصيبه . وقال أبو مجلز : جاء رجل من مُراد إلى عليّ عليه السلام ، فقال : احترس ، فان ناساً من مُراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملَكين يحفظانه مما لم يقدَّر ، فاذا جاء القدر خلّيا بينه وبينه ، وإن الأجل جُنَّة حصينة .

والخامس : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، والمعنى : له معقّبات من أمر الله يحفظونه ، قاله أبو صالح ، والفراء .

والسادس : يحفظونه لأمر الله فيه حتى يُسْلِموه إلى ماقدِّر له ، ذكره أبو سليمان الدمشقي ، واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال : يحفظونه من أمر الله ، حتى إذا جاء القَدَر خلّوا عنه . وقال عكرمة : يحفظونه لأمر الله .

والسابع : يحفظون عليه الحسنات والسيئات ، قاله ابن جُريج . قال الأخفش : وإنما أنّث المعقّبات لكثرة ذلك منها ، نحو النسّابة ، والعلاّمة ؛ ثم ذكّر في قوله : « يحفظونه » لأن المعنى مذكّر .

قوله تعالى : (إن الله لايغيّر مابقوم) أي : لايسلبهم نِعْمَهُ (حتى يغيّروا مابأنفسهم) فيعملوا بمعاصيه . قال مقاتل : ويعني بذلك كفار مكة .

قوله تعالى : (وإذا أراد الله بقوم سوءاً) فيه قولان :

أحدهما : أنه العذاب . والثاني : البلاء .

قوله تعالى : (فلا مَرَدَّ له) أي : لايردُّه شيء ولا تنفعه المعقّبات .

(وما لهم من دونه) يعني : من دون الله (من والٍ) أي : من وليٍّ يدفع عنهم العذاب والبلاء .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾

قوله تعالى : (هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً) فيه أربعة أقوال :

أحدها : خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال قتادة : فالمسافر يخاف أذاه ومشقّته والمقيم يرجو منفعته .

والثاني : خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : خوفاً للبلد الذي يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يرجو الانتفاع به ، ذكره الزجاج .

والرابع : خوفاً من العقاب وطمعاً في الثواب ، ذكره الماوردي . وكان ابن الزبير إذا سمع صوت الرعد يقول : إن هذا وعيد شديد لأهل الأرض .

قوله تعالى : (وينشئ السحاب الثقال) أي : ويخلق السحاب الثقال بالماء . قال الفراء : السحاب ، وإن كان لفظه واحداً ، فانه جمع واحدته سحابة ، جُعل نعته على الجمع ، كما قال : (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) [الرحمن : ٧٦] ولم يقل : أخضرَ ، ولا حسنٍ .

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾

قوله تعالى : (ويسبِّح الرعد بحمده) فيه قولان :

أحدها : أنه اسم المَلَك الذي يزجر السحاب ، وصوته : تسبيحه ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه الصوت المسموع . وإنما خُص الرعد بالتسبيح ، لأنه من أعظم الأصوات . قال ابن الأنباري : وإخباره عن الصوت بالتسبيح مجاز ، كما يقول القائل : قد غمَّني كلامك .

قوله تعالى : (والملائكة من خيفته) في هاء الكناية قولان :

أحدها : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، وهو الأظهر . قال ابن عباس : يخافون الله ، وليس كخوف ابن آدم ، لايعرف أحدهم مَنْ على يمينه ومَنْ على يساره ، ولا يَشْغَله عن عبادة الله شيء .

والثاني : أنها ترجع إلى الرعد ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في أربد بن قيس ، وعامر ابن الطُفَيل ، أتيا إلى رسول الله ﷺ يريدان الفتك به ، فقال : « اللهم اكفنيهما بما شئت » ، فأما أربد فأرسل الله عليه صاعقة في يوم صائف صاحٍ فأحرقته ، وأما عامر فأصابته غُدّة فهلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، هذا قول الأكثرين ، منهم ابن جريج [1] ، وأربد هو أخو لبيد بن ربيعة لأمه .

---

(١) « الطبري » ١٢٦/١٣ بنحوه ، عن ابن جريج ، والواحدي في أسباب النزول ١٥٦ ، ١٥٧ عن ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جريج وابن زيد ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥٢/٤ ، وزاد نسبته لأبي الشيخ عن ابن جريج ، وذكره ابن كثير ٥٠٦/٢ من رواية الطبراني مطولاً بنحوه ، وفي سنده عبد العزيز بن عمران الزهري المدني قال البخاري : لايكتب حديثه ، وقال النسائي وغيره : متروك .

والثاني : أنها نزلت في رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : حدِّثني يا محمد عن إلٰهك ، أياقوت هو ؟ أذهبٌ هو ؟ فنزلت على السائل صاعقة فأحرقته ، ونزلت هذه الآية ، قاله عليّ عليه السلام [١] . قال مجاهد : وكان يهودياً . وقال أنس بن مالك : بعث رسول الله ﷺ إلى بعض فراعنة العرب يدعوه إلى الله تعالى ، فقال للرسول : وما الله ، أمِن ذهب هو ، أم مِن فضة ، أم مِن نحاس ؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع إليه فادعه » ، فرجع ، فأعاد عليه الكلام ، إلى أن رجع إليه ثالثة ، فبينما هما يتراجعان الكلام ، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه ، فرعدت ووقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، ونزلت هذه الآية [٢] .

والثالث : أنها في رجل أنكر القرآن وكذّب رسولَ الله ﷺ فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته ، ونزلت هذه الآية ، قاله قتادة [٣] .

قوله تعالى : (وهم يجادلون في الله) فيه قولان :

أحدهما : يكذِّبون بعظَمة الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : يخاصِمون في الله ، حيث قال قائلهم : أهو من ذهب ، أم من فضة ؟ على ما تقدم بيانه .

قوله تعالى : (وهو شديد المحال) فيه خمسة أقوال :

---

(١) « الطبري » ١٣/١٢٥ .

(٢) « الطبري » ١٣/١٢٥ ، والواحدي في « أسباب النزول » ١٥٦ ، وفي « سنده » علي بن أبي سارة الشيباني قال أبو دواد : تركوا حديثه ، وقال البخاري : في حديثه نظر ، وقال أبو حاتم : ضعيف ، وذكره الهيثمي في « المجمع » ٧/٤٢ ، وقال : رواه أبو يعلى والبزار ، والطبراني في « الأوسط » ، ورجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة ، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف .

(٣) « الطبري » ١٣/١٢٦ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٤/٥٢ وزاد نسبته للخرائطي .

أحدها : شديد الأخذ ، قاله عليّ عليه السلام .

والثاني : شديد المكر ، شديد العداوة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : شديد العقوبة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وقال مجاهد في رواية عنه : شديد الانتقام . وقال أبو عبيدة : شديد العقوبة والمكر والنكال ، وأنشد للأعشى :

فَرْعُ نَبْعٍ يهتزُّ في غُصُن المجـ ـدِ، غزيرُ النَّدى ، شديدُ المِحال

إن يُعاقِب يكُنْ غَراماً وإن يُعْـ ـطِ جَزيلاً فانَّهُ لا يُبالي (١)

وقال ابن قتيبة : شديد المكر واليد ، وأصل المحال : الحيلة .

والرابع : شديد القوّة ، قاله مجاهد . قال الزجاج : يقال : ما حلتُه مِحالاً : إذا قاويته حتى تبيَّن له أيكما الأشد ، والمَحَل في اللغة : الشدة .

والخامس : شديد الحقد ، قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق ، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري ، والنقاش ، ولايجوز هذا في صفات الله تعالى . قال النقاش : هذا قول مُنكرٌ عند أهل الخبر والنظر في اللغة لا يجوز أن تكون هذه صفةً من صفات الله عز وجل . والذي أختاره في هذا ما قاله عليّ عليه السلام : شديد الأخذ ، يعني : أنه إذا أخذ الكافر والظالم لم يفلته من عقوباته .

---

(١) ديوانه : ٩،٧ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٢٥ ، و « السمط » : ٩٠٧ ، و « القرطبي » : ٩/٢٩٩ ، و « اللسان » و « التاج » : محل . وقال ابن جرير بعد أن أورد البيت الأول : هكذا كان ينشده معمر بن المثنى فيما حُدثت عن علي بن المغيرة عنه ، وأما الرواة بعد فانهم ينشدون :

فرع فرعٍ يهتزُّ في غصن المجـ ـد كثير النّدى عظيم المحـال

وفسر ذلك معمر بن المثنى ، وزعم أنه عنى به : العقوبة والمكر والنكال .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

قوله تعالى : (له دعوة الحق) فيه قولان :

أحدها : أنها كلمة التوحيد، وهي : لا إله إلا الله ، قاله عليّ ، وابن عباس ، والجمهور ، فالمعنى : له من خلقه الدعوة الحق ، فأضيفت الدعوة إلى الحق ، لاختلاف اللفظين .

والثاني : أن الله عز وجل هو الحق ، فمن دعاه دعا الحق ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (والذين يدعون من دونه) يعني : الأصنام يدعونها آلهة . قال أبو عبيدة : المعنى : والذين يدعون غيره من دونه .

قوله تعالى : (لا يستجيبون لهم) أي : لا يجيبونهم .

قوله تعالى : (إلا كباسط كفَّيه إلى الماء) فيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه، قاله عليّ عليه السلام ، وعطاء .

والثاني : أنه الرجل العطشان قد وضع كفَّيه في الماء وهو لا يرفعهما ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : أنه العطشان يرى خياله في الماء من بعيد ، فهو يريد أن يتناوله فلا يقدر عليه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أنه الرجل يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً ، قاله مجاهد .

والخامس : أنه الباسط كفَّيه ليقبض على الماء حتى يؤدِّيه إلى فيه ، لا يتم

له ذلك ، والعرب تقول : من طلب مالايجد فهو القابض على الماء ، وأنشدوا :

وإنّي وإيّاكم وشَوْقاً إليكُمُ كقابضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أنامِلُهْ (١)

أي : لم تحمله ، والوَسْق : الحِمْلُ ، وقال آخر :

فأصبحتُ مما كان بيْني وبيْنَها مِنَ الوُدِّ مِثْلَ القابِضِ الماءَ باليَدِ (٢)

هذا قول أبي عبيدة ، وابن قتيبة .

قوله تعالى : (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) فيه قولان :

أحدها : وما دعاء الكافرين ربَّهم إلا في ضلال ، لأن أصواتهم محجوبة عن الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : وما عبادة الكافرين الأصنامَ إلا في خسران وباطل ، قاله مقاتل .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

قوله تعالى : (ولله يسجد من في السموات) أي : من الملائكة ، ومَن في الأرض من المؤمنين (طوعاً وكرهاً) .

وفي معنى سجود الساجدين كَرهاً ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه سجود مَنْ دخل في الإسلام بالسيف ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه سجود ظِلِّ الكافر ، قاله مقاتل .

---

(١) البيت لضابىء بن الحارث البرجمي ، و « الطبري » ١٣/١٢٩ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٢٧ ، و « اللسان » وسق ، و « الخزانة » ٤/٨٠ .

(٢) البيت غير منسوب في « الطبري » ١٣/١٢٩ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٢٧ ، و « القرطبي » ٩/٣٠٠ .

والثالث : أن سجود الكاره تذلّله وانقياده لما يريده الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر .

قوله تعالى : (وظلالهم) أي : وتسجد ظلال الساجدين طوعاً وكَرهاً ، وسجودُها : تمايلها من جانب إلى جانب ، وانقيادها للتسخير بالطُّول والقِصَر . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : الظِّل ماكان بالغَدَوات قبل انبساط الشمس ، والفيء ماكان بعد انصراف الشمس ، وإنما سُمّي فيئاً ، لأنه فاء ، أي : رجع إلى الحال التي كان عليها قبل أن تنبسط الشمس ، وماكان سوى ذلك فهو ظِلٌّ ، نحو ظِلِّ الإنسان ، وظل الجدار ، وظل الثوب ، وظل الشجرة ، قال حُمَيد ابن ثور :

فلا الظِّلُّ من بَرْد الضُّحى تَستَطِيعُهُ ولا الفَيء من بَرْدِ العَشِيِّ تَذوق[1]

وقال لبيد :

بينما الظِّلُّ ظَليلٌ مُونِقٌ طَلَعَتْ شمسٌ عليه فاضمَحَلّ[2]

وقال آخر :

أيا أثلاتِ القاعِ مِنْ بَطْنِ تُوضِحٍ حَنِينِي إلى أظلالِكُنَّ طَويلُ[3]

وقيل : إن الكافر يسجد لغير الله ، وظله يسجد لله . وقد شرحنا معنى الغُدُوِّ والآصال في (الأعراف : ٧) .

---

(١) ديوانه : ٤٠ ، و « اللسان » فيأ .

(٢) « ديوانه » ١٨١ ، وروايته فيه :

طَالَ قَرْنُ الشَّمْسِ لَمَّا طَلَعَتْ فإذا ما حَضَرَ اللَّيلُ اضمَحَلّ

(٣) البيت لمجنون ليلى ديوانه : ٢٢١ ، ولبعض الأعراب في « الزهرة » ٢٦٦ ، وليحيى ابن أبي طالب في « الأمالي » ١/١٢٣ ، و « مصارع العشاق » : ١/٢٩٤ ، و « معجم البلدان » : قرقرى .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ ﴾

قوله تعالى : (قل من رب السموات والأرض قل الله) إنما جاء السؤال والجواب من جهة ، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء ، فلما لم ينكروا ، كان كأنهم أجابوا . ثم ألزمهم الحُجة بقوله : (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) يعني : الأصنام توليتموهم فعبدتموهم وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فكيف لغيرهم ؟! ثم ضرب مثلاً للذي يعبد الأصنام والذي يعبد الله بقوله : (قل هل يستوي الأعمى والبصير) يعني المشرك والمؤمن (أم هل تستوي الظلمات والنور) وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « تستوي » بالتاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « يستوي » بالياء . قال أبو علي : التأنيث حسنٌ ، لأنه فعلُ مؤنثٍ ، والتذكير سائغ ، لأنه تأنيث غير حقيقي . ويعني بالظلمات والنور : الشركَ والإيمان . (أم جعلوا لله شركاء) قال ابن الأنباري : معناه : أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء ؟ وهذا استفهام إنكار ، والمعنى : ليس الأمر على هذا ، بل إذا فكَّروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق ، وغيره لا يخلق شيئاً .

قوله تعالى : (قل الله خالق كل شيء) قال الزجاج : قُل ذلك وبيِّنه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء ، وقد ذكرنا في (يوسف : ٣٩) معنى الواحد القهار .

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

قوله تعالى : (أنزل من السماء ماءً) يعني : المطر (فسالت أودية) وهي جمع وادٍ ، وهو كل منفرَج بين جبلين يجتمع إليه ماء المطر فيسيل (بقدرها) أي : بمبلغ ما تحمل ، فان صَغُر الوادي ، قلّ الماء ، وإن هو اتسع ، كَثُر . وقرأ الحسن ، وابن جبير ، وأبو العالية ، وأيوب ، وابن يعمر ، وأبو حاتم عن يعقوب : « بقَدْرِها » باسكان الدال . وقوله : « فسالت أودية » توسُّع في الكلام ، والمعنى : سالت مياهها ، فحُذف المضاف ، وكذلك قوله : « بقدَرِها » أي : بقدر مياهها . (فاحتمل السيل زَبَداً رابياً) أي : عالياً فوق الماء ، فهذا مثل ضربه الله عز وجل . ثم ضرب مثلاً آخر ، فقال : (ومما توقِدون عليه في النار) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « توقِدون عليه » بالتاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بالياء . قال أبو علي : من قرأ بالتاء ، فلِما قبله من الخطاب ، وهو قوله : « أفاتخذتم » ، ويجوز أن يكون خطاباً عامّاً للكافّة ، ومن قرأ بالياء فلأنّ ذِكر الغَيبة قد تقدم في قوله : « أم جعلوا لله شركاء » .

ويعني بقوله : (ومما توقدون عليه) ما يدخل إلى النار فيُذاب من الجواهر (ابتغاء حِلية) يعني : الذهب والفضة (أو متاع) يعني : الحديد والصُّفْر والنحاس والرصاص تُتخذ منه الأواني والأشياء التي يُنتفع بها ، (زَبَدٌ مثله) أي : له زَبَد إذا أُذيب مثل زَبَد السَّيل ، فهذا مثل آخر .

وفيما ضُرب له هذان المثلان ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه القرآن ، شُبِّه نزوله من السماء بالماء ، وشُبِّه قلوبُ العِباد بالأودية تحمل منه على قدر اليقين والشك ، والعقل والجهل ، فيستكنّ فيها ، فينتفع المؤمن بما في قلبه كانتفاع الأرض التي يستقر فيها المطر ، ولا ينتفع الكافر بالقرآن لمكان شَكِّه وكفره ، فيكون ما حصل عنده من القرآن كالزبَد وكخبَث الحديد لا يُنتفع به .

والثاني : أنه الحق والباطل ، فالحق شُبِّه بالماء الباقي الصافي ، والباطل مشبَّه بالزَّبد الذاهب ، فهو وإن علا على الماء فانه سيمَّحِق ، كذلك الباطل ، وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال ، فان الله سيُبطله .

والثالث : أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فمَثَل المؤمن واعتقاده وعمله كالماء المنتفَع به ، ومثَل الكافر واعتقاده وعمله كالزبَد .

قوله تعالى : (كذلك) أي : كما ذُكر هذا ، يضرب الله مثَل الحق والباطل . وقال أبو عبيدة : كذلك يمثّل الله الحق ويمثّل الباطل .

فأما الجُفاء ، فقال ابن قتيبة : هو ما رمى به الوادي إلى جنَباته ، يقال : أجفأت القِدرُ بزَبَدها : إذا ألقته عنها . قال ابن فارس : الجُفاء : ما نفاه السيل ، ومنه اشتقاق الجَفاء . وقال ابن الأنباري : « جُفاءً » أي : باليًا متفرقًا . قال ابن عباس : إذا مَسَّ الزَّبَد لم يكن شيئًا .

قوله تعالى : (وأما ماينفع الناس) من الماء والجواهر التي زال زَبَدها (فيمكث في الأرض) فيُنتفع به (كذلك) يبقى الحق لأهله .

قوله تعالى : (للذين استجابوا لربهم) يعني : المؤمنين ، (والذين لم يستجيبوا له) يعني : الكفار . قال أبو عبيدة : استجبت لك واستجبتك سواء ، وهو بمعنى : أجبت .

وفي الحُسنى ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الجنة ، قاله ابن عباس ، والجمهور . والثاني : أنها الحياة والرزق ، قاله مجاهد . والثالث : كل خير من الجنة فما دونها ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : (لافتدَوْا به) أي : لجعلوه فداء أنفسهم من العذاب ، ولا يُقبل منهم . وفي سوء الحساب ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها المناقشة بالأعمال ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس . وقال النخعي : هو أن يحاسَب بذنبه كله ، فلا يُغفر له منه شيء .

والثاني : أن لاتُقبل منهم حسنة ، ولا يُتجاوز لهم عن سيئة .

والثالث : أنه التوبيخ والتقريع عند الحساب .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قال ابن عباس : نزلت في حمزة ، وأبي جهل . (إنما يتذكر) أي : إنما يتّعظ ذوو العقول . والتذكُّر : الاتعاظ .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾

قوله تعالى : (الذين يوفون بعهد الله) في هذا العهد قولان :

أحدهما : أنه ماعاهدهم عليه حين استخرجهم من ظهر آدم .

والثاني : ما أمرهم به وفرضه عليهم . وفي الذي أمر الله به ، عز وجل ، أن يوصل ، ثلاثة أقوال قد نسبناها إلى قائلها في أول سورة (البقرة : ٢٧) ، وقد ذكرنا سوء الحساب آنفاً .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

قوله تعالى : (والذين صبروا) أي : على ما أُمروا به (ابتغاء وجه ربهم) أي : طلباً لرضاه (وأقاموا الصلاة) أتمّوها (وأنفقوا مما رزقناهم) من الأموال في طاعة الله . قال ابن عباس : يريد بالصلاة : الصلوات الخمس ، وبالإنفاق : الزكاة .

قوله تعالى : (ويدرؤون) أي : يدفعون (بالحسنة السيئة) . وفي المراد بها خمسة أقوال :

أحدها : يدفعون بالعمل الصالح الشرَّ من العمل ، قاله ابن عباس . والثاني : يدفعون بالمعروف المنكر ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : بالعفو الظلمَ ، قاله

جُوَيبر . والرابع : بالحلم السفهَ ، كأنهم إذا سُفِه عليهم حَلـُموا ، قاله ابن قتيبة .

والخامس : بالتوبة الذنبَ ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : (أولئك لهم عقبى الدار) قال ابن عباس : يريد : عقباهم الجنة ، أي : تصير الجنة آخر أمرهم .

قوله تعالى : (ومن صلح) وقرأ ابن أبي عبلة : « صلـُح » بضم اللام . ومعنى « صلح » : آمن ، وذلك أن الله تعالى ألحق بالمؤمن أهله المؤمنين إكراماً له ، لتقرَّ عينُه بهم . (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) قال ابن عباس : بالتحية من الله والتحفة والهدايا .

قوله تعالى : (سلام عليكم) قال الزجاج : أُضمر القول هاهنا ، لأن في الكلام دليلاً عليه . وفي هذا السلام قولان :

أحدهما : أنه التحية المعروفة ، يدخل الملَك فيسلـِّم وينصرف . قال ابن الأنباري : وفي قول المسلـِّم : سلام عليكم ، قولان : أحدهما : أن السلام : اللهُ عز وجل ، والمعنى : الله عليكم ، أي : على حفظكم . والثاني : أن المعنى : السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة .

والثاني : أن معناه : إنما سلـَّمكم الله تعالى من أهوال القيامة وشرِّها بصبركم في الدنيا .

وفيما صبروا عليه خمسة أقوال :

أحدها : أنه أمر الله ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : فضول الدنيـا ، قاله الحسن . والثالث : الدِّين . والرابع : الفقر ، رويا عن أبي عمران الجَوني . والخامس : أنه فقد المحبوب ، قاله ابن زيد .

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

قوله تعالى : (والذين ينقضون عهد الله) قد سبق تفسيره في سورة (البقرة : ٢٧) . وقال مقاتل : نزلت في كفار أهل الكتاب .

قوله تعالى : (أولئك لهم اللعنة) أي : عليهم .

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

قوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أي : يوسّع على من يشاء (ويقدر) أي : يضيّق . (وفرحوا بالحياة الدنيا) قال ابن عباس : يريد مشركي مكة ، فرحوا بما نالوا من الدنيا فطغَوْا وكذّبوا الرسل .

قوله تعالى : (وما الحياة الدنيا في الآخرة) أي : بالقياس إليها (إلا متاع) أي : كالشيء الذي يُتمتع به ، ثم يفنى [١] .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا) نزلت في مشركي مكة حين طلبوا من رسول الله ﷺ مثل آيات الأنبياء . (قل إن الله يُضل من يشاء) أي : يردُّه عن الهدى كما ردَّكم بعدما أُنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها . (ويهدي

(١) روى الامام أحمد في « المسند » ٢٢٩/٤ عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « ماالدنيا في الآخرة إلا كمثل مايجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بم يرجع » وأشار إلى السبابة ، ورواه مسلم في « صحيحه » ٢١٩٣/٤ .

إليه من أناب) أي : رجع إلى الحق ، وإنما يرجع إلى الحق من شاء اللهُ رجوعه ، فكأنه قال : ويهدي من يشاء .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾

قوله تعالى : (الذين آمنوا) هذا بدل من قوله : (أناب) ، والمعنى : يهدي الذين آمنوا ، (وتطمئن قلوبهم بذِكر الله) في هذا الذِّكر قولان :

أحدها : أنه القرآن . والثاني : ذِكر الله على الإطلاق .

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان :

أحدها : أنها الحُب له والأُنس به . والثاني : السكون إليه من غير شك ، بخلاف الذين إذا ذُكر الله اشمأزت قلوبهم .

قوله تعالى : (ألا بذِكر الله) قال الزجاج : « ألا » حرف تنبيه وابتداء ، والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين ، لأن الكافر غير مطمئن القلب .

قوله تعالى : (طوبى لهم) فيه ثمانية أقوال :

أحدها : أنه اسم شجرة في الجنة . روى أبو سعيد الخدري « عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما طوبى ؟ قال : شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » [١] ، وقال أبو هريرة : طوبى : شجرة في الجنة ، يقول الله عز وجل لها : تفتَّقي لعبدي عما شاء ، فتتفتق له عن

---

(١) « الطبري » ١٣/١٤٩ ، ورواه الامام أحمد في « مسنده » ، وابن حبان من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، وخرجه السيوطي في « الدر » ٤/٥٩ وزاد نسبته لأبي يعلى ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والخطيب في « تاريخه » .

الخيل بسروجها ولُجمها ،وعن الإبل بأزمّتها ، وعمّا شاء من الكسوة [1] . وقال شهر بن حوشب : طوبى : شجرة في الجنة ، كل شجر الجنة منها أغصانها ، من وراء سور الجنة ، وهذا مذهب عطية ، وشمر بن عطية ، ومغيث بن سُمَي ، وأبي صالح .

والثاني : أنه اسم الجنة بالحبشية ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال المصنف :وقرأت على شيخنا أبي منصور عن سعيد بن مَسْجوح قال : طوبى:اسم الجنة بالهندية ، وممن ذهب إلى أنه اسم الجنة عكرمة ، وعن مجاهد كالقولين .

والثالث : أن معنى طوبى لهم : فرح وقُرَّة عين لهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : أن معناه : نُعمى لهم ، قاله عكرمة في رواية ، وفي رواية أخرى عنه : نِعم مالهم .

والخامس : غبطة لهم ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

والسادس : أن معناه : خير لهم ، قاله النخعي في رواية ، وفي أخرى عنه قال : الخير والكرامة اللّذان أعطاهم الله . وروى معمر عن قتادة قال : يقول الرجل للرجل : طوبى لك ، أي : أصبتَ خيراً ، وهي كلمة عربية .

والسابع : حسنى لهم ، رواه سعيد عن قتادة عن الحسن .

والثامن : أن المعنى : العيش الطيِّب لهم . و « طوبى » عند النحويين : فُعلى من الطيب ، هذا قول الزجاج . وقال ابن الأنباري : تأويلها : الحال

(١) « الطبري » ١٤٧/١٣ من حديث شهر بن حوشب عن أبي هريرة . وذكره ابن كثير في « التفسير » ٥١٣/٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥٩/٤ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

المستطابة ، والخلّة المستلذّة ، وأصلها : « طُيْبى » فصارت الياء واواً لسكونها وانضمام ما قبلها كما صارت في « مُوقن » والأصل فيه « مُيْقن » لأنه مأخوذ من اليقين ، فغلبت الضمة فيه الياء فجعلتها واواً .

قوله تعالى : (وحسن مآب) المآب : المرجع والمنقلَب .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

قوله تعالى : (كذلك أرسلناك) أي : كما أرسلنا الأنبياء قبلك .

قوله تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن) في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن النبي ﷺ لما قال لكفار قريش : اسجدوا للرحمن ، قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت هذه الآية ، وقيل لهم : إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي ، هذا قول الضحاك عن ابن عباس [1] .

والثاني : أنهم لما أرادوا كتاب الصلح يوم الحديبية ، كتب عليّ عليه السلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة ، فنزلت هذه الآية [2] ، قاله قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل .

والثالث : أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحِجْر يدعو ، وأبو جهل يستمع إليه وهو يقول : يارحمن ، فولى مُدْبراً إلى المشركين فقال : إن محمداً كان ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ! فنزلت هذه الآية ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : (وإليه متاب) قال أبو عبيدة : هو مصدر تُبت إليه .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٥٧ بدون سند .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي ١٥٧ بدون سند . وانظر ابن كثير ٢/٥١٥ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

قوله تعالى : (ولو أن قرآنا سُيِّرت به الجبال) سبب نزولها أن مشركي قريش قالوا للنبي ﷺ : لو وسَّعت لنا أودية مكة بالقرآن ، وسيَّرت جبالها فاحترثناها ، وأحييت من مات منا ، فنزلت هذه الآية [1] ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال الزبير بن العوّام : قالت قريش لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يسيِّر عنا هذه الجبال ويفجِّر لنا الأرض أنهاراً فنزرع ، أو يحيي لنا موتانا فنكلمهم ، أو يصيِّر هذه الصخرة ذهباً فتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فقد كان للأنبياء آيات ، فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون) [الاسراء : ٥٩] . ومعنى قوله : (أو قطِّعت به الأرض) أي : شقِّقت فجُعلت أنهاراً ، (أو كلِّم به الموتى) أي : أُحيوا حتى كلَّموا .

واختلفوا في جواب « لو » على قولين :

أحدها : أنه محذوف . وفي تقدير الكلام قولان : أحدهما : أن تقديره : لكان هذا القرآن ، ذكره الفراء ، وابن قتيبة . قال قتادة : لو فُعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفُعل بقرآنكم . والثاني : أن تقديره : لو كان هذا كلّه لما آمنوا .

---

(١) « الطبري » ١٥١/١٣ وسنده ضعيف ، وأورده ابن كثير ٥١٥/٢ من رواية ابن أبي حاتم ، وفي سنده بشر بن عمارة ، وعطية العوفي ، وهما ضعيفان .

ودليله قوله تعالى : (ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة...) إلى آخر الآية [الانعام : ١١١] ، قاله الزجاج .

والثاني : أن جواب « لو » مقدَّم ، والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن ، ولو أنزلنا عليهم ماسألوا ، ذكره الفراء أيضاً .

قوله تعالى : (بل لله الأمر جميعاً) أي : لو شاء أن يؤمنوا لآمنوا ، وإذا لم يشأْ ، لم ينفع ما اقترحوا من الآيات . ثم أكد ذلك بقوله : (أفلم ييأس الذين آمنوا) وفيه أربعة أقوال :

أحدها : أفلم يتبيَّن ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وروى عنه عكرمة أنه كان يقرؤها كذلك ، ويقول : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس ، وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وأبي مالك ، ومقاتل .

والثاني : أفلم يعلم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . وقال ابن قتيبة : ويقال : هي لغة للنَّخَع[1] « ييأس » بمعنى « يعلم » ، قال الشاعر :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي
أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابنُ فَارِسَ زَهْدَمِ[2]

وإنما وقع اليأس في مكان العِلم ، لأن في علمك الشيء وتيقّنك به يأسك من غيره .

---

(١) قال الطبري : ١٣/١٥٣ : وذُكر عن ابن الكلبي أن ذلك لغة لحيّ من النخع يقال لهم : وَهْبيل .

(٢) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعي في « الطبري » ١٣/١٥٣ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٣٢ ، و « القرطبي » ٩/٣٢٠ ، و « اللسان » . و « التاج » : يئس ، و « شواهد الكشاف » ٢٦٨ ، وانظر الاختلاف في عزو البيت في « اللسان » ، و « التاج » : يئس . وزهدم : فرس لعوف جد سحيم .

والثالث : أن المعنى : قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا واحداً ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، قاله أبو العالية.

والرابع : أفلم ييأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون ، قاله الكسائي . وقال الزجاج : المعنى عندي : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون ، لأنه لو شاء لهدى الناس جميعاً .

قوله تعالى : (ولا يزال الذين كفروا) فيهم قولان :

أحدها : أنهم جميع الكفار ، قاله ابن السائب . والثاني : كفار مكة ، قاله مقاتل .

فأما القارعة ، فقال الزجاج : هي في اللغة : النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم .

وفي المراد بها هاهنا قولان :

أحدها : أنها عذاب من السماء ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : السرايا والطلائع التي كان يُنفذها رسول الله ﷺ ، قاله عكرمة .

وفي قوله : (أو تَحُلُّ قريباً من دارهم) قولان :

أحدها : أنه رسول الله ﷺ ، فالمعنى : أو تَحُلُّ أنت يا محمد ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة .

والثاني : أنها القارعة ، قاله الحسن .

وفي قوله : (حتى يأتيَ وعد الله) قولان :

أحدها : فتح مكة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : القيامة ، قاله الحسن .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ

مِنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

قوله تعالى : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعني : نفسه عز وجل . ومعنى القيام هاهنا : التولِّي لأمور خَلقه ، والتدبير لأرزاقهم وآجالهم ، وإحصاء أعمالهم للجزاء ، والمعنى : أفمن هو مجازي كلّ نفس بما كسبت ، يثيبها إذا أحسنت ، ويأخذها بما جنت ، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام ؟ قال الفراء : فتُرك جوابه ، لأن المعنى معلوم ، وقد بيَّنه بعد هذا بقوله : (وجعلوا لله شركاء) كأنه قيل : كشركائهم .

قوله تعالى : (قل سمُّوهم) أي : بما يستحقونه من الصفات وإضافةِ الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله كما يُسمى الله بالخالق ، والرازق ، والمحيي ، والمميت ، ولو سمَّوهم بشيء من هذا لكذبوا .

قوله تعالى : (أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض) هذا استفهام منقطع مما قبله ، والمعنى : فإن سمَّوهم بصفات الله ، فقل لهم : أتنبئونه ، أي : أتخبرونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلم لنفسه شريكاً ، ولو كان لَعَلِمَه ؟

قوله تعالى : (أم بظاهر من القول) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أم بظن من القول ، قاله مجاهد . والثاني : بباطل ، قاله قتادة . والثالث : بكلام لا أصل له ولا حقيقة .

قوله تعالى : (بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم) قال ابن عباس : زين لهم الشيطان الكفر .

قوله تعالى : (وصدّوا عن السبيل) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « وَصَدُّوا » بفتح الصاد ، ومثله في (حم المؤمن) [غافر : ٣٧] . وقرأ

عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « وصُدُّوا » بالضم فيهما . فمن فتح ، أراد : صَدُّوا المسلمين ، إما عن الإيمان ، أو عن البيت الحرام . ومن ضم ، أراد : صدهم الله عن سبيل الهدى .

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ﴾

قوله تعالى : (لهم عذاب في الحياة الدنيا) وهو القتل ، والأسر ، والسقم ، فهو لهم في الدنيا عذاب ، وللمؤمنين كفَّارة ، (ولعذاب الآخرة أشق) أي : أشد (وما لهم من الله من واق) أي : مانع يقيهم عذابه .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

قوله تعالى : (مَثَل الجنة) أي : صفتها أن الأنهار تجري من تحتها ، هذا قول الجمهور . وقال ثعلب : خبر المَثَل مُضمَر قبله ، والمعنى : فيما نصف لكم مَثَل الجنة ، وفيما نقصُّه عليكم خبر الجنة (أُكُلُها دائم) قال الحسن : يريد أن ثمارها لاتنقطع كثمار الدنيا (وظلُّها) لأنه لايزول ولا تنسخه الشمس .

قوله تعالى : (تلك عقبى الذين اتقوا) أي : عاقبة أمرهم المصير إليها .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾

قوله تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم مسلمو اليهود ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل : هم عبد الله بن سلام وأصحابه .

والثاني : أنهم أصحاب رسول الله ﷺ ، قاله قتادة .

والثالث : مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى ، ذكره الماوردي .

والذي أُنزل إليه : القرآن ، فرح به المسلمون وصدَّقوه ، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب ، لأنه صدَّق ما عندهم . وقيل : إن عبد الله بن سلام ومن آمن معه من أهل الكتاب ، ساءهم قِلَّة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذِكره في التوراة ، فلما نزل ذِكره فرحوا ، وكفر المشركون به ، فنزلت هذه الآية .

فأما الأحزاب ، فهم الكفار الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالمعاداة ، وفيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم اليهود والنصارى ، قاله قتادة . والثاني : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله ابن زيد . والثالث : بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة بن عبد العزّى ، قاله مقاتل . والرابع : كفار قريش ، ذكره الماوردي .

وفي بعضه الذي أنكروه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه ذِكر الرحمن والبعثِ ومحمدٍ ﷺ ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم عرفوا بعثة الرسول في كتبهم وأنكروا نبوَّته .

والثالث : أنهم عرفوا صِدقه ، وأنكروا تصديقه ، ذكرهما الماوردي .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك أنزلناه) أي : وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء

بلغاتهم ، أنزلنا عليك القرآن (حكماً عربياً) قال ابن عباس : يريد ما فيه من الفرائض . وقال أبو عبيدة : ديناً عربيّاً .

قوله تعالى : (ولئن اتبعت أهواءهم) فيه قولان :

أحدها : في صلاتك إلى بيت المقدس (بعد ما جاءك من العلم) أن قبلتك الكعبة ، قاله ابن السائب .

والثاني : في قبول ما دعوك إليه من ملـَّة آبائك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (ما لك من الله من وليّ) أي : ما لك من عذاب الله من قريب ينفعك (ولا واق) يقيك .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك ...) الآية ، سبب نزولها أن اليهود عيَّروا رسول الله ﷺ بكثرة التزويج ، وقالوا : لو كان نبياً كما يزعم ، شغلته النبوَّة عن تزويج النساء ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . ومعنى الآية : أن الرسل قبلك كانوا بشراً لهم أزواج ، يعني النساء ، وذريَّة ، يعني : الأولاد . (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله) أي : بأمره ، وهذا جواب للذين اقترحوا عليه الآيات .

قوله تعالى : (لكل أجل كتاب) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله ، قاله الحسن .

والثاني : أنه من المقدّم والمؤخّر ، والمعنى : لكل كتاب ينزل من السماء أجل ، قاله الضحاك والفراء .

والثالث : لكل أجل قدَّره الله عز وجل ، ولكل أمر قضاه ، كتاب أُثبت فيه ، ولا تكون آية ولا غيرها إلا بأجل قد قضاه الله في كتاب ، هذا معنى قول ابن جرير .

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَايَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : « ويثبت » ساكنة الثاء خفيفة الباء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « ويثبِّت » مشددة الباء مفتوحة الثاء . قال أبو علي : المعنى : ويثبِّته ، فاستغنى بتعدية الأول من الفعلين عن تعدية الثاني .

واختلف المفسرون في المراد بالذي يمحو ويثبِت على ثمانية أقوال :

أحدها : أنه عامّ ، في الرزق ، والأجل ، والسعادة . والشقاوة ، وهذا مذهب عمر ، وابن مسعود ، وأبي وائل ، والضحاك ، وابن جريج .

والثاني : أنه الناسخ والمنسوخ ، فيمحو المنسوخ ، ويثبت الناسخ ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، والقرظي ، وابن زيد . وقال ابن قتيبة : « يمحو الله ما يشاء » أي : ينسخ من القرآن ما يشاء « ويثبت » أي : يدعه ثابتاً لا ينسخه ، وهو المُحكَم .

والثالث : أنه يمحو ما يشاء ، ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة ، والحياة والموت ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ودليل هذا القول ، ماروى مسلم في « صحيحه »[1] من حديث حذيفة بن أسِيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة ، يقول المَلَك الموكّل : أذَكر أم أنثى ؟ فيقضي

(١) مسلم ٢٠٣٧/٤ ورواية المصنف هنا بالمعنى .

الله تعالى ، ويكتب المَلَك ، فيقول : أشقي ، أم سعيد ؟ فيقضي الله ، ويكتب المَلَك ، فيقول : عمله وأجله ؟ فيقضي الله ، ويكتب المَلَك ، ثم تطوى الصحيفة ، فلا يزاد فيها ولا يُنقص منها » .

والرابع : يمحو مايشاء ويثبت ، إلا الشقاوة والسعادة لا يغيَّران ، قاله مجاهد .

والخامس : يمحو من جاء أجله ، ويُثبت من لم يجيء أجله ، قاله الحسن .

والسادس : يمحو من ذنوب عباده مايشاء فيغفرها ، ويثبت مايشاء فلا يغفرها ، روي عن سعيد بن جبير .

والسابع : يمحو مايشاء بالتوبة ، ويثبت مكانها حسنات ، قاله عكرمة .

والثامن : يمحو من ديوان الحفظة ماليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت مافيه ثواب وعقاب ، قاله الضحاك ، وأبو صالح . وقال ابن السائب : القول كلُّه يُكتَب ، حتى إذا كان في يوم الخميس ، طُرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلتُ ، شربت ، دخلت ، خرجت ، ونحوه ، وهو صادق ، ويُثبت مافيه الثواب والعقاب (١) .

قوله تعالى : (وعنده أُمُّ الكتاب) قال الزجاج : أصل الكتاب . قال المفسرون :

(١) قال أبو جعفر بن جرير الطبري ١٣/١٧٠ : وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية ، وأشبهها بالصواب ، القول الذي ذكرناه عن الحسن ، ومجاهد ، وذلك أن الله تعالى ذكره ، توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة ، وتهددهم بها ، وقال لهم : (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب) يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب ، هم مؤخرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل ، ثم قال لهم : فإذا جاء ذلك الأجل ، يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه أو حان هلاكه ، أو اتضاعه من رفعة ، أو هلاك مال ، فيقضي ذلك في خلقه ، فذلك محوه ، ويثبت ماشاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله ، فيتركه على ماهو عليه فلا يمحوه .

وهو اللوح المحفوظ الذي أُثبت فيه مايكون ويحدث [1] . وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى في ثلاث ساعات يبقَين من الليل ينظر في الكتاب الذي لاينظر فيه أحد غيره ، فيمحو مايشاء ويثبت » [2] . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : هما كتابان ، كتاب سوى أم الكتاب يمحو منه مايشاء ويثبت ، وعنده أمُّ الكتاب لايغيَّر منه شيء .

﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

قوله تعالى : (وإمّـا نُرينَّك بعض الذي نعدهم) أي : من العذاب وأنت حيٌّ (أو نتوفَّينَّك) قبل أن نرِيَك ذلك ، فليس عليك إلا أن تبلّـغ ، (وعلينا الحساب) قال مقاتل : يعني الجزاء . وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن قوله : « فإنما عليك البلاغ » نُسخ بآية السيف وفرض الجهاد ، وبه قال قتادة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

قوله تعالى : (أولم يروا أنّـا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) فيه خمسة أقوال :

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٣/١٧١ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : وعنده أصل الكتاب وجملته ، وذلك أنه تعالى ذكره ، أخبر أنه يمحو مايشاء ، ويثبت مايشاء ، ثم عقب ذلك بقوله : (وعنده أم الكتاب) فكان بيناً أن معناه : وعنده أصل المثبت منه والمحو ، وجملته في كتاب لديه .

(٢) « الطبري » ١٣/١٧٠ وفي سنده زيادة بن محمد الأنصاري ، قال البخاري والنسائي : منكر الحديث ، وأورده السيوطي في « الدر » ٤/٦٥ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والطبراني .

أحدها : أنه ما يفتح الله على نبيه من الأرض ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والضحاك . قال مقاتل : « أولم يروا » يعني : كفار مكة « أنا نأتي الأرض » يعني : أرض مكة « ننقصها من أطرافها » يعني : ما حولها .

والثاني : أنها القرية تخرب حتى تبقى الأبيات في ناحيتها ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثالث : أنه نقص أهلها وبركتها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال الشعبي : نقص الأنفس والثمرات .

والرابع : أنه ذهاب فقهائها وخيار أهلها ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والخامس : أنه موت أهلها ، قاله مجاهد ، وعطاء ، وقتادة [1] .

قوله تعالى : (والله يحكم لا معقب لحكمه) قال ابن قتيبة : لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص . وقد شرحنا معنى سرعة الحساب في سورة (البقرة : ٢٠٢) .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

قوله تعالى : (وقد مكر الذين من قبلهم) يعني : كفار الأمم الخالية ،

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٣/١٧٤ : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال : (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها ، وقهرهم أهلها ، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم ، وذلك أن الله توعد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله : (وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) ثم وبخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضربائهم من الكفار ، وهم مع ذلك يسألون الآيات ، فقال : (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) بقهر أهلها والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها ، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك .

مكروا بأنبيائهم يقصدون قتلهم، كما مكرت قريش برسول الله ﷺ ليقتلوه . (فلله المكر جميعاً) يعني : أن مكر الماكرين مخلوق له ، ولا يضرُّ إلا بإرادته ؛ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتسكين له . (يعلم ما تكسب كل نفس) من خير وشر ، ولا يقع ضرر إلا بإذنه . (وسيعلم الكافر) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « وسيعلم الكافر » . قال ابن عباس : يعني : أبا جهل . وقال الزجاج : الكافر هاهنا : اسم جنس . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « الكفار » على الجمع .

قوله تعالى : (لمن عقبى الدار) أي : لمن الجنة آخر الأمر .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا) فيهم قولان :

أحدهما : أنهم اليهود والنصارى . والثاني : كفار قريش . (قل كفى بالله شهيداً) أي : شاهداً (بيني وبينكم) بما أظهرَ من الآيات ، وأبان من الدلالات على نبوَّتي .

قوله تعالى : (ومن عنده علم الكتاب) فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنهم علماء اليهود والنصارى ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه عبد الله بن سلام ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وعِكرمة ، وابن زيد ، وابن السائب ، ومُقاتل .

والثالث : أنهم قوم من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحق ، منهم عبد الله ابن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الداريّ ، قاله قتادة .

والرابع : أنه جبريل عليه السلام ، قاله سعيد بن جُبير .

والخامس : أنه علي بن أبي طالب ، قاله ابن الحنفية .

والسادس : أنه بنيامين ، قاله شمر .

والسابع : أنه الله تعالى ، روي عن الحسن ، ومجاهد ، واختاره الزجاج واحتجّ له بقراءة من قرأ : « ومِنْ عِندِه عُلِمَ الكتابُ » وهي قراءة ابن السّميفع ، وابن أبي عبلة ، ومجاهد ، وأبي حيوة . ورواية ابن أبي سريج عن الكسائي : « ومِنْ » بكسر الميم « عِندِه » بكسر الدال « عُلِمَ » بضم الميم وكسر اللام وفتح الميم « الكتابُ » بالرفع . وقرأ الحسن « ومِنْ » بكسر الميم « عندِه » بكسر الدال « عِلْمُ » بكسر العين وضمّ الميم « الكتابِ » مضاف ، كأنه قال : أُنزل من عِلم الله عز وجل .

★ ★ ★

سورة ابراهيم

[عليه السلام]

وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم ، إلا ماروي عن ابن عباس ، وقتاده أنهما قالا : سوى آيتين منها ، وهما[1] قوله : (ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً) والتي بعدها [ابراهيم : ٢٨ ، ٢٩] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

قوله تعالى : (الر) قد سبق بيانه [يونس : ١] . وقوله : (كتابٌ) قال الزجاج : المعنى : هذا كتاب ، والكتاب : القرآن .

وفي المراد بالظلمات والنور ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الظلمات : الكفر ، والنور : الإيمان ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أن الظلمات : الضلالة ، والنور : الهدى ، قاله مجاهد ، وقتادة .

---

(١) في الأصل : وهي .

والثالث : أن الظلمات : الشكّ ، والنور : اليقين ، ذكره الماوردي .

وفي قوله : (باذن ربهم) ثلاثة أقوال :

أحدها : بأمر ربهم ، قاله مقاتل . والثاني : بتوفيق ربهم ، قاله أبو سليمان . والثالث : أنه الإذن نفسه ، فالمعنى : بما أَذِن لك من تعليمهم ، قاله الزجاج ، قال : ثم بيَّن ما النُّور ، فقال : (إلى صراط العزيز الحميد) قال ابن الأنباري : وهذا مِثْلُ قول العرب : جلست إلى زيد ، إلى العاقل الفاضل ، وإنما تُعاد « إلى » بمعنى التعظيم للأمر ، قال الشاعر :

إِذَا خَدِرَتْ رِجْلِي تَذَكَّرْتُ مَنْ لَهَا
فَنَادَيْتُ لُبْنَى بِاسْمِهَا وَدَعَوْتُ[1]

دَعَوْتُ الَّتِي لَوَ أَنَّ نَفْسِي تُطِيعُنِي
لأَلْقَيْتُهَا مِن حُبِّهَا وقضَيتُ

فأعاد « دعوت » لتفخيم الأمر .

قوله تعالى : (اللهِ الذي له مافي السموات) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « الحميدِ اللهِ » على البدل . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبان ، والمفضَّل : « الحميدِ . اللهُ » رفعاً على الاستئناف ، وقد سبق بيان ألفاظ الآية .

﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ

(١) البيتان لقيس لبنى ديوانه : ٦٩ ، و « الأغاني » : ٩/١٩٣ ، وتزيين الأسواق : ٤٨ .

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الذين يستحبّون الحياة الدنيا) أي : يؤثرونها (على الآخرة) قال ابن عباس : يأخذون ماتعجّل لهم منها تهاوناً بأمر الآخرة .

قوله تعالى : (ويَصُدّون عن سبيل) أي : يمنعون الناس من الدخول في دينه ، (ويبغونها عِوَجاً) قد شرحناه في (آل عمران : ٩٩) .

قوله تعالى : (أولئك في ضلال) أي : في ذهاب عن الحق (بعيد) من الصواب .

قوله تعالى : (إلا بلسان قومه) أي : بلُغتهم . قال ابن الأنباري : ومعنى اللغة عند العرب : الكلام المنطوق به ، وهو مأخوذ من قولهم : لَغا الطائر يَلْغُو : إذا صوّت في الغَلَس . وقرأ أبو رجاء ، وأبو المتوكل ، والجُحدري : « إلّا بلُسُنِ قومه » برفع اللام والسين من غير ألف . وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو عمران : « بلِسْنِ قومه » بكسر اللام وسكون السين من غير ألف .

قوله تعالى : (ليُبيّن لهم) أي : الذي أُرسل به فيفهمونه عنه . وهذا نزل ، لأن قريشاً قالوا : مابال الكتب كلّها أعجمية ، وهذا عربي !

قوله تعالى : (أن أخرج قومك) قال الزجاج : « أن » مفسّر ، والمعنى : قلنا له : أخرج قومك . وقد سبق بيان الظلمات والنور [البقرة : ٢٥٧] .

وفي قوله : (وذكِّرهم بأيام الله) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نِعَمُ الله ، رواه أُبيْ بن كعب عن النبي ﷺ (١)، وبه قال مجاهد ، وقتادة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنها وقائع الله في الأمم قبلهم ، قاله ابن زيد ، وابن السائب ، ومقاتل .

والثالث : أنها أيام نِعَم الله عليهم وأيام نِقَمِه ممن كفر من قوم نوح وعاد وثمود ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (إن في ذلك) يعني : التذكير (لآيات لكل صبَّار) على طاعة الله وعن معصيته (شكور) لأنعُمه . والصبَّار : الكثير الصبر ، والشَّكور : الكثير الشكر ، وإنما خصه بالآيات ، لانتفاعه بها . وما بعد هذا مشروح في سورة (البقرة : ٤٩) .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ . وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ . أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) « الطبري » ١٣/١٨٤ ، و « المسند » : ٥/١٢١ ، وذكره ابن كثير من رواية أحمد ٢/٥٢٣ ، ثم قال : ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به ، ورواه عبدالله ابنه أيضاً موقوفاً ، وهو أشبه . وذكره السيوطي في « الدر » ٤/٧٠ ، وزاد نسبته للنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » .

يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

قوله تعالى : (وإذ تأذّن ربكم) مذكور في (الأعراف : ١٦٧) .

وفي قوله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ثلاثة أقوال :

أحدها : لئن شكرتم نِعَمي لأزيدنكم من طاعتي ، قاله الحسن .

والثاني : لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ، قاله الربيع .

والثالث : لئن وحّدتموني لأزيدنكم خيراً في الدنيا ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (ولئن كفرتم) قولان :

أحدها : أنه كفر بالتوحيد . والثاني : كفران النِّعَم .

قوله تعالى : (فان الله لغني حميد) أي : غني عن خلقه ، محمود في أفعاله ، لأنه إمّا متفضّل بفعله ، أو عادل .

قوله تعالى : (لا يعلمهم إلا الله) قال ابن الأنباري : أي : لا يحصي عددهم إلا هو ، على أن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها ، فانقطعت أخبارهم ، وعفَت آثارهم ، فليس يعلمهم أحد إلا الله .

قوله تعالى : (فرَدُّوا أيديَهم في أفواههم) فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنهم عضُّوا أصابعهم غيظاً ، قاله ابن مسعود ، وابن زيد . وقال ابن قتيبة : « في » هاهنا بمعنى : « إلى » ، ومعنى الكلام : عضُّوا عليها حَنَقاً وغيظاً ، كما قال الشاعر :

يَرُدُّون في فيه عَشْرَ الحَسودِ (١)

يعني : أنهم يغيظون الحسود حتى يَعَضَّ على أصابعه العشر ، ونحوه قول الهذلي :

قَدَ افْنَى أنامِلَه أَزْمُهُ فأضحى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظِيفا (٢)

يقول : قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعضِّ ، فأضحى يعضُّ عليَّ وظيف الذراع .

والثاني : أنهم كانوا إذا جاءهم الرسول فقال : إني رسول ، قالوا له : اسكت ، وأشاروا بأصابعهم إلى أفواه أنفسهم ، رَدّاً عليه وتكذيباً ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

---

(١) ذكره ابن قتيبة غير منسوب في « المعاني الكبير » : ٨٣٤ ، و « غريب القرآن » : ٢٣٠ ، وشرحه بقوله : « يعني أصابع يديه العشر يعضها غيظاً عليهم وحنقاً » وفي تفسير « القرطبي » ٩/٣٤٦ :

تردون في فيه غش الحسو د حتى يعض عليَّ الأكفا

(٢) البيت لصخر الغي ، كما في « ديوان الهذليين » ٢/٧٣ ، و « المعاني الكبير » لابن قتيبة ٨٣٤ ، و « غريب القرآن » ٢٣١ . و « الأزم » : العض الشديد ، و « الوظيف » : الذراع . يقول : قد أفنى أصابعه فهو يعض على مفصل بين الساعد والكف .

والثالث : أنهم لما سمعوا كتاب الله ، عجِّوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والرابع : أنهم وضعوا أيديَهم على أفواه الرسل . ردّاً لقولهم ، قاله الحسن .

والخامس : أنهم كذّبوهم بأفواههم ، وردُّوا عليهم قولهم ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والسادس : أنه مَثَلٌ ، ومعناه : أنهم كَفُّوا عما أُمروا بقبوله من الحق ، ولم يؤمنوا به . يقال : رَدَّ فلان يده إلى فمه ، أي : أمسك فلم يُجِب ، قاله أبو عبيدة .

والسابع : رَدُّوا ما لَوْ قبلوه لكانَ نِعَماً وأياديَ من الله [١] ، فتكون الأيدي بمعنى : الأيادي ، و « في » بمعنى : الباء ، والمعنى : رَدُّوا الأياديَ بأفواههم ، ذكره الفراء ، وقال : قد وجدنا مِن العرب مَن يجعل « في » موضعَ الباء ، فيقول : أدخلك الله بالجنة ، يريد : في الجنة ، وأنشدني بعضهم :

وأرغَبُ فيها عن لَقيطٍ ورهطِهِ ... ولكنّني عن سَنْبَسٍ لَسْتُ أرْغَبُ [٢]

فقال : أرغب فيها ، يعني : بنتاً له ، يريد : أرغب بها ، وسَنْبَسُ : قبيلة .

قوله تعالى : (وقالوا إنا كفرنا بما أُرسلتم به) أي : على زعمكم أنكم أُرسلتم ، لا أنهم أقرُّوا بارسالهم . وباقي الآية قد سبق تفسيره [هود : ٦٢] . (قالت رسلهم أفي الله شك) هذا استفهام إنكار ، والمعنى : لا شك في الله ، أي : في

---

(١) قال أبو جعفر الطبري : وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل الآية ، القول الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود (أي القول الأول) أنهم ردوا أيديهم في أفواههم ، فعضوا عليها غيظاً على الرسل ، كما وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : (واذا خلَوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) ، فهذا هو الكلام المعروف ، والمعنى المفهوم من رد اليد الى الفم .

(٢) « الطبري » ١٨٩/١٣ ، غير منسوب .

توحيده (يدعوكم) بالرسل والكتب (ليغفرَ لكم من ذنوبكم) قال أبو عبيدة : « مِن » زائدة ، كقوله : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) [الحاقة : ٤٧] ، قال أبو ذؤيب :

جَزَيْتُكِ ضِعْفَ الحُبِّ لمَّا شَكَوْتِهِ
وما إن جزاكِ الضِّعْفَ مِن أحَدٍ قَبْلي [1]

أي : أحَدٌ . وقوله : (ويؤخِّرَكم إلى أجَل مسمّى) وهو الموت ، والمعنى : لا يعاجلكم بالعذاب . (قالوا) الرسل (إن أنتم) أي : ما أنتم (إلا بَشَر مِثلنا) أي : ليس لكم علينا فضل ، والسلطان : الحُجَّة . قالت الرسل : (إن نحن إلا بَشَر مثلكم) فاعترفوا لهم بذلك ، (ولكنَّ الله يَمنُّ على من يشاء) يعنون : بالنبوَّة والرسالة ، (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله) أي : ليس ذلك من قِبَل أنفسنا .

قوله تعالى : (وقد هدانا سُبُلَنَا) فيه قولان :

أحدهما : بيَّن لنا رشدنا . والثاني : عرَّفنا طريق التوكل . وإنما تُقصّ هذا وأمثالُه على نبينا ﷺ ليقتديَ بمن قبله في الصبر وليعلم ماجرى لهم .

قوله تعالى : (لنُهلكنَّ الظالمين) يعني : الكافرين بالرسل . وقوله : (مِن بعدهم) أي : بعد هلاكهم . (ذلك) الإسكان (لمن خاف مقامي) قال ابن عباس : خاف مُقامه بين يديَّ . قال الفراء : العرب قد تضيف أفعالها إلى أنفسها ، وإلى ما أُوقِعَتْ عليه ، فتقول : قد ندمت على ضربي إياك ، وندمت على ضربك ، فهذا من ذاك ، ومِثْله (وتجعلون رزقكم) [الواقعة : ٨٢] أي : رزقي إياكم .

(١) « مجاز القرآن » ١/٣٣٩ ، ديوان الهذليين ١/٣٥ ، و « شرح أشعار الهذليين » ١/٨٨ .

قوله تعالى : (وخاف وعيد) أثبت ياء « وعيدي » في الحالين يعقوب ، وتابعه ورش في الوَصْل .

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

قوله تعالى : (واستفتحوا) يعني : استنصروا . وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وحميد ، وابن مُحَيصن : « واستفتِحوا » بكسر التاء على الأمر .

وفي المشار إليهم قولان :

أحدهما : أنهم الرسل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنهم الكفار ، واستفتاحهم : سؤالهم العذاب ، كقولهم : (ربَّنا عجِّل لنا قِطَّنا) [ص : ١٦] وقولهم : (إن كان هذا هو الحقَّ من عندك ...) الآية [الانفال : ٣٢] ، هذا قول ابن زيد .

قوله تعالى : (وخاب كل جبَّار عنيد) قال ابن السائب : خسر عند الدعاء ، وقال مقاتل : خسر عند نزول العذاب ، وقال أبو سليمان الدمشقي : يئس من الإجابة . وقد شرحنا معنى الجبَّار والعنيد في (هود : ٥٩) .

قوله تعالى : (من ورائه جهنم) فيه قولان :

أحدهما : أنه بمعنى القُدَّام ، قال ابن عباس ، يريد : أمامه جهنم . وقال أبو عبيدة : « من ورائه » أي : قُدّامه وأمامه ، يقال : الموت من ورائك ، وأنشد :

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا (١)

والثاني : أنها بمعنى : « بَعْد » ، قال ابن الأنباري : « من ورائه » أي : من بعد يأسه ، فدلَّ « خاب » على اليأس ، فكنى عنه ، وحملت « وراء » على معنى : « بَعْد » كما قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ (٢)

أراد : ليس بَعْد الله مَذهب . قال الزجاج : والوراء يكون بمعنى الخَلْف والقُدَّام ، لأن ما بين يديك وما قُدَّامك إذا توارى عنك فقد صار وراءك ، قال الشاعر :

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي لُزُومُ العَصَا تُحنَى عليها الأَصَابِعِ (٣)

قال : وليس الوراء من الأضداد كما يقول بعض أهل اللغة . وسئل ثعلب : لم قيل : الوراء للأمام ؟ فقال : الوراء : اسم لما توارى عن عينك ، سواء أكان أمامك أو خلفك . وقال الفراء : إنما يجوز هذا في المواقيت من الأيام والليالي والدهر ، تقول : وراءك برد شديد ، وبين يديك برد شديد . ولا يجوز أن تقول للرجل وهو بين يديك : هو وراءك ، ولا الرجُل : وراءك : هو بين يديك .

قوله تعالى : (ويُسقى من ماء صديد) قال عكرمة ، ومجاهد ، واللغويون : الصديد : القيح والدَّم ، قاله قتادة ، وهو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه .

---

(١) البيت من كلمة لسوار بن المضرّب في « الكامل » : ٤٤٥ ، وهو في « مجاز القرآن » ١/٣٣٧ ، و « الطبري » ١٦/١ ، و « الجمهرة » ١/١٧٧ ، و ٣/٤٩٥ ، و « القرطبي » ١١/٣٥ ، و « اللسان » ، و « التاج » : « ورى » .

(٢) ديوانه : ١٢ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١٧٥ من قصيدة يعتذر بها إلى النعمان ابن المنذر ويمدحه .

(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري ديوانه : ١٧٠ .

وقال القرظي : هو غُسالة أهل النار ، وذلك ما يسيل من فروج الزناة . وقال ابن قتيبة : المعنى : يُسقى الصديدَ مكانَ الماء ، قال : ويجوز أن يكون على التشبيه ، أي : مايُسقَى ماء كأنه صديد[1] .

قوله تعالى : (يتجرَّعه) والتجرع : تناول المشروب جُرعة جُرعة ، لا في مرة واحدة ، وذلك لشدة كراهته له ، وإنما يُكره على شربه .

قوله تعالى : (ولا يكاد يُسيغه) قال الزجاج : لا يقدر على ابتلاعه ، تقول : ساغ لي الشيء ، وأسغته . وروى أبو أُمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يُقرَّب إليه فيكرهه ، فاذا أُدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره »[2] .

قوله تعالى : (ويأتيه الموت) أي : همُّ الموت وكربه وألمه (من كل مكان) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : من كل شعرة في جسده ، رواه عطاء عن ابن عباس . وقال سفيان الثوري : من كل عِرْق . وقال ابن جريج : تتعلق نفسه عند حنجرته ، فلا تخرج من فيه فتموت ، ولا ترجع إلى مكانها فتجد راحة .

---

(١) كذا الأصل ، والذي في « غريب القرآن » لابن قتيبة ٢٣١ : أي : يسقى ماءً كأنه صديد .

(٢) « الطبري » ١٣/١٩٦ ، و « المسند » : ٥/٢٦٥ ، وذكره ابن كثير في « تفسيره » ٢/٥٢٦ ، من رواية أحمد في « المسند » وقال : وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله ابن المبارك ، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث بقية بن الوليد عن صفر بن عمرو به . وذكره السيوطي في « الدر » ٤/٧٢ وزاد نسبته للترمذي ، والنسائي ، وابن أبي الدنيا في صفة النار ، وأبي يعلى ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبي نعيم في « الحلية » وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في البعث والنشور .

والثاني : من كل جهة ، من فوقه وتحته ، وعن يمينه وشماله ، وخلفه وقُدّامه ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنها البلايا التي تصيب الكافر في النار ، سماها موتاً ، قاله الأخفش .

قوله تعالى : (وما هو بميّت) أي : موتاً تنقطع معه الحياة . (ومن ورائه) أي : من بعد هذا العذاب . قال ابن السائب : من بعد الصديد (عذاب غليظ) . وقال إبراهيم التيمي : بعد الخلود في النار . والغليظ : الشديد .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

قوله تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد) قال الفراء : أضاف المَثَل إليهم ، وإنما المثل للأعمال ، فالمعنى : مَثَل أعمال الذين كفروا . ومِثلُه : (ويوم القيامة ترى الذين كَذَبوا على الله وجوهُهم مسودّة) [الزمر : ٦٠] ، أي : ترى وجوههم . وجعل العُصُوف تابعاً لليوم في إعرابه ، وإنما العُصُوف للريح ، وذلك جائز على جهتين :

إحداهما : أن العصوف ، وإن كان للريح ، فان اليوم يوصف به ، لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول : يوم عاصف ، كما تقول : يوم بارد ، ويوم حار .

والوجه الآخر : أن تريد : في يومٍ عاصفِ الريح ، فتحذف الريح ، لأنها قد ذُكرت في أول الكلام ، كما قال الشاعر :

ويُضْحِكُ عِرفانُ الدُّرُوْعِ جُلودَنا

إذا كانَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفُ

يريد : كاسف الشمس . وروي عن سيبويه أنه قال : في هذه الآية إضمار ، والمعنى : ومما نقصُّ عليك مَثَل الذين كفروا ، ثم ابتدأ فقال : « أعمالهم كرماد » . وقرأ النخعي ، وابن يعمر ، والجُحدري : « في يومِ عاصفٍ » بغير تنوين اليوم . قال المفسرون : ومعنى الآية : أن كل ما يتقرَّب به المشركون يَحْبَط ولا ينتفعون به ، كالرماد الذي سفَتْه الريح فلا يُقدَر على شيء منه ، فهم لا يقدرون مما كسبوا في الدنيا على شيء في الآخرة ، أي : لا يجدون ثوابه ، (ذلك هو الضلال البعيد) من النجاة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر) فيه قولان :

أحدها : أن معناه : ألم تُخبَر ، قاله ابن السائب . والثاني : ألم تعلم ، قاله مقاتل ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : (خلق السموات والأرض بالحق) قال المفسرون : أي : لم يخلقهن عبثاً ، وإنما خلقهن لأمر عظيم . (إن يشأ يُذهبكم) قال ابن عباس : يريد : يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع ، وهذا خطاب لأهل مكة .

قوله تعالى : (وما ذلك على الله بعزيز) أي : بممتنع متعذّر .

﴿ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾

قوله تعالى : (وبرزوا لله جميعاً) لفظه لفظ الماضي ، ومعناه المستقبل ، والمعنى : خرجوا من قبورهم يوم البعث ، واجتمع التابع والمتبوع ، (فقال الضعفاء) وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم المتبوعون : (إنا كُنَّا لكم تَبَعاً) قال الزجاج : هو جمع تابع ، يقال : تابِع وتَبَع ، مِثْل : غائب وغَيَب ، والمعنى : تبعناكم فيما دعوتمونا إليه .

قوله تعالى : (فهل أنتم مُغْنون عنا) أي : دافعون عنا (من عذاب الله من شيء) . قال القادة : (لو هدانا الله) أي : لو أرشدنا في الدنيا لأرشدناكم ، يريدون : أن الله أضلَّنا فدعوناكم إلى الضلال ، (سواء علينا أجزِعنا أم صَبَرنا) قال ابن زيد : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالَوْا نبكي ونضرع ، فإنما أدرك أهلُ الجنة الجنةَ ببكائهم وتضرُّعهم ، فبَكَوْا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لاينفعهم ، قالوا : تعالَوْا نصبر ، فإنما أدرك أهلُ الجنة الجنةَ بالصبر ، فصبروا صبراً لم يُرَ مثلُه قط ، فلم ينفعهم ذلك ، فعندها قالوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » . وروى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم قال : جَزِعوا مائة سنة ، وصبروا مائة سنة . وقال مقاتل : جزعوا خمس مائة عام ، وصبروا خمس مائة عام . وقد شرحنا معنى المحيص في سورة (النساء : ١٢١) .

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَأُدْخِلَ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

قوله تعالى : (وقال الشيطان) قال المفسرون : يعني به إبليس ، (لما قُضي الأمر) أي : فُرغ منه ، فدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فحينئذ يجتمع أهل النار باللّوم على إبليس ، فيقوم فيما بينهم خطيباً ويقول : (إن الله وَعدَكم وَعْد الحق) أي : وعدكم كَوْن هذا اليوم فَصَدَقكم (ووعدتكم) أنه لايكون (فأخلفتكم) الوعد (وما كان ليَ عليكم من سلطان) أي : ما أظهرت لكم حُجّةً على ماادّعيت . وقال بعضهم : ماكنت أملككم فأُكرهكم (إلا أن دعوتكم) وهذا من الاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن دعوتكم (فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) حيث أجبتموني من غير برهان ، (ما أنا بمصرخكم أي : بمغيثكم (وما أنتم بمصرخيّ) أي : بمغيثيّ . قرأ حمزة « بمُصرِخيِّ » فحرك الياء إلى الكسر ، وحرّكها الباقون إلى الفتح . قال قُطرب : هي لغة في بني يربوع ؛ يعني : قراءة حمزة . قال اللغويون : يقال : استصرخني فلان فأصرخته ، أي : استغاثني فأغثته . (إني كفرت) اليوم باشراككم إياي في الدنيا مع الله في الطاعة ، (إن الظالمين) يعني : المشركين .

قوله تعالى : (باذن ربهم) أي : بأمر ربهم . وقوله : (تحيتهم فيها سلام) قد ذكرناه في (يونس : ١٠) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً) قال المفسرون : ألم تر بعين

قلبك فتعلم باعلامي إياك كيف ضرب الله مثلاً ، أي : بيّن شَبَهاً ، (كلمة طيبة) قال ابن عباس : هي شهادة أن لا إله إلا الله . (كشجرة طيبة) أي : طيبة الثمرة ، فترك ذكر الثمرة اكتفاءً بدلالة الكلام عليه .

وفي هذه الشجرة ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها النخلة ، وهو في « الصحيحين » من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ [1] ، وقد رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود ، وأنس بن مالك ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك في آخرين .

والثاني : أنها شجرة في الجنة ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والثالث : أنها المؤمن ، وأصله الثابت أنه يعمل في الأرض ويبلغ عملُه السماء . وقوله : (تُؤتي أُكُلَهَا كل حين) فالمؤمن يذكر الله كل ساعة من النهار ، رواه عطية عن ابن عباس .

قوله تعالى : (أصلها ثابت) أي : في الأرض ، (وفرعها) أعلاها عالٍ (في السماء) أي : نحو السماء ، وأُكُلُها : ثمرها . وفي الحين هاهنا ستة أقوال :

---

(١) البخاري ١/١٣٠ ، ومسلم ٤/٢١٦٥ ، ولفظه عندهما : عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ماهي ؟ » فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ماهي يارسول الله ؟ قال : فقال : « هي النخلة » . قال العلماء : شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام ، فانه من حين يطلع ثمرها لايزال يؤكل منه حتى ييبس ، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة ، ومن خشبها وورقها وأغصانها ، فيستعمل جذوعاً وحطباً وعصياً ومخاصر وحصراً وحبالاً وأواني وغير ذلك ، ثم آخر شيء منها نواها ، وينتفع به علفاً للابل ، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها ، فهي منافع كلها ، وخير وجمال ، كما أن المؤمن خير كله ، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه .

أحدها : أنه ثمانية أشهر ، قاله علي عليه السلام .

والثاني : ستة أشهر ، رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، وقتادة .

والثالث : أنه بُكرة وعشية ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

والرابع : أنه السنة ، روي عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد .

والخامس : أنه شهران ، قاله سعيد بن المسيب .

والسادس : أنه غُدوة وعشية وكلّ ساعة ، قاله ابن جرير .

فمن قال : ثمانية أشهر ، أشار إلى مُدَّة حملها باطناً وظاهراً ، ومن قال : ستة أشهر ، فهي مدة حملها إلى حين صِرامها ، ومن قال : بُكرة وعشية ، أشار إلى الاجتناء منها ، ومن قال : سنة ، أشار إلى أنها لاتحمل في السنة إلاّ مرَّة ، ومن قال : شهران ، فهو مدة صلاحها . قال ابن المسيب : لايكون في النخلة أُكُلُها إلا شهرين . ومن قال : كل ساعة ، أشار إلى أن ثمرتها تؤكل دائماً . قال قتادة : تؤكل ثمرتها في الشتاء والصيف . قال ابن جرير : الطلع في الشتاء من أُكلها ، والبلح والبُسر والرطب والتمر في الصيف .

فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة ، فمن أوجه :

أحدها : أنها شديدة الثبوت ، فشبّه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها .

والثاني : أنها شديدة الارتفاع ، فشُبِّه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها .

والثالث : أن ثمرتها تأتي في كل حين ، فشُبِّه مايكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها ، فالمؤمن كلما قال : لا إله إلا الله ، صَعِدَتْ إلى السماء ، ثم جاءه خيرها ومنفعتها .

والرابع : أنها أشبهُ الشجر بالإنسان ، فان كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها، إلا هي ، إذا قُطع رأسها يبست ، ولأنها لاتحمل حتى تلقّح ، ولأنها فضلة تربة آدم عليه السلام فيما يُروى [١] .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾

قوله تعالى : (ومثل كلمة خبيثة) قال ابن عباس : هي الشرك .

وقوله : (كشجرة خبيثة) فيها خمسة أقوال :

أحدها : أنها الحنظلة ، رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ [٢] ، وبه قال أنس ، ومجاهد .

والثاني : أنها الكافر ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وروى العوفي عنه أنه قال : الكافر لا يُقبل عمله ، ولا يصعد إلى الله تعالى ، فليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء .

والثالث : أنها الكَشُوثَى [٣] رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : أنه مثَل ، وليست بشجرة مخلوقة ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس .

---

(١) هو حديث ضعيف ولفظه « أكرموا عمتكم النخلة ، فانها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم ... » رواه أبو يعلى في « مسنده » وابن أبي حاتم ، والعقيلي في « الضعفاء » ، وابن عدي في « الكامل » ، وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب ، وابن مردويه من طريق مسرور بن سعيد التميمي عن الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي مرفوعاً . ومسرور بن سعيد التميمي غمزه ابن حبان ، وقال العقيلي : حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به ، وقال ابن عساكر : عروة لم يدرك علياً ، والحديث غريب ، والتميمي مجهول .

(٢) « الطبري » ١٣/٢١٢ ، من حديث حماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس ابن مالك ، وإسناده صحيح .

(٣) الكشوثى : نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض .

والخامس : أنها الثوم ، روي عن ابن عباس أيضاً .

قوله تعالى : (اجتثت) قال ابن قتيبة : استُؤصلت وقُطعت . قال الزجاج : ومعنى اجتثثت الشيء في اللغة : أخذت جُثته بكمالها .

وفي قوله : (مالها من قرار) قولان :

أحدهما : مالها من أصل ، لم تَضرِب في الأرض عِرقاً .

والثاني : مالها من ثبات .

ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح ، ولا قول طيب ، ولا لقوله أصل ثابت .

﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ﴾

قوله تعالى : (يثبِّت الله الذين آمنوا) أي : يثبتهم على الحق بالقول الثابت ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله .

قوله تعالى : (في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فيه قولان :

أحدهما : أن الحياة الدنيا : زمان الحياة على وجه الأرض ، والآخرةُ : زمان المساءلة في القبر ، وإلى هذا المعنى ذهب البراء بن عازب ، وفيه أحاديث تعضده [1] .

والثاني : أن الحياة الدنيا : زمن السؤال في القبر ، والآخرةُ : السؤال في القيامة ، وإلى هذا المعنى ذهب طاووس ، وقتادة . قال المفسرون : هذه الآية وردت في فتنة القبر ، وسؤال الملَكين ، وتلقين الله تعالى للمؤمنين كلمة الحق عند السؤال ، وتثبيته إياه على الحق . (ويُضلُّ الله الظالمين) يعني : المشركين ، يضلهم عن هذه الكلمة ، (ويفعل الله ما يشاء) من هداية المؤمن وإضلال الكافر .

(١) انظر في « الطبري » ١٣/٢١٣ - ٢١٨ وابن كثير ٢/٥٣١ - ٥٣٨ الأحاديث الواردة في ذلك ، عند تفسير هذه الآية .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾

قوله تعالى : (ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً) في المشار إليهم سبعة أقوال :

أحدها : أنهم الأفجران من قريش : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، روي عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب .

والثاني : أنهم منافقو قريش ، رواه أبو الطُّفيل عن علي .

والثالث : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إلى بدر ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والرابع : أهل مكة ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والخامس : المشركون من أهل بدر ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والسادس : أنهم الذين قُتلوا ببدر من كفار قريش ، قاله سعيد بن جبير ، وأبو مالك .

والسابع : أنها عامة في جميع المشركين ، قاله الحسن . قال المفسرون : وتبديلهم نعمة الله كفراً ، أن الله أنعم عليهم برسوله ، وأسكنهم حرَمه ، فكفروا بالله وبرسوله ، ودعَوْا قومهم إلى الكفر به ، فذلك قوله : (وأحلّوا قومهم دار البوار) أي : الهلاك . ثم فسر الدار بقوله : (جهنم يصلونها) أي : يقاسون حرّها (وبئس القرار) أي : بئس المقرُّ هي .

﴿وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾

قوله تعالى : (وجعلوا لله أنداداً) قد بيَّنَّاه في سورة (البقرة : ٢٢)، واللام في « ليَضِلُّوا » لام العاقبة ، وقد سبق شرحها [يونس : ٨٨] ، ومن قرأ « ليُضِلوا » بضم الياء ، أراد : ليُضِلُّوا الناس عن دين الله .

قوله تعالى : (قل تمتعوا) أي : في حياتكم الدنيا ، وهذا وعيد لهم . قال ابن عباس : لو كان الكافر مريضاً لاينام ، جائعاً لايأكل ولا يشرب ، لكان هذا نعيماً يتمتع به بالقياس إلى مايصير إليه من العذاب ، ولو كان المؤمن في أنعم عيش ، لكان بؤساً عندما يصير إليه من نعيم الآخرة .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ . اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَيكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (قل لعبادي الذين آمنوا) أسكن ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ياء « عبادي » .

قوله تعالى : (يقيموا الصلاة) قال ابن الأنباري : معناه : قل لعبادي :

أقيموا الصلاة وأنفِقوا ، يقيموا وينفقوا ، فحُذف الأمران ، وتُرك الجوابان ، قال الشاعر :

فأيُّ امرىءٍ أنتَ أيُّ امرِىءٍ إذا قيلَ في الحَرْبِ من يُقْدِمُ

أراد : إذا قيل : من يُقدم تُقْدِمُ . ويجوز أن يكون المعنى : قل لعبادي أقيموا الصلاة ، وأنفقوا ، فصُرف عن لفظ الأمر إلى لفظ الخبر . ويجوز أن يكون المعنى : قل لهم ليُقيموا الصلاة ، وليُنفقوا ، فحذف لام الأمر ، لدلالة « قل » عليها . قال ابن قتيبة : والخِلال مصدر خالَلْت فلاناً خِلالاً ومُخالَّة ، والاسم الخُلَّة ، وهي الصداقة .

قوله تعالى : (وسخَّر لكم الأنهار) أي : ذلّلها ، تجري حيث تريدون ، وتركبون فيها حيث تشاؤون . (وسخر لكم الشمس والقمر) لتنتفعوا بهما وتستضيئوا بضوئهما (دائبين) في إصلاح مايُصلحانه من النبات وغيره ، لايفتران . ومعنى الدؤوب : مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه . (وسخَّر لكم الليل) لتسكنوا فيه ، راحة لأبدانكم ، (والنهار) لتنتفعوا بمعاشكم ، (وآتاكم من كل ماسألتموه) وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أن المعنى : من كل الذي سألتموه ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثاني : من كل ماسألتموه ، لو سألتموه ، قاله الفراء .

والثالث : وآتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً ، فأضمر الشيء ، كقوله : (وأوتيتْ من كل شيء) [النمل : ٢٣] أي ، من كل شيء في زمانها شيئاً ، قاله الأخفش .

والرابع : من كل ماسألتموه ومالم تسألوه ، لأنكم لم تسألوا شمساً ولا قمراً

ولا كثيراً من النِعم التي ابتدأكم بها ، فاكتُفي بالأول من الثاني ، كقوله : (سرابيل تقيكم الحر) [النحل : ٨١] ، قاله ابن الأنباري .

والخامس : على قراءة ابن مسعود ، وأبي رزين ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة ، وأبان عن عاصم ، وأبي حاتم عن يعقوب : « من كلٍّ ما » بالتنوين من غير إضافة ، فالمعنى : آتاكم من كُلٍّ مالم تسألوه ، قاله قتادة ، والضحاك .

قوله تعالى : (وإن تعُدُّوا نِعمة الله) أي : إنعامه (لاتحصوها) لا تُطيقوا الإتيان على جميعها بالعَدِّ لكثرتها . (إن الإنسان) قال ابن عباس : يريد أبا جهل . وقال الزجاج : الإنسان اسم للجنس يُقصَد به الكافر خاصة .

قوله تعالى : (لظَلوم كَفَّار) الظَّلوم هاهنا : الشاكرُ غيرَ مَن أنعم عليه ، والكَفَّار : الجحود لنِعم الله تعالى .

قوله تعالى : (اجعل هذا البلد آمناً) قد سبق تفسيره في سورة (البقرة : ١٢٦) .

قوله تعالى : (واجنبني وبَنِيَّ) أي : جنِّبني وإياهم ، والمعنى : ثبِّتني على اجتناب عبادتها . (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) يعني : الأصنام ، وهي لاتوصَف بالإضلال ولا بالفعل ، ولكنهم لما ضلّوا بسببها ، كانت كأنها أضلّتهم . (فمن تبعني) أي : على ديني التوحيد (فانه منّي) أي : فهو على مِلَّتي ، (ومن عصاني فانك غفور رحيم) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم ، قاله السدي .

والثاني : ومن عصاني فيما دون الشرك ، قاله مقاتل بن حيان .

والثالث : ومن عصاني فكفر فانك غفور رحيم أن تتوب عليه فتهديه إلى التوحيد ، قاله مقاتل بن سليمان . وقال ابن الأنباري : يحتمل أن يكون دعا بهذا قبل أن يُعلِمه الله تعالى أنه لايغفر الشرك كما استغفر لأبيه .

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ربنا إني أسكنت من ذريتي) في « مِنْ » قولان .

أحدهما : أنها للتبعيض ، قاله الأخفش ، والفراء .

والثاني : أنها للتوكيد ، والمعنى : أسكنت ذريتي ، ذكره ابن الأنباري .

قوله تعالى : (بوادٍ غير ذي زرع) يعني : مكة ، ولم يكن فيها حرث ولا ماء . عند (بيتك المحرَّم) إنما سمي محرَّماً ، لأنه يحرم استحلال حرماته والاستخفاف بحقه .

فان قيل : ما وجه قوله : (عند بيتك المحرَّم) ولم يكن هناك بيت حينئذ ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمُدَّة ؟

فالجواب من ثلاثة وجوه :

أحدها : أن الله تعالى حرَّم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض ، قاله ابن السائب .

والثاني : عند بيتك الذي كان قبل أن يُرفَع أيام الطوفان .

والثالث : عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا ، ذكرها ابن جرير . وكان أبو سليمان الدمشقي يقول : ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بُني البيت وصارت مكة بلداً . والمفسرون على خلاف ما قال . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أن إبراهيم خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمّه هاجر ومعه جبريل حتى قدم مكة وبها ناس يقال لهم : العماليق ، خارجاً من

مكة ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فقال إبراهيم لجبريل : أهاهنا أُمرتُ أن أضعها ؟ قال : نعم ؛ فأنزلها في مكانٍ من الحِجر ، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً ، ثم قال : (ربنا إني أسكنت من ذريتي . . .) الآية . وفتح أهل الحجاز ، وأبو عمرو ياء « إنيَ أسكنت » .

قوله تعالى : (ربنا ليُقيموا الصلاة) في متعلَّق هذه اللام قولان :

أحدها : أنها تتعلق بقوله : (واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام) ، فالمعنى : جنِّبهم الأصنام ليُقيموا الصلاة ، هذا قول مقاتل .

والثاني : أنها تتعلق بقوله : (أسكنت) ، فالمعنى : أسكنتُهم عند بيتك ليُقيموا الصلاة ، لأن البيت قِبلة الصلوات ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فاجعل أفئدة من الناس) أي : قلوب جماعة من الناس . قال ابن الأنباري : وإنما عبَّر عن القلوب بالأفئدة ، لقُرب القلب من الفؤاد ومجاورته ، قال امرؤ القيس :

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ أَصَابَ الفُؤَادَ غَدَاةَ الرَّحِيلِ فَلَمْ أَنْتَصِرِ[1]

وقال آخر :

كَأَنَّ فُؤَادِي كُلَّمَا مَرَّ رَاكِبٌ جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضاً إِلى وَكْرِ

وقال آخر :

وإِنَّ فُؤَاداً قَادَنِي لِصَبَابَةٍ إِلَيْكِ عَلَى طُولِ الهَوى لَصَبُورُ

يعنون بالفؤاد : القلب .

قوله تعالى : (تهوي إليهم) قال ابن عباس : تَحِنُّ إليهم . وقال قتادة :

---

(١) ديوانه : ١٥٥ . وقوله : رمتني بسهم ، أي : نظرت إلي نظرة فلم أنتصر ، أي : لم يبلغ حبي من قلبها مابلغ حبها من قلبي . وقال الطوسي : سهمها هاهنا : عيناها .

تنزع إليهم . وقال الفراء : تريدهم ، كما تقول : رأيت فلاناً يهوي نحوك ، أي : يريدك . وقرأ بعضهم : « تَهوَى إليهم » بمعنى : تهواهم ، كقوله : (ردفَ لكم) [النمل : ٧٢] ، أي : ردفكم . و « إلى » توكيد للكلام . وقال ابن الأنباري : « تَهوي إليهم » : تنحط إليهم وتنحدر .

وفي معنى هذا المَيل قولان :

أحدهما : أنه المَيل إلى الحج ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه حُبُّ سُكنى مكة ، رواه عطية عن ابن عباس . وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : لو كان إبراهيم قال : فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم ، لحجّه اليهود والنصارى ، ولكنه قال : من الناس .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾

قوله تعالى : (ربنا إنك تعلم ما نخفي) قال أبو صالح عن ابن عباس : ما نخفي من الوَجد بمفارقة إسماعيل ، وما نعلن من الحُبّ له . قال المفسرون : إنما قال هذا لمّا نزل إسماعيل الحرم ، وأراد فراقه .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾

قوله تعالى : (الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَر) أي : بعد الكبر (إسماعيل وإسحاق) قال ابن عباس : وُلد له إسماعيلُ وهو ابن تسع وتسعين ، ووُلد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

قوله تعالى : (ربنا وتقبَّل دعائي) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وهبيرة عن حفص عن عاصم : « وتقبَّل دعائي » بياء في الوصل . وقال البزي عن ابن كثير : يصل ويقف بياء . وقال قنبل عن ابن كثير : يُشِمُّ الياء في الوصل ، ولا يثبتها ، ويقف عليها بالألف . الباقون « دعاءِ » بغير ياء في الحالين . قال أبوعلي : الوقف والوصل بياء هو القياس ، والإشمام جائز ، لدلالة الكسرة على الياء .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

قوله تعالى : (ربنا اغفر لي ولوالديَّ) قال ابن الأنباري : استغفرَ لأبويه وهما حيّان ، طمعاً في أن يُهْدَيا إلى الإسلام . وقيل : أراد بوالديه : آدم ، وحواء . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ ، والنخعي ، والزهري : « ولِولَديَّ » يعني : إسماعيل وإسحاق ، يدل عليه ذِكرُهما قبل ذلك . وقرأ مجاهد : « ولوالِدِي » على التوحيد . وقرأ عاصم الجُحدري : « ولِوُلْدي » بضم الواو . وقرأ يحيى بن يعمر ، والجَوني : « ولِوَلَدِي » بفتح الواو وكسر الدال على التوحيد . (يوم يقوم الحساب) أي : يَظهر الجزاء على الأعمال . وقيل : معناه : يوم يقوم الناس للحساب ، فاكتُفي بذِكر الحساب من ذِكر الناس إذ كان المعنى مفهوماً .

﴿ وَلَاتَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

قوله تعالى : (ولا تحسبَنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون) قال ابن عباس : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم .

قولهتعالى : (إنما يؤخِّرهم) وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو رزين ، وقتادة : « نؤخِّرهم » بالنون ، أي : يؤخر جزاءهم (ليوم تشخص فيه الأبصار) أي : تشخص أبصار الخلائق لظهور الأحوال فلا تغتمض .

قولهتعالى : (مهطعين) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الإهطاع : النظر من غير أن يَطْرِف الناظر ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والضحاك ، وأبو الضُّحى .

والثاني : أنه الإسراع ، قاله الحسن ، وسعيد بن جُبير ، وقتادة ، وأبو عبيدة . وقال ابن قتيبة : يقال : أهطع البعير في سيره ، واستهطع : إذا أسرع . وفي ما أسرعوا إليه قولان : أحدهما : إلى الداعي ، قاله قتادة . والثاني : إلى النار ، قاله مقاتل .

والثالث : أن المُهطع : الذي لا يرفع رأسه ، قاله ابن زيد .

وفي قوله : (مقنعي رؤوسهم) قولان :

أحدها : رافعي رؤوسهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وأنشد أبو عبيدة :

أَنْغَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وأَقْنَعَا كَأَنَّما أَبْصَرَ شَيْئًا أَطْمَعَا [1]

وقال ابن قتيبة : المقنع رأسه : الذي رفعه وأقبل بطرْفه على ما بين يديه . وقال الزجاج : رافعي رؤوسهم ، ملتصقة بأعناقهم . و « مهطعين مقنعي رؤوسهم » نصبٌ على الحال ، المعنى : ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين .

---

(١) البيت غير منسوب في « الطبري » ١٣/٢٣٨ ، و « القرطبي » ٩/٣٧٧ . وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب ، وأقنعه : رفعه ، يقول : هزّ رأسه نحوي ، ورفعه يتأملني كما يتأمل شيئاً فيه مطمع له ، وهو شاهد على أن الاقناع : هو الرفع .

والثاني : ناكسي رؤوسِهم ، حكاه الماوردي عن المؤرّج .

قوله تعالى : (لا يرتدُّ إليهم طرفهم) أي : لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر ، فهي شاخصة . قال ابن قتيبة : والمعنى : أن نظرهم إلى شيء واحد . وقال الحسن : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء ، لا ينظر أحد إلى أحد .

قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) الأفئدة : مساكن القلوب .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال :

أحدها : أن القلوب خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر ، رواه عطاء عن ابن عباس . وقال قتادة : خرجت من صدورهم فنَشِبَت في حلوقهم ، فأفئدتهم هواء ليس فيها شيء .

والثاني : وأفئدتهم ليس فيها شيء من الخير ، فهي كالخِرْبة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثالث : وأفئدتهم مُنخرِقة لا تعي شيئاً ، قاله مُرَّة بن شراحيل . وقال الزجاج : متخرّقة لا تعي شيئاً من الخوف .

والرابع : وأفئدتهم جُوْف لا عقول لها ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لحسّان :

ألاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاء[1]

فعلى هذا يكون المعنى : أن قلوبهم خلت عن العقول، لِما رأوا من الهول . والعرب تسمي كلَّ أجوفَ خاوٍ : هواءً . قال ابن قتيبة : ويقال : أفئدتهم منخوبة من الخوف والجُبْن .

(١) ديوانه : ٧ و « مجاز القرآن » ١/٣٤٤ ، و « الطبري » ١٣/٢٤١ ، و « القرطبي » ٩/٣٧٧ و « اللسان » ، و « التاج » هوا ، جوف . والمجوف : الخالي الجوف ، يريد به الجبان ، وكذلك النخب والهواء .

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَالَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾

قوله تعالى : (وأنذر الناس) أي : خوِّفهم (يوم يأتيهم العذاب) يعني به : يوم القيامة ؛ وإنما خصه بذكر العذاب ، وإن كان فيه ثواب ، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعُصاة . قال ابن عباس : يريد بالناس هاهنا : أهل مكة .

قوله تعالى : (فيقول الذين ظلموا) أي : أشركوا (ربنا أخِّرنا إلى أجل قريب) أي : أمهلنا مُدَّة يسيرة . وقال مقاتل : سألوا الرجوع إلى الدنيا ، لأن الخروج من الدنيا قريب . (نُجِبْ دعوتك) يعني : التوحيد ، فيقال لهم : (أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ) أي : حلفتم في الدنيا أنكم لا تُبعَثُون ولا تنتقلون من الدنيا إلى الآخرة .

﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾

قوله تعالى : (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) أي : نزلتم في أماكنهم وقُراهم ، كالحِجر ومَدين ، والقُرى التي عُذِّب أهلها . ومعنى « ظلموا أنفسهم » أي : ضرُّوها بالكفر والمعصية . (وتَبَيَّن لكم) وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي ، وأبو المتوكل الناجي « وتُبُيِّن » بضم التاء . (كيف فعلنا بهم) يعني : كيف عذَّبناهم ، يقول : فكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن المخالفة اعتباراً بمساكنهم بعد ما علمتم فعلنا بهم ، (وضربنا لكم الأمثال) قال ابن عباس : يريد الأمثال التي في القرآن .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

قوله تعالى : (وقد مكروا مكرهم) في المشار إليهم أربعة أقوال :

أحدها : أنه نمرود الذي حاجّ إبراهيم في ربه ، قال : لا أنتهي حتى أنظر إلى السماء ، فأمر بفرخَي نسر فرُبِّيا حتى سمنا واستعلجا ، ثم أمر بتابوت فنُحت ، ثم جعل في وسطه خشبة ، وجعل على رأس الخشبة لحماً شديد الحُمرة ، ثم جوّعهما وربط أرجلهما بأوتار إلى قوائم التابوت . ودخل هو وصاحب له في التابوت وأغلق بابه ، ثم أرسلهما ، فجعلا يريدان اللحم ، فصَعِدا في السماء ما شاء الله ، ثم قال لصاحبه : افتح وانظر ماذا ترى ؟ ففتح ، فقال : أرى الأرض كأنها الدخان ، فقال له : أغلِق ، ثم صَعِد ما شاء الله ، ثم قال : افتح فانظر ، ففتح ، فقال : ما أرى إلا السماء ، وما نزداد منها إلا بُعداً ، قال : فصوِّب خشبتك ، فصوَّبها ، فانقضَّت النسور تريد اللحم ، فسمعت الجبال هدَّتها ، فكادت تزول عن مراتبها . هذا قول علي بن أبي طالب . وفي رواية عنه : كانت النسور أربعة . وروى السُّدّي عن أشياخه : أنه ما زال يصعد إلى أن رأى الأرض يحيط بها بحر ، فكأنها فَلْكة في ماء ، ثم صَعِدَ حتى وقع في ظُلمة ، فلم يرَ ما فوقه ولم يرَ ما تحته ، ففزع ، فصوب اللحم ، فانقضَّت النسور ، فلما نزل أخذ في بناء الصرح . وروي عن ابن عباس أنه بنى الصرح ، ثم صَعِدَ منه مع النسور ، فلما لم يقدر على السماء ، اتخذه حِصناً ، فأتى اللهُ بنيانَه من القواعد . وقال عكرمة : كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنُّشّاب ، فرمى بسهم فعاد إليه ملطَّخاً بالدم ، فقال : كُفيتَ إِلَه السماء ، وذلك من دم سمكة في بحر معلَّق في الهواء ، فلما هاله الارتفاع ،

قال لصاحبه : صوِّب الخشبة ، فصوَّبَها ، فانحطت النسور ، فظنت الجبال أنه أمرٌ نزل من السماء فزالت عن مواضعها . وقال غيره : لما رأت الجبال ذلك ، ظنت أنه قيام الساعة ، فكادت تزول ، وإلى هذا المعنى ذهب سعيد بن جبير ، وأبو مالك .

والقول الثاني : أنه بختنصر ، وأن هذه القصة له جرت ، وأن النسور لما ارتفعت تطلب اللحم إلى حيث شاء الله ، نودي : يا أيها الطاغية ، أين تريد ؟ ففرِق ، ثم سمع الصوت فوقه ، فنزل ، فلما رأت الجبال ذلك ، ظنت أنه قيام الساعة فكادت تزول ، وهذا قول مجاهد .

والثالث : أن المشار إليهم الأمم المتقدمة . قال ابن عباس ، وعكرمة : مكرهم : شركهم .

والرابع : أنهم الذين مكروا برسول الله ﷺ حين همُّوا بقتله وإخراجه .

وفي قوله : (وعند الله مكرهم) قولان : أحدهما : أنه محفوظ عنده حتى يجازَيهم به ، قاله الحسن ، وقتادة . والثاني : وعند الله جزاء مكرهم .

قوله تعالى : (وإن كان مكرهم) وقرأ أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وأُبيّ ، وابن عباس ، وعكرمة ، وأبو العالية : « وإن كاد مكرهم » بالدال . (لتزول منه الجبال) . وقرأ الأكثرون « لِتزولَ » بكسر اللام الأولى من « لتزول » وفتح الثانية . أراد : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، أي : هو أضعف وأوهن ، كذلك فسرها الحسن البصري . وقرأ الكسائي « لَتزولُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، أراد : قد كادت الجبال تزول من مكرهم ، كذلك فسرها ابن الأنباري .

وفي المراد بالجبال قولان :

أحدهما : أنها الجبال المعروفة ، قاله الجمهور .

والثاني : أنها ضُربت مثلاً لأمر النبي ﷺ ، وثبوتُ دينه كثبوت الجبال

الراسية ، والمعنى : لو بلغ كيدهم إلى إزالة الجبال، لَمَا زال أمر الإسلام،قاله الزجاج . قال أبو علي : ويدل على صحة هذا قوله : (فلا تحسَبَنَّ اللهَ مُخلِفَ وعْدِهِ رسلَه) أي : فقد وعدك الظهورَ عليهم . قال ابن عباس : يريد بوعده : النصر والفتح وإظهار الدين . (إن الله عزيز) أي : منيع (ذو انتقام) من الكافرين، وهو أن يجازيَهم بالعقوبة على كفرهم .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

قوله تعالى : (يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض) وروى أبان « يوم نُبدِّل » بالنون وكسر الدال « الأرضَ » بالنصب، « والسمواتِ » بخفض التاء، ولا خلاف في نصب « غير » .

وفي معنى تبديل الأرض قولان :

أحدهما : أنها تلك الأرض، وإنما يُزاد فيها ويُنقص منها ، وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها ، وتُمد مَدَّ الأديم ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس . وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ « يوم تبدل الأرض غير الأرض، قال : يبسطها ويمدها مَدَّ الأديم »[1] .

---

(١) « الطبري » ١٣/٢٥٢ ، وفي سنده جهالة ، وهو جزء من حديث « الصور » المشهور ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ٢/١٤٦ من رواية أبي القاسم الطبراني ، وقال في آخره : ثم ذكره بطوله ، ثم قال : هذا حديث مشهور ، وهو غريب جداً، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة ، وفي بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به اسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة . وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة، كأحمد بن حنبل ، وابن أبي حاتم ، وعمرو بن أبي الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك الحديث . وقال ابن عدي : أحاديثه كلها فيها نظر ، إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء . ـــ

والثاني : أنها تبدَّل بغيرها . ثم فيه أربعة أقوال . أحدها : أنها تُبدَّل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمل عليها خطيئة ، رواه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود ، وعطاء عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . والثاني : أنها تُبدَّل ناراً ، قاله أُبيّ بن كعب . والثالث : أنها تُبدَّل بأرض من فضة ، قاله أنس بن مالك . والرابع : تُبدَّل بخبزة بيضاء ، فيأكل المؤمن من تحت قدميه ، قاله أبو هريرة ، وسعيد بن جبير ، والقرظي . وقال غيرهم : يأكل منها أهل الإسلام حتى يُفرغ من حسابهم .

فأما تبديل السموات ، ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنها تُجعَل من ذهب ، قاله علي عليه السلام . والثاني : أنها تصير جِناناً ، قاله أُبيّ بن كعب . والثالث : أن تبديلها : تكوير شمسها وتناثر نجومها ، قاله ابن عباس . والرابع : أن تبديلها : اختلاف أحوالها ، فمرة كالمُهْل ، ومرَّة تكون كالدّهان ، قاله ابن الأنباري . والخامس : أن تبديلها أن تُطوى كطَيّ السِّجِلِّ للكتاب . والسادس : أن تنشقّ فلا تُظِلّ ، ذكرها الماوردي .

قوله تعالى : (وبرزوا لله الواحد القهار) أي : خرجوا من القبور .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ . سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ . لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

قوله تعالى : (وترى المجرمين) يعني : الكفار (مُقرَّنين) يقال : قرنتُ الشيء إلى الشيء : إذا وصلتَه به .

قلت : (أي ابن كثير) وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة . وأما سياقه فغريب جداً . ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، والله أعلم .

وفي معنى « مُقرَّنين » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم يُقرَّنون مع الشياطين ، قاله ابن عباس . والثاني : أن أيدَيهم وأرجلَهم قُرنت إلى رقابهم ، قاله ابن زيد . والثالث : يُقرَّن بعضهم إلى بعض ، قاله ابن قتيبة .

وفي الأصفاد ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها الأغلال ، قاله ابن عباس ، وابن زيد ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وابن الأنباري . والثاني : القيود والأغلال ، قاله قتادة . والثالث : القيود ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

فأما السرابيل ، فقال أبو عبيدة : هي القُمُص ، واحدها سِربال . وقال الزجاج : السِّربال : كل ما لُبس . وفي القَطِرَانِ ثلاث لغات : فتح القاف وكسر الطاء ، وفتح القاف مع تسكين الطاء ، وكسر القاف مع تسكين الطاء .

وفي معناه قولان :

أحدها : أنه النحاس المذاب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه قَطِران الإبل ، قاله الحسن ، وهو شيء يتَحلَّب من شجر تُهنَأ به الإبل[1] . قال الزجاج : وإنما جُعل لهم القَطِرَان ، لأنه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ، ولو أراد الله تعالى المبالغة في إحراقهم بغير ذلك لقَدَرَ ، ولكنه حذَّرهم ما يعرفون حقيقته . وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وأبو مجلز ، وعِكرمة ، وقتادة ، وابن أبي عبلة ، وأبو حاتم عن يعقوب : « مِنْ قِطْرٍ » بكسر القاف وسكون الطاء والتنوين « آنٍ » بقطع الهمزة وفتحها ومدها . والقِطْر : النحاس ، وآن : قد انتهى حَرُّه .

(١) يقال : هنأ الابل يهنؤها ويهنئها هنأً وهِناءً : طلاها بالهِناء ، وهو القطران .

قوله تعالى : (وتغشى وجوهَهم النار) أي : تعلوها . واللام في (لِيَجْزِيَ) متعلقة بقوله : (وبرزوا) .

﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قوله تعالى : (هذا بلاغ للناس) في المشار إليه قولان :

أحدهما : أنه القرآن . والثاني : الإنذار . والبلاغ : الكفاية . قال مقاتل : والمراد بالناس : أهل مكة .

قوله تعالى : (ولينذَروا به) أي : أُنزل ليُنذَروا به ، وليعملوا بما فيه من الحُجج (أنما هو إله واحد ، وليذّكر) أي : وليتعظ (أولو الألباب) .

★ ★ ★

سورة الحجر

وهي مكية كلها من غير خلاف نعلمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (الر تلك آيات الكتاب) قد سبق بيانه [يونس : ١] .

قوله تعالى : (وقرآن مبين) فيه قولان :

أحدهما : أن القرآن : هو الكتاب ، جُمع له بين الاسمين .

والثاني : أن الكتاب : هو التوراة والإنجيل ، والقرآن : كتابُنا . وقد ذكرنا في أول (يوسف) معنى المبين .

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ربما) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي « رُبَّما » مشددة . وقرأ نافع ، وعاصم ، وعبد الوارث « رُبَما » بالتخفيف . قال الفراء : أَسد وتميم يقولون : « رُبَّما » بالتشديد ، وأهل الحجاز وكثير من قيس يقولون : « رُبَما » بالتخفيف . وتَيْم الرَّباب يقولون : « رَبَّما » بفتح الراء . وقيل : إنما قرئت بالتخفيف ، لِما فيها من التضعيف ، والحروف

المضاعَفة قد تحذف، نحو « إنّ » و « لكنّ » فإنهم قد خفّفوها . قال الزجاج : يقولون : رُبَّ رُجل جاءني ، ورُبَ رُجل جاءني ، وأنشد :

أزهير إن يَشِبِ القَذالُ فإنني رُبَ هَيْضَلٍ مَرِسٍ لففْت بِهَيضَلِ

هذا البيت لأبي كبير الهذلي[1] ، وفي ديوانه :

رُبَ هَيْضَلٍ لجَبٍ لففْتُ بِهَيْضَلِ

والهَيْضَل : جمع هَيْضَلة ، وهي الجماعة يُغزى بهم ، يقول : لففتهم بأعدائهم في القتال . و « رُبَّ » كلمة موضوعة للتقليل ، كما أن « كم » للتكثير ، وإنما زيدت « ما » مع « رُبَّ » ليليَها الفعل ، تقول : رُبَّ رجل جاءني ، وربما جاءني زيد . وقال الأخفش : أُدخل مع « رُبَّ » ما ، ليُتكلم بالفعل بعدها ، وإن شئت جعلت « ما » بمنزلة « شيء » ، فكأنك قلت : رُبَّ شيء ، أي : رُبَّ وَدٍّ يَوَدُّه الذين كفروا . وقال أبو سليمان الدمشقي : « ما » هاهنا بمعنى « حين » ، فالمعنى : رُبَّ حين يَوَدُّون فيه .

واختلف المفسرون متى يقع هذا من الكفار ، على قولين :

أحدها : أنه في الآخرة . ومتى يكون ذلك ؟ فيه أربعة أقوال : أحدها : أنه إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم مَنْ شاء الله من أهل القِبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ؛ فسمع الله ماقالوا ، فأمر عن كان في النار من أهل القِبلة فأُخرجوا ، فلما رأى ذلك الكفار ، قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنُخرَج كما أُخرجوا ، رواه أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ[2] ،

---

(١) ديوان الهذليين ٢/٨٩ .

(٢) « الطبري » ١٤/٢ ، وفي « سنده » خالد بن نافع الأشعري ، قال الذهبي في « الميزان » : ضعفه أبو زرعة والنسائي . وقال أبو حاتم : ليس بقوي يكتب حديثه ، وقال أبو داود : ـــ

وذهب إليه ابن عباس في رواية وأنس بن مالك، ومجاهد، وعطاء، وأبو العالية، وإبراهيم. والثاني: أنه ما يزال الله يرحم ويشفّع حتى يقول: من كان من المسلمين فليدخل الجنة، فذلك حين يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين، رواه مجاهد عن ابن عباس [1]. والثالث: أن الكفار إذا عاينوا القيامة، وَدُّوا لو كانوا مسلمين، ذكره الزجاج. والرابع: أنه كلما رأى أهل الكفر حالاً من أحوال القيامة يعذَّب فيها الكافر ويَسلم من مكروهها المؤمن، وَدُّوا ذلك، ذكره ابن الأنباري.

والقول الثاني: أنه في الدنيا، إذا عاينوا وتبين لهم الضلال من الهدى وعلموا مصيرهم، وَدُّوا ذلك، قاله الضحاك.

فان قيل: إذا قلتم: إن «رُبَّ» للتقليل، وهذه الآية خارجة مخرج الوعيد، فانما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَد به؟ فعنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري:

أحدهن: أن «ربما» تقع على التقليل والتكثير، كما يقع الناهل على العطشان والريَّان، والجَوْن على الأسود والأبيض.

والثاني: أن أهوال القيامة وما يقع بهم من الأهوال تكثُر عليهم، فاذا عادت إليهم عقولهم، وَدُّوا ذلك.

— متروك الحديث. قال الذهبي: وهذا تجاوز في الحد، فان الرجل قد حدث عنه أحمد بن حنبل، ومسدد، فلا يستحق الترك. والحديث ذكره ابن كثير ٥٤٦/٢ عن الطبراني من حديث خالد بن نافع الأشعري. وأورده السيوطي في «الدر» ٩٢/٤، وزاد نسبته لابن أبي عاصم في «السنة»، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشور.

(١) الطبري ٣/١٤.

والثالث : أن هذا الذي خُوِّفوا به ، لو كان مما يُودُّ في حال واحدة من أحوال العذاب ، أو كان الإنسان يخاف الندم إذا حصل فيه ولا يتيقَّنُه ، لوجب عليه اجتنابه .

فان قيل : كيف جاء بعد « ربما » مستقبَل ، وسبيلها أن يأتي بعدها الماضي ، تقول : ربما لقيت عبد الله ؟

فالجواب : أن ما وَعَد اللهُ حَقٌّ ، فمستقبَلُه بمنزلة الماضي ، يدل عليه قوله : (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم) [المائدة : ١١٦] وقوله : (ونادى أصحابُ الجنة) [الأعراف : ٤٤] (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) [سبأ : ٥١] ، على أن الكسائي والفراء حكيا عن العرب أنهم يقولون : ربما يندم فلان ، قال الشاعر :

رُبَّما تجزَعُ النفوس من الأمـ ـرِ له فُرجَة كَحَلِّ العِقالِ

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ذرهم يأكلوا) أي : دع الكفار يأخذوا حظوظهم في الدنيا ، (ويلههم الأَمَل) أي : ويشغلهم ما يأملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة (فسوف يعلمون) إذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا ، وهذا وعيد وتهديد ، وهذه الآية عند المفسرين منسوخة بآية السيف .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ . مَاتَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما أهلكنا من قرية) أي : ما عذَّبنا من أهل قرية (إلا

ولها كتاب معلوم) أي أجَل موقَّت لا يُتقدم ولا يُتأخر عنه . (ما تسبق من أمَّة أجلها) « من » صلة ، والمعنى : ما تتقدم وقتها الذي قدِّر لها بلوغه ، ولا تستأخر عنه . قال الفراء : إنما قال : « أجلها » لأن الأمَّة لفظُها مؤنث ، وإنما قال : « يستأخرون » إخراجاً له على معنى الرجال .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذِّكر) قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . قال ابن عباس : والذِّكر : القرآن . وإنما قالوا هذا استهزاءً ، لو أيقنوا أنه نُزِّل عليه الذِّكر ، ما قالوا : (إنك لمجنون) . قال أبو علي الفارسي : وجواب هذه الآية في سورة أخرى في قوله : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) [القلم : ٢] .

قوله تعالى : (لو ما تأتينا) قال الفراء : « لو ما » و « لو لا » لغتان معناهما : هلاّ ، وكذلك قال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وأنشد لابن مُقبل :

لَوْمَا الحَيَاءُ ولَوْمَا الدِّينُ عِبْتُكُمَا
بِبَعْضِ مَا فِيكُمَا إذْ عِبْتُمَا عَوَرِي (١)

قال المفسرون : إنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه ، وأن الله أرسله ، فأجابهم الله تعالى بقوله : (ما نُنَزِّلُ الملائكة إلا بالحق) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر « ما تَنَزَّلُ » بالتاء المفتوحة « الملائكةُ » بالرفع . وروى أبو بكر

(١) ديوانه : ٧٦ ، و « الطبري » ١٤/١٦ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٤٦ ، و « القرطبي » ١٠/٤ ، و « البحر » لأبي حيان ٥/٤٤٣ ، و « شواهد الكشاف » ١٢٦ ، و « اللسان » بعض .

عن عاصم « ما تُنَزَّل » بضم التاء على ما لم يُسم فاعله . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وخلف « ما نُنَزِّل » بالنون والزاي مشددة « الملائكةَ » نصباً .

وفي المراد بالحق أربعة أقوال :

أحدها : أنه العذاب إن لم يؤمنوا ، قاله الحسن . والثاني : الرسالة ، قاله مجاهد . والثالث : قبض الأرواح عند الموت ، قاله ابن السائب . والرابع : أنه القرآن ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وما كانوا) يعني : المشركين (إذاً مُنظَرين) أي : عند نزول الملائكة إذا نزلت .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنا نحن نزّلنا الذِّكر) من عادة الملوك إذا فعلوا شيئاً ، قال أحدهم : نحن فعلنا ، يريد نفسه وأتباعه ، ثم صار هذا عادة للملك في خطابه ، وإن انفرد بفعل الشيء ، فخوطبت العرب بما تعقل من كلامها . والذِّكر : القرآن ، في قول جميع المفسرين .

وفي هاء « له » قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الذِّكر ، قاله الأكثرون . قال قتادة : أنزله الله ثم حفظه ، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ، ولا ينقص منه حقاً .

والثاني : أنها ترجع إلى النبي ﷺ ، فالمعنى : (وإنا له لحافظون) من الشياطين والأعداء ، لقولهم : « إنك لمجنون » ، هذا قول ابن السائب ، ومقاتل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا من قبلك) يعني : رسلاً ، فحُذف المفعولُ ،

لدلالة الإرسال عليه . والشِّيَع : الفِرَق ، وحكي عن الفراء أنه قال : الشيعة : الأُمَّة المتابعة بعضها بعضاً فيما يجتمعون عليه من أمر .

﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾

قوله تعالى : (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) هذا تعزية للنبي ﷺ ، والمعنى : إنَّ كل نبيٍّ قبلك كان مبتلىً بقومه كما ابتُليت .

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (كذلك نسلكه) في المشار إليه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الشِّرك ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن زيد .

والثاني : أنه الاستهزاء ، قاله قتادة .

والثالث : التكذيب ، قاله ابن جريج ، والفراء .

ومعنى الآية : كما سلكنا الكفر في قلوب شِيَع الأولين ، نُدخل في قلوب هؤلاء التكذيبَ فلا يؤمنوا . ثم أخبر عن هؤلاء المشركين ، فقال : (لا يؤمنون به) . وفي المشار إليه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الرسول . والثاني : القرآن . والثالث : العذاب .

قوله تعالى : (وقد خلت سُنَّة الأولين) فيه قولان :

أحدهما : مضت سُنَّة الله في إهلاك المكذِّبين .

والثاني : مضت سُنَّتهم بتكذيب الأنبياء .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء) يعني : كفار مكة (فظلّوا فيه يعرُجون) أي : يصعدون ، يقال : ظل يفعل كذا : إذا فعله بالنهار .

وفي المشار إليهم بهذا الصعود قولان :

أحدها : أنهم الملائكة ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، فالمعنى : لو كُشف عن أبصار هؤلاء فرأوا باباً مفتوحاً في السماء والملائكة تصعد فيه ، لما آمنوا به .

والثاني : أنهم المشركون ، قاله الحسن ، وقتادة ، فيكون المعنى : لو وصّلناهم إلى صعود السماء ، لم يستشعروا إلا الكفر ، لعنادهم .

قوله تعالى : (لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا) قرأ الأكثرون بتشديد الكاف . وقرأ ابن كثير ، وعبد الوارث بتخفيفها . قال الفراء : ومعنى القراءتين متقارب ، والمعنى : حُبستْ ، من قولهم : سَكَرَت الريح : إذا سكنت وركدت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معنى « سُكِرَتْ » بالتخفيف ، مأخوذ من سُكْر الشراب ، يعني : أن الأبصار حارت ، ووقع بها من فساد النظر مثل مايقع بالرجل السكران من تغيُّر العقل . قال ابن الأنباري : إذا كان هذا معنى التخفيف ، فسُكِّرت ، بالتشديد ، يراد به وقوع هذا الأمر مرة بعد مرة . وقال أبو عبيد : « سُكِّرت » بالتشديد ، من السُّكور التي تمنع الماءَ الجِرْيَةَ ، فكأن هذه الأبصار مُنعت من النظر كما يمنع السِّكرُ الماءَ من الجري . وقال الزجاج : « سُكِّرت » بالتشديد ، فسروها : أُغشيت ، و « سُكِرَتْ » بالتخفيف : تحيَّرتْ وسكنتْ عن أن تنظر ، والعرب تقول : سَكِرَتِ الريحُ تَسْكَرُ : إذا سكنت . وروى العوفي عن ابن عباس : « إنما سُكِّرت أبصارنا » قال : أُخذ بأبصارنا وشبّه علينا ، وإنما سُحِرْنا . وقال مجاهد : « سُكِّرت » سُدَّت بالسِّحر ، فيماثل لأبصارنا غيرُ ماترى .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (ولقد جعلنا في السماء بروجاً) في البروج ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها بروج الشمس والقمر ، أي : منازلهما ، قاله ابن عباس ، وأبو عبيدة في آخرين . قال ابن قتيبة : وأسماؤها : الحَمَل ، والثَّور ، والجَوْزاء ، والسَّرَطان ، والأسد ، والسُّنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجَدْي ، والدلو ، والحوت .

والثاني : أنها قصور ، روي عن ابن عباس أيضاً . وقال عطية : هي قصور في السماء فيها الحرس . وقال ابن قتيبة : أصل البروج : الحصون .

والثالث : أنها الكواكب ، قاله مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل . قال أبو صالح : هي النجوم العِظام . قال قتادة : سُميت بروجاً ، لظهورها .

قوله تعالى : (وزيَّنَّاها) أي : حسَّنَّاها بالكواكب .

وفي المراد بالناظرين قولان : أحدهما : أنهم المبصرون . والثاني : المعتبِرون .

قوله تعالى : (وحفِظناها من كل شيطان رجيم) أي : حفِظناها أن يصل إليها شيطان أو يعلم من أمرها شيئاً إلا استراقاً ، ثم يتبعه الشهاب . والرجيم مشروح في (آل عمران : ٣٦) .

واختلف العلماء : هل كانت الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث نبينا ﷺ ، أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنها لم تُرْمَ حتى بُعث ﷺ ، وهذا المعنى : مذكور في رواية

سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقد أخرج في « الصحيحين » من حديث سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب »[(١)] ، وظاهر هذا الحديث أنها لم تكن قبل ذلك . قال الزجاج : ويدل على أنها إنما كانت بعد مولد رسول الله ﷺ أن شعراء العرب الذين يمثلون بالبرق والأشياء المسرعة ، لم يوجد في أشعارها ذِكر الكواكب المنقضّة ، فلما حدثت بعد مولد نبينا ﷺ ، استعملت الشعراء ذِكرها ، فقال ذو الرُّمَّة :

كأنَّه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ مُسَوَّمٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ[(٢)]

والثاني : أنه قد كان ذلك قبل نبينا ﷺ ، فروى مسلم في « صحيحه »

---

(١) البخاري ٢/٢١٠ و ٨/٥١٣ ، ومسلم ١/٣٣١ ، ولفظه في البخاري بتمامه : « عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ماحال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم فقالوا : ياقومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، فأنزل الله على نبيه ﷺ (قل أوحي إلي) وإنما أوحي إليه قول الجن » . ورواه الترمذي ٢/١٦٧ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأورده ابن كثير ٢/١٦٢ من رواية البيهقي في « دلائل النبوة » .

(٢) ديوانه : ٣٦ طبع المكتب الاسلامي ، و « مجاز القرآن » ٢/٩٥ ، و « الكامل المبرد » ٨٣٣ ، و « الأمالي » للقالي ٣/٦٥ ، و « اللسان » : قضب ، و « القرطبي » ١٣/٢٠٣ . وقوله : في إثر عفرية : أي : شيطان ، وقوله : مسوم ، أي : معلم ، من السومة ، وهي العلامة . ومعنى البيت : كأن الثور كوكب مسوّم منقضب في إثر عفرية في سواد الليل .

من حديث علي بن الحسين عن ابن عباس قال : بينا النبي ﷺ جالس في نفر من أصحابه ، إذ رمي بنجم ، فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية » ؟ قالوا : كنا نقول : يموت عظيم ، أو يولد عظيم ، قال : « فانها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكنْ ربُّنا إذا قضى أمراً ، سبَّح حملة العرش ، ثم سبَّح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهلَ هذه السماء ، ثم يستخبر أهل السماء السابعة حملةَ العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهلُ كل سماءٍ أهلَ سماء ، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن ويُرمَون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرِفون فيه ويزيدون »[١].

وروي عن ابن عباس أن الشياطين كانت لا تُحجب عن السموات ، فلما وُلد عيسى ، مُنعتْ من ثلاث سموات ، فلما وُلد رسول الله ﷺ ، مُنعوا من السموات كلِّها . وقال الزهري : قد كان يرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ، ولكنها غُلِّظت حين بُعث ﷺ ، وهذا مذهب ابن قتيبة ، قال : وعلى هذا وجدنا الشعر القديم ، قال بشر بن أبي خازم ، وهو جاهلي :

والعَيْرُ يَرْهَقُها الغُبارُ وجَحْشُها   يَنْقَضُّ خلفهما انقضاضَ الكوكبِ[٢]

وقال أوس بن حَجَر ، وهو جاهلي[٣] :

---

(١) مسلم ٤/١٧٥٠ - ١٧٥١ ، وقد رواه المصنف بالمعنى ، ورواه أحمد في « المسند » من حديث ابن عباس رقم (١٨٨٢ ، ١٨٨٣) ، ولفظ المصنف قريب من لفظ أحمد .

(٢) ديوانه : ٣٧ ، و « تأويل مشكل القرآن » ٣٣٣ ، و « المعاني الكبير » ٢/٧٣٩ ، و « الحيوان » ٦/٢٧٩ . شبه الحمار والجحش بالكوكب المنقض في سرعته وبياضه ، وقال الجاحظ في « الحيوان » ٦/٢٧٩ : وقد طعنت الرواة في هذا الشعر الذي أضفتموه إلى بشر بن أبي خازم من قوله : « والعير يرهقها .... » البيت ، فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب ، وقالوا : في شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره .

(٣) ديوانه : ٣ ، و « المعاني الكبير » ٢/٧٣٨ ، و « غريب القرآن » ٣٣٤ ، و « الحيوان » ٦/٢٧٤ ، و « اللسان » : درأ .

فانقض كالدّرّيء يتبعه نقع يثور تخالُه طُنُبا

قوله تعالى : (إلا من استرق السمع) أي : اختطف ما سمعه من كلام الملائكة . قال ابن فارس : استرق السمع : إذا سمع مستخفياً . (فأتبعه) أي : لحقه (شهاب مبين) قال ابن قتيبة : كوكب مضيء . وقيل : « مبين » بمعنى : ظاهر يراه أهل الأرض . وإنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض ، فأما وحي الله عز وجل ، فقد صانه عنهم .

واختلفوا ، هل يَقتل الشهاب ، أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يُحرق ويخبِّل ولا يقتُل ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنه يقتُل ، قاله الحسن . فعلى هذا القول ، هل يُقتَل الشيطان قبل أن يخبِر بما سمع ، فيه قولان :

أحدهما : أنه يُقْتَل قبل ذلك ، فعلى هذا ، لاتصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء . قال ابن عباس : ولذلك انقطعت الكهانة .

والثاني : أنه يُقتَل بعد إلقائه ما سمع إلى غيره من الجن ، ولذلك يعودون إلى الاستراق ، ولو لم يصل ، لقطعوا الاستراق .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (والأرضَ مددناها) أي : بسطناها على وجه الماء (وألقينا فيها رواسي) وهي الجبال الثوابت (وأنبتنا فيها) في المشار إليها قولان :

أحدهما : أنها الأرض ، قاله الأكثرون . والثاني : الجبال ، قاله الفراء .

وفي قوله : (من كل شيء موزون) قولان :

أحدهما : أن الموزون : المعلوم ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن جبير ، والضحاك . وقال مجاهد ، وعكرمة في آخرين : الموزون : المقدور . فعلى هذا يكون المعنى : معلومَ القَدْر كأنه قد وُزِن ، لأن أهل الدنيا لمَّا كانوا يعلمون قدر الشيء بوزنه ، أخبر الله تعالى عن هذا أنه معلوم القَدْر عنده بأنه موزون . وقال الزجاج : المعنى : أنه جرى على وَزْنٍ من قَدَر الله تعالى ، لا يجاوز ما قدَّره الله تعالى عليه ، ولا يستطيع خَلْقٌ زيادةً فيه ولا نُقصاناً .

والثاني : أنه عنى به الشيء الذي يُوزَن كالذهب ، والفضة ، والرصاص ، والحديد ، والكُحل ، ونحو ذلك ، وهذا المعنى مروي عن الحسن ، وعكرمة ، وابن زيد ، وابن السائب ، واختاره الفراء .

قوله تعالى : (وجعلنا لكم فيها معايش) في المشار إليها قولان :

أحدهما : أنها الأرض .

والثاني : أنها الأشياء التي أنبتت . والمعايش جمع معيشة . والمعنى : جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها .

وفي قوله :(ومن لستم له برازقين) اربعة أقوال:

أحدها : أنه الدواب والأنعام ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثاني : الوحوش ، رواه منصور عن مجاهد . وقال ابن قتيبة : الوحش ، والطير ، والسباع ، وأشباه ذلك مما لا يرزقه ابن آدم .

والثالث : العبيد والإماء ، قاله الفراء .

والرابع : العبيد ، والأنعام ، والدواب ، قاله الزجاج . قال الفراء : و « مَنْ »

في موضع نصب ، فالمعنى : جعلنا لكم فيها المعايش ، والعبيد ، والإماء . ويقال : إنها في موضع خفض ، فالمعنى : جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين . وقال الزجاج : المعنى : جعلنا لكم الدواب ، والعبيد ، وكُفيتم مؤونة أرزاقها .

فان قيل: كيف قلتم :إن « مَنْ » هاهنا للوحوش والدواب، وإنما تكون لمن يعقل؟

فالجواب : أنه لما وُصفت الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصَف به الناسُ ، فيقال : للآدمي معاش ، ولا يقال : للفرس معاش ، جرت مجرى الناس ، كما قال : (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) [النمل : ١٨] ، وقال : (رأيتهم لي ساجدين) [يوسف : ٤] ، وقال : (كلٌّ في فلكٍ يسبَحون) [الأنبياء : ٣٣] ، وإن قلنا : أُريدَ به العبيد ، والوحوش ، فانه إذا اجتمع الناس وغيرهم ، غُلِّب الناس على غيرهم ، لفضيلة العقل والتمييز .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

قوله تعالى : (وإن من شيء) أي : وما من شيء (إلا عندنا خزائنه) وهذا الكلام عامٌّ في كل شيء . وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة ، فالمعنى عندهم : وما من شيء من المطر إلا عندنا خزائنه ، أي : في حُكمنا وتدبيرنا ، (وما ننزّله) كل عام (إلا بقَدَر معلوم) لا يزيد ولا ينقص ، فما من عام أكثرُ مطراً من عام ، غير أن الله تعالى يصرفه إلى من يشاء ، ويمنعه من يشاء .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) وقرأ حمزة ؛ وخلف : « الريح » . وكان أبو عبيدة يذهب إلى أن « لواقح » بمعنى مَلاقح ، فسقطت الميم منه ، قال الشاعر :

لِيُبْكَ يَزِيدُ بائسٌ لِضَرَاعَةٍ وأَشْعَثُ مِمَّنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ (١)

أراد : المَطاوح ، فحذف الميم ، فمعنى الآية عنده : وأرسلنا الرياح مُلقِحة ، فيكون هاهنا فاعلٌ بمعنى مفْعِل ، كما أتى فاعل بمعنى مفعول ، كقوله : (ماءٍ دافقٍ) [الطارق : ٦] أي : مدفوق ، و (عيشة راضية) [الحاقة : ٢١ والقارعة : ٧] أي : مَرضيَّة ، وكقولهم : ليل نائم ، أي : مَنُوم فيه ، ويقولون : أبقل النبت ، فهو باقل ، أي : مُبقِل . قال ابن قتيبة : يريد أبو عبيدة أنها تُلْقِح الشجر ، وتُلْقِح السحاب كأنها تُنتجه . ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه وهو يجد العرب تسمي الرياحَ لواقحَ ، والريحَ لاقحاً ، قال الطِّرِمَّاح ، وذكر بُرْداً مَدَّه على أصحابه في الشمس يستظلُّون به :

قَلِقٌ لأفنان الريا ح لِلاقحٍ منها وحائل (٢)

فاللاقح : الجنوب ، والحائل : الشمال ، ويسمون الشمال أيضاً : عقيماً ، والعقيم : التي لا تحمل ، كما سمَّوا الجنوب لاقحاً ، قال كثيِّر :

ومرٌّ بسفساف التراب عقيمها (٣)

يعني : الشمال . وإنما جعلوا الريح لاقحاً ، أي : حاملاً ، لأنها تحمل السحاب

---

(١) البيت لنهشل بن حري على الأصح ، شاعر مخضرم ، وقد ينسب إلى غيره ، وصوب البغدادي نسبته إلى نهشل . وهو في « الكتاب » ١/١٤٥ ، و « الطبري » ١٤/٢١ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٤٩ ، و « الشنتمري » ١/١٤٥ ، و « اللسان » ، و « التاج » : طيح . و « العيني » ٤٤٣ ، و « شواهد الكشاف » ٦٥ .

(٢) البيت للطرماح « غريب القرآن » ٢٣٦ .

(٣) « غريب القرآن » ٢٣٧ ، و « اللسان » : سفف .

وتقلّبه وتصرّفه ، ثم تحلّه فينزل ، فهي على هذا حامل ، ويدل على هذا قوله : (حتى إذا أقلّت سحاباً) [الاعراف : ٥٧] أي : حملت . قال ابن الأنباري : شبّه ما تحمله الريح من الماء وغيره ، بالولد الذي تشتمل عليه الناقة ، وكذلك يقولون : حرب لاقح ، لِما تشتمل عليه من الشر ، فعلى قول أبي عبيدة ، يكون معنى « لواقح » : أنها مُلقحة لغيرها ، وعلى قول ابن قتيبة : أنها لاقحة نفسها ، وأكثر الأحاديث تدل على القول الأول (١) . قال عبد الله بن مسعود : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب ، فتحمل الماء ، فتمجّه ثم تَمريه ، فيدرُّ كما تدرُّ اللقحة . وقال الضحاك : يبعث الله الرياح على السحاب فتُلقِحه فيمتلىء ماءً . قال النخعي : تُلْقِح السحاب ولا تُلْقِح الشجر . وقال الحسن في آخرين : تُلْقح السحاب والشجر ، يعنون أنها تُلْقح السحاب حتى يُمطر والشجر حتى يُثمر (٢) .

قوله تعالى : (فأنزلنا من السماء) يعني السحاب (ماءً) يعني المطر (فأسقيناكموه) أي : جعلناه سُقْيا لكم . قال الفراء : العرب مجتمعون على أن يقولوا : سقيت الرجل ، فأنا أسقيه : إذا سقيته لِشَفَتِه ، فإذا أجرَوا للرجل نهراً [قالوا : أسقيته وسقيته ، وكذلك السُّقيا من الغيث ، قالوا فيها : سقيت وأسقيت] (٣) . وقال أبو عبيدة : كل ما كان من السماء ، ففيه لغتان : أسقاه الله ، وسقاه الله ، قال لبيد :

---

(١) وقد روى ابن جرير الطبري ٢٢/١٤ حديثاً مرفوعاً من حديث عبيس بن ميمون عن أبي المهزّم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « الريح الجنوب من الجنة ، وهي الريح اللواقح ، وهي التي ذكر الله تعالى في كتابه ، وفيها منافع للناس » ، وسنده ضعيف .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن الرياح لواقح كما وصفها به جل ثناؤه من صفتها وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار ، فهي لاقحة ملقحة ، ولقحها : حملها الماء ، وإلقاحها السحاب والشجر : عملها فيه .

(٣) وفي هامش الأصل مانصه : هذا سقط من الأصل ، لأنه مكتوب بخط جديد ، كان سقط منه ورقة ، وألحقت ، ولعله غلط فأسقط مابين « لا » « إلى » ، وهو الذي وضعناه بين معقفين .

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْراً والقَبَائِلَ مِنْ هِلالِ [١]

فجاء باللغتين . وتقول : سقيت الرجل ماءً وشراباً من لبن وغيره ، وليس فيه إلا لغة واحدة بغير ألف ، إذا كان في الشَّفة ؛ وإذا جعلت له شِرْباً ، فهو : أسقيته ، وأسقيت أرضه ، وإبله ، ولا يكون غير هذا ، وكذلك إذا استسقيت له ، كقول ذي الرمة :

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهْ [٢]
وأَسْقِيه حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبِثُّهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلاعِبُهْ

فاذا وهبت له إهاباً ليجعله سقاءً ، فقد أسقيته إياه .

قوله تعالى : (وما أنتم له) يعني : الماء المُنْزَل (بخازنين) وفيه قولان :

أحدهما : بحافظين ، أي : ليست خزائنه بأيديكم ، قاله مقاتل .

والثاني : بمانعين ، قاله سفيان الثوري .

قوله تعالى : (ونحن الوارثون) يعني : أنه الباقي بعد فناء الخلق .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ولقد علمنا المستقدمين منكم) يقال : استقدم الرجل ، بمعنى : تقدم ، واستأخر ، بمعنى : تأخر .

وفي سبب نزولها قولان:

---

(١) ديوانه : ٩٣ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٥٠ ، و « نوادر أبي زيد » ٢١٣ ، و « الشنتمري » ٢/٢٣٥ . و « اللسان » ، و « التاج » : « سقى » .

(٢) ديوانه : طبع المكتب الاسلامي : ٥٢ ، و « مجاز القرآن » ١/٣٥٠ ، و « نوادر أبي زيد » ٢١٣ ، و « الطبري » ١٤/٢٢ ، و « التاج » : « سقى » .

أحدهما : أن امرأةً حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ ، فكان بعضهم يستقدم حتى يكون في أول الصفِّ لئلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في آخر صف ، فاذا ركع نظر من تحت إبطه ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس [1] .

والثاني : أن النبي ﷺ حرَّض على الصف الأول ، فازدحموا عليه ، وقال قوم بيوتهم قاصية عن المدينة : لنبيعنَّ دُورنا ، ولنشترينَّ دوراً قريبة من المسجد حتى ندركَ الصف المتقدم ، فنزلت هذه الآية ؛ ومعناها : إنما تُجزَون على النيات ، فاطمأَنوا وسكنوا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وللمفسرين في معنى المستقدِمين والمستأخِرين ثمانية أقوال :

أحدها : التقدم في الصف الأول ، والتأخر عنه ، وهذا على القولين المذكورين في سبب نزولها ، فعلى الأول : هو التقدُّم للتقوى ، والتأخُّر للخيانة بالنظر ، وعلى الثاني : هو التقدم لطلب الفضيلة ، والتأخر للعذر .

والثاني : أن المستقدمين : من مات ، والمستأخرين : من هو حي لم يمت ، رواه العَوفي عن ابن عباس ، وخُصَيف عن مجاهد ، وبه قال عطاء ، والضحاك ، والقرظي .

والثالث : أن المستقدمين : من خرج من الخلق وكان . والمستأخرين : الذين في أصلاب الرجال ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

---

(١) « الطبري » ١٤/٢٦ ، وذكره ابن كثير من رواية ابن جرير الطبري ٢/٥٤٩ ، وقال : حديث غريب جداً ، وفيه نكارة شديدة ، وأورده السيوطي في « الدر » ٤/٩٦ ، وزاد نسبته للطيالسي ، وسعيد بن منصور ، وأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » .

والرابع : أن المستقدمين : من مضى من الأمم ، والمستأخرين : أمة محمد ﷺ ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والخامس : أن المستقدمين : المتقدِّمون في الخير ، والمستأخرين : المبَطِّون عنه ، قاله الحسن ، وقتادة .

والسادس : أن المستقدمين في صفوف القتال ، والمستأخرين عنها ، قاله الضحاك .

والسابع : أن المستقدمين : من قُتل في الجهاد ، والمستأخرين : من لم يُقتَل ، قاله القرظي .

والثامن : أن المستقدمين : أول الخلق ، والمستأخرين : آخر الخلق ، قاله الشعبي .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان) يعني آدم (من صلصال) وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الطين اليابس الذي لم تُصبه نار ، فاذا نقرتَه صَلَّ ، فسمعتَ له صلصلة ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه الطين المنتن ، قاله مجاهد ، والكسائي ، وأبو عبيد . ويقال : صَلَّ اللحمُ : إذا تغيرت رائحته .

والثالث : أنه طين خُلط برمل ، فصار له صوت عند نقره ، قاله الفراء .

فأما الحمأ ، فقال أبو عبيدة : هو جمع حَمْأة ، وهو الطين المتغير . وقال ابن الأنباري : لا خلاف أن الحمأ : الطين الأسود المتغيِّر الريح . وروى السدي عن أشياخه قال : بُلَّ الترابُ حتى صار طيناً ، ثم تُرك حتى أنتن وتغيَّر .

وفي المسنون أربعة أقوال .

أحدها : المنتن أيضاً ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وقتادة في آخرين . قال ابن قتيبة : المسنون : المتغير الرائحة .

والثاني : أنه الطين الرطب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه المصبوب ، قاله أبو عمرو بن العلاء ، وأبو عبيد .

والرابع : أنه المحكوك ، ذكره ابن الأنباري ، قال : فمن قال : المسنون : المنتن ، قال : هو من قولهم : قد تسنّى الشيء : إذا أنتن ، ومنه قوله تعالى : (لم يتسنّه) [البقرة:٢٥٩] ، وإنما قيل له : مسنون ، لتقادم السنين عليه . ومن قال : الطين الرطب ، قال : سمي مسنوناً ، لأنه يسيل وينبسط ، فيكون كالماء المسنون المصبوب . ومن قال : المصبوب ، احتج بقول العرب : قد سننت عليّ الماء : إذا صببته . ويجوز أن يكون المصبوب على صورة ومثال ، من قوله : رأيت سُنَّة وجهه ، أي : صورة وجهه ، قال الشاعر :

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهٍ غَيْرَ مُقْرِفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبُ[1]

ومن قال : المحكوك ، احتج بقول العرب : سننت الحجر على الحجر : إذا حككته عليه . وسمي المِسَنّ مِسَنّاً ، لأن الحديد يُحَكّ عليه . قال : وإنما كُرِّرت « مِنْ » لأن الأولى متعلقة بـ « خلقنا » ، والثانية متعلقة بالصلصال ، تقديره : ولقد خلقنا الإنسان من الصلصال الذي هو من حمأٍ مسنون .

قوله تعالى : (والجانّ) فيه ثلاثة أقوال :

---

(١) البيت لذي الرمة ، ديوانه طبع المكتب الاسلامي ٨ ، و « القرطبي » ١٠/٢٢ . والسنة : الصورة ، والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة ، أي : غير هجينة ، عفيفة ، كريمة . وخال : شامة .

أحدها : أنه مسيخ الجن ، كما أن القردة والخنازير مسيخ الإنس [١] ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : أنه أبو الجن ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وروى عنه الضحاك أنه قال : الجانّ أبو الجن ، وليسوا بشياطين ، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس ، والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر .

والثالث : أنه إبليس ، قاله الحسن ، وعطاء ، وقتادة ، ومقاتل .

فان قيل : أليس أبو الجن هو إبليس ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه هو ، فيكون هذا القول هو الذي قبله .

والثاني : أن الجانّ أبو الجن ، وإبليس أبو الشياطين ، فبينهما إذاً فرق على ما ذكرنا عن ابن عباس . قال العلماء : وإنما سمي جانّاً ، لتواريه عن العيون .

قوله تعالى : (من قبل) يعني : قبل خَلْق آدم (من نار السموم) [٢] ،

---

(١) روى أحمد في « المسند » رقم (٣٧٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لم يمسخ شيئاً فيدع له نسلاً أو عاقبة ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك » ، وهو حديث صحيح . وروى مسلم في « صحيحه » ٢٠٥١/٤ ، ٢٠٥٢ ، عن عبد الله بن مسعود قال : جاء رجل فقال : يارسول الله القردة والخنازير ، هي مما مسخ ؟ فقال النبي ﷺ : « إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك » . وروى مسلم أيضاً ٢٠٥١/٤ ، من حديث ابن مسعود قال : ذكرت عند رسول الله ﷺ القردة ـ قال مسعر وأراه قال : والخنازير ـ من مسخ ، فقال ﷺ : « إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك » أي : قبل مسخ بني اسرائيل ، فدل ذلك على أنها ليست من المسخ .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » ٢٢٩٤/٤ ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وقال ابن مسعود : من نار الريح الحارّة ، وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم [١] . والسَّموم في اللغة : الريح الحارّة وفيها نار ، قال ابن السائب : وهي نار لا دخان لها .

﴿ فَسَجَدَ الْمَلٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ . قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . قَالَ هٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فإذا سوّيتُه) أي : عدَّلتُ صورته، وأتممتُ خلقته (ونفختُ فيه من روحي) هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان، ولا تُعلَم ماهيَّتُها، وإنما أضافها إليه، تشريفاً لآدم، وهذه إضافة مِلْك . وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخاً، لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه .

قوله تعالى : (فقعوا) أمر من الوقوع . وقوله : (كلُّهم أجمعون) قال فيه سيبويه والخليل : هو توكيد بعد توكيد . وقال المبرد : « أجمعون » يدل على اجتماعهم في السجود، فالمعنى : سجدوا كلُّهم في حالة واحدة . قال ابن الأنباري :

---

(١) روى البخاري ٦/٢٣٨ ، ومسلم ٤/٢١٨٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ البخاري : أن النبي ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . قيل : يارسول الله إن كانت لكافية ، قال : « فضلت عليهن بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وهذا ، لأن «كلاً» تدل على اجتماع القوم في الفعل ، ولا تدل على اجتماعهم في الزمان . قال الزجاج : وقول سيبويه أجود ، لأن «أجمعين» معرفة ، ولا تكون حالاً .

قوله تعالى : (وإن عليك اللعنة) قال المفسرون : معناه : يلعنك أهل السماء والأرض إلى يوم الحساب . قال ابن الأنباري : وإنما قال : (إلى يوم الدِّين) لأنه يوم له أول وليس له آخر ، فجرى مجرى الأبد الذي لا يفنى ، والمعنى : عليك اللعنة أبداً .

قوله تعالى : (إلى يوم الوقت المعلوم) يعني : المعلوم بموت الخلائق فيه ، فأراد أن يذيقه ألم الموت قبل أن يذيقه العذاب الدائم في جهنم .

قوله تعالى : (لأزيِّننَّ لهم في الأرض) مفعول التزيين محذوف ، والمعنى : لأزيِّننَّ لهم الباطلَ حتى يقعوا فيه . (ولأُغوينَّهم) أي : ولأُضلنَّهم . والمخلَصون : الذين أخلصوا دينهم لله عن كل شائبة تناقض الإخلاص . وما أخللنا به من الكلمات هاهنا ، فقد سبق تفسيرها في (الأعراف : ١٦) وغيرها .

قوله تعالى : (قال هذا صراط عليَّ مستقيم) اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه يعني بقوله هذا : الإخلاصَ ، فالمعنى : إن الإخلاص طريق إليَّ مستقيم ، و « عليَّ » بمعنى « إليَّ » .

والثاني : هذا طريق عليَّ جَوازه ، لأني بالمرصاد ، فأجازيهم بأعمالهم ؛ وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه : طريقك عليَّ ، فهو كقوله : (إن ربك لبالمرصاد) [الفجر : ١٤] .

والثالث : هذا صراط عليَّ استقامته ، أي : أنا ضامن لاستقامته بالبيان

والبرهان . وقرأ قتادة ، ويعقوب : « هذا صراطٌ عَلِيٌّ » بكسر اللام ورفع الياء وتنوينها ، أي : رفيع .

﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾

قوله تعالى : (إن عبادي) فيهم أربعة أقوال[1] :

أحدها : أنهم المؤمنون . والثاني : المعصومون ، رُويا عن قتادة . والثالث : المخلِصون ، قاله مقاتل . والرابع : المطيعون ، قاله ابن جرير . فعلى هذه الأقوال ، تكون الآية من العامّ الذي أريد به الخاصّ .

وفي المراد بالسلطان قولان :

أحدهما : أنه الحجة ، قاله ابن جرير ، فيكون المعنى : ليس لك حجة في إغوائهم .

والثاني : أنه القهر والغلبة ؛ إنما له أن يَغُرَّ ويزيِّن ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية ، فقال : ليس لك عليهم سلطان أن تلقيَهم في ذَنْب يضيق عفوي عنه .

قوله تعالى : (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) يعني : الذين اتّبعوه .

قوله تعالى : (لها سبعة أبواب) وهي دركاتها بعضها فوق بعض ، قال علي عليه السلام : أبواب جهنم ليست كأبوابكم هذه ، ولكنها هكذا وهكذا وهكذا بعضها فوق بعض ، ووصف الراوي عنه بيده وفتح أصابعه . قال ابن جرير : لها سبعة أبواب ، أولها جهنم ، ثم لَظى ، ثم الحُطَمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم

(١) وفي نسخة : فيه أربعة أقوال ، ويكون الضمير عائداً على القول .

الجحيم ، ثم الهاوية . وقال الضحاك : هي سبعة أدراك بعضها فوق بعض ، فأعلاها فيه أهل التوحيد يعذَّبون على قدر ذنوبهم ثم يُخرَجون ، والثاني فيه النصارى ، والثالث فيه اليهود ، والرابع فيه الصابئون ، والخامس فيه المجوس ، والسادس فيه مشركو العرب ، والسابع فيه المنافقون . قال ابن الأنباري : لما اتصل العذاب بالباب ، وكان الباب مِنْ سببه ، سمي باسمه للمجاورة ، كتسميتهم الحدث غائطاً .

قوله تعالى : (لكل بابٍ منهم) أي : من أتباع إبليس (جزء مقسوم) والجزء : بعض الشيء .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

قوله تعالى : (إن المتقين في جنات وعيون) قد شرحنا في سورة (البقرة : ٢ و ٢٥) معنى التقوى والجنات . فأما العيون ، فهي عيون الماء ، والخمر ، والسلسبيل ، والتسنيم ، وغير ذلك مما ذُكر أنه من شراب الجنة .

قوله تعالى : (ادخلوها بسلام) المعنى : يقال لهم : ادخلوها بسلام ، وفيه ثلاثة أقوال :

أحدها : بسلامة من النار . والثاني : بسلامة من كل آفة . والثالث : بتحية من الله .

وفي قوله : (آمنين) أربعة أقوال :

أحدها : آمنين من عذاب الله . والثاني : من الخروج . والثالث : من الموت . والرابع : من الخوف والمرض .

قوله تعالى : (ونزعنا مافي صدورهم من غِلّ) قد ذكرنا تفسيرها في سورة

(الأعراف : ٤٣) فان المفسرين ذكروا ما هناك هاهنا من تفسير وسبب نزول.

قوله تعالى : (إخواناً) منصوب على الحال ، والمعنى : أنهم متوادّون .

فان قيل : كيف نصب « إخواناً » على الحال، فأوجب ذلك أن التآخي وقع مع نزع الغلّ ، وقد كان التآخي بينهم في الدنيا ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : مامضى من التآخي قد كان تشوبه ضغائن وشحناء ، وهذا التآخي بينهم الموجودُ عند نزع الغلِّ هو تآخي المصافاة والإخلاص ، ويجوز أن ينتصب على المدح ، المعنى : اذكر إخواناً . فأما السرر ، فجمع سرير ، قال ابن عباس : على سرر من ذهب مكلّلة بالزبرجد والدُّرِّ والياقوت ، السرير مثل مابين عدن إلى أيلة [(١)] ، (متقابلين) لايرى بعضهم قفا بعض ، حيثما التفت رأى وجهاً يحبه يقابله .

قوله تعالى : (لايَمَسُّهم فيها نَصَب) أي : لايصيبهم في الجنة إعياء وتعب .

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم) سبب نزولها ماروى ابن المبارك باسناد له عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : طلع علينا رسول الله من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة ، ونحن نضحك ، فقال : « ألا أراكم تضحكون ؟ » ثم أدبر ، حتى إذا كان عند الحجر ، رجع إلينا القهقرى ، فقال : « إني لمّا

---

(١) أيلة : مدينة على شاطئ البحر بين الفسطاط ومكة تعد من بلاد الشام .

خرجت ، جاء جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد ، يقول الله تعالى : لم تقنِّط عبادي ؟ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم » [١] . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو بتحريك ياء « عباديَ » وياء « أنيَ أنا » ، وأسكنها الباقون .

قوله تعالى : (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) قد شرحنا القصة في (هود : ٦٩) وبيَّنَّا هنالك معنى الضيف والسبب في خوفه منهم ، وذكرنا معنى الوَجَل في (الأنفال : ٢) .

قوله تعالى : (بغلام عليم) أي : إنه يبلغ ويعلم .

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ . قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ . قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ . قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ . فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ . وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾

---

(١) « الطبري » ١٤/٣٩ وسنده ضعيف ، وذكره ابن كثير في « التفسير » ٢/٥٥٣ من رواية ابن أبي حاتم مرسلاً ، وأورده السيوطي في « الدر » ٤/١٠٢ ، وزاد نسبته لابن مردويه . وجاء في « صحيح مسلم » ٤/٢١٠٩ حديث بصدد هذه الآية دون سبب النزول ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد » .

قوله تعالى : (قال أبشَّرتموني) أي : بالولد (على أن مسَّني الكِبَرُ) أي : على حالة الكِبَرَ والهرم (فبم تُبشِّرونَ) قرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « تُبشِّرونَ » بفتح النون . وقرأ نافع بكسر النون ، ووافقه ابن كثير في كسرها ، لكنه شددها . وهذا استفهام تعجب ، كأنه عجب من الولد على كِبَرِه . (قالوا بشَّرناك بالحق) أي : بما قضى الله أنه كائن (فلا تكن من القانطين) يعني : الآيسين . (قال ومن يقنط) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة : « ومن يقنَط » بفتح النون في جميع القرآن . وقرأ أبو عمرو ، والكسائي : « يقنِط » بكسر النون . وكلهم قرؤوا (من بعد ماقَنَطوا) [الشورى : ٢٨] بفتح النون . وروى خارجة عن أبي عمرو « ومن يقنُط » بضم النون . قال الزجاج : يقال : قنِط يقنَط ، وقنَط يقنِط ، والقُنوط بمعنى اليأس ، ولم يكن إبراهيم قانطاً ، ولكنه استبعد وجود الولد . (قال فما خطبكم) أي : ما أمرُكم؟ (قالوا إنا أرسلنا) أي : بالعذاب . وقوله : (إلا آل لوط) استثناء ليس من الأول . فأما آل لوط ، فهم أتباعه المؤمنون .

قوله تعالى : (إنا لمنجوهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « لمنجُّوهم » مشددة الجيم . وقرأ حمزة ، والكسائي « لمُنجوهم » خفيفة .

قوله تعالى : (إلا امرأته) المعنى : إنا لمنجوهم إلا امرأته (قدَّرنا) وروى أبو بكر عن عاصم « قدَرْنا » بالتخفيف ، والمعنى واحد ، يقال : قدَّرت وقدَرْت ، والمعنى : قضينا (إنها لمن الغابرين) يعني : الباقين في العذاب .

قوله تعالى : (إنكم قوم منكرون) يعني : لا أعرفكم ، (قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعنون : العذاب ، كانوا يشكّون في نزوله . (وأتيناك بالحق) أي : بالأمر الذي لاشك فيه من عذاب قومك .

قوله تعالى : (واتَّبِعْ أدبارهم) أي : سِرْ خلفهم (وامضوا حيث تؤمرون) أي : حيث يأمركم جبريل .

وفي المكان الذي أُمروا بالمضي إليه قولان :

أحدهما : أنه الشام ، قاله ابن عباس . والثاني : قرية من قرى قوم لوط ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر) أي : أوحينا إليه ذلك الأمر ، أي : الأمر بهلاك قومه . قال الزجاج : فسَّر : ما الأمر بباقي الآية ، والمعنى : وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . فأما الدابر ، فقد سبق تفسيره [الانعام : ٤٥] ، والمعنى : إن آخر من يبقى منكم يَهْلِك وقت الصبح .

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ . قَالَ إِنَّ هٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ . قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ . قَالَ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (وجاء أهلُ المدينة) وهم قوم لوط ، واسمها سَدُوم ، (يستبشرون) بأضياف لوط ، طمعاً في ركوب الفاحشة ، فقال لهم لوط : (إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ) أي : بقصدكم إياهم بالسوء ، يقال : فضَحَه يفضَحُه : إذا أبان من أمره مايلزمه به العار . وقد أثبت يعقوب ياء « تفضحون » ، « ولا تُخزون » في الوصل والوقف .

قوله تعالى : (أوَلم نهك عن العالَمين) أي : عن ضيافة العالَمين .

قوله تعالى : (بناتي إن كنتم) حرك ياء « بناتيَ » نافع ، وأبو جعفر .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (لعمرك) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناه : وحياتك يا محمد ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس .

والثاني : لَعَيْشُك ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الأخفش ، وهو يرجع إلى معنى الأول .

والثالث : أن معناه : وحقّك على أمتك ، تقول العرب : لَعَمْرُ الله لا أقوم ، يعنون : وحَق الله ، ذكره ابن الأنباري . قال : وفي العَمْر ثلاث لغات : عَمْرٌ وعُمْرٌ وعُمُرٌ ، وهو عند العرب : البقاء . وحكى الزجاج أن الخليل وسيبويه وجميع أهل اللغة قالوا : العَمْرُ والعُمْرُ في معنى واحد ، فاذا استُعمل في القسَم ، فُتح لا غير ، وإنما آثروا الفتح في القسَم ، لأن الفتح أخف عليهم ، وهم يؤكدون القسَم بـ « لعَمري » و « لعَمْرك » ، فلما كثر استعمالهم إياه ، لزموا الأخف عليهم ، قال : وقال النحويون : ارتفع « لعمرُكَ » بالابتداء ، والخبر محذوف ، والمعنى : لعَمْرك قسَمي ، ولعَمْرك ماأُقسِمُ به ، وحُذف الخبر ، لأن في الكلام دليلاً عليه . المعنى : أُقسِم (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) .

وفي المراد بهذه السكرة قولان :

أحدهما : أنها بمعنى الضلالة ، قاله قتادة .

والثاني : بمعنى الغفلة ، قاله الأعمش . وقد شرحنا معنى العَمَه في سورة

(البقرة : ١٥) . وفي المشار إليهم بهذا قولان : أحدهما : أنهم قوم لوط ، قاله الأكثرون . والثاني : قوم نبينا ﷺ ، قاله عطاء .

قوله تعالى : (فأخذتهم الصيحة) يعني : صيحة العذاب ، وهي صيحة جبريل عليه السلام . (مُشرقين) قال الزجاج : يقال : أشرقنا ، فنحن مُشرقون : إذا صادفوا شروق الشمس ، وهو طلوعها ، كما يقال : أصبحنا : إذا صادفوا الصبح ، يقال : شَرَقت الشمس : إذا طلعت ، وأشرقت : إذا أضاءت وصَفَت ، هذا أكثر اللغة . وقد قيل : شَرَقت وأشرقت في معنى واحد ، إلا أن « مُشرقين » في معنى مصادِفين لطلوع الشمس .

قوله تعالى : (فجعلنا عاليها سافلها) قد فسرنا الآية في سورة (هود : ٨٢) .

وفي المتوسِّمين أربعة أقوال :

أحدها : أنهم المتفرِّسُون ، روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فِراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين [1]) قال : المتفرِّسين ، وبهذا قال مجاهد ، وابن قتيبة . قال ابن قتيبة : يقال : توسَّمتُ في فلان الخير ، أي : تبيَّنتُه . وقال الزجاج : المتوسمون ، في اللغة : النُّظَّار المتثبِّتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سِمة الشيء ، يقال :

---

(١) « الطبري » ١٤/٤٦ ، ورواه الترمذي ٢/١٤٠ من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وذكره ابن كثير في « التفسير » من رواية ابن أبي حاتم ٢/٥٥٥ ، وابن جرير ، وأورده السيوطي في « الدر » ٤/١٠٣ وزاد في نسبته للبخاري في « التاريخ » ، وابن السني وأبي نعيم معاً في الطب ، وابن مردويه ، والخطيب . وانظر الكلام على هذا الحديث في « المقاصد الحسنة » ١٩ ، و « فيض القدير » ١/١٤٤ .

توسمت في فلان كذا ، أي : عرفت وسم ذلك فيه . وقال غيره : المتوسم : الناظر في السِّمَة الدالة على الشيء . والثاني : المعتبرون ، قاله قتادة . والثالث : الناظرون ، قاله الضحاك . والرابع : المتفكرون ، قاله ابن زيد ، والفراء .

قوله تعالى : (وإنها) يعني : قرية قوم لوط (لبسبيل مقيم) فيه قولان :

أحدها : لَبِطريق واضح ، رواه نهشل عن الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والزجاج . وقال ابن زيد : لبِطَريق متبيِّن .

والثاني : لبهلاك . رواه أبو رَوْق عن الضحاك عن ابن عباس ، والمعنى : إنها بحال هلاكها لم تُعْمَر حتى الآن ، فالاعتبار بها ممكن ، وهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشام .

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ . فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) قال الزجاج : معنى « إنْ » واللام : التوكيدُ ، والأيك : الشجر الملتف ، فالفصل بين واحده وجمعه ، الهاء . فالمعنى : أصحاب الشجرة . قال المفسرون : هم قوم شعيب ، كان مكانُهم ذا شجر ، فكذَّبوا شعيباً فأُهلكوا بالحرّ كما بيَّنا في سورة (هود : ٨٧) .

قوله تعالى : (وإنهما) في المكنى عنهما قولان : أحدها : أنهما الأيكة ومدينة قوم لوط ، قاله الأكثرون . والثاني : لوط وشعيب ، ذكره ابن الأنباري .

وفي قوله : (لبإمام مبين) قولان :

أحدها : لبطريق ظاهر ، قاله ابن عباس . قال ابن قتيبة : وقيل للطريق : إمام ، لأن المسافر يأتمّ به حتى يصير إلى الموضع الذي يريده .

والثاني : أنه في كتاب مستبين ، قاله السدي . قال ابن الأنباري : « وإنهما » يعني : لوطاً وشعيباً بطريق من الحق يؤتم به .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ . وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد كذَّب أصحاب الحِجر المرسلين) يعني بهم ثمود . قال ابن عباس : كانت منازلهم بالحِجر بين المدينة والشام .

وفي الحِجر قولان : أحدهما : أنه اسم الوادي الذي كانوا به ، قاله قتادة ، والزجاج . والثاني : اسم مدينتهم ، قاله الزهري ، ومقاتل .

قال المفسرون : والمراد بالمرسَلين : صالح وحده ، لأنه من كذَّب نبياً فقد كذَّب الكُلَّ .

والمراد بالآيات : الناقة ، قال ابن عباس : كان فيها آيات : خروجها من الصخرة ، ودنوّ نتاجها عند خروجها ، وعِظَمُ خَلْقها فلم تشبهها ناقة ، وكثرةُ لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً ، (فكانوا عنها معرضين) لم يتفكروا فيها ولم يستدلّوا بها .

﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ . فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً) قد شرحناه في (الأعراف : ٧٤) .

وفي قوله : (آمنين) ثلاثة أقوال :

أحدها : آمنين أن تقع عليهم . والثاني : آمنين من خرابها . والثالث : من عذاب الله عز وجل .

وفي قوله : (ماكانوا يكسبون) قولان : أحدهما : ماكانوا يعملون من نحت الجبال : والثاني : ماكانوا يكسبون من الأموال والأنعام .

قوله تعالى : (إلا بالحق) أي : للحق ولإظهار الحق ، وهو ثواب المصدّق وعقاب المكذّب . (وإن الساعة لآتية) أي : وإن القيامة لتأتي ، فيجازى المشركون بأعمالهم ، (فاصفح الصفح الجميل) عنهم ، وهو الإعراض الخالي من جزع وفحش . قال المفسرون : وهذا منسوخ بآية السيف .

فأما (الخلاّق) فهو خالق كل شيء . و (العليم) قد سبق شرحه [البقرة : ٢٩] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَاتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني) سبب نزولها أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد ، فيها أنواع من البَزّ والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوّينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال : أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل ، ويدل على صحة هذا قوله : (لاتمُدنّ عينيك ...) الآية ، قاله الحسين بن الفضل [1] .

---

(١) الواحدي : ١٨٩ .

وفي المراد بالسبع المثاني أربعة أقوال :

أحدها : أنها فاتحة الكتاب ، قاله عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود في رواية ، وابن عباس في رواية الأكثرين عنه ، وأبو هريرة ، والحسن ، وسعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد في رواية ، وعطاء ، وقتادة في آخرين . فعلى هذا ، إنما سمِّيت بالسبع ، لأنها سبع آيات .

وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال : أحدها : لأن الله استثناها لأمة محمد ﷺ ، فلم يعطِها أمةً قبلهم ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : لأنها تُثنَّى في كل ركعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال ابن الأنباري : والمعنى : آتيناك السبع الآيات التي تُثنَّى في كل ركعة ، وإنما دخلت « مِنْ » للتوكيد ، كقوله : (ولهم فيها من كل الثمرات) [محمد : ١٥] . وقال ابن قتيبة : سمي « الحمد » مثانيَ ، لأنها تُثنَّى في كل صلاة . والثالث : لأنها ما أُثني به على الله تعالى ، لأن فيها حمد الله وتوحيده وذِكر مملكته ، ذكره الزجاج . والرابع : لأن فيها « الرحمن الرحيم » مرتين ، ذكره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين ، وهذا على قول من يرى التسمية منها . والخامس : لأنها مقسومة بين الله تعالى وبين عبده ، ويدل عليه حديث أبي هريرة « قسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي » [1] . والسادس :

---

(١) وهو حديث قدسي رواه مسلم في « صحيحه » ٢٩٦/١ ، وهو بتمامه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ماسأل ، فاذا قال العبد : (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال : (مالك يوم الدين) قال : مجَّدني عبدي - (وقال مرة : فوض إلي عبدي) - فاذا قال : (إياك نعبد وإياك نستعين)) قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل ، فاذا قال : (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال : هذا لعبدي ولعبدي ماسأل » .

لأنها نزلت مرتين ، ذكره الحسين بن الفضل . والسابع : لأن كلماتها مثنّاة ، مثل : الرحمن الرحيم ، إياك إياك ، الصراط صراط ، عليهم عليهم ، غير غير [(١)] ، ذكره بعض المفسرين . ومن أعظم فضائلها أن الله تعالى جعلها في حيّزٍ ، والقرآن كله في حيّزٍ ، وامتنّ عليه بها كما امتنّ عليه بالقرآن كله .

والقول الثاني : أنها السبع الطُّوَل ، قاله ابن مسعود في رواية ، وابن عباس في رواية ، وسعيد بن جبير في رواية ، ومجاهد في رواية ، والضحاك . فالسبع الطُّوَل هي : (البقرة) ، و (آل عمران) ، و (النساء) ، و (المائدة) ، و (الأنعام) ، و (الأعراف) ، وفي السابعة ثلاثة أقوال : أحدها : أنها (يونس) ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : (براءة) قاله أبو مالك . والثالث : (الأنفال) و (براءة) جميعاً ، رواه سفيان عن مسعر عن بعض أهل العلم . قال ابن قتيبة : وكانوا يرون (الأنفال) و (براءة) سورة واحدة ، ولذلك لم يفصلوا بينهما . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : هي الطُّوَل ، ولا تَقُلها بالكسر ، فعلى هذا ، في تسميتها بالمثاني قولان : أحدهما : لأن الحدود والفرائض والأمثال ثنّيت فيها ، قاله ابن عباس . والثاني : لأنها تجاوز المائة الأولى إلى المائة الثانية ، ذكره الماوردي .

والقول الثالث : أن السبع المثاني سبع معانٍ أُنزلت في القرآن : أمر ، ونهي ، وبشارة ، وإنذار ، وضرب الأمثال ، وتعداد النِّعَم ، وأخبار الأُمم ، قاله زياد بن أبي مريم .

والقول الرابع : أن المثاني : القرآن كلّه ، قاله طاووس ، والضحاك ، وأبو مالك ، فعلى هذا ، في تسمية القرآن بالمثاني أربعة أقوال :

---

(١) لعله اعتبر تفسير « ولا الضالين » بمعنى : وغير الضالين ، فكلمة « غير » مكررة بموجب ذلك .

أحدها : لأن بعض الآيات يتلو بعضاً ، فتثنّى الآخرة على الأولى ، ولها مقاطع تفصل الآية بعد الآية حتى تنقضيَ السورة ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أنه سمي بالمثاني لِما يتردَّد فيه من الثناء على الله عز وجل .

والثالث : لِما يتردَّد فيه من ذِكْر الجنة ، والنار ، والثواب ، والعقاب .

والرابع : لأن الأقاصيص ، والأخبار ، والمواعظ ، والآداب ، ثنِّيت فيه ، ذكرهن ابن الأنباري . وقال ابن قتيبة : قد يكون المثاني سور القرآن كلِّه ، قصارها وطوالها ، وإنما سمي مثاني ، لأن الأنباء والقصص تثنّى فيه ، فعلى هذا القول ، المراد بالسبع : سبعة أسباع القرآن ، ويكون في الكلام إضمار ، تقديره : وهي القرآن العظيم .

فأما قوله : (من المثاني) ففي « مِن » قولان :

أحدهما : أنها للتبعيض ، فيكون المعنى : آتيناك سبعاً من جملة الآيات التي يُثنى بها على الله تعالى ، وآتيناك القرآن .

والثاني : أنها للصفة ، فيكون السبع هي المثاني ، ومنه قوله : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) [الحج : ٣٠] لا أن بعضها رجس ، ذكر الوجهين الزجاج ، وقد ذكرنا عن ابن الأنباري قريباً من هذا المعنى .

قوله تعالى : (والقرآنَ العظيمَ) يعني : العظيم القَدْر ، لأنه كلامُ الله تعالى ، ووحيُه .

وفي المراد به هاهنا قولان :

أحدهما : أنه جميع القرآن . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنه الفاتحة أيضاً ، قاله أبو هريرة ، وقد روينا فيه حديثاً في أول

تفسير (الفاتحة) . قال ابن الأنباري : فعلى القول الأول ، يكون قد نُسق الكُلُّ على البعض ، كما يقول العربي : رأيت جدار الدار والدار ، وإنما يصلح هذا ، لأن الزيادة التي في الثاني من كثرة العدد أشبهَ بها ما يغاير الأولَ ، فجوَّز ذلك عطفَه عليه . وعلى القول الثاني ، نُسِق الشيء على نفسه لمَّا زِيد عليه معنى المدح والثناء ، كما قالوا : روي ذلك عن عمر ، وابن الخطاب . يريدون بابن الخطاب : الفاضلَ العالم الرفيع المنزلة ، فلما دخلته زيادة ، أشبه ما يغاير الأول ؛ فعُطف عليه .

ولما ذكر الله تعالى مِنَّته عليه بالقرآن ؛ نهاه عن النظر إلى الدنيا ليستغنيَ بما آتاه من القرآن عن الدنيا ، فقال : (لا تمدنَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم) أي : أصنافاً من اليهود والمشركين ، والمعنى : أنه نهاه عن الرغبة في الدنيا .

وفي قوله : (ولا تحزن عليهم) قولان :

أحدهما : لا تحزن عليهم إن لم يؤمنوا . والثاني : لا تحزن بما أنعمتُ عليهم في الدنيا .

قوله تعالى : (واخفض جناحك للمؤمنين) أي : ألِن جانبك لهم . وخفضُ الجناح : عبارةٌ عن السكون وترك التصعُّب والإباء . قال ابن عباس : ارفق بهم ولا تغلُظ عليهم .

قوله تعالى : (وقل إني أنا النذير المبين) حرك ياء « إنيَ » ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع . وذكر بعض المفسرين أن معناها منسوخ بآية السيف .

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (كما أنزلنا على المقتسمين) في هذه الكاف قولان :

أحدها : أنها متعلّقة بقوله : (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني) . ثم في معنى الكلام قولان : أحدها : أن المعنى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني، كما أنزلنا الكتب على المقتسمين، قاله مقاتل . والثاني : أن المعنى : ولقد شرّفناك وكرّمناك بالسبع المثاني، كما شرّفناك وأكرمناك بالذي أنزلناه على المقتسمين من العذاب، والكافُ بمعنى « مِثْلِ »، و « ما » بمعنى « الذي »، ذكره ابن الأنباري .

والثاني : أنها متعلقة بقوله : (إني أنا النذير) ، والمعنى : إني أنا النذير، أنذرتكم مثلَ الذي أُنزل على المقتسمين من العذاب، وهذا معنى قول الفراء . فخرج في معنى « أنزلنا » قولان : أحدهما : أنزلنا الكتب، على قول مقاتل . والثاني : العذابَ، على قول الفراء .

وفي « المقتسمين » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم اليهود والنصارى، رواه العَوفي عن ابن عباس، وبه قال الحسن، ومجاهد . فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين ثلاثة أقوال . أحدها : أنهم آمنوا ببعض القرآن، وكفروا ببعضه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس . والثاني : أنهم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم : هذه السورة لي، وقال آخر : هذه السورة لي، استهزاءً به، قاله عكرمة . والثالث : أنهم اقتسموا كتبهم، فآمن بعضهم ببعضها وكفر ببعضها، وآمن آخرون بما كفر به غيرهم، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم مشركو قريش، قاله قتادة، وابن السائب . فعلى هذا، في تسميتهم بالمقتسمين قولان : أحدهما : أن أقوالهم تقسَّمت في القرآن، فقال بعضهم : إنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين، منهم الأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وعدي بن قيس السهمي، والعاص

ابن وائل ، قاله قتادة . والثاني : أنهم اقتسموا على عِقاب مكة ، قال ابن السائب : هم رهط من أهل مكة اقتسموا على عِقاب مكة حين حضر الموسم ، قال لهم الوليد ابن المغيرة : انطلقوا فتفرّقوا على عِقاب مكة حيث يمرُّ بكم أهل الموسم ، فإذا سألوكم عنه ، يعني : رسولَ الله ﷺ ، فليقل بعضكم : كاهن ، وبعضكم : ساحر ، وبعضكم : شاعر ، وبعضكم : غاوٍ ، فإذا انتهَوْا إليَّ صدَّقتُكم ، ومنهم حنظلة ابن أبي سفيان ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ، والعاص ابن هشام ، وأبو قيس بن الوليد ، وقيس بن الفاكه ، وزهير بن أبي أمية ، وهلال ابن عبد الأسود ، والسائب بن صيفي ، والنضر بن الحارث ، وأبو البَخْتري بن هشام ، وزمعة بن الحجاج ، وأُمية بن خلف ، وأوس بن المغيرة .

والثالث : أنهم قوم صالح الذين تقاسموا بالله : (لنُبيِّتَنَّه وأهلَه) [النمل:٤٩] ، فكفاه الله شرهم ، قاله عبد الرحمن بن زيد . فعلى هذا ، هو من القَسَم ، لا من القِسمة .

قوله تعالى : (الذين جعلوا القرآن عِضين) في المراد بالقرآن قولان :

أحدهما : أنه كتابنا ، وهو الأظهر ، وعليه الجمهور . والثاني : أن المراد به : كتب المتقدمين قبلنا .

وفي « عضين » قولان :

أحدهما : أنه مأخوذ من الأعضاء . قال الكسائي ، وأبو عبيدة : اقتسموا بالقرآن وجعلوه أعضاءً . ثم في مافعلوا فيه قولان .

أحدهما : أنهم عضَّوه أعضاءً ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه . والمعضي : المفرِّق . والتعضية : تجزئة الذبيحة أعضاءً . قال علي عليه السلام : لاتَعْضِيَةَ في ميراث ، أراد : تفريق مايوجب تفريقه ضرراً على الورثة كالسيف ونحوه . وقال رؤبة :

وليسَ دِيْنُ الله بالمُعَضَّى [(١)]

وهذا المعنى في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنهم عضَّوْا القول فيه ، أي : فرّقوا ، فقالوا : شعر ، وقالوا : سحر ، وقالوا : كهانة ، وقالوا : أساطير الأولين ، وهذا المعنى في رواية ابن جريج عن مجاهد ، وبه قال قتادة ، وابن زيد .

والثالث : أنه مأخوذ من العَضَهِ . والعَضَهُ ، بلسان قريش : السِّحر ، ويقولون للساحرة : عاضهة . وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ لعن العاضهة والمستعضهة [(٢)] ، فيكون المعنى : جعلوه سِحراً ، وهذا المعنى في رواية عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، والفراء .

قوله تعالى : (فوربك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون) هذا سؤال توبيخ ، يُسأَلون عما عملوا في ما أُمِروا به من التوحيد والإيمان ، فيقال لهم : لم عصيتم وتركتم الإيمان ؟ فتظهر فضيحتهم عند تعذُّر الجواب . قال أبو العالية : يُسأَل العبادُ كلُّهم يوم القيامة عن خَلَّتين : عما كانوا يعبدون ، وعما أجابوا المرسَلين .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله : (فيومئذ لا يُسأَل عن ذنبه إنس ولا جانّ) [الرحمن : ٣٩] ؟ فعنه جوابان :

---

(١) ديوانه : ٨١ من أرجوزة له يمدح بها تميماً وسعداً ونفسه ، مطلعها :

داينت أروى والديون تقضى

وهو في « مجاز القرآن » ١/٣٥٥ ، و « الطبري » ١٤/٦٥ ، و « اللسان » : عضا .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج « الكشاف » : رواه أبو يعلى ، وابن عدي ، من حديث ابن عباس ، وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان . وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء . اهـ .

أحدها : أنه لا يسألهم : هل عملتم كذا ؛ لأنه أعلم ، وإنما يقول : لم عملتم كذا ؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنهم يُسأَلون في بعض مواطن القيامة ، ولا يُسأَلون في بعضها ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : فامض لما تؤمر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أظْهِر أمرك ، رواه ليث عن مجاهد . قال ابن قتيبة : « فاصدع بما تؤمر » أي : أظْهِر ذلك . وأصله : الفَرْق والفتح ، يريد : اصدع الباطلَ بحقك . وقال الزجاج : اظهَر بما تؤمر به ، أُخذ ذلك من الصديع ، وهو الصبح ، قال الشاعر :

كأنَّ بياضَ غُرَّتِه صَديع

وقال الفراء : إنما لم يقل : بما تؤمر به ، لأنه أراد : فاصدع بالأمر . وذكر ابن الأنباري أن « به » مضمرة ، كما تقول : مررت بالذي مررت .

والثالث : أن المراد به : الجهر بالقرآن في الصلاة ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . قال موسى بن عبيدة : ما زال رسول الله ﷺ مستخفياً حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه .

وفي قوله : (وأعرض عن المشركين) ثلاثة أقوال :

أحدها : اكفف عن حربهم .

والثاني : لا تبالِ بهم ، ولا تلتفت إلى لومهم على إظهار أمرك .

والثالث : أعرِضْ عن الاهتمام باستهزائهم . وأكثر المفسرين على أن هذا القدْر من الآية منسوخ بآية السيف .

﴿ إنّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

قوله تعالى : (إنا كفيناك المستهزئين) المعنى : فاصدع بأمري كما كفيناك المستهزئين ، وهم قوم كانوا يستهزئون به وبالقرآن . وفي عددهم قولان :

أحدها : أنهم كانوا خمسة : الوليد بن المغيرة ، وأبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن وائل ، والحارث بن قيس ، قاله ابن عباس . واسم أبي زمعة : الأسود بن المطلب . وكذلك ذكرهم سعيد بن جبير ، إلا أنه قال مكان الحارث بن قيس : الحارث بن غيطلة ، قال الزهري : غيطلة أمه ، وقيس أبوه ، فهو واحد . وإنما ذكرتُ ذلك ، لئلا يُظَن أنه غيره . وقد ذكرتُ في كتاب « التلقيح » من يُنْسَب إلى أمه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وسميت آباءهم ليُعرَفوا إلى أي الأبوين نُسبوا . وفي رواية عن ابن عباس مكان الحارث ابن قيس : عدي بن قيس .

والثاني : أنهم كانوا سبعة ، قاله الشعبي ، وابن أبي بزة ، وعدَّهم ابن أبي بَزَّة ، فقال : العاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والحارث بن عدي ، والأسود ابن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، وأصرم وبعكك ابنا عبد الحارث بن السبّاق .

وكذلك عدَّهم مقاتل ، إلا أنه قال مكان الحارث بن عدي : الحارث بن قيس السهميّ ، وقال : أصرم وبعكك ابنا الحجاج بن السبّاق .

ذِكر ما أهلكهم الله به وكفى رسولَه ﷺ أمرهم

قال المفسرون : أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ ، والمستهزئون يطوفون بالبيت ، فمر الوليد بن المغيرة ، فقال جبريل : يامحمد ، كيف تجد هذا ؟ فقال : « بئس عبد الله » ، قال : قد كفيت ، وأومأ إلى ساق الوليد ، فمر الوليد برجُل يَريش نبلاً له ، فتعلقت شظية من نبل بإزاره ، فمنعه الكِبْرُ أن يطامن لينزعها ، وجعلت تضرب ساقه ، فمرض ومات . وقيل : تعلّق سهم بثوبه فأصاب أكحله فقطعه ، فمات . ومر العاص بن وائل ، ، فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : « بئس عبد الله » ، فأشار إلى أخمص رجله ، وقال : قد كُفيتَ ، فدخلت شوكة في أخمصه ، فانتفخت رجله ومات . ومر الأسود بن المطلب ، فقال : كيف تجد هذا ؟ قال : « عبد سوء » ، فأشار بيده إلى عينيه ، فعمي وهلك . وقيل : جعل ينطح برأسه الشجر ويضرب وجهه بالشوك ، فاستغاث بغلامه ، فقال : لا أرى أحداً يصنع بك هذا غير نفسك ، فمات وهو يقول : قتلني ربُّ محمد . ومر الأسود بن عبد يغوث ، فقال جبريل : كيف تجد هذا ؟ فقال : « بئس عبد الله » ، فقال : قد كُفيت ، وأشار إلى بطنه ، فسَقَى بطنُه ، فمات . وقيل : أصاب عينه شوك ، فسالت حدقتاه . وقيل : خرج عن أهله فأصابه السَّموم ، فاسودَّ حتى عاد حبشياً ، فلما أتى أهله لم يعرفوه ، فأغلقوا دونه الأبواب حتى مات .

ومر به الحارث بن قيس ، فقال : كيف تجد هذا ؟ قال : « عبدَ سوء » ، فأومأ إلى رأسه ، وقال : قد كُفيت ، فانتفخ رأسه فمات ، وقيل : أصابه العطش ، فلم يزل يشرب الماء حتى انقدَّ بطنُه . وأما أصرم وبعكك ، فقال مقاتل : أخذتْ أحدَهما الدُّبَيْلَةُ [1] والآخرَ ذاتُ الجَنْبِ ، فماتا جميعاً . قال عكرمة : هلك المستهزئون قبل بدر . وقال ابن السائب : أُهلكوا جميعاً في يوم وليلة .

قوله تعالى : (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) فيه قولان :

أحدهما : أنه التكذيب . والثاني : الاستهزاء .

قوله تعالى : (فسبِّح بحمد ربك) فيه قولان :

أحدهما : قل : سبحان الله وبحمده ، قاله الضحاك . والثاني : فصلِّ بأمر ربك ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (وكن من الساجدين) قولان :

أحدهما : من المصلِّين . والثاني : من المتواضعين ، رويا عن ابن عباس .

قوله تعالى : (حتى يأتيَك اليقين) فيه قولان :

أحدهما : أنه الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور . وسمي يقيناً ، لأنه موقَن به . وقال الزجاج : معنى الآية : اعبد ربك أبداً ، ولو قيل : اعبد ربك ، بغير توقيت ، لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً ، فلما قال : (حتى يأتيَك اليقين) أمر بالإقامة على العبادة مادام حيّاً [2] .

---

(١) الدبيله : داء يجتمع في الجوف .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » ٢/٥٦٠ عند تفسير هذه الآية : ويستدل بهذه الآية الكريمة ، وهي قوله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الانسان مادام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في « صحيح البخاري » ، عن عمران بن حصين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فان لم تستطع —

والثاني : أنه الحق الذي لاريب فيه مِنْ نصرك على أعدائك ، حكاه الماوردي .

★ ★ ★

ـــ فقاعداً ، فان لم تستطع فعلى جنب » . ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فان الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هاهنا الموت كما قدمناه ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها ، فانه جواد كريم .

سورة النحل

فصل في نزولها

روى مجاهد ، وعطيّة ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس : أنها مكية ، وكذلك روي عن الحسن ، وعكرمة ، وعطاء : أنها مكية [كلّها] وقال ابن عباس في رواية : إنه نزل منها بعد قتل حمزة : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) [النحل : ١٢٦] ، وقال في رواية : هي مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة ، وهي قوله : (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً) إلى قوله : (يعملون) [النحل : ٩٥، ٩٧] . وقال الشعبي : كلها مكية إلا قوله : (وإن عاقبتم ...) إلى آخر الآيات [النحل : ١٢٦ - ١٢٨] . وقال قتادة : هي مكية إلا خمس آيات : (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ...) الآيتين [النحل : ٩٥، ٩٦] ، ومن قوله : (وإن عاقبتم ...) إلى آخرها [النحل : ١٢٦] . وقال ابن السائب : هي مكية إلا خمس آيات : (والذين هاجروا في الله من بعد ماظُلموا . . .) الآية [النحل : ٤١] ، وقوله : (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافُتنوا . . .) الآية [النحل : ١١٠] وقوله : (وإن عاقبتم . . .) إلى آخرها [النحل : ١٢٦] . وقال مقاتل : مكية إلا سبع آيات ، قوله : (ثم إن ربك للذين هاجروا ...) الآية [النحل : ١١٠] ، وقوله : (من كفر بالله من بعد إيمانه . .) الآية [النحل : ١٠٦] ، وقوله : (والذين هاجروا في الله . . .) الآية [النحل : ٤١] ، وقوله : (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة . . .) الآية [النحل : ١١٢] ، وقوله :

(وإن عاقبتم) إلى آخرها [النحل: ١٢٦] . قال جابر بن زيد : أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة وبقيتها بالمدينة . وروى حماد عن علي بن زيد قال : كان يقال لسورة النحل : سورة النِعم؛ يريد لكثرة تعداد النعم فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ . خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قوله تعالى : (أتى أمر الله) قرأ حمزة ، والكسائي بالإمالة .

سبب نزولها : أنه لما نزل قوله تعالى : (اقتربت الساعة) [القمر : ١] ، فقال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أنَّ القيامة قد اقتربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما رأوا أنَّه لاينزل شيء ؛ قالوا : مانرى شيئاً ! فأنزل الله تعالى (اقترب للناس حسابهم)[الانبياء : ١] فأشفقوا ، وانتظروا قرب الساعة ، فلما امتدَّت الأيام قالوا : يامحمد ما نرى شيئاً مما تخوِّفنا به ، فأنزل الله تعالى : (أتى أمر الله) ، فوثب رسول الله ﷺ ، ورفع الناسُ رؤوسهم ، فنزل : (فلا تستعجلوه) فاطمأنوا ، قاله ابن عباس [١] .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي : ١٥٩ بدون سند ، ورواه بمعناه ابن جرير : ١٤/٧٥ عن ابن جريج .

وفي قوله : (أتى) ثلاثة أقوال :

أحدها : أتى بمعنى : يأتي ، كما يقال : أتاك الخير فأبشر ، أي : سيأتيك ، قاله ابن قتيبة ، وشاهده : (ونادى أصحاب الجنة) [الأعراف : ٤٤] ، (وإذ قال الله يا عيسى) [المائدة : ١١٦] ونحو ذلك .

والثاني : أتى بمعنى : قَرُب ، قال الزجاج : أعلم الله تعالى أن ذلك في قربه بمنزلة ما قد أتى .

والثالث : أن « أتى » للماضي ، والمعنى : أتى بعض عذاب الله ، وهو : الجدب الذي نزل بهم ، والجوع . (فلا تستعجلوه) فينزل بكم مستقبلاً كما نزل ماضياً ، قاله ابن الأنباري .

وفي المراد بـ « أمر الله » خمسة أقوال :

أحدها : أنها الساعة ، وقد يخرج على قول ابن عباس الذي قدمناه ، وبه قال ابن قتيبة . والثاني : خروج رسول الله ﷺ ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، يعني : أن خروجه من أمارات الساعة .

وقال ابن الأنباري : أتى أمر الله من أشراط الساعة ، فلا تستعجلوا قيام الساعة . والثالث : أنه الأحكام والفرائض ، قاله الضحاك [1] . والرابع : عذاب الله ، ذكره ابن الأنباري . والخامس : وعيد المشركين ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (فلا تستعجلوه) أي : لا تطلبوه قبل حينه ، (سبحانه) أي : تنزيه له وبراءة من السوء عما يشركون به من الأصنام .

قوله تعالى : (ينزل الملائكة) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : (يُنْزِل)

---

(١) رد هذا القول ابن جرير في « تفسيره » ، فقال : لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها ، بخلاف العذاب ، فإنهم استعجلوه قبل كونه ، استبعاداً وتكذيباً .

باسكان النون وتخفيف الزاي . وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : (ينزِّل) بالتشديد ، وروى الكسائي عن أبي بكر عن عاصم : (تُنزَّل) بالتاء مضمومة ، وفتح الزاي مشددة . (الملائكةُ) رفع . قال ابن عباس : يريد بالملائكة جبريل عليه السلام وحده .

وفي المراد بالروح ستة أقوال .

أحدها : الوحي ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه النبوّة ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أن المعنى : تنزل الملائكة بأمره ، رواه العوفي عن ابن عباس . فعلى هذا يكون المعنى : أن أمر الله كلّه روح . قال [الزجاج] : الروح ما كان فيه من أمر الله حياة النفوس بالإرشاد .

والرابع : أنه الرحمة . قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أن أرواح الخلق : لا ينزل ملك إلا ومعه روح ، قاله مجاهد .

والسادس : أنه القرآن ، قاله ابن زيد . فعلى هذا سماه روحاً ، لأن الدين يحيا به ، كما أن الروح تُحيي البدن . وقال بعضهم : الباء في قوله : (بالروح) بمعنى : مع ، فالتقدير : مع الروح ، (من أمره) أي : بأمره ، (على من يشاء من عباده) يعني : الأنبياء ، (أن أنذروا) قال الزجاج : والمعنى : أنذروا أهل الكفر والمعاصي (أنه لا إله إلا أنا) أي : مُروهم بتوحيدي ، وقال غيره : أنذروا بأنه لا إله إلا أنا ، أي : مروهم بالتوحيد مع تخويفهم إن لم يُقِرّوا .

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

قوله تعالى : (خلق الإنسان من نطفة) قال المفسرون : أخذ أُبيّ بن خلف

عظماً رميماً ، فجعل يفتّه ويقول : يا محمد كيف يبعث الله هذا بعدما رمّ ؟ فنزلت فيه هذه الآية [١] . والخصيم : المخاصم ، والمبين : الظاهر الخصومة .

والمعنى : أنه مخلوق من نطفة ، وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وأن من قدر على إيجاده أولاً ، يقدر على إعادته ثانيا ؟! وفيه تنبيه على إنعام الله عليه حين نقله من حال ضعف النطفة إلى القوة التي أمكنه معها الخصام [٢] .

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والأنعام خلقها لكم) الأنعام : الإبل ، والبقر ، والغنم .

قوله تعالى : (لكم فيها دفء) فيه قولان :

أحدهما : أنه ما استدفىء به من أوبارها تتخذ ثياباً ، وأخبية ، وغير ذلك . روى العوفي عن ابن عباس أنه قال : يعني بالدفء : اللباس ، وإلى هذا المعنى ذهب الأكثرون .

والثاني : أنه نسلها . روى عكرمة عن ابن عباس : (فيها دفء) قال : الدفء :

---

(١) ذكر ذلك ابن كثير في تفسير الآية : ٧٧ من سورة (يس) عن مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسدي ، وقتادة .

(٢) روى أحمد ٤/٢١٠ ، وابن ماجه رقم (٢٧٠٧) والحاكم عن بسر بن جحاش ، قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال : يقول الله تعالى : ابن آدم ! أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيتَ بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ! » .

نسل كل دابة ، وذكر ابن السائب قال : يقال : الدفء أولادها ، ومن لا يحمل من الصغار ، وحكى ابن فارس اللغويّ عن الأمويّ ، قال : الدفء عند العرب : نتاج الإبل وألبانها .

قوله تعالى : (ومنافع) أي : سوى الدفء من الجلود ، والألبان ، والنسل ، والركوب ، والعمل عليها ، إلى غير ذلك ، (ومنها تأكلون) يعني : من لحوم الأنعام .

قوله تعالى : (ولكم فيها جَمال) أي : زينة ، (حين تُرِيحون) أي : [حين] تردُّونها إلى مراحها ، وهو المكان الذي تأوي إليه ، فترجع عِظَامَ الضُّرُوعِ والأَسْنِمَة ، فيقال : هذا مال فلان ، (وحين تسرحون) : ترسلونها بالغداة إلى مراعيها .

فان قيل : لم قدّم الرَّواح وهو مؤخَّر ؟

فالجواب : أنها في حال الرواح تكون أجمل ؛ لأنها قد رعت ، وامتلأت ضروعها ، وامتدّت أسنمتها .

قوله تعالى : (وتحمل أثقالكم) الإشارة بهذا إلى مايطيق الحمل منها ، والأثقال : جمع ثقل ، وهو متاع المسافر .

وفي قوله تعالى : (إلى بلد) قولان :

أحدهما : أنه عامّ في كل بلد يقصِدُه المسافر ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أن المراد به : مكة ، قاله عكرمة ، والأول أصح ، والمعنى : أنها تحملكم إلى كل بلد لو تكلفتم أنتم بلوغه لم تبلغوه إلا بشِق الأنفس .

وفي معنى « شِق الأنفس » قولان :

أحدهما : أنه المشقة ، قاله الأكثرون . قال ابن قتيبة : يقال : نحن بشِق من

العيش ، أي : بجهد ؛ وفي حديث أم زرع : « وجدني في أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقّ »[١] .

والثاني : أن الشِّق : النّصف ، فكان الجهد ينقص من قوة الرجل ونفسه كأنه قد ذهب نصفه ، ذكره الفراء .

قوله تعالى : (إن ربكم لرؤوف رحيم) أي : حين مَنّ عليكم بالنعم التي فيها هذه المرافق .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (والخيل) أي : وخلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها وزينةً) قال الزجاج : المعنى : وخلقها زينة .

فصل

ويجوز أكل لحم الخيل ، وإنما لم يُذكَر في الآية، لأنه ليس هو المقصود ، وإنما معظم المقصود بها : الركوب والزينة، وبهذا قال الشافعي . وقال أبو حنيفة ، ومالك : لاتؤكل لحوم الخيل [٢] .

قوله تعالى : (ويخلق مالا تعلمون) ذكر قوم من المفسرين : أن المراد به

(١) هو قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري في « صحيحه » : ٢٠/١٧٤ بشرح العيني ، ومسلم : ٤/١٨٩٦ عن عائشة رضي الله عنها . وقوله : « بشق » قال أبو عبيد : هو بالفتح ، والمحدّثون يكسرونه ، قال : وهو موضع . وقال ابن الأنباري : هو بالكسر والفتح ، وهو موضع . وقال ابن أبي أويس وابن حبيب : يعني بشق : جبل لقلتهم وقلة غنمهم ، وشق الجبل : ناحيته ، وتفسير ابن قتيبة الذي نقله المصنف عنه ، رجحه القاضي عياض واختاره غيره .

(٢) والأحاديث الصحيحة تدل على جواز أكل لحوم الخيل .

عجائب المخلوقات في السموات والأرض التي لم يُطَّلع عليها ، مثل مايروى : أن لله ملكاً من صفته كذا ، وتحت العرش نهر من صفته كذا . وقال قوم : هو ما أعد الله لأهل الجنة فيها ، ولأهل النار . وقال أبو سليمان الدمشقي : في الناس مَن كره تفسير هذا الحرف . وقال الشعبي : هذا الحرف من أسرار القرآن .

﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الله قصد السبيل) القصد : استقامة الطريق ، يقال : طريق قصد وقاصد : إذا قصد بك ماتريد . قال الزجاج : المعنى : وعلى الله تبيين الطريق المستقيم ، والدعاء إليه بالحجج والبرهان .

قوله تعالى : (ومنها جائر) قال أبو عبيدة : السبيل لفظه لفظ الواحد، وهو في موضع الجميع ، فكأنه قال : ومن السبل سبيل جائر . قال ابن الأنباري : لما ذكر السبيل ، دلّ على السبل ، فلذلك قال : (ومنها جائر) كما دل الحدَثان على الحوادث في قول العبدي :

وَلاَ يَبْقَى علَى الحَدَثَانِ حَيٌّ فَهَلْ يَبْقَى عليهنَّ السِّلامُ

أراد : فهل يبقى على الحوادث ، والسِّلام : الصخور ، قال : ويجوز أن يكون إنما قال : (ومنها) ، لأن السبيل تؤنث وتذكّر ، فالمعنى : من السبيل جائر . وقال ابن قتيبة : المعنى : ومن الطُّرق جائر لا يهتدون فيه ، والجائر : العادل عن

القصد ، قال ابن عباس : ومنها جائر الأهواء المختلفة . وقال ابن المبارك : الأهواء والبدع .

قوله تعالى : (هو الذي أنزل من السماء ماءً) يعني : المطر (لكم منه شراب) وهو ما تشربونه ، (ومنه شجر) ذكر ابن الأنباري في معناه قولين :

أحدهما : ومنه سَقي شجر ، وشرب شجر ، فخلف المضافُ إليه المضافَ ، كقوله : (وأُشربوا في قلوبهم العجل) [البقرة : ٩٣] .

والثاني : أن المعنى : ومن جهة الماء شجر ، ومن سقيه شجر ، ومن ناحيته شجر ، فحُذف الأول ، وخلَفه الثاني ، قال زهير :

[لِمَنِ الدّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ] أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرِ [1]

أي : من ممرّ حجج . قال ابن قتيبة : والمراد بهذه الشجر : المرعى . وقال الزجاج : كل ما نبت على الأرض فهو شجر ، قال الشاعر يصف الخيل :

يَعْلِفُهَا اللَّحْمَ إذا عَزَّ الشَّجَرْ والخَيْلُ في إطعَامِها اللَّحْمَ ضَرَرْ

يعني : أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض . و (تُسيمون) بمعنى : تَرعَون ، يقال : سامت الإبل فهي سائمة : إذا رعت ، وإنما أخذ ذلك من السُّومة ، وهي : العلامة ، وتأويلها : أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات .

قوله تعالى : (يُنبت لكم به الزرع) وروى أبو بكر عن عاصم : « ننبت » بالنون . قال ابن عباس : يريد الحبوب ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى : (والنجومُ مسخراتٌ بأمره) قال الأخفش : المعنى : وجعلَ النجوم مسخراتٍ ،

(١) تقدم البيت ٣/٥٠٠ .

فجاز إضمار فعل غير الأول ، لأن هذا المضمر في المعنى مثل المُظهَر ، وقد تفعل العرب أشدّ من هذا ، قال الراجز :

تَسْمَعُ في أجوافِهِنَّ صَرَدَا وفي اليَدَيْنِ جُسْأَةً وبَدَدَا (١)

المعنى : وترى في اليدين . والجُسأة : اليبس . والبَدَد : السَّعة . وقال غيره : قوله تعالى : (مسخرات) حال مؤكدة ، لأن تسخيرها قد عرف بقوله تعالى : (وسخر) . وقرأ ابن عامر : والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ ، رفعاً كله ، وروى حفص عن عاصم : بالنصب ، كالجمهور ، إلاّ قوله تعالى : (والنجومُ مسخراتٌ) فانه رفعها .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما ذرأ لكم) أي : وسخر ما ذرأ لكم . وذرأ بمعنى : خلق . و« سخر البحر » أي : ذلّله للركوب والغوص فيه (لتأكلوا منه لحماً طرياً) يعني : السمك (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعني : الدُّر ، واللؤلؤ ، والمرجان ،

(١) أنشده الطبري ١٤/٩٠ ، وروايته فيه :

تسمع في أجوافهن صَوْرا وفي اليدين حشّةً وبَوْرا

وفي هذا دلالة على أن حالفاً لو حلف : لا يلبس حُلِيّاً ، فلبس لؤلؤاً ، أنه يحنث ، وقال أبو حنيفة : لا يحنث .

قوله تعالى : (وترى الفلك) يعني : السفن . وفي معنى (مَوَاخِرَ) قولان :

أحدهما : جواري ، قاله ابن عباس . قال اللغويون : يقال : مخرت السفينة مَخْراً : إذا شقت الماء في جريانها .

والثاني : المواقر ، يعني : المملوءة ، قاله الحسن .

وفي قوله تعالى : (ولتبتغوا من فضله) قولان :

أحدهما : بالركوب فيه للتجارة ابتغاء الربح من فضل الله .

والثاني : بما تستخرجون من حليته ، وتصيدون من حيتانه . قال ابن الأنباري : وفي دخول الواو في قوله تعالى : (ولتبتغوا من فضله) وجهان :

أحدهما : أنها معطوفة على لامٍ محذوفة ، تقديره : وترى الفلك مواخر فيه لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا .

والثاني : أنها دخلت لفعل مضمر ، تقديرهُ : وفعل ذلك لكي تبتغوا .

قوله تعالى : (وألقى في الأرض رواسي) أي : نصب فيها جبالاً ثوابت (أن تميد) أي : لئلاَّ تميد ، وقال الزجاج : كراهة أن تميد ، يقال : ماد الرجل يميد مَيْداً : إذا أُدير به ، وقال ابن قتيبة : الميد : الحركة والمَيْل ، يقال : فلان يميد في مشيته ، أي : يتكفَّأ .

قوله تعالى : (وأنهاراً) قال الزجاج : المعنى : وجعل فيها سُبُلاً ، لأن معنى « ألقى » : « جعل » ، فأما السبل ، فهي الطرق . (ولعلكم تهتدون) أي : لكي تهتدوا إلى مقاصدكم .

قوله تعالى : (وعلامات) فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها معالم الطرق بالنهار ، وبالنجم هم يهتدون بالليل ، رواه العوفيّ عن ابن عباس .

والثاني : أنها النجوم أيضاً ، منها ما يكون علامة لا يُهتدي به ، ومنها ما يُهتدى به ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والنخعي .

والثالث : الجبال ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

وفي المراد بالنجم أربعة أقوال :

أحدها : أنه الثريّا ، والفرقدان ، وبنات نعش ، والجدي ، قاله السدي .

والثاني : أنه الجَدْي ، والفرقدان ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنه الجدي وحده ، لأنه أثبتُ النجومِ كلِّها في مركزه ، ذكره الماوردي .

والرابع : أنه اسم جنس ، والمراد جميع النجوم ، قاله الزجاج . وقرأ الحسن ، والضحاك ، وأبو المتوكل ، ويحيى بن وثاب : « وبالنُّجْم » بضم النون وإسكان الجيم ، وقرأ الجحدري : « وبالنُّجُم » بضم النون والجيم ، وقرأ مجاهد : « وبالنجوم » بواوٍ على الجمع .

وفي المراد بهذا الاهتداء قولان :

أحدهما : الاهتداء إلى القبلة . والثاني : إلى الطريق في السفر .

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفمن يَخلق كَمن لا يخلق) يعني : الأوثان ، وإنما عبَّر عنها بـ « مَن » ، لأنهم نحلوها العقل والتمييز ، (أفلا تذكَّرون) يعني : المشركين ، يقول: أفلا تتعظون كما اتعظ المؤمنون ؛ قال الفراء : وإنما جاز أن يقول : (كمن لا يخلق) ، لأنه ذُكر مع الخالق ، كقوله : (فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رِجلَيْن) [النور : ٤٥] ، والعرب تقول : اشتبه عليَّ الراكب وجملُه ، فما أدري مَن ذا مِن ذا ، لأنهم لما جمعوا بين الإنسان وغيره ، صلحت « مَن » فيهما جميعاً .

قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) قد فسرناه في (إبراهيم : ٣٤) .

قوله تعالى : (إن الله لَغفور) أي : لما كان منكم من تقصيركم في شكر نِعَمه (رحيم) بكم إذ لم يقطعها عنكم بتقصيركم .

قوله تعالى : (والله يعلم ماتسرون وما تعلنون) روى عبد الوارث ، إلا القزاز « يسرون » و« يعلنون » بالياء .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لايَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

قوله تعالى : (والذين تدعون من دون الله) قرأ عاصم : يدعون ، بالياء .

قوله تعالى : (أموات غيرُ أحياء) يعني : الأصنام . قال الفراء : ومعنى الأموات هاهنا : أنها لاروح فيها . قال الأخفش : وقوله : (غير أحياء) توكيد .

قوله تعالى : (وما يشعرون أيَّان يبعثون) « أيَّانَ » بمعنى : « متى » .

وفي المشار إليهم قولان :

أحدها : أنها الأصنام ، عبّر عنها كما يُعبّر عن الآدميين . قال ابن عباس :

وذلك أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها ، فيتبرؤون من عبادتهم ، ثم يُؤمر بالشياطين والذين كانوا يعبدونها إلى النار .

والثاني : أنهم الكفار ، لايعلمون متى بعثهم ، قاله مقاتل .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ . قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِلٰهكم إِلٰه واحد) قد ذكرناه في سورة (البقرة : ١٦٣) .

قوله تعالى : (فالذين لايؤمنون بالآخرة) أي : بالبعث والجزاء (قلوبهم منكرة) أي : جاحدة لاتعرف التوحيد (وهم مستكبرون) أي : ممتنعون من قبول الحق .

قوله تعالى : (لاجَرَمَ) قد فسرناه في (هود : ٢٢) ، ومعنى الآية : أنَّه يجازيهم بسرّهم وعلنهم ، لأنه يعلمه . والمستكبرون : المتكبرون عن التوحيد والإيمان . وقال مقاتل : « مايُسرون » حين بعثوا في كل طريق مَنْ يصدُّ الناس عن رسول الله ﷺ ، « وما يعلنون » حين أظهروا العداوة لرسول الله .

قوله تعالى : (وإذا قيل لهم) يعني : المستكبرين (ماذا أنزل ربكم) على محمد ﷺ ؛ قال الزجاج : « ماذا » بمعنى « ما الذي » . و (أساطير الأولين) مرفوعة على الجواب ، كأنهم قالوا : الذي أُنزل : أساطيرُ الأولين ، أي : الذي تذكرون أنتم أنه منزَّل : أساطير الأولين . وقد شرحنا معنى الأساطير في (الأنعام:٢٥) . قال مقاتل : الذين بعثهم الوليد بن المغيرة في طرق مكة يصدُّون الناس عن الإيمان ، ويقول بعضهم : إن محمداً ساحر ، ويقول بعضهم : شاعر ، وقد شرحنا هذا المعنى في (الحجر : ٩٠) في ذكر المقتسمين .

قوله تعالى : (ليحملوا أوزارهم) هذه لام العاقبة ، وقد شرحناها في غير موضع ، والأوزار : الآثام ، وإنما قال : كاملة ، لأنه لم يُكَفَّرْ منها شيء بما يُصيبهم من نكبة ، أو بليَّة ، كما يُكَفَّرُ عن المؤمن [1] ، (ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم) أي : أنهم أضلُّوهم بغير دليل ، وإنما حملوا من أوزار الأتباع ، لأنهم كانوا رؤساء يقتدى بهم في الضلالة ، وقد ذكر ابن الأنباري في « مِنْ » وجهين :

أحدهما : أنها للتبعيض ، فهم يحملون ماشَرِكوهم فيه ، فأمَّا ماركبه أولئك باختيارهم من غير تزيين هؤلاء ، فلا يحملونه ، فيصح معنى التبعيض .

والثاني : أن « مِنْ » مؤكِّدة ، والمعنى : وأوزار الذين يضلونهم . (ألا ساء مايزرون) أي : بئس ماحملوا على ظهورهم .

قوله تعالى : (قد مكر الذين من قبلهم) قال المفسرون : يعني به : النمرود ابن كنعان ، وذلك أنه بنى صرحاً طويلاً . واختلفوا في طوله ، فقال ابن عباس :

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه » .

خمسة آلاف ذراع ، وقال مقاتل : كان طوله فرسخين ، قالوا : ورام أن يصعد إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه . ومعنى « المكر » هاهنا : التدبير الفاسد .

وفي الهاء والميم من « قبلهم » قولان :

أحدهما : أنها للمقتسمين على عقاب مكة ، قاله ابن السائب .

والثاني : لكفار مكة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أي : من الأساس . قال المفسرون : أرسل الله ريحاً فألقت رأس الصرح في البحر ، وخَرَّ عليهم الباقي .

قال السدي : لما سقط الصرح ، تَبَلْبَلَتْ أَلْسُن الناس من الفزع ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لساناً ، فلذلك سميت « بابل » ، وإنما كان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية ، وهذا قول مردود ، لأن التَّبَلْبُلَ يُوجب الاختلاط والتكلمَ بشيء غير مستقيم ، فأما أن يوجب إحداث لغة مضبوطة الحواشي ، فباطل ، وإنما اللغات تعليم من الله تعالى .

فان قيل : إذا كان الماكر واحداً ، فكيف قال : « الذين » ولم يقل : « الذي » ؟ ، فعنه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أنه كان الماكر ملكاً له أتباع ، فأدخلوا معه في الوصف .

والثاني : أن العرب توقع الجمع على الواحد ، فيقول قائلهم : خرجت إلى البصرة على البغال ، وإنما خرج على بغل واحد .

والثالث : أن « الذين » غير موقع على واحد معين ، لكنه يراد به : قد مكر الجبارون الذين من قبلهم ، فكان عاقبة مكرهم رجوع البلاء عليهم ، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري . قال : وذكر بعض العلماء : أنه إنما قال : « من فوقهم »،

لينبه على أنهم كانوا تحته ، إذ لو لم يقل ذلك ، لاحتمل أنهم لم يكونوا تحته ، لأن العرب تقول : سقط علينا البيت ، وخَرَّ علينا الحانوت ، وتداعت علينا الدار ، وليسوا تحت ذلك .

قوله تعالى : (وأتاهم العذاب من حيثُ لا يشعرون) أي : من حيث ظنوا أنهم آمنون فيه . قال السدي : أُخذوا من مأمنهم . وروى عطية عن ابن عباس قال : خَرَّ عليهم عذاب من السماء . وعامة المفسرين على ما حكيناه من أنه بنيان سقط . وقال ابن قتيبة : هذا مَثَل ، والمعنى : أهلكهم الله ، كما هلك من هُدِم مسكنه من أسفله ، فخر عليه .

قوله تعالى : (ثم يوم القيامة يخزيهم) أي : يذلّهم بالعذاب . (ويقول أين شركائي) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، « شركائيَ الذين » بهمزة وفتح الياء ، وقال البزّي عن ابن كثير : « شركايَ » مثل : هدايَ ، والمعنى : أين شركائي على زعمكم ؛ هلاّ دفعوا عنكم ! . (الذين كنتم تشاقّون فيهم) أي : تخالفون المسلمين فتعبدونهم وهم يعبدون الله ، وقرأ نافع : « تشاقّونِ » بكسر النون ، أراد : تشاقّونني ، فحذف النون الثانية ، وأبقى الكسرة تدل عليها ، والمعنى : كنتم تنازعونني فيهم ، وتخالفون أمري لأجلهم .

قوله تعالى : (قال الذين أوتوا العلم) فيهم ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهم الملائكة ، قاله ابن عباس . والثاني : الحفظة من الملائكة ، قاله مقاتل . والثالث : أنهم المؤمنون .

فأمّا «الخزي» فقد شرحناه في مواضع [آل عمران:١٩٢] و«السّوء» هاهنا : العذاب .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

قوله تعالى : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) قال عكرمة : هؤلاء قوم كانوا بمكة أقرّوا بالإسلام ولم يُهاجروا ، فأخرجهم المشركون كرهاً إلى بدر ، فقتل بعضهم . وقد شرحنا هذا في سورة (النساء : ٩٧) .

قوله تعالى : (فألْقَوُا السَّلَمَ) قال ابن قتيبة : انقادوا واستسلموا ، والسَّلَم : الاستسلام . قال المفسرون : وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك ، وهو قولهم : (ما كُنَّا نعمل من سوءٍ) وهو الشرك ، فتردّ عليهم الملائكة فتقول : « بلى » . وقيل : هذا ردّ خزنة جهنم عليهم (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) من الشرك والتكذيب . ثم يقال لهم : ادخلوا أبواب جهنم ، وقد سبق تفسير ألفاظ الآية [النساء : ٩٧] و [الحجر : ٤٤] .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذٰلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلٰئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقيل الذين اتَّقَوا ماذا أنزل ربكم) روى أبو صالح عن ابن عباس أنّ مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلاً إلى عِقاب [1] مكة أيام الحج على طريق الناس ، ففرّقوهم على كل عَقَبَةٍ أربعة رجال ، ليصدّوا الناس عن رسول الله ﷺ وقالوا لهم : مَنْ أتاكم من الناس يسألُكم عن محمد فليَقُلْ بعضُكم : شاعِرٌ ، وبَعْضُكم : كاهِنٌ ، وبَعْضُكم : مجنون ، وألاّ ترَوْه ولا يراكم خَيْرٌ لكم ، فاذا

(١) العِقاب : جمع عَقَبَة ، وهي طريق في الجبل وعر .

انتهوا إلينا، صدّقناكم، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعةً من المسلمين، فيهم عبد الله بن مسعود، فأُمِرُوا أن يكذِّبوهم، فكان الناس إذا مرُّوا على المشركين، فقالوا ماقالوا، ردّ عليهم المسلمون، وقالوا: كذبوا، بل يدعو إلى الحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير، فيقولون: وما هذا الخير الذي يدعو إليه؟ فيقولون: (للذين أُحسنوا في هذه الدنيا حسنةٌ).

قولهتعالى: (قالوا خيراً) أي: أنزل خيراً، ثم فسر ذلك الخير فقال: (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) قالوا: لا إِله إلاّ الله، وأحسنوا العمل (حسنةً) أي: كرامة من الله تعالى في الآخرة، وهي الجنة، وقيل: «الذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة» في الدنيا وهي مارزقهم من خيرها وطاعته فيها، (ولدار الآخرة) يعني: الجنة (خير) من الدنيا.

وفي قوله تعالى: (ولنعم دار المتقين) قولان:

أحدهما: أنها الجنة، قاله الجمهور. قال ابن الأنباري: في الكلام محذوف، تقديره: ولنعم دار المتقين الآخرةُ، غير أنه لما ذُكرت أولاً، عرف معناها آخراً، ويجوز أن يكون المعنى: ولنعم دار المتقين جناتُ عَدْنٍ.

والثاني: أنها الدنيا. قال الحسن: ولنعم دار المتقين الدنيا، لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة.

قولهتعالى: (جنات عَدْنٍ) قد شرحناه في (براءة :٧٢).

قولهتعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة) وقرأ حمزة «يتوفاهم» بياء مع الإمالة.

وفي معنى «طَيِّبينَ» خمسة أقوال:

أحدها: مؤمنين. والثاني: طاهرين من الشرك. والثالث: زاكية أفعالهم

وأقوالهم . والرابع : طيبةٌ وفاتُهم، سَهْلٌ خروجُ أرواحهم . والخامسة : طيبة أنفسهم بالموت ، ثقة بالثواب .

قوله تعالى : (يقولون) يعني الملائكة (سلام عليكم) .

وفي أي وقت يكون هذا [السلام] ؟ فيه قولان :

أحدهما : عند الموت . قال البراء بن عازب : يسلِّم عليه ملك الموت إذا دخل عليه . وقال القرظي : ويقول له : الله عز وجل يقرأ عليك السلام ، ويبشره بالجنة[1] .

والثاني : عند دخول الجنة . قال مقاتل : هذا قول خزنة الجنة لهم في الآخرة ، يقولون : سلام عليكم .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) وقرأ حمزة ، والكسائي « يأتيهم » بالياء ، وهذا تهديد للمشركين ، وقد شرحناه في (البقرة : ٢١٠) وآخر (الأنعام : ١٥٨) .

وفي قوله تعالى : (أو يأتيَ أمر ربك) قولان :

أحدهما : أمر الله فيهم ، قاله ابن عباس . والثاني : العذاب في الدنيا ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (كذلك فعل الذين من قبلهم) يريد : كفار الأمم الماضية ، كذَّبوا كما كذَّب هؤلاء . (وما ظلمهم الله) بإهلاكهم (ولكن كانوا أنفسهم

---

(١) رواه ابن جرير : ١٠١/١٤ ، وخرجه السيوطي في « الدر » ١١٧/٤ وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، وأبي القاسم بن مندة في كتاب الأحوال ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

يظلمون) ، بالشرك (فأصابهم سيئات ما عملوا) أي : جزاؤها ، قال ابن عباس : جزاء ما عملوا من الشرك ، (وحاق بهم) قد بيناه في (الأنعام : ١٠) ، والمعنى : أحاط بهم (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَاعَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لايَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين أشركوا) يعني : كفار مكة (لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء) يعني : الأصنام ، أي : لو شاء ماأشركنا ولا حرّمنا من دونه من شيء من البَحِيرَة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحَامِ ، والحرث ، وذلك أنه لما نزل (وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله) [الدهر : ٣٠] قالوا هذا ، على سبيل الاستهزاء ، لا على سبيل الاعتقاد ، وقيل : معنى كلامهم : لو لم يأمرنا بهذا ويُرِدْهُ منّا ، لم نأته .

قوله تعالى : (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي : من تكذيب الرسل وتحريم ما أحل الله ، (فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين) يعني : ليس عليهم إلاّ التبليغ ، فأما الهداية ، فهي إلى الله تعالى ، وبيّن ذلك بقوله : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً) أي : كما بعثناك في هؤلاء (أنِ اعبدوا الله) أي : وحّدوه (واجتنبوا الطاغوت) وهو الشيطان (فنهم مَنْ هدى الله) أي : أرشده

(ومنهم مَنْ حقت عليه الضلالة) أي : وجبت في سابق علم الله ، فأعلم الله عز وجلّ أنه إنما بعث الرسل بالأمر بالعبادة ، وهو من وراء الإضلال والهداية ، (فسيروا في الأرض) أي : معتبرين بآثار الأمم المكذبة . ثم أكد أن من حقت عليه الضلالة لا يهتدي ، فقال : (إن تحرص على هداهم) أي : [إن] تطلب هداهم بجهدك (فان الله لا يهدي من يضل) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، « لايُهدَى » برفع الياء وفتح الدال ، والمعنى : من أضله ، فلا هادي له ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « يَهْدِي » بفتح الياء وكسر الدال ، ولم يختلفوا في « يُضِل » أنها بضم الياء وكسر الضاد ، وهذه القراءة تحتمل معنيين ، ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : لا يهدي من طبَعهُ ضالاً ، وخلَقهُ شقياً .

والثاني : لا يهدي ، أي : لا يهتدي من أضله ، أي : مَنْ أضله الله لا يهتدي ، فيكون معنى يهدي : يهتدي ، تقول العرب : قد هُدِيَ فلانٌ الطريق ، يريدون : اهتدى .

﴿ وَأقسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أيمَانِهِمْ لايَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بلىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ . لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذي يَخْتَلِفُونَ فيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذينَ كَفَرُوا أنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ . إنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذَا أرَدْنَاهُ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأجْرُ الآخِرَةِ أكبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) سبب نزولها أن رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دَين ، فأتاه يتقاضاه ، فكان فيما تكلَّم به : والذي

أرجوه بعد الموت ، فقال المشرك : وإنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله (لا يبعث الله من يموت) ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو العالية . و (جهدَ أيمانهم) مفسر في (المائدة :٥٣) . وقوله : (بلى) رَدٌّ عليهم ، قال الفراء : والمعنى : (بلى) ليبعثنَّهم (وعداً عليه حقاً) .

قوله تعالى : (لِيبيِّن لهم الذي يختلفون فيه) قال الزجاج : يجوز أن يكون متعلقاً بالبعث ، فيكون المعنى : بلى يَبعثهم فيبين لهم ، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً) ليُبَيِّنَ لهم .

وللمفسرين في قوله (ليبين لهم) قولان :

أحدهما : أنهم جميع الناس ، قاله قتادة .

والثاني : أنهم المشركون، يبين لهم بالبعث ما خالفوا المؤمنين فيه .

قوله تعالى : (أنهم كانوا كاذبين) أي : فيما أقسموا عليه من نفي البعث . ثم أخبر بقدرته على البعث بقوله : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة « فيكونُ » رفعاً ، وكذلك في كل القرآن . وقرأ ابن عامر ، والكسائي « فيكونَ » نصباً . قال مكي بن إبراهيم : من رفع ، قطعه عمّا قبله ، والمعنى : فهو يكون ، ومن نصب ، عطفه على « يقول »، وهذا مثل قوله : (وإذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون)، وقد فسرناه في (البقرة : ١١٧) .

فان قيل : كيف سمي الشيء قبل وجوده شيئاً ؟ .

فالجواب : أن الشيء وقع على المعلوم عند الله قبل الخلق ، لأنه بمنزلة ما قد عُوِينَ وشُوهِدَ .

قوله تعالى : (والذين هاجروا في الله) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ ، بلال ، وعمار ، وصهيب ، وخبّاب بن الأرتّ ، وعايش وجبر مَولَيان لقريش ، أخذهم أهل مكة فجعلوا يُعذّبونهم ، ليردّوهم عن الإسلام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو ، قاله داود بن أبي هند .

والثالث : أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، قاله قتادة . ومعنى « هاجروا في الله »، أي : في طلب رضاه وثوابه (من بعد ما ظُلموا) بما نال المشركون منهم ، (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدنيا حسنة) وفيها خمسة أقوال : أحدها : لننزِلنّهم المدينة ، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والشعبي ، وقتادة ، فيكون المعنى : لَنُبَوِّئنّهم داراً حسنة وبلدة حسنة . والثاني : لنرزقنّهم في الدنيا الرزق الحسن ، قاله مجاهد . والثالث : النصر على العدوّ ، قاله الضحاك . والرابع : أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن ، وصار لأولادهم من الشرف ، ذكره الماوردي ، وقد روي معناه عن مجاهد ، فروى عنه ابن أبي نجيح أنه قال : (لنبوّئنهم في الدنيا حسنة) قال : لسان صادق . والخامس : أن المعنى : لنحسِنَنّ إليهم في الدنيا ، قال بعض أهل المعاني : فتكون على هذه الأقوال «لنبوّئنهم »، على سبيل الاستعارة ؛ إلا على القول الأول .

قوله تعالى : (ولأجر الآخرة أكبر) قال ابن عباس : يعني : الجنة ، (لو كانوا يعلمون) يعني : أهل مكة .

ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه كان إذا أعطى الرجل من

المهاجرين عطاءه ، قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يتلو هذه الآية [١] .

ثم إن الله أثنى عليهم ومدحهم بالصبر فقال : (الذين صبروا) أي : على دينهم ، لم يتركوه لأذى نالهم ، وهم في ذلك واثقون بربهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً) قال المفسرون : لما أنكر مشركو قريش نبوّة محمد ﷺ وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ؛ فهلاّ بعث إلينا ملَكاً ! فنزلت هذه الآية ؛ والمعنى : أن الرسل كانوا مثلك آدميّين ، إلا أنهم يُوحَى إليهم . وقرأ حفص عن عاصم : « نوحِي » بالنون وكسر الحاء . (فاسألوا) يا معشر المشركين (أهل الذكر) وفيهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم أهل التوراة والإنجيل ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أهل التوراة ؛ قاله مجاهد . والثالث : أهل القرآن ، قاله ابن زيد . والرابع : العلماء بأخبار من سلف ، ذكره الماوردي .

وفي قوله تعالى : (إن كنتم لا تعلمون) قولان :

أحدهما : لا تعلمون أن الله تعالى بعث رسولاً من البشر .

والثاني : لا تعلمون أن محمداً رسول الله ؛ فعلى القول الأول ، جائز أن

(١) ابن جرير الطبري : ١٤/١٠٧ .

يسأل مَن آمن برسول الله ومَن كفر ، لأن أهل الكتاب والعلم بالسِّيَر متفقون على أن الأنبياء كلَّهم من البشر ، وعلى الثاني إنما يسأل مَنْ آمَنَ مِنْ أهل الكتاب ، وقد روي عن مجاهد (فاسألوا أهل الذكر) قال : عبد الله بن سلام ، وعن قتادة ، قال : سلمان الفارسي .

قوله تعالى : (بالبينات والزُّبُر) في هذه « الباء » قولان :

أحدها : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً أرسلناهم بالبينات . والزُّبُر : الكتب . وقد شرحنا هذا في (آل عمران : ١٨٤) .

قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر) وهو القرآن باجماع المفسرين (لِتُبَيِّنَ للناس ما نزِّل إليهم) [فيه] من حلال وحرام ، ووعد ووعيد (ولعلهم يتفكرون) في ذلك فيعتبرون .

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (أفأمن الذين مكروا السيئات) قال المفسرون : أراد مشركي مكة . ومكرهم السيئات : شركهم وتكذيبهم ، وسمي ذلك مكراً ، لأن المكر في اللغة : السعي بالفساد ، وهذا استفهام إنكار ، ومعناه : ينبغي أن لا يأمنوا العقوبة ، وكان مجاهد يقول : عنى بهذا الكلام نمرود بن كنعان .

قوله تعالى : (أو يأخذهم في تقلُّبهم) فيه أربعة أقوال :

أحدها : في أسفارهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : في منامهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : في ليلهم ونهارهم ، قاله الضحاك ، وابن جريج ، ومقاتل .

والرابع : أنه جميع ما يتقلَّبون فيه ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (أو يأخذَهم على تخوّف) فيه قولان :

أحدهما : على تنقُّص ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك . قال ابن قتيبة : التَّخَوُّف : التنقُّص ، ومثله التخوُّن . يقال : تخوفته الدهور وتخونته : إذا نقصته وأخذت من ماله وجسمه . وقال الهيثم بن عدي : التخوُّف : التنقُّص ، بلغة أزد شنوءة .

ثم في هذا التنقُّص ثلاثة أقوال : أحدهـا : أنه تنقّصٌ من أعمالهم ، رواه الضحاك عن ابن عبـاس ، والثاني : أخذُ واحد بعد واحد ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : تنقُّصُ أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم ، قاله الزجاج .

والثاني : أنه التخوف نفسه ، ثم فيه قولان : أحدهما : يأخذهم على خوف أن يعاقب أو يتجاوز ، قاله قتادة . والثاني : أنه يأخذ قرية لتخاف القرية الأُخرى ، قاله الضحاك . وقال الزجاج : يأخذهم بعد أن يخيفهم بأن يهلك قرية فتخاف التي التي تليها ، فعلى هذا ، خوّفهم قبل هلاكهم ، فلم يتوبوا ، فاستحقوا العذاب .

قوله تعالى : (فان ربكم لرؤف رحيم) إذ لم يعجّل بالعقوبة ، وأمهل للتوبة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يروا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « أولم يروا » بالياء ، وقرأ حمزة ، والكسائي : « تروا » بالتاء ، واختلف عن عاصم .

قوله تعالى : (إلى ما خلق الله من شيء) أراد من شيء له ظل ، من جبل ، أو شجر ، أو جسم قائم (يتفيَّأُ) قرأ الجماعة بالياء ، وقرأ أبو عمرو ، ويعقوب بالتاء (ظلالُه) وهو جمع ظل ، وإنما جمع وهو مضاف إلى واحد ، لأنه واحدٌ يُراد به الكثرة ، كقوله تعالى : (لتستووا على ظهوره) [الزخرف : ١٣] . قال ابن قتيبة : ومعنى يتفيَّأُ ظلاله : يدور ويرجع من جانب إلى جانب ، والفيء : الرجوع ، ومنه قيل للظل بالعشيّ : فيء ، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق . قال المفسرون : إذا طلعتْ الشمس وأنت متوجه إلى القبلة ، كان الظل قُدَّامك ، فاذا ارتفعتْ كان عن يمينك ، فاذا كان بعد ذلك كان خلفك ، وإذا دنتْ للغروب كان على يسارك ، وإنما وحّد اليمين ، والمراد به : الجمع ، ايجازاً في اللفظ ، كقوله تعالى : (ويولُّون الدُّبُر) [القمر : ٤٥] ، ودلَّت « الشمائل » على أن المراد به الجميع ، وقال الفراء : إنما وحد اليمين ، وجمع الشمائل ، ولم يقل : الشمال ، لأن كل ذلك جائز في اللغة ، وأنشد :

الوَارِدُوْنَ وَتَيْم في ذَرَى سَبَأٍ قد عضّ أعناقَهُم جِلْدُ الجواميْسِ[1]

ولم يقل : جلود ، ومثله :

كُلُوا في نِصْفِ بَطْنِكُم تَعِيْشُوا فانَّ زَمَانَكُم زَمَنٌ خَمِيْصُ[2]

وإنما جاز التوحيد ، لأن أكثر الكلام يواجَه به الواحد .

---

(١) البيت في « الطبري » ١١٧/١٤ وهو في « معاني القرآن » للفراء ٣٠٨/١ لجرير من قصيدة في هجاء تيم بن قيس ، من بكر بن وائل ، وهو في ديوانه : ٣٢٥ .

(٢) تقدم البيت ٢٨/١ وهو غير منسوب في « سيبويه » ١٠٨/١ ، و « الخزانة » : ٣٧٩/٣ ، و « الطبري » : ٣٦١/١ .

وقال غيره : اليمين راجعة إلى لفظِ ما ؛ وهو واحد ، والشمائل راجعة إلى المعنى .

قوله تعالى : (سُجَّداً لله) قال ابن قتيبة : مستسلمة ، منقادة ، وقد شرحنا هذا المعنى عند قوله تعالى : (وظلالهم بالغدو والآصال) [الرعد: ١٥] .

وفي قوله تعالى : (وهم داخرون) قولان :

أحدهما : والكفار صاغرون .

والثاني : وهذه الأشياء داخرة مجبولة على الطاعة . قال الأخفش : إنما ذكر مَن ليس من الإنس ، لأنه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفعل .

قوله تعالى : (ولله يسجد ما في السموات ...) الآية . الساجدون على ضربين :

أحدهما : مَن يعقل ، فسجوده عبادة .

والثاني : مَن لا يعقل ، فسجوده بيان أثر الصَّنعة فيه ، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء ، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر :

بِجَيْشٍ تضِلُ البُلْق في حَجَرَاتِهِ
تَرىَ الأُكْمَ فيه سُجَّداً لِلْحَوافِرِ (١)

(١) قائله زيد الخيل ، وهو في « تأويل مشكل القرآن » : ٣٢٢ ، و « الكامل » : ٥٥١ ، و « المعاني الكبير » : ٨٩٠ ، و « أضداد ابن الأنباري » : ٢٩٥ ، و « حماسة ابن الشجري » : ١٩ ، و « مجموعة المعاني » : ١٩٢ ، والباء في قوله : بجيش ، متعلقة ببيت سالف هو :

بني عامرٍ هل تعرفون إذا غدا أبو مِكنف قد شدَّ عَقْدَ الدوابرِ

والبلق ، جمع أبلق ، وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين ، والأُكم ، جمع إكام ، وإكام ، واحده : أكمة ، وهي تل يكون أشد ارتفاعاً مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة في « المعاني الكبير » : يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل ، يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر .

قال ابن قتيبة : حَجَرَاتُهُ ، أي : جوانبه ، يريد أن حوافر الخيل قد قلعت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت . فأما الشمس والقمر والنجوم ، فألحقها جماعة بمن يعقل ، فقال أبو العالية : سجودها حقيقة ، ما منها غارب إلاّ خرّ ساجداً بين يدي الله عز وجل ، ثم لا ينصرف حتى يُؤذَن له ، ويشهد لقول أبي العالية ، حديث أبي ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ! تدري أين ذهبت الشمس » ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها عز وجل ، فتستأذن في الرجوع ، فيؤذَن لها ، فكأنها قد قيل لها : ارجعي من حيث جئتِ ، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها ، ثم قرأ : (والشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها) [يس : ٣٨] » . أخرجه البخاري ومسلم [١] . وأمّا النبات والشجر ، فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء .

أحدها : أن يكون سجوداً لا نعلمه ، وهذا إذا قلنا : إن الله يُودِعه فهماً . والثاني : أنه تفيُّؤ ظلاله . والثالث : بيان الصنعة فيه . والرابع : الانقياد لما سُخِّر له .

قوله تعالى : (والملائكة) إنما أخرج الملائكة من الدوابّ ، لخروجهم بالأجنحة عن صفة الدبيب .

وفي قوله : (وهم لايستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) قولان :

أحدهما : أنه من صفة الملائكة خاصة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

والثاني : أنه عامّ في جميع المذكورات ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

---

(١) البخاري : ٤١٦/٨، ومسلم : ١٣٩/١ .

وفي قوله : (من فوقهم) قولان ذكرهما ابن الأنباري .

أحدهما : أنه ثناء على الله تعالى ، وتعظيم لشأنه ، وتلخيصه : يخافون ربهم عالياً رفيعاً عظيماً .

والثاني : أنه حال ، وتلخيصه : يخافون ربهم معظّمين له عالمين بعظيم سلطانه .

﴿ وَقَالَ اللهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين) سبب نزولها : أن رجلاً من المسلمين دعا اللهَ في صلاته ، ودعا الرحمن ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . قال الزجاج : ذِكْر الاثنين توكيد ، كما قال تعالى : (إنما هو إله واحد) .

قوله تعالى : (وله الدِّين واصِباً) في المراد بالدِّين أربعة أقوال :

أحدها : أنه الإخلاص ، قاله مجاهد . والثاني : العبادة ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وإقامة الحدود ، والفرائض ، قاله عكرمة .

والرابع : الطاعة ، قاله ابن قتيبة .

وفي معنى « واصباً » أربعة أقوال :

أحدها : دائماً ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، والثوري ، واللغويون .

قال أبو الأسود الدؤلي :

لاأَبْتَغِي الحَمْدَ القَلِيلَ بَقَاؤُهُ يوماً بِذَمِّ الدَّهْرِ أَجْمَعَ وَاصِبَا (١)

قال ابن قتيبة : معنى الكلام : أنه ليس من أحدٍ يُدَان له ويُطاع إلاّ انقطع ذلك عنه بزوالٍ أو هَلَكةٍ ، غيرَ الله عز وجل ، فان الطاعة تدوم له .

والثاني : واجباً ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : خالصاً ، قاله الربيع بن أنس .

والرابع : وله الدين موصباً ، أي : متعباً ، لأن الحق ثقيل ، وهو كما تقول العرب : همٌّ ناصب ، أي : مُنْصِبٌ ، قال النابغة :

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبِ وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ (٢)

ذكره ابن الأنباري . قال الزجاج : ويجوز أن يكون المعنى : له الدين ، والطاعة ، رضي العبد بما يُؤمَر به وسهل عليه ، أو لم يسهل ، فله الدين وإن كان فيه الوصب ، والوصب : شدة التعب .

﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ . ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما بكم من نعمة) قال الزجاج : المعنى : ماحل بكم من نعمة ، من صحة في جسم ، أو سَعَةٍ في رزق ، أو متاعٍ من مال وولد (فمن الله) وقرأ ابن أبي عبلة : « فَمَنْ الله » بتشديد النون .

---

(١) « مجاز القرآن » : ١/٣٦١ ، و « الطبري » : ١٤/١١٨ ، و « القرطبي » : ١٠/١١٤ .

(٢) ديوانه : ٩ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١٥٩ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٨٤ ، وقد فسر قوله : « ناصب » أي : ذو نصب ، وبمعنى : منصب .

قوله تعالى : (ثم إذا مسكم الضُّرُّ) قال ابن عباس : يريد الأسقام، والأمراض، والحاجة .

قوله تعالى : (فإليه تجأرون) قال الزجاج : « تجأرون » : ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة ، يقال : جأر يجأر جُؤاراً ، والأصوات مبْنية على « فُعَال » و « فَعيل » ، فأما « فُعَال » فنحو « الصُّرَاخ » و « الخُوَار » ، وأما « الفَعِيل » فنحو « العويل » و « الزَّئير » ، والفُعَال أكثر .

قوله تعالى : (إذا فريق منكم) قال ابن عباس : يريد أهل النفاق . قال ابن السائب : يعني الكفار .

قوله تعالى : (ليكفروا بما آتيناهم) قال الزجاج : المعنى : ليكفروا بأنّا أنعمنا عليهم ، فجعلوا نِعَمَنا سبباً إلى الكفر ، وهو كقوله تعالى : (ربنا إنك آتيت فرعون) إلى قوله : (ليضلوا عن سبيلك) [يونس : ٨٨] ، ويجوز أن يكون « ليكفروا » ، أي : ليجحدوا نعمة الله في ذلك .

قوله تعالى : (فتمتعوا) تهدّد ، (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَيَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ . وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَايَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَايَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويجعلون لما لايعلمون) يعني : الأوثان .

وفي الذين لايعلمون قولان :

أحدهما : أنهم الجاعلون، وهم المشركون ، والمعنى : لما لايعلمون لها ضراً ولا نفعاً ؛ فمفعول العلم محذوف ، وتقديره : ماقلنا ، هذا قول مجاهد، وقتادة .

والثاني : أنها الأصنام التي لاتعلم شيئاً ، وليس لها حس ولا معرفة ، وإنما قال : يعلمون ، لأنهم لمَّا نحلوها الفهم ، أجراها مجرى مَنْ يعقل على زعمهم ، قاله جماعة من أهل المعاني . قال المفسرون : وهؤلاء مشركو العرب جعلوا لأوثانهم جزءاً من أموالهم ، كالبَحِيرَةِ والسائِبَةِ وغير ذلك مما شرحناه في (الأنعام : ١٣٩) .

قوله تعالى : (تالله لتُسألُنَّ) رجع عن الإخبار عنهم إلى الخطاب لهم ، وهذا سؤال توبيخ .

قوله تعالى : (ويجعلون لله البنات) قال المفسرون : يعني : خزاعة وكنانة ، زعموا أن الملائكة بنات الله (سبحانه) أي : تنزه عما زعموا . (ولهم مايشتهون) يعني : البنين . قال أبو سليمان : المعنى : ويتمنَّون لأنفسهم الذكور .

قوله تعالى : (وإذا بُشِّر أحدهم بالأُنثى) أي : أُخبر بأنه قد وُلد له بنت (ظل وجهه مُسودّاً) قال الزجاج : أي : متغيِّراً تغيُّر مغتمٍّ ، يقال لكل من لقي مكروهاً : قد اسود وجهه غمّاً وحزَناً .

قوله تعالى : (وهو كظيم) أي : يكظم شدة وَجْدِهِ ، فلا يظهره ، وقد شرحناه في سورة (يوسف : ٨٤) .

قوله تعالى : (يتوارى من القوم) قال المفسرون : وهذا صنيع مشركي العرب ، كان أحدُهم إذا ضرب امرأتَه المخاضُ ، توارى إلى أن يعلم مايولد له ، فإن كان ذكراً ، سُرَّ به ، وإن كانت أنثى ، لم يظهر أياماً يُدَبِّر كيف يصنع في أمرها ، وهو قوله : (أيُمسِكُهُ على هُونٍ) فالهاء ترجع إلى ما في قوله : (ما بُشِّر به) ، والهُون في كلام العرب : الهوان . وقرأ ابن مسعود ، وابن

أبي عبلة ، والجحدري : « على هوان » ، والدس : إخفـاء الشيء في الشيء ، وكانوا يدفنون البنت وهي حية (ألا ساء ما يحكمون) إذْ جعلوا لله البنات اللاتي محلّهن منهم هذا ، ونسبوه إلى الولد ، وجعلوا لأنفسهم البنين .

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْء) أي : صفة السَّوْء من احتياجهم إلى الولد ، وكراهتهم للاناث ، خوف الفقر والعار (ولله المثل الأعلى) أي : الصفة العليا من تنزُّهه وبراءته عن الولد .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو يؤاخذ اللهُ الناسَ بظلمهم) أي : بشركهم ومعاصيهم ، كلما وُجد شيء منهم أُوخذوا به (ما ترك على ظهرها) يعني : الأرض ، وهذه كناية عن غير مذكور ، غير أنه مفهوم ، لأن الدوابّ إنما هي على الأرض .

وفي قوله : (من دابة) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه عنى جميع ما يدبّ على وجه الأرض ، قاله ابن مسعود . قال قتادة : وقد فعل ذلك في زمن نوح عليه السلام ، وقال السدي : المعنى : لأقحط المطر فلم تبق دابة إلا هلكت ، وإلى نحوه ذهب مقاتل .

والثاني : أنه أراد من الناس خاصة ، قاله ابن جريج .

والثالث : من الإنس والجن ، قاله ابن السائب ، وهو اختيار الزجاج .

قوله تعالى : (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) وهو منتهى آجالهم ، وباقي الآية قد تقدم [الأعراف : ٣٤] .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويجعلون لله ما يكرهون) المعنى : ويحكمون له بما يكرهونه لأنفسهم، وهو البنات ، (وتصف ألسنتُهم الكذبَ) أي : تقول الكذب ، وقرأ أبو العالية ، والنخعي ، وابن أبي عبلة : « الكُذُب » بضم الكاف والذال . ثم فسر ذلك الكذب بقوله : (أن لهم الحسنى) وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها البنون ، قاله مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل .

والثاني : أنها الجزاء الحسن من الله تعالى ، قاله الزجاج .

والثالث : [أنها] الجنة ، وذلك أنه لما وعد الله المؤمنين الجنة ، قال المشركون : إن كان ما تقولونه حقاً ، لندخلَنَّها قبلكم ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (لا جرم) قد شرحناها فيما مضى [هود : ٢٢] . وقال الزجاج : « لا » ردٌّ لقولهم ، والمعنى : ليس ذلك كما وصفوا « جرم » أنَّ لهم النار ، المعنى : جرم فعلهم ، أي : كسب فعلهم هذا (أنَّ لهم النار وأنهم مفرَطون) وفيه أربعة أوجه ، قرأ الأكثرون : « مُفْرَطون » بسكون الفاء وتخفيف الراء وفتحها ، وفي معناها قولان :

أحدها : مُتْرَكون ، قاله ابن عباس . وقال الفراء : منسيّون في النار .

والثاني : مُعْجَلون ، قاله ابن عباس أيضاً . وقال ابن قتيبة : مُعْجَلون إلى النار . قال الزجاج : معنى « الفرط » في اللغة : المتقدم ، فمعنى « مفرطون » :

مقدَّمون إلى النار ، ومَنْ فسرها « مُتْرَكون » فهو كذلك [أيضاً] ، أي: قدجُعلوا مقدَّمين إلى العذاب أبداً ، متروكين فيه . وقرأ نافع ، ومحبوب [1] عن أبي عمرو ، وقتيبة [2] عن الكسائي « مُفْرِطون » بسكون الفاء وكسر الراء وتخفيفها ، قال الزجاج : ومعناها : أنهم أفرطوا في معصية الله . وقرأ أبو جعفر وابن أبي عبلة « مُفَرِّطون » بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرها ، قال الزجاج : ومعناها : أنهم فرَّطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للآخرة ، وتصديق هذه القراءة (يا حسرتىٰ على ما فرَّطتُ في جنب الله) [الزمر : ٥٦] . وروى الوليد بن مسلم عن ابن عامر « مُفَرَّطُون » بفتح الفاء والراء وتشديدها ، قال الزجاج : وتفسيرها كتفسير القراءة الأولى ، فالمفرَّط والمفرَط بمعنى واحد .

﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) قال المفسرون : هذه

---

(١) هو محمد بن الحسن بن هلال بن أبي زينب ، فيروز ، أبو جعفر ، أو أبو الحسن ، لقبه محبوب ، حدث عنه أحمد بن حنبل ، ومحمد بن سنان القزاز ، وأخرج له البخاري ، وقال ابن معين : لابأس به .

(٢) هو أبو عبد الرحمن قتيبة بن مهران الأزاذاني (قرية من أصبهان) إمام مقرىء صالح ثقة ، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي ، روي عنه أنه قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره على الكسائي ، وقرأ الكسائي القرآن من أوله إلى آخره عليَّ ، وقال : صحبت الكسائي إحدى وخمسين سنة ، وشاركته في عامة أصحابه .

تعزية للنبي ﷺ (فزين لهم الشيطان أعمالهم) الخبيثة حتى عصَوا وكذَّبوا ، (فهو وليُّهم اليوم) فيه قولان :

أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله ابن السائب ، ومقاتل ، كأنهما أرادا : فهو وليهم يوم تكون لهم النار .

والثاني : أنه الدنيا ، فالمعنى : فهو مواليهم في الدنيا (ولهم عذاب أليم) في الآخرة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (إلاَّ لِتُبيِّنَ لهم) يعني : الكفار (الذي اختلفوا فيه) أي : ما خالفوا فيه المؤمنين من التوحيد والبعث والجزاء ، فالمعنى : أنزلناه بياناً لما وقع فيه الاختلاف .

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ . وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله أنزل من السماء ماءً) يعني : المطر (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي : بعد يُبْسها (إن في ذلك لآية لقوم يسمعون) أي : يعتبرون .

قوله تعالى : (وإنَّ لكم في الأنعام لعبرةً نُسقيكم) قرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي : « نُسقيكم » بضم النون ، ومثله في (المؤمنين : ٢١) . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « نَسقيكم » بفتح النون فيهما . وقرأ أبو جعفر : « تَسْقِيكم » بتاء مفتوحة ، وكذلك في (المؤمنين : ٢١) ،

وقد سبق بيان الأنعام. وذكرنا معنى «العبرة» في (آل عمران : ١٣)، والفرق بين «سقى» و «أسقى» في (الحجر : ٢٢).

فأما قوله : (مما في بطونه) فقال الفراء : النَّعَم والأنعام شيء واحد، وهما جمعان، فرجع التذكير إلى معنى «النَّعَم» إذ كان يؤدي عن الأنعام، أنشدني بعضهم.

وَطابَ أَلْبانُ اللِّقاحِ وَبَرَدْ[١]

فرجع إلى اللبن، لأن اللبن والألبان في معنى؛ قال : وقال الكسائي : أراد : نسقيكم مما في بطون ما ذكرنا، وهو صواب، أنشدني بعضهم :

مِثْلَ الفِراخِ نُتِفَتْ حَواصِلُه[٢]

وقال المبرِّد : هذا فاشٍ في القرآن، كقوله للشمس : (هذا ربي) [الأنعام : ٧٨] يعني : هذا الشيء الطالع؛ وكذلك (وإني مرسِلة إليهم بهديَّة) ثم قال : (فلما جاء سليمانَ) [النمل : ٣٥، ٣٦] ولم يقل : «جاءت» لأن المعنى : جاء الشيء الذي ذكرنا، وقال أبو عبيدة : الهاء في «بطونه» للبعض، والمعنى : نُسقيكم مما في بطون البعض الذي له لبن، لأنه ليس لكل الأنعام لبن، وقال ابن قتيبة : ذهب بقوله : «مما في بطونه» إلى النَّعَم، والنَّعَم تذكَّر وتؤنَّث، والفَرْث : ما في الكرش، والمعنى : أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم (لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) أي : سهلاً في الشرب لا يشجى به شاربه، ولا يَغَصّ. وقال بعضهم : سائغاً، أي : لا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم، وروى

---

(١) الرجز غير منسوب في «الطبري» : ١٤/١٣١، و «اللسان» : كند.

(٢) «الطبري» : ١٤/١٣٢، و «اللسان» : نعم.

أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا استقر العَلَف في الكَرِش ، طحنه ، فصار أسفله فرثاً ، وأعلاه دماً ، وأوسطه لَبَناً ، والكبد مسلَّطة على هذه الأصناف الثلاثة ، فيجري الدم في العروق ، واللبن في الضَّرع ، ويبقى الفرث في الكرش .

قوله تعالى : (ومِن ثمرات النخيل والأعناب) تقدير الكلام : ولكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون منه سَكَرا . والعرب تضمر « ما » كقوله : (وإذا رأيت ثَمَّ) [الانسان : ٢٠] أي : ما ثَمَّ . والكناية في « منه » عائدة على « ما » المضمرة . وقال الأخفش : إنما لم يقل : منها ، لأنه أضمر الشيء ، كأنه قال : ومنها شيء تتخذون منه سَكَراً .

وفي المراد بالسَّكَر ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الخمر ، قاله ابن مسعود ، وابن عمر ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابراهيم ابن أبي ليلى ، والزجاج ، وابن قتيبة . وروى عمرو بن سفيان عن ابن عباس قال : السَّكَرُ : ماحرِّم من ثمرتها ، وقال هؤلاء المفسرون : وهذه الآية نزلت إذ كانت الخمرة مباحة ، ثم نسخ [ذلك] بقوله : (فاجتنبوه) [المائدة : ٩٠] وممن ذكر أنها منسوخة ، سعيد بن جبير ، ومجاهد ، والشعبي ، والنخعي .

والثاني : أن السَّكَر : الخَلّ ، بلغة الحبشة ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وقال الضحاك : هو الخل ، بلغة اليمن .

والثالث : أن « السَّكَر » الطعْم ، يقال : هذا له سَكَر ، أي : طعْم ، وأنشدوا :

جَعلْتَ عَيْبَ الأكرَمِيْن سَكَرا (١)

(١) « مجاز القرآن » : ١/٣٦٣ ، و « الطبري » : ١٤/١٣٨ ، و « القرطبي » : ١٠/١٢٩ ، و « اللسان » ، و « التاج » : سكر .

قاله أبو عبيدة . فعلى هذين القولين ، الآية محكمة . فأما الرزق الحسن ، فهو ما أُحِلَّ منهما ، كالتمر ، والعنب ، والزبيب ، والخل ، ونحو ذلك .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل) في هذا الوحي قولان :

أحدهما : أنه إلهام ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والضحاك ، ومقاتل .

والثاني : أنه أمر ، رواه العوفي عن ابن عباس . وروى ابن مجاهد عن أبيه قال : أُرسل إليها . والنحل : زنابير العسل ، واحدتها نحلة . و « يَعرِشون » يجعلونه عريشاً . وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم « يَعْرُشُون » بضم الراء ، وهما لغتان ، يقال : « يعرِش » و « يعرُش » مثل « يعكِف » و « يعكُف » . ثم فيه قولان :

أحدهما : مايعرشون من الكروم ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنها سقوف البيوت ، قاله الفراء . وقال ابن قتيبة : كل شيء عُرِش ، من كرم ، أو نبات ، أو سقف ، فهو عَرْش ، ومعروش . وقيل : المراد بـ « مما يعرشون » : مما يبنون لهم من الأماكن التي تلقي فيها العسل ، ولولا التسخير ، ماكانت تأوي إليها .

قوله تعالى : (ثم كلي من كل الثمرات) قال ابن قتيبة : أي : من الثمرات ،

و « كلّ » هاهنا ليست على العموم ، ومثله قوله : (تدمِّر كل شيء) [الأحقاف : ٢٥] . قال الزجاج : فهي تأكل الحامض ، والمرَّ ، ومالا يوصَف طعمه ، فيُحيل الله عز وجل من ذلك عسلاً .

قوله تعالى : (فاسلُكي سُبُل ربّكِ) السُّبُل : الطُّرُق ، وهي التي يطلب فيها الرعي . و « الذُّلُل » جمع ذَلول . وفي الموصوف بها قولان :

أحدها : أنها السُّبُل ، فالمعنى : اسلكي السُّبُلَ مُذَلَّلةً لكِ ، فلا يتوعّر عليها مكان سلكته ، وهذا قول مجاهد ، واختيار الزجاج .

والثاني : أنها النحل ، فالمعنى : إنكِ مُذَلَّلةٌ بالتسخير لبني آدم ، وهذا قول قتادة ، واختيار ابن قتيبة .

قوله تعالى : (يخرج من بطونها شراب) يعني : العسل (مختلف ألوانه) قال ابن عباس : منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر . قال الزجاج : [يخرج] من بطونها ، إلاّ أنها تلقيه من أفواهها ، وإنما قال : من بطونها ، لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلاّ في البطن ، فيخرج كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم .

قوله تعالى : (فيه شفاء للناس) في هاء الكناية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى العسل ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال ابن مسعود . واختلفوا ، هل الشفاء الذي فيه يختص بمرض دون غيره ، أم لا ؟ على قولين ؛ أحدهما : أنه عامّ في كل مرض . قال ابن مسعود : العسل شفاء من كل داء . وقال قتادة : فيه شفاء للناس من الأدواء . وقد روى أبو سعيد الخدري قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي استطلق بطنُه ، فقال : « اسقه عسلاً » فسقاه ، ثم أتى فقال : قد سقيتُه فلم يزده إلاّ استطلاقاً ، قال : « اسقه ،

عسلاً » ، فذكر الحديث ... إلى أن قال : فَشُفِيَ ، إما في الثالثة ، وإما في الرابعة . فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله ، وكذب بطن أخيك » أخرجه البخاري ، ومسلم [١] . ويعني بقوله « صدق الله » : هذه الآية . والثاني : فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه ، قاله السدي . والصحيح أن ذلك خرج مخرج الغالب . قال ابن الأنباري : الغالب على العسل أنه يعمل في الأدواء ، ويدخل في الأدوية ، فاذا لم يوافق آحادَ المرضى ، فقد وافق الأكثرين ، وهذا كقول العرب : الماء حياة كل شيء ، وقد نرى من يقتله الماء ، وإنما الكلام على الأغلب .

والثاني : أن الهاء ترجع إلى الاعتبار . والشفاء : بمعنى الهدى ، قاله الضحاك .

والثالث : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد .

﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَايَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (والله خلقكم) أي : أوجدكم ولم تكونوا شيئاً (ثم يتوفَّاكم) عند انقضاء آجالكم ، (ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر) وهو أردؤه ، وأدْوَنُه ، وهي حالة الهرم . وفي مقداره من السنين ثلاثة أقوال :

أحدها : خمس وسبعون سنة ، قاله عليّ عليه السلام . والثاني : تسعون سنة ، قاله قتادة . والثالث : ثمانون سنة ، قاله قطرب .

قوله تعالى : (لكي لايعلم بعد علم شيئاً) قال الفراء : لكي لايعقل من بعد عقله الأول شيئاً . وقال ابن قتيبة : أي : حتى لايعلم بعد علمه بالأمور شيئاً ، لشدة هرمه . وقال الزجاج : المعنى : أن منكم من يَكْبُرُ حتى يذهب عقله خَرَفاً ،

---

(١) البخاري : ١٠/١١٨ ، ١٤٢ ، ومسلم : ٤/١٧٣٦ .

فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً ، ليريَكم من قدرته ، كما قدِر على إماتته وإحيائه، أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل . وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : ليس هذا في المسلمين، المسلم لايزداد في طول العمر والبقاء إلّا كرامة عند الله، وعقلاً، ومعرفة . وقال عكرمة : من قرأ القرآن ، لم يُردّ إلى أرذل العمر .

﴿ وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) يعني : فضل السادة على المماليك (فما الذين فُضِّلوا) يعني : السادة (برادّي رزقِهم على ماملكت أيمانهم) فعبرت « ما » عن « مَنْ » لأنه موضع إبهام ، تقول : مافي الدار ؟ فيقول المخاطب : رجلان أو ثلاثة ، ومعنى الآية : أن المولى لايردّ على ماملكت يمينه من مالِه حتى يكون المولى والمملوك في المال سواءً ، وهو مَثَل ضربه الله تعالى للمشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء له، والأصنامَ ملكاً له ، يقول : إذا لم يكن عبيدُكم معكم في المُلك سواءً ، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ، وترضَون لي ماتأنفون لأنفسكم منه ؟! وروى العوفي عن ابن عباس ، قال : لم يكونوا أشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله تعالى .

قوله تعالى : (أفبنعمة الله يجحدون) قرأ أبو بكر عن عاصم : « تَجحدون » بالتاء . وفي هذه النعمة قولان :

أحدهما : حُجته وهدايته . والثاني : فضله ورزقه .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ . فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) يعني النساء .

وفي معنى « من أنفسكم » قولان :

أحدها : أنه خلَق آدم ، ثم خلَق زوجته منه ، قاله قتادة .

والثاني : « من أنفسكم » ، أي : من جنسكم من بني آدم ، قاله ابن زيد .

وفي الحَفَدَة خمسة أقوال :

أحدها : أنهم الأصهار ، أختان الرجل على بناته ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، ومجاهد في رواية ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، وأنشدوا من ذلك :

ولو أنَّ نَفْسِي طاوعتني لأَصبَحَتْ لها حَفَدٌ مِمَّا يُعدُّ كثيرُ
ولكنَّها نَفْسٌ عليَّ أبيَّةٌ عَيُوفٌ لأصهار اللئام قذورُ (١)

والثاني : أنهم الخدم ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية الحسن ، وطاووس وعكرمة في رواية الضحاك ، وهذا القول يحتمل وجهين : أحدها : أنه يراد بالخدم : الأولاد ، فيكون المعنى : أن الأولاد يخدمون . قال ابن قتيبة : الحفدة : الخدم والأعوان ، فالمعنى : : هم بنون ، وهم خدم . وأصل

(١) « القرطبي » : ١٠/١٤٤ ونسبه لجميل .

الحَفْد : مداركة الخطو والإسراع في المشي ، وإنما يفعل الخدم هذا ، فقيل لهم : حَفَدَة . ومنه يقال في دعاء الوتر : « وإليك نسعى ونَحفِد » . والثاني : أن يراد بالخدم : المماليك ، فيكون معنى الآية : وجعل لكم من أزواجكم بنين ، وجعل لكم حفدة من غير الأزواج ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنهم بنو امرأة الرجل من غيره ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والرابع : [أنهم] ولد الولد ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

والخامس : أنهم : كبار الأولاد ، والبنون : صغارهم ، قاله ابن السائب ، ومقاتل . قال مقاتل : وكانوا في الجاهلية تخدمهم أولادهم . قال الزجاج : وحقيقة هذا الكلام أن الله تعالى جعل من الأزواج بنين ، ومن يعاون على ما يُحتاج إليه بسرعة وطاعة .

قوله تعالى : (ورزقكم من الطيبات) قال ابن عباس : يريد : من أنواع الثمار والحبوب والحيوان .

قوله تعالى : (أفبالباطل يؤمنون) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الأصنام ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه الشريك والصاحبة والولد ، فالمعنى : يصدِّقون أن لله ذلك ؟! قاله عطاء .

والثالث : أنه الشيطان ، أمرهم بتحريم البحيرة والسائبة ، فصدَّقوا .

وفي المراد بـ « نعمة الله » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها التوحيد ، قاله ابن عباس . والثاني : القرآن ، والرسول . والثالث : الحلال الذي أحلَّه الله لهم .

قوله تعالى : (ويعبُدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً) وفي المشار إليه قولان :

أحدهما : أنها الأصنام ، قاله قتادة . والثاني : الملائكة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (من السموات) يعني : المطر ، (و) من (الأرض) النبات ، والثمر .

قوله تعالى : (شيئاً) قال الأخفش : جعل « شيئاً » بدلاً من الرزق ، والمعنى : لا يملكون رزقاً قليلا ولا كثيرا ، (ولا يَستطيعون) أي : لا يقدرون على شيء . قال الفراء : وإنما قال في أول الكلام : « يملك » وفي آخره : « يستطيعون » ، لأن « ما » في مذهبِ : جمعٌ لآلهتهم ، فوحَّد « يملك » على لفظ « ما » وتوحيدها ، وجمع في « يستطيعون » على المعنى ، كقوله : (ومنهم من يستمعون إليك) [يونس : ٤٢] .

قوله تعالى : (فلا تضربوا لله الأمثال) أي : لا تشبّهوه بخَلْقه ، لأنه لا يُشْبِه شيئاً ، ولا يُشبِهه شيء ، فالمعنى : لا تجعلوا له شريكا .

وفي قوله : (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أربعة أقوال :

أحدها : يعلم ضرب المثل ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، قاله ابن السائب .

والثاني : يعلم أنه ليس له شريك ، وأنتم لا تعلمون أنه ليس له شريك ، قاله مقاتل .

والثالث : يعلم خطأ ما تضربون من الأمثال ، وأنتم لا تعلمون صواب ذلك من خطئه .

والرابع : يعلم ما كان ويكون ، وأنتم لا تعلمون قدر عظَمته حين أشركتم به ، ونسبتموه إلى العجز عن بعث خلقه .

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَيهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لايَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (ضرب الله مثلاً) أي : بيَّن شبهاً فيه بيان المقصود ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه مَثَلٌ للمؤمن والكافر . فالذي (لايقدر على شيء) هو الكافر ، لأنه لاخير عنده ، وصاحب الرزق هو المؤمن ، لما عنده من الخير هذا قول ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : أنه مَثَل ضربه الله تعالى لنفسه وللأوثان ، لأنه مالكُ كل شيء ، وهي لا تملك شيئاً ، هذا قول مجاهد ، والسدي . وذُكر في التفسير أن هذا المثل ضُرب بِقوم كانوا في زمن رسول الله ﷺ ، وفيهم قولان :

أحدهما : أن المملوك : أبو الجوار [١] ، وصاحب الرزق الحسن : سيده هشام ابن عمرو ، رواه عكرمة عن ابن عباس . وقال مقاتل : المملوك : أبو الحواجر .

والثاني : أن المملوك : أبو جهل بن هشام ، وصاحب الرزق الحسن : أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، قاله ابن جريج . فأما قوله : (هل يستوون) ولم يقل : يستويان ، لأن المراد : الجنس . وقال ابن الأنباري : لفظ « مَنْ » لفظ توحيد ، ومعناها معنى الجمع ، ولم يقع المَثَل بعبد معيَّن ، ومالك معين ، لكن عُني

(١) في « الدر المنثور » : ٤/١٢٥ : أبو الجوزاء .

بها جماعةُ عبيد ، وقومٌ مالكون ، فلما فارق من تأويل الجمع ، جمع عائدها لذلك .

وقوله تعالى : (الحمد لله) أي : هو المستحق للحمد ، لأنه المنعم ، ولا نعمة للأصنام ، (بل أكثرهم) يعني المشركين (لايعلمون) أن الحمد لله . قال العلماء : وصف أكثرهم بذلك ، والمراد : جميعهم .

قوله تعالى : (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم) قد فسرنا « البَكَم » في (البقرة : ١٨) . ومعنى « لايقدر على شيء » أي : من الكلام ، لأنه لايَفْهَم ولا يُفْهَم عنه . (وهو كَلٌّ على مولاه) قال ابن قتيبة : أي : ثِقل على وليّه وقرابته . وفيمن أُريد بهذا المَثَل أربعة أقوال :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، فالكافر هو الأبكم ، والذي يأمر بالعدل [هو] المؤمن ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عثمان بن عفان ، هو الذي يأمر بالعدل ، وفي مولى له كان يكره الإسلام وينهى عثمان عن النَّفقة في سبيل الله ، وهو الأبكم ، رواه إبراهيم بن يعلى بن مُنْيَة عن ابن عباس .

والثالث : أنه مثل ضربه الله تعالى لنفسه ، وللوثن . فالوثن : هو الأبكم ، والله تعالى : هو الآمر بالعدل ، وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، وابن السائب ، ومقاتل .

والرابع : أن المراد بالأبكم : أُبيُّ بن خلف ، وبالذي يأمر بالعدل : حمزة ، وعثمان ابن عفان ، وعثمان بن مظعون ، قاله عطاء . فيخرج على هذه الأقوال في معنى « مولاه » قولان :

أحدهما : أنه مولىً حقيقة ، إذا قلنا : إنه رجل من الناس .

والثاني : أنه بمعنى الولي ، إذا قلنا : إنه الصنم ، فالمعنى : وهو ثِقل على

وليّه الذي يخدمه ويزيّنه . ويخرج في معنى « أينما تُوَجِّه » قولان . إن قلنا : إنه رجل ، فالمعنى : أينما يرسله . والتوجيه : الإرسال في وجه من الطريق . وإن قلنا : إنه الصنم ، ففي معنى الكلام قولان : أحدهما : أينما يدعوه ، لا يجيبه ، قاله مقاتل . والثاني : أينما توجَّه تأميله إيّاه ورجاه له ، لا يأتِه ذلك بخير ، فحذف التأميل ، وخلفه الصنم ، كقوله : (ما وعدتنا على رسلك) [آل عمران: ١٩٤] أي : على ألسنة رسلك . وقرأ البزي عن ابن محيصن « أينما تُوَجِّهْهُ » بالتاء على الخطاب . فأما قوله : (لا يأت بخير) فان قلنا : هو رجل ، فانما كان كذلك ، لأنه لا يفهم ما يقال له ، ولا يُفْهَمُ عنه ، إما لكفره وجحوده ، أو لبَكَمٍ به . وإن قلنا : إنه الصنم ، فلكونه جماداً . (هل يستوي هو) أي : هذا الأبكم (ومن يأمر بالعدل) أي : ومن هو قادر على التكلم ، ناطق بالحق .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (ولله غيب السموات والأرض) قد ذكرناه في آخر (هود : ١٢٣) وسبب نزول هذه الآية أن كفار مكة سألوا رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فنزلت هذه ، قاله مقاتل . وقال ابن السائب : المراد بالغيب هاهنا : قيام الساعة .

قوله تعالى : (وما أمر الساعة) يعني : القيامة (إلّا كلمح البصر) واللمح : النظر بسرعة ، والمعنى : إن القيامة في سرعة قيامها وبعث الخلائق ، كلمح العين ، لأن الله تعالى يقول : (كن فيكون) [البقرة: ١١٧] . (أو هو أقرب) قال مقاتل : بل هو أسرع . وقال الزجاج : ليس المراد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها متى شاء .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله أخرجكم من بطون أمَّهاتكم) قرأ حمزة « إمِّهاتِكم » بكسر الألف والميم ، وقرأ الكسائي بكسر الإلف وفتح الميم ، والباقون بضم الألف وفتح الميم ، وكذلك في (النور : ٦١) و (الزمر : ٦) و (النجم : ٣٢) ، ولا خلاف بينهم في الابتداء بضم الهمزة .

قوله تعالى : (وجعل لكم السمع) لفظه لفظ الواحد ، والمراد به الجميع ، وقد بيَّنَّا علة ذلك في أول (البقرة : ٧) . والأفئدة : جمع فؤاد . قال الزجاج : مثل : غراب وأغربة ، ولم يجمع « فؤاد » على أكثر العدد ، لم يقل فيه : « فئدان » مثل غُراب وغِربان . وقال أبو عبيدة : وإنما جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة قبل أن يخرجهم ، غير أن العرب تقدِّم وتؤخِّر ، وأنشد :

ضَخْمٌ تُعَلَّقُ أَشْنَاقُ الدِّيَاتِ بِهِ إذا المِئُونَ أُمِرَّتْ فَوْقَهُ حَمَلا (١)

[الشَّنَق : مابين الفريضتين] . والمِئُون أعظم من الشَّنَق ، فبدأ بالأقل قبل الأعظم . قال المفسرون : ومقصود الآية : أن الله تعالى أبان نعمه عليهم حيث أخرجهم جهَّالاً بالأشياء ، وخلق لهم الآلات التي يتوصلون بها إلى العلم .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (مسخرات في جو السماء) قال الزجاج : هو الهواء البعيد من الأرض.

---

(١) البيت للأخطل ديوانه : ١٤٣ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٦٤ ، و « اللسان » : شنق ، وفيه : وصفه بتحمل الديات وما دون الديات ، فيؤديها ليصلح بين العشائر ويحقن الدماء . وانظر رد ابن قتيبة على تفسير أبي عبيدة للأشناق في « اللسان » .

قوله تعالى : (ما يُمسِكُهُنَّ إلاّ اللهُ) فيه قولان :

أحدها : ما يمسكهن عند قبض أجنحتهن وبسطها أن يقعْنَ على الأرض إلا الله ، قاله الأكثرون .

والثاني : ما يُمسكهنّ أن يرسلن الحجارة على شرار هذه الامة ، كما فُعِلَ بغيرهم ، إلا الله ، قاله ابن السائب .

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ . وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سَكَناً) أي : موضعاً تسكنون فيه ، وهي المساكن المتَّخذة من الحجر والمدر تستر العورات والحُرَم[١]، وذلك أن الله تعالى خالق الخشب والمدر والآلة التي بها يمكن بناه البيت وتسقيفه ، (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) وهي القباب والخيم المتخذة من الأدم (تستخفّونها) أي : يخفّ عليكم حملها (يوم ظعنكم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو « ظَعَنِكُم » بفتح العين . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي

(١) حُرَم الرَّجُل : عياله ونساؤه وما يحمي .

بتسكين العين ، وهما لغتان ، كالشَّعَر والشَّعْر ، والنَّهَر والنَّهْر ، والمعنى : إذا سافرتم ،(ويوم إقامتكم) أي : لا تثقل عليكم في الحالين . (ومن أصوافها) يعني : الضأن (وأوبارها) يعني : الإبل (وأشعارها) يعني : المعز (أثاثاً) قال الفراء : الأثاث : المتاع ، لا واحد له ، كما أن المتاع لا واحد له . والعرب تقول : جمع المتاع أمتعة ، ولو جمعت الأثاث ، لقلت : ثلاثة آثِّة ، وأُثُث : مثل أعثة وغُثُث لا غير . وقال ابن قتيبة : الأثاث : متاع البيت من الفرش والأكسية . قال أبو زيد : واحد الأثاث : أثاثة . وقال الزجاج : يقال : قد أثَّ يأَثُّ أثّاً : إذا صار ذا أثاث . وروي عن الخليل أنه قال : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض ، ومنه : شَعَر أثيث .

فأما قوله : (ومتاعاً) فقيل : إنما جمع بينه وبين الأثاث ، لاختلاف اللفظين .

وفي قوله : (إلى حين) قولان :

أحدهما : أنه الموت ، والمعنى : ينتفعون به إلى حين الموت ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنه إلى حين البلى ، فالمعنى : إلى أن يَبلى ذلك الشيء ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (والله جعل لكم مما خلق ظِلالا) أي : مايقيكم حر الشمس ، وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه ظلال الغمام ، قاله ابن عباس . والثاني : ظلال البيوت ، [قاله ابن السائب . والثالث : ظلال الشجر ، قاله قتادة ، والزجاج . والرابع : ظلال الشجر والجبال] [1] ، قاله ابن قتيبة . والخامس : أنه كل شيء له ظل من حائط ، وسقف ، وشجر ، وجبل ، وغير ذلك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

---

(١) مابين المعقفين ، سقط من نسخة الرباط ، واستدركناه من نسخة مكتبة راغب باشا باستنبول .

قوله تعالى : (وجعل لكم من الجبال أكناناً) أي : مايُكِنُّكم من الحرِّ والبرد ، وهي الغيران والأسراب . وواحد الأكنان « كِنّ » وكل شيء وقى شيئاً وستره فهو « كِنّ » . (وجعل لكم سرابيل) وهي القُمُص (تقيكم الحر) ولم يقل : البرد ، لأن ماوقى من الحَر ، وقى من البرد ، وأنشد :

وَما أدْرِي إذَا يمَّمْتُ أرْضاً أُرِيْدُ الخَيْرَ أيُّهما يَلِيْنِي (١)

وقال الزجاج : إنما خص الحرَّ ، لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناةً له من البرد ، وهذا مذهب عطاء الخراساني .

قوله تعالى : (وسرابيل تقيكم بأسكم) يريد الدروع التي يتّقون بها شدّة الطعن والضرب في الحرب .

قوله تعالى : (كذلك يتم نعمته عليكم) أي : مثلما أنعم الله عليكم بهذه الأشياء ، يتم نعمته عليكم في الدنيا (لعلكم تُسلِمون) والخطاب لأهل مكة ، وكان أكثرهم حينئذٍ كفاراً ، ولو قيل : إنه خطاب للمسلمين ، فالمعنى : لعلكم تدومون على الإسلام ، وتقومون بحقه . وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وأبو رجاء : « لعلكم تَسلَمون » بفتح التاء واللام ، على معنى : لعلكم إذا لبستم الدروع تَسلَمون من الجراح في الحرب .

قوله تعالى : (فإن تولَّوا) أعرضوا عن الإيمان (فإنما عليك البلاغ المبين) وهذه عند المفسرين منسوخة بآية السيف .

قوله تعالى : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) وفي هذه النعمة قولان :

أحدهما : أنها [المساكن] نعم الله عز وجل عليهم في الدنيا . وفي إنكارها ثلاثة

(١) البيت للمثقب العبدي ، وقد تقدم ١/١٨٣ ، ٤٤٣ ، وهو في « الطبري » : ١٤/١٥٧ ، و « القرطبي » : ١٠/١٦٠ .

أقوال ؛ أحدها : أنهم يقولون : هذه ورثناها [من آبائنا] . روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : نِعَم الله: المساكن ، والأنعام، وسرابيل الثياب ، والحديد ، يعرفه كفار قريش ، ثم ينكرونه بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا ورثناه عنهم ، وهذا عن مجاهد . والثاني : أنهم يقولون : لولا فلان ، لكان كذا ، فهذا إنكارهم ، قاله عون بن عبد الله . والثالث : يعرفون أن النعم من الله ، ولكن يقولون : هذه بشفاعة آلهتنا ، قاله ابن السائب ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أن المراد بالنعمة هاهنا : محمد ﷺ يعرفون أنه نبيٌّ ثم يكذّبونه ، وهذا مروي عن مجاهد ، والسدي ، والزجاج .

قوله تعالى : (وأكثرهم الكافرون) قال الحسن : وجميعهم كفار ، فذكر الأكثر ، والمراد به الجميع .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَيُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . وَإِذَا رَأَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ . وَإِذَا رَأَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ . وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاكَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً) يعني : يوم القيامة ، وشاهد كلِّ أمةٍ نبيُّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها ، (ثم لايؤذَن للذين كفروا) في الاعتذار (ولا هم يُستعتبون) أي : لايُطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به ، لأن الآخرة ليست بدار تكليف .

قوله تعالى : (وإذا رأى الذين ظلموا) أي : أشركوا (العذاب) يعني : النار (فلا يخفف عنهم) العذاب (ولا هم يُنظرون) لا يؤخَّرون ، ولا يمهلون .
(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) يعني : الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة ، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه ، فيقول المشركون : (ربَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو) أي : نعبد من دونك .

فان قيل : فهذا معلوم عند الله تعالى ، فما فائدة قولهم : « هؤلاء شركاؤنا » ؟
فعنه جوابان :

أحدهما : أنهم لما كتموا الشرك في قولهم : والله ما كنا مشركين ، عاقبهم الله تعالى باصمات ألسنتهم ، وإنطاق جوارحهم ، فقالوا عند معاينة آلهتهم : (ربنا هؤلاء شركاؤنا) أي : قد أقررنا بعد الجحد ، وصدّقنا بعد الكذب ، التماساً للرحمة ، وفراراً من الغضب ، وكأنّ هذا القول منهم على وجه الاعتراف بالذنب ، لا على وجه إعلام من لا يعلم .

والثاني : أنهم لما عاينوا عِظَم غضب الله تعالى قالوا : هؤلاء شركاؤنا ، تقديرَ أن يعود عليهم من هذا القول روح ، وأن تلزم الأصنام إجرامهم ، أو بعض ذنوبهم إذ كانوا يدّعون لها العقل والتمييز ، فأجابتهم الأصنام بما حسم طمعهم .

قوله تعالى : (فألقوا إليهم القول) أي : أجابوهم وقالوا لهم (إنكم لكاذبون) قال الفراء : ردت عليهم آلهتهم قولهم . وقال أبو عبيدة : « فألقوا » ، أي : قالوا لهم . يقال : ألقيت إلى فلان كذا ، أي : قلت له . قال العلماء : كذّبوهم في عبادتهم إياهم ، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف عابديها ، فظهرت فضيحتهم يومئذٍ إذ عبدوا مَن لم يعلم بعبادتهم ، وذلك كقوله : (سيكفرون بعبادتهم) [مريم : ٨٣] .

قوله تعالى : (وأَلقَوا إلى الله يومئذٍ السَّلَم) المعنى : أنهم استسلموا له . وفي المشار إليهم قولان :

أحدهما : أنهم المشركون ، قاله الأكثرون . ثم في معنى استسلامهم قولان :
أحدهما : أنهم استسلموا [له] بالإقرار بتوحيده وربوبيته . والثاني : أنهم استسلموا لعذابه .

والثاني : أنهم المشركون والأصنام كلهم . قال الكلبي[1] : والمعنى : أنهم استسلموا لله منقادين لحُكمه .

قوله تعالى : (وضل عنهم ما كانوا يفترون) فيه قولان :

أحدهما : بَطَل قولهم أنها تشفع لهم . والثاني : ذهب عنهم ما زيَّن لهم الشيطان أن لله شريكاً وولداً .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ . وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) قال ابن عباس : منعوا النَّاس من طاعة الله والإيمان بمحمد ﷺ .

قوله تعالى : (زدناهم عذاباً فوق العذاب) إنما نكَّر العذاب [الأول] ، لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم ، وعرَّف العذاب الثاني ، لأنه العذاب الذي يعذَّب به أكثر أهل النار ، فكان في شهرته بمنزلة النار في قول القائل : نعوذ بالله من النار ، وقد قيل : إنما زيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم ، بصدِّهم عن سبيل الله .

(١) وفي نسخة : قاله الكلبي .

وفي صفة هذا العذاب الذي زِيدوا أربعة أقوال :

أحدها : أنها عقارب كأمثال النخل الطوال ، رواه مسروق عن ابن مسعود .

والثاني : أنها حيّات كأمثال الفِيَلَة ، وعقارب كأمثال البغال ، رواه زرٌّ عن ابن مسعود .

والثالث : أنها خمسة أنهار من صُفْر مُذَابٍ تسيل من تحت العرش يعذَّبون بها ، ثلاثة على مقدار الليل ، واثنان على مقدار النهار ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنه الزمهرير ، ذكره ابن الأنباري .

قال الزجاج : يخرجُون من حرِّ النار إلى الزمهرير ، فيتبادرون من شدة برده إلى النار .

قوله تعالى : (وجئنا بك شهيداً على هؤلاء) وفي المشار إليهم قولان :

أحدهما : أنهم قومه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أُمَّته ، قاله مقاتل . وتم الكلام هاهنا . ثم قال : (ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً) قال الزجاج : التبيان : اسم في معنى البيان .

فأما قوله تعالى : (لكل شيء) فقال العلماء بالمعاني : يعني : لكل شيء من أمور الدين ، إما بالنص عليه ، أو بالإحالة على مايوجب العلم ، مثل بيان رسول الله ﷺ أو إجماع المسلمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

مَاتَفْعَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل) فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه شهادة أن لا إله إلا الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه الحق ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى ، قاله سفيان بن عيينة .

والرابع : أنه القضاء بالحق ، ذكره الماوردي . قال أبو سليمان : العدل في كلام العرب : الإنصاف ، وأعظمُ الإنصاف : الاعتراف للمنعِم بنعمته .

وفي المراد بالإحسان خمسة أقوال :

أحدها : أنه أداء الفرائض ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : العفو ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : الإخلاص ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والرابع : أن تعبد الله كأنك تراه ، رواه عطاء عن ابن عباس . والخامس : أن تكون السريرة أحسن من العلانية ، قاله سفيان بن عيينة .

فأما قوله تعالى : (وإيتاء ذي القربى) فالمراد به : صلة الأرحام . وفي الفحشاء قولان :

أحدها : أنها الزنا ، قاله ابن عباس . والثاني : المعاصي ، قاله مقاتل .

وفي (المنكر) أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشرك ، قاله مقاتل . والثاني : أنه ما لا يُعرَف في شريعة ولا سُنَّة . والثالث : أنه ما وعد الله عليه النار ، ذكرهما ابن السائب . والرابع : أن تكون علانية الإنسان أحسن من سريرته ، قاله سفيان بن عيينة .

فأما (البغي) فقال ابن عباس : هو الظلم ، وقد سبق شرحه في مواضع [البقرة : ١٧٣ ، والأعراف : ٣٣ ، ويونس : ٢٣ ، ٩٠] .

قوله تعالى : (يعظكم) قال ابن عباس : يؤدِّبكم ، وقد ذكرنا معنى الوعظ في (سورة النساء : ٥٨) . و (تذكَّرون) بمعنى : تتَّعظون . قال ابن مسعود : هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر . وقال الحسن : والله ما ترك العدلُ والاحسانُ شيئاً من طاعة [الله] إلاَّ جمعاه ، ولا تركت الفحشاء والمنكر والبغي شيئاً من معصية الله إلاَّ جمعوه .

قوله تعالى : (وأوفوا بعهد الله) اختلفوا فيمن نزلت على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في حلف أهل الجاهلية ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ . قال المفسرون : العهد الذي يجب الوفاء به ، هو الذي يحسن فعله ، فاذا عاهد العبد عليه ، وجب الوفاء به ، والوعد من العهد (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) أي : بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعقد على اليمين ، بخلاف لغو اليمين ، ووكدت الشيء توكيداً ، لغة أهل الحجاز . فأما أهل نجد ، فيقولون : أكدته تأكيداً . وقال الزجاج : يقال : وكَّدت الأمر ، وأكّدت ، لغتان جيدتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل منها .

قوله تعالى : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) أي : بالوفاء ، وذلك أن من حلف بالله ، فكأنه أكفل الله بالوفاء بما حلف عليه .

وللمفسرين في معنى « كفيلا » ثلاثة أقوال :

أحدها : شهيداً ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : وكيلا ، قاله مجاهد . والثالث : حفيظاً مراعياً لعقدكم ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها) قال مجاهد : هذا فعل نساء أهل نجد ، تنقض إحداهن حبلها ، ثم تنفشه ، ثم تخلطه بالصوف فتغزله . وقال مقاتل : هي امرأة من قريش تسمى « رَيْطة » بنت عمرو بن كعب ، كانت إذا غزلت ، نقضته . وقال ابن السائب : اسمها « رَائطة » وقال ابن الأنباري : اسمها « رَيطة » بنت عمرو المرّيّة ، ولقبها الجعراء ، وهي من أهل مكة ، وكانت معروفة عند المخاطبين ، فعرفوها بوصفها ، ولم يكن لها نظير في فعلها ذلك ، كانت متناهية الحمق ، تغزِلُ الغزل من القطن أو الصوف فتُحكِمُه ، ثم تأمر جاريتها بتقطيعه . وقال بعضهم : كانت تغزل هي وجواريها ، ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ، فضربها الله مثلاً لناقضي العهد . و « نقضت » ، بمعنى : تنقض ، كقوله : (ونادى أصحابُ الجنة) [الأعراف : ٤٣] بمعنى : ويُنادي .

وفي المراد بالغَزْل قولان :

أحدها : أنه الغَزْل المعروف ، سواء كان من قطن أو صوف أو شعر ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : أنه الحَبْل ، قاله مجاهد . وقوله : (من بعد قوة) قال قتادة : من بعد إبرام ، وقوله : (أنكاثاً) أي : أنقاضاً . قال ابن قتيبة : الأنكاث : ما نُقض من غَزْل الشَّعْر وغيره . وواحدها : نِكْث . يقول : لا تؤكدوا على

أنفسكم الأَيمان والعهود ، ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فيه ، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ، ثم نقضت ذلك النسج ، فجعلته أنكاثاً .

قوله تعالى : (تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم) أي : دغلاً ، ومكراً ، وخديعة ، وكل شيء دخله عيب ، فهو مدخول ، وفيه دَخَلٌ .

قوله تعالى : (أن تكون أمة) قال ابن قتيبة : لأن تكون أمة ، (هي أربى) أي : هي أغنى (مِنْ أُمَّةٍ) . وقال [الزجاج] : المعنى : بأن تكون أمة هي أكثر ، يقال : ربا الشيء يربو : إذا كثر . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : « أربى » : أزْيَد عدداً . قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعزّ ، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك ، فنهوا عن ذلك . وقال الفراء : المعنى : لا تغدِروا بقوم لقلّتهم وكثرتكم ، أو قِلّتكم وكثرتهم وقد غرّرتموهم بالأَيمان .

قوله تعالى : (إنما يبلوكم الله به) في هذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ترجع إلى الكثرة ، قاله سعيد بن جبير ، وابن السائب ، ومقاتل ، فيكون المعنى : إنما يختبركم الله بالكثرة ، فاذا كان بين قومين عهد ، فكثر أحدهما ، فلا ينبغي أن يفسخ الذي بينه وبين الأقلّ . فان قيل : إذا كنى عن الكثرة ، فهلاّ قيل بها ؟ فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، بأن الكثرة ليس تأنيثها حقيقياً ، فحملت على معنى التذكير ، كما حملت الصيحة على معنى الصياح .

والثاني : أنها ترجع إلى العهد ، فانّه لدلالة الأَيمان عليه ، يجري مجرى المظهر ، ذكره ابن الأنباري .

والثالث : أنها ترجع إلى الأمر بالوفاء ، ذكره بعض المفسرين .

قوله تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) قد فسرناه في آخر (هود : ١١٨) .

قوله تعالى : (ولكن يُضِلُّ من يشاء) صريح في تكذيب القَدَرية ، حيث أضاف الإضلال والهداية إليه ، وعلَّقها بمشيئته .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلا) هذا استئناف للنهي عن أيمان الخديعة . (فتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها) قال أبو عبيدة : هذا مَثَل يقال لكل مبتَلَىً بعد عافية ، أو ساقط في ورطة بعد سلامة : زلّت به قدَمه . قال مقاتل : ناقض العهد يزِلُّ في دينه كما تزِلُّ قَدَم الرَّجُل بعد الاستقامة . قال المفسرون : وهذا نهي الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام ونصرة الدين عن نقض العهد ، ويدل عليه قوله تعالى : (وتذوقوا السوء) يعني : العقوبة (بما صددتم عن سبيل الله) يريد أنهم إذا نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ ، صدُّوا الناس عن الإسلام ، فاستحقُّوا العذاب .

وقوله تعالى : (ولكم عذاب عظيم) يعني : في الآخرة . ثم أكد ذلك بقوله : (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً) قال أبو صالح عن ابن عباس : نزلت في رجُلين اختصما إلى رسول الله ﷺ في أرض ، يقال لأحدهما : « عِيدان بن أشوع » وهو صاحب الأرض ، وللآخر : « امرؤ القيس » وهو المدعى عليه ، فهمَّ امرؤ القيس أن يحلف ، فأخَّره رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وذكر أبو بكر الخطيب أن اسم صاحب الأرض « ربيعة بن عبْدان » ، وقيل : « عَيدان » ،

بفتح العين وياء معجمة باثنتين . ومعنى الآية : لاتنقضوا عهودكم ، تطلبون بنقضها عَرَضاً يسيراً من الدنيا ، إن ماعند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل . (ماعندكم ينفد) أي : يفنى (وما عند الله) في الآخرة (باقٍ) وقف بالياء ابن كثير في رواية عنه ، ولا خلاف في حذفها في الوصل . (ولَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « ولَيَجْزِيَنَّ » بالياء . وقرأ ابن كثير ، وعاصم : « ولَنَجْزِيَنَّ » بالنون . ولم يختلفوا في (ولَنَجْزِيَنَّهم أجرهم) أنها بالنون ، ومعنى هذه الآية : وليَجْزِيَنَّ الذين صبروا على أمره أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) في سبب نزولها قولان :

أحدهما : أن امرأ القيس المتقدّم ذكره أقرّ بالحق الذي كان همّ أن يحلف عليه ، فنزلت فيه : (من عمل صالحاً) ، وهو إقراره بالحق ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن ناساً من أهل التوراة ، وأهل الإنجيل ، وأهل الأوثان ، جلسوا ، فتفاضلوا ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح .

قوله تعالى : (فلنُحيِيَنَّهُ حياة طيبة) اختلفوا أين تكون هذه الحياة الطيبة على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها في الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس . ثم فيها للمفسرين تسعة أقوال : أحدها : أنها القناعة ، قاله علي عليه السلام ، وابن عباس في رواية ، والحسن في

رواية ، ووهب بن منبه . والثاني : أنها الرزق الحلال ، رواه أبو مالك عن ابن عباس . وقال الضحاك : يأكل حلالاً ويلبس حلالاً . والثالث : أنها السعادة ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والرابع : أنها الطاعة ، قاله عكرمة . والخامس : أنها رزق يوم بيوم ، قاله قتادة . والسادس : أنها الرزق الطيِّب ، والعمل الصالح ، قاله إسماعيل بن أبي خالد . والسابع : أنها حلاوة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق . والثامن : العافية والكفاية . والتاسع : الرضى بالقضاء ، ذكرهما الماوردي .

والثاني : أنها في الآخرة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن زيد ، وذلك إنما يكون في الجنة .

والثالث : أنها في القبر ، رواه أبو غسان عن شريك .

﴿ فَاذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (فاذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله) فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : فاذا أردتَ القراءة فاستعذ ، ومثله (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) [المائدة : ٦] وقوله : (وإذا سألتموهُنَّ متاعاً فاسألوهُنَّ من وراء حجاب) [الأحزاب : ٥٣] وقوله : (إذا ناجيتم الرسول فقدِّموا بين يدَيْ نجواكم صدقة) [المجادلة : ١٢] .

ومثله في الكلام : إذا أكلت ، فقل : باسم الله ، هذا قول عامة العلماء واللغويين .

والثاني : أنه على ظاهره ، وأن الاستعاذة بعد القراءة . روي عن أبي هريرة ، وداود .

والثالث : أنه من المقدَّم والمؤخَّر ، فالمعنى : فاذا استعذت بالله فاقرأ ، قاله أبو حاتم السجستاني ، والأول أصح .

فصل

والاستعاذة عند القراءة سُنَّةٌ في الصلاة وغيرها .

وفي صفتها عن أحمد روايتان :

إحداهما : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم ، رواها أبو بكر المروزي .

والثانية : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، إن الله هو السميع العليم ، رواها حنبل . وقد بيَّنَّا معنى « أعوذ » في أول الكتاب [ص : ٧] ، وشرحنا اشتقاق الشيطان في (البقرة : ١٤) ، والرجيم في (آل عمران : ٣٦) .

قوله تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا) في المراد بالسلطان قولان :

أحدهما : أنه التسلُّط . ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : ليس له عليهم سلطان بحال ، لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاَّ من اتَّبعك من الغاوين) [الحجر : ٤٢] . والثاني : ليس له عليهم سلطان ، لاستعاذتهم منه . والثالث : ليس له قُدْرة على أن يحملهم على ذَنْب لا يُغْفَر .

والثاني : أنه الحُجَّة . فالمعنى : ليس له حُجَّة على ما يدعوهم إليه من المعاصي قاله مجاهد .

فأما قوله : (يَتَولَّوْنه) معناه : يطيعونه .

وفي هاء الكناية في قوله : (والذين هم به مشركون) قولان :

أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله مجاهد ، والضحاك .

والثاني : أنها ترجع إلى الشيطان ، فالمعنى : الذين هم من أجله مشركون بالله ، وهذا كما يقال : صار فلان بك عالماً ، أي : من أجلك ، هذا قول ابن قتيبة . وقال ابن الأنباري : المعنى : والذين هم باشراكهم إبليسَ في العبادة، مشركون بالله تعالى .

قوله تعالى : (وإذا بدّلنا آية مكان آية) سبب نزولها أن الله تعالى كان ينزِّل الآية ، فيُعمَل بها مدة ، ثم ينسخها ، فقال كفار قريش : والله ما محمد إلاّ يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر ، ويأتيهم غداً بما هو أهون عليهم منه ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والمعنى : إذا نسخنا آية بآية، إما نسخ الحكم والتلاوة ، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة (والله أعلم بما يُنزِّل) من ناسخٍ ومنسوخ ، وتشديد وتخفيف ، فهو عليم بالمصلحة في ذلك (قالوا إنما أنت مفترٍ) أي : كاذب (بل أكثرهم لايعلمون) فيه قولان :

أحدهما : لايعلمون أن الله أنزله . والثاني : لايعلمون فائدة النسخ .

قوله تعالى : (قل نزّلَه) يعني : القرآن (روح القُدُس) يعني : جبريل . وقد شرحنا هذا الاسم في (البقرة : ٨٧) .

قوله تعالى : (مِن ربك) أي : من كلامه (بالحق) أي : بالأمر الصحيح (ليثبّت الذين آمنوا) بما فيه من البيّنات فيزدادوا يقيناً .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ

لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَايَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون) يعني : قريشاً (إنما يعلّمه بشر) أي : آدمي ، وما هو من عند الله .

وفيمن أرادوا بهذا البشر تسعة أقوال :

أحدها : أنه كان لبني المغيرة غلام يقال له « يعيش » يقرأ التوراة ، فقالوا : منه يتعلم محمد ، فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس . وقال عكرمة في رواية : كان هذا الغلام لبني عامر بن لؤي ، وكان رومياً .

والثاني : أنه فتى كان بمكة يسمى « بلعام » وكان نصرانياً أعجمياً ، وكان رسول الله ﷺ يعلّمه ، فلما رأى المشركون دخوله إليه وخروجه ، قالوا ذلك ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنه نزلت في كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ ، فيملي عليه « سميع عليم » فيكتب هو « عزيز حكيم » أو نحو هذا ، فقال له رسول الله ﷺ : « أي ذلك كتبت فهو كذلك » ، فافتتن ، وقال : إن محمداً يَكِلُ ذلك إليّ فأكتب ما شئت ، روي عن سعيد بن المسيب [1] .

والرابع : أنه غلام أعجمي لامرأة من قريش يقال له : « جابر » ، وكان جابر يأتي رسول الله ﷺ فيتعلم منه ، فقال المشركون : إنما يتعلم محمد من هذا ، قاله سعيد بن جبير .

(١) قال ابن كثير ٥٨٧/٢ : قال الزهري عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين ، رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الاسلام ، وافترى هذه المقالة قبحه الله .

والخامس : أنهم عنوا سلمان الفارسي ، قاله الضحاك ؛ وفيه بُعْدٌ من جهة أن سلمان أسلم بالمدينة ، وهذه [الآية] مكية .

والسادس : أنهم عَنَوا به رجلاً حدّاداً كان يقال له « يحُنّس »(١) النّصراني ، قاله ابن زيد .

والسابع : أنهم عَنَوا به غلاماً لعامر بن الحضرمي ، وكان يهودياً أعجمياً ، واسمه « يسار » ، ويكنى « أبا فُكَيهة » ، قاله مقاتل . وقد روي عن سعيد بن جبير نحو هذا ، إلاّ أنه لم يقل : إنه كان يهودياً .

والثامن : أنهم عَنَوا غلاماً أعجمياً اسمه « عايش » ، وكان مملوكاً لحويطب ، وكان قد أسلم ، قاله الفراء ، والزجاج .

والتاسع : أنهما رجلان ، قال عبد الله بن مسلم الحضرمي : كان لنا عبدان من أهل عين التمر ، يقال لأحدهما : « يسار » وللآخر « جبر » وكانا يصنعان السيوف بمكة ، ويقرآن الإنجيل ، فربما مرّ بهما النبي ﷺ وهما يقرآن ، فيقف يستمع ، فقال المشركون : إنما يتعلم منهما . قال ابن الأنباري : فعلى هذا القول ، يكون البشر واقعاً على اثنين ، والبشر من أسماء الأجناس ، يعبّر عن اثنين ، كما يعبر « أحد » عن الاثنين والجميع ، والمذكر والمؤنث .

قوله تعالى : (لسان الذي يُلحِدون إليه أعجمي) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « يُلحِدون » بضم الياء وكسر الحاء ، وقرأ حمزة ، والكسائي : « يَلحَدون » بفتح الياء والحاء . فأما القراءة الأولى ، فقال

---

(١) كذا في نسخة الرباط بإهمال الحرف الأول ، وفي نسخة راغب باشا الاستنبولية : يحسن ، والذي في « البحر المحيط » ٥/٥٣٦ : عنس . والله تعالى أعلم .

ابن قتيبة : « يُلحِدون » أي : يميلون إليه(١) ، ويزعمون أنه يعلّمه ، وأصل الإلحاد المَيْل . وقال الفراء : « يُلحِدون » بضم الياء : يعترضون ، ومنه قوله : (ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم) [الحج : ٢٥] أي : باعتراض ، و « يَلحَدون » بفتح الياء : يميلون . وقال الزجاج : يَلحَدون إليه ، أي : يُميلون القول فيه أنه أعجمي .
قال ابن قتيبة : لا يكاد عوام الناس يفرّقون بين العجمي والأعجمي ، والعربيّ والأعرابي ، فالأعجمي : الذي لا يُفصح وإن كان نازلاً بالبادية ؛ والعجمي : منسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً ؛ والأعرابي : هو البدوي ، والعربي : منسوب إلى العرب وإن لم يكن بدوياً .

قوله تعالى : (وهذا لسانٌ) يعني : القرآن ، (عربي) قال الزجاج : أي : أن صاحبه يتكلم بالعربية .

قوله تعالى : (إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي : الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلاّ الله ، كذّبوا بها ، (وأولئك هم الكاذبون) أي : أن الكذب نعت لازم لهم ، وعادة من عاداتهم ، وهذا ردّ عليهم إذ قالوا : (إنما أنت مُفْترٍ) [النحل : ١٠١] . وهذه الآية من أبلغ الزجر عن الكذب ، لأنه خُص به مَن لا يؤمن .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ

(١) في الأصل : يؤمنون إليه ، والتصحيح من « غريب القرآن » لابن قتيبة ٢٤٩ .

طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَافُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (مَنْ كفر بالله من بعد إيمانه) قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي ، ومِقْيَس بن صُبابة ، وعبد الله بن أنس ابن خطَل ، وطعمة بن أُبيرِق ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، وقيس بن الفاكه المخزومي .

فأما قوله تعالى : (إلّا من أُكره) فاختلفوا فيمن نزل على أربعة أقوال .

أحدها : أنه نزل في عمار بن ياسر ، أخذه المشركون فعذّبوه ، فأعطاهم ما أرادوا بلسانه ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : أنه لما نزل قوله : (إن الذين توفّاهُمُ الملائكة ظالمي أنفسهم ...) إلى آخر الآيتين اللتين في سورة النساء [٩٦ ، ٩٧] كتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى من كان بمكة ، فخرج ناس ممن أقرّ بالإسلام ، فاتّبعهم المشركون ، فأدركوهم ، فأكرهوهم حتى أعطوا الفتنة ، فنزل (إلّا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : أنه نزل في عياش بن أبي ربيعة ، كان قد هاجر فحلفت أُمّه ألّا تستظل ولا تشبع من طعام حتى يرجع ، فرجع إليها ، فأكرهه المشركون حتى أعطاهم بعض مايريدون ، قاله ابن سيرين .

والرابع : أنه نزل في جبر [illegible] بن الحضرمي ، كان يهودياً فأسلم ، فضربه سيّده

حتى رجع إلى اليهودية ، قاله مقاتل . وأما قوله : (ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً) فقال مقاتل : هم النفر المسَمَّوْن في أول الآية .

فأما التفسير ، فاختلف النحاة في قوله : (من كفر) وقوله : (ولكن من شرح) فقال الكوفيون : جوابهما جميعاً في قوله : (فعليهم غضب) ، فقال البصريون : بل قوله : (من كفر) مرفوع بالرد على (الذين لايؤمنون) . قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون خبرُ (مَن كفر) محذوفاً ، لوضوح معناه ، تقديره : من كفر بالله ، فالله عليه غضبان .

قوله تعالى : (وقلبه مطمئن بالإيمان) أي : ساكن إليه راضٍ به . (ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً) قال قتادة : من أتاه بإيثار واختيار . وقال ابن قتيبة : من فتح له صدره بالقبول . وقال أبو عبيدة : المعنى : من تابعته نفسه ، وانبسط إلى ذلك ، يقال : ما ينشرح صدري بذلك ، أي : ما يطيب . وجاء قوله : (فعليهم غضب) على معنى الجميع ، لأن « مَنْ » تقع على الجميع .

فصل

الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها .

وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان :

إحداهما : أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف إن لم يفعل ما أُمر به .

والثانية : أن التخويف لا يكون إكراها حتى يُنَال بعذاب . وإذ ثبت جواز « التَّقِيَة » فالأفضل ألاّ يفعل[1] ، نص عليه أحمد ، في أسير خُيِّر بين القتل

(١) قال الحافظ ابن كثير : والأولى والأفضل أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله .

وشرب الخمر ، فقال : إن صبر على القتل فله الشرف ، وإن لم يصبر ، فله الرخصة ، فظاهر هذا ، الجوازُ . وروى عنه الأثرم أنه سئل عن التَّقيَّة في شرب الخمر فقال : إنما التقية في القول . فظاهر هذا أنه لا يجوز له ذلك . فأما إذا أُكره على الزنا ، لم يجز له الفعل ، ولم يصح إكراهه ، نص عليه أحمد . فان أُكره على الطلاق ، لم يقع طلاقه ، نص عليه أحمد ، وهو قول مالك ، والشافعي . وقال أبو حنيفة : يقع .

قوله تعالى : (ذلك بأنهم استحبُّوا الحياة الدنيا) في المشار إليه بذلك قولان :

أحدهما : أنه الغضب والعذاب ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه شرح الصدر للكفر . و « استحبُّوا » بمعنى : أحبوا الدنيا واختاروها على الآخرة .

قوله تعالى : (وأن الله) أي : وبأن الله لا يريد هدايتهم . وما بعد هذا قد سبق شرحه [البقرة : ٧، والنساء: ١٥٥، والمائدة: ٦٧] إلى قوله : (وأولئك هم الغافلون) ففيه قولان :

أحدهما : الغافلون عما يراد بهم ، قاله ابن عباس . والثاني : عن الآخرة ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (لا جرم) قد شرحناها في (هود : ٢٢) .

قوله تعالى : (ثم إنَّ ربك الذين هاجروا مِنْ بعد ما فُتِنوا) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال :

أحدها : أنها نزلت فيمن كان يُفْتَن بمكة من أصحاب رسول الله ﷺ ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن قوماً من المسلمين خرجوا للهجرة ، فلحقهم المشركون فأعطوهم

الفتنة ، فنزل فيهم (ومِنَ النـاس من يقول آمنـّـا بالله فاذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) [العنكبوت : ١٠] ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا ، وأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا ، وقُتِل من قتل ، فنزلت فيهم هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أنها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان الشيطـان قد أزلـّه حتى لحق بالكفار ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يُقتَل يوم الفتح ، فاستجار له عثمان بن عفان ، فأجاره رسول الله ﷺ ، وهذا مروي عن ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة ، وفيه بُعد ، لأن المشار إليه وإن كان [قد] عاد إلى الإسلام ، فان الهجرة انقطعت بالفتح .

والرابع : أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة ، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن أسيد الثقفي ، قاله مقاتل .

فأما قوله تعالى : (من بعد ما فُتِنوا) فقرأ الأكثرون : « فُتِنوا » بضم الفاء وكسر التاء ، على معنى : من بعد مافتنهم المشركون عن دينهم . قال ابن عباس : فُتنوا بمعنى : عُذِّبوا . وقرأ عبد الله بن عامر : « فتَنوا » بفتح الفاء والتاء ، على معنى : من بعد ما فتنوا الناس عن دين الله ، يشير إلى من أسلم من المشركين . وقال أبو علي : من بعد ما فَتَنوا أنفسهم باظهار ما أظهروا للتقية ، لأن الرخصة لم تكن نزلت بعدُ .

قوله تعالى : (ثم جاهدوا) أي : قاتلوا مع رسول الله ﷺ (وصبروا) على الدين والجهاد . (إن ربك من بعدها) في المكنيّ عنها أربعة أقوال :

أحدها : الفتنة ، وهو مذهب مقاتل . والثاني : الفَعلة التي فعلوها ، قاله الزجاج .

والثالث : المجاهدة ، والمهاجرة ، والصبر . والرابع : المهاجرة . ذكرهما والذين قبلهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : (يوم تأتي) قال الزجاج : هو منصوب على أحد شيئين ، إما على معنى : إن ربك لغفور يوم تأتي ، وإما على معنى : اذكر يوم تأتي . ومعنى (تجادل عن نفسها) أي : عنها . والمراد : أن كل إنسان يجادل عن نفسه . وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب خوِّفنا ، فقال : إن لجهنم زفرةً ما يبقى ملك مقرَّب ولا نبيّ مرسل إلاّ وقع جاثياً على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم خليل الرحمن ليدلي بالخلة فيقول : « يارب أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك إلاّ نفسي » ، وإن تصديق ذلك في كتاب الله (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) [1] . وقد شرحنا معنى « الجدال » في (هود : ٣٢) .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة) في هذه القرية قولان :

أحدها : أنها مكة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور ، وهو الصحيح .

والثاني : أنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون [2] ، قاله الحسن . فأما ما يروى عن

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤/١٣٣ ونسبه إلى ابن المبارك ، وابن أبي شيبة ، وأحمد في « الزهد » ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار .

(٢) كذا الأصل : « حتى كانوا يأكلون مايقعدون » ولعله يقصد : مايقعدون عليه ، كالجلود ، وغيرها .

حفصة أنها قالت : هي المدينة ، فذلك على سبيل التمثيل ، لا على وجه التفسير ، وبيانه : ما روى سليم بن عنز ، قال : صدرنا من الحج مع حفصة ، وعثمان محصور بالمدينة ، فرأت راكبَين فسألتهما عنه ، فقالا : قُتِل ، فقالت : والذي نفسي بيده إنها لَلقرية ، تعني المدينة التي قال الله تعالى في كتابه : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة) ، تعني حفصة : أنها كانت على قانون الاستقامة في أيام النبي ﷺ ، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، (فكفرت بأنعم الله) عند قتل عثمان رضي الله عنه . ومعنى (كانت آمنة) أي : ذات أمْن يأمن فيها أهلها أن يُغارَ عليهم ، (مطمئنة) أي : ساكنة بأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق . وقد شرحنا معنى الرغد في (البقرة : ٣٥ ، ٥٨) .

وقوله : (من كل مكان) أي : يجلَب إليها من كل بلد ، وذلك كلّه بدعوة إبراهيم عليه السلام ، (فكفرت بأنعم الله) بتكذيبهم رسول الله ﷺ .

وفي واحد الأنعم قولان :

أحدهما : أن واحدها « نُعْمٌ » قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : « نِعْمَة » قاله الزجاج . قال ابن قتيبة : ليس قول من قال : هو جمع « نعمة » بشيء ، لأن « فِعْلَةَ » لا تجمع على « أفْعُلٍ » ، وإنما هو جمع « نُعْمٍ » ، يقال : يوم نُعْمٌ ، ويوم بُؤْسٌ ، ويجمع « أنْعُماً » ، و « أبْؤُساً » .

قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) وروى عبيد بن عقيل ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : « والخوفَ » بنصب الفاء . وأصل الذّوق إنما هو بالفم ، وهذا استعارة منه ، وقد شرحنا هذا المعنى في (آل عمران : ١٠٦ ، ١٨٥) . وإنما ذكر اللباس هاهنا تجوُّزاً ، لما يظهر عليهم من أثر الجوع والخوف ، فهو كقوله : (ولباس التقوى) [الأعراف: ٢٦] وذلك لما يظهر على المتّقي من أثر

التقوى . قال المفسرون : عذَّبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام المحترقة . فأما الخوف ، فهو خوفهم من رسول الله ﷺ ومن سراياه التي كان يبعثها حولهم . والكلام في هذه الآية خرج على القرية ، والمراد أهلها ، ولذلك قال : (بما كانوا يصنعون) يعني به : بتكذيبهم لرسول الله ﷺ وإخراجهم إياه وما همُّوا به من قتله .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد جاءهم) يعني أهل مكة (رسول منهم) يعني : محمداً ﷺ ، (فكذبوه فأخذهم العذاب) وفيه قولان :

أحدهما : أنه الجوع ، قاله ابن عباس . والثاني : القتل ببدر ، قاله مجاهد . قال ابن السائب : (وهم ظالمون) أي : كافرون .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فكلوا مما رزقكم الله) في المخاطَبين بهذا قولان :

أحدهما : أنهم المسلمون ، وهو قول الجمهور .

والثاني : أنهم أهل مكة المشركون ، لما اشتدت مجاعتهم ، كلَّم رؤساؤُهم رسولَ الله ﷺ فقالوا : إن كنتَ عاديتَ الرجال ، فما بال النساء والصبيان ؟! فأذِن رسول الله ﷺ للناس أن يحملوا الطعام إليهم ، حكاه الثعلبي ، وذكر نحوه الفراء ، وهذه الآية والتي تليها مفسرتان في (البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣) .

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذَا حَلالٌ وَهذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لايُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتكم الكذب) قال ابن الأنباري : اللام في « لِما » بمعنى من أجل ، وتلخيص الكلام : ولا تقولوا : هذه الميتة حلال ، وهذه البَحيرة حرام ، من أجل كذبكم ، وإقدامكم على الوصف ، والتخرُّص لما لاأصل له ، فجرت اللام هاهنا مجراها في قوله : (وإنه لحب الخير لشديد) [العاديات : ٨] أي : وإنه من أجل حب الخير لبخيل ، و « ما » بمعنى المصدر ، والكذب منصوب بـ « تصف » ، والتلخيص : لاتقولوا لوصف ألسنتكم الكذب . وقرأ ابن أبي عبلة : « الكُذُبَ » ، قال ابن القاسم : هو نعت الألسنة ، وهو جمع كذوب . قال المفسرون : والمعنى : أن تحليلكم وتحريمكم ليس له معنىً إلّا الكذب . والإشارة بقوله : (هذا حلال وهذا حرام) إلى ما كانوا يُحلّون ويحرّمون ، (لتفتروا على الله الكذب) وذلك أنهم كانوا ينسبون ذلك التحليل والتحريم إلى الله تعالى ، ويقولون : هو أمَرَنا بهذا .

وقوله : (متاع قليل) أي : متاعهم بهذا الذي فعلوه قليل .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَاقَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وعلى الذين هادوا حرَّمنا ماقصصنا عليك من قبل) يعني به

ماذكر في (الأنعام : ١٢٦) وهو قوله : (وعلى الذين هادوا حرمنا كلّ ذي ظفُر) (وما ظلمناهم) بتحريمنا ماحرّمنا عليهم ، (ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون) بالبغي والمعاصي .

قوله تعالى : (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) قد شرحناه في سورة (النساء : ١٧) ، وشرحنا في (البقره : ١٦٠) التوبة والاصلاح ، وذكرنا معنى قوله : (من بعدها) آنفاً .

﴿إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

قوله تعالى : (إن ابراهيم كان أُمَّة) قال ابن الأنباري : هذا مثل قول العرب : فلان رحمة ، وفلان علاَّمة ، ونسَّابة ، ويقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه ، والعرب قد توقع الأسماء المبهَمة على الجماعة ، وعلى الواحد ، كقوله : (فنادته الملائكة) [آل عمران : ٣٩] ، وإنما ناداه جبريل وحده .

وللمفسرين في المراد بالأُمَّة هاهنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الأُمَّة : الذي يعلِّم الخير ، قاله ابن مسعود ، والفراء ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه المؤمن وحده في زمانه ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثالث : أنه الإمام الذي يُقتدَى به ، قاله قتادة ، ومقاتل ، وأبو عبيدة ، وهو في معنى القول الأول . فأما القانت فقال ابن مسعود : هو المطيع . وقد شرحنا « القنوت » في (البقرة : ١١٦ ، ٢٣٨) وكذلك الحنيف [البقرة : ١٣٥] .

قوله تعالى : (ولم يَكُ) قال الزجاج : أصلها : لم يكن ، وإنما حذفت النون عند سيبويه ، لكثرة استعمال هذا الحرف ، وذكر الجلّة من البصرين أنها إنما احتملت الحذف ، لأنه اجتمع فيها كثرة الاستعمال ، وأنها عبارة عن كل مايمضي من الأفعال وما يستأنف ، وأنها قد أشبهت حروف اللين ، وأنها تكون علامة كما تكون حروف اللين علامة ، وأنها غُنَّة تخرج من الأنف ، فلذلك احتملت الحذف .

قوله تعالى : (شاكراً لأنعمه) انتصب بدلاً من قوله : (أُمَّةً قانتاً) وقد ذكرنا واحد الأنعم آنفاً ، وشرحنا معنى « الاجتباء » في (الأنعام : ٨٧) قال مقاتل : والمراد بالصراط المستقيم هاهنا : الإسلام .

قوله تعالى : (وآتيناه في الدنيا حسنة) فيها ستة أقوال :

أحدها : أنها الذِّكْر الحسن ، قاله ابن عباس . والثاني : النبوَّة ، قاله الحسن . والثالث : لسان صدق ، قاله مجاهد . والرابع : اجتماع المِلَل على ولايته ، فكلهم يتولّونه ويرضَونه ، قاله قتادة . والخامس : أنها الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد ﷺ ، قاله مقاتل بن حيان . والسادس : الأولاد الأبرار على الكِبَر ، حكاه الثعلبي . وباقي الآية مفسر في (البقرة : ١٣٠) .

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قوله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم) ملَّتُه : دينُه .

وفيما أُمر باتباعه من ذلك قولان :

أحدهما : أنه أُمر باتباعه في جميع ملته ، إلا ما أُمر بتركه ، وهذا هو الظاهر .

[والثاني : اتباعه في التبرُّؤ من الأوثان ، والتدين بالإسلام ، قاله

أبو جعفر الطبري] [1].

وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع المفضول ، لأن رسولنا أفضلُ الرسل ، وإنما أُمر باتباعه ، لسبقه إلى القول بالحق .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنما جُعِل السبت) أي : إنما فرض تعظيمه وتحريمه ، وقرأ الحسن ، وأبو حيوة : « إنما جَعَل » بفتح الجيم والعين « السبتَ » بنصب التاء (على الذين اختلفوا فيه) والهاء ترجع إلى السبت .

وفي معنى اختلافهم فيه قولان :

أحدهما : أن موسى قال لهم : تفرّغوا لله في كل سبعة أيام يوماً ، فاعبدوه في يوم الجمعة ، ولا تعملوا فيه شيئاً من صنيعكم ، فأبَوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نبتغي إلاّ اليوم الذي فرغ فيه من الخلق ، وهو يوم السبت ، فجعل ذلك عليهم ، وشدِّد عليهم فيه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وقال مقاتل : لما أمرهم موسى بيوم الجمعة ، قالوا : نتفرغ يوم السبت ، فان الله لم يخلق فيه شيئاً ، فقال : إنما أُمرت بيوم الجمعة ، فقال أحبارهم : انتهوا إلى أمر نبيِّكم ، فأبَوا ، فذلك اختلافهم ، فلما رأى موسى حرصهم على السبت ، أمرهم به ، فاستحلوا فيه المعاصي . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : رأى موسى رجلاً يحمل قصباً يوم السبت ، فضرب عنقه ، وعكفت عليه الطير أربعين صباحاً . وذكر ابن قتيبة في « مختلف الحديث » : أن الله تعالى بعث موسى بالسبت ، ونسخ السبت بالمسيح .

والثاني : أن بعضهم استحلّه ، وبعضهم حرّمه ، قاله قتادة .

(١) ما بين المعقفين سقط من الرباط ، واستدركناه من النسخة الاستنبولية .

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك) قال ابن عباس : نزلت مع الآية التي بعدها ، وسنذكر هناك السبب . فأما السبيل ، فقال مقاتل : هو دين الإسلام .

وفي المراد (بالحكمة) ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها القرآن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الفقه ، قاله الضحاك عن ابن عباس . والثالث : النبوّة، ذكره الزجاج .

وفي (الموعظة الحسنة) قولان :

أحدها : مواعظ القرآن ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : الأدب الجميل الذي يعرفونه ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

قوله تعالى : (وجادلهم) في المشار إليهم قولان :

أحدها : أنهم أهل مكة ، قاله أبو صالح . والثاني : أهل الكتاب ، قاله مقاتل .

وفي قوله : (بالتي هي أحسن) ثلاثة أقوال :

أحدها : جادلهم بالقرآن . والثاني : بـ « لا آله إلاّ الله »، روي القولان عن ابن عباس . والثالث : جادلهم غير فظٍّ ولا غليظ ، وألِنْ لهم جانبك ، قاله الزجاج . وقال بعض علماء التفسير : وهذا منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : (إن ربك هو أعلم) المعنى : هو أعلم بالفريقين ، فهو يأمرك فيهما بما فيه الصلاح .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) في سبب نزولها قولان :

أحدها : أن رسول الله ﷺ أشرف على حمزة ، فرآه صريعاً ، فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه ، فقال : « والله لأمثلن بسبعين منهم » ، فنزل جبريل ، والنبي ﷺ واقف ، بقوله : (وإن عاقبتم ...) إلى آخرها ، فصبر رسول الله وكفَّر عن يمينه ، قاله أبو هريرة (١) . وقال ابن عباس : رأى رسول الله ﷺ حمزة قد شُق بطنه ، وجُدِعت أذناه ، فقال : « لولا أن تحزن النساء ؛ أو تكون سنَّة بعدي لتركته حتَّى يبعثه الله من بطون السباع والطير ، ولأقتلنَّ مكانه سبعين رجلا منهم » ، فنزل قوله : (أدع إلى سبيل ربك) إلى قوله : (وما صبرك إلا بالله) . وروى الضحاك عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يومئذٍ : « لَئِن ظفرتُ بقاتل حمزة لأمثلنَّ به مثلة تتحدث بها العرب » ، وكانت هند وآخرون معها قد مثّلوا به ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أنه أصيب من الأنصار يوم أُحدٍ أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة ، ومثّلوا بقتلاهم ، فقالت الأنصار : لَئِن أُصبنا منهم يوماً من الدهر ، لنزيدنَّ على عِدَّتهم مرتين ، فنزلت هذه الآية ، قاله أُبيّ بن كعب (٢) .

(١) ذكره ابن كثير في « تفسيره » ٢/٥٩٢ من طريق البزار ، وقال : وهذا إسناد فيه ضعف ، لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة ، وقال البخاري : هو منكر الحديث .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » ٤/١٣٣ وقال : أخرجه الترمذي وحسنه ، وعبد الله في زوائد « المسند » ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في « الدلائل » .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أن المسلمين قالوا : لَئِن أمكننا الله منهم ، لنمثلَنّ بالأحياء فضلا عن الأموات ، فنزلت هذه الآية . يقول : إن كنتم فاعلين ، فمثلوا بالأموات ، كما مثَّلوا بأمواتكم . قال ابن الأنباري : وإنما سمى فعل المشركين معاقبةً وهم ابتدؤوا بالمثلة ، ليزدوج اللفظان ، فيخف على اللسان ، كقوله : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) [الشورى : ٤٠] .

فصل

واختلف العلماء ، هل هذه [الآية] منسوخة ، أم لا ؟ على قولين :

أحدهما : أنها نزلت قبل (براءة) فأمر رسول الله ﷺ أن يقاتل من قاتله ، ولا يبدأ بالقتال ، ثم نُسخ ذلك ، وأُمر بالجهاد ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، فعلى هذا يكون المعنى : (ولئن صبرتم) عن القتال ، ثم نسخ هذا بقوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) [التوبة : ٥] .

والثاني : أنها محكمة ، وإنما نزلت فيمن ظُلِم ظُلامة ، فلا يحلّ له أن ينال من ظالمه أكثر مما ناله الظالم منه ، قاله مجاهد ، والشعبي ، والنخعي ، وابن سيرين ، والثوري ، وعلى هذا يكون المعنى : ولئن صبرتم عن المثلة ، لا عن القتال .

قوله تعالى : (واصبر وما صبرك إلاّ بالله) أي : بتوفيقه ومعونته . وهذا أمر بالعزيمة .

وفي قوله : (ولا تحزن عليهم) قولان :

أحدهما : على كفار مكة إن لم يُسلموا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : ولا تحزن على قتلى أُحُد ، فانهم أفضَوا إلى رحمة الله ، ذكره علي ابن أحمد النيسابوري .

قوله تعالى : (ولا تك في ضَيق) قرأ الأكثرون بنصب الضاد ، وقرأ ابن كثير : « في ضِيق » بكسر الضاد هاهنا وفي (النمل : ٧٠) . قال الفراء : الضَيق بفتح الضاد : ما ضاق عنه صدرك ، والضيّق : ما يكون في الذي يضيق ويتسع ، مثل الدار والثوب وأشباه ذلك . وقال ابن قتيبة : الضَّيْق : تخفيف ضيّق ، مثل : هيْن و ليْن ، وهو ، إذا كان على هذا التأويل : صفة ، كأنه قال : لا تك في أمر ضَيِّقٍ من مكرهم . قال : ويقال : مكان ضَيْق وضيق ، بمعنى واحد ، كما يقال : رَطْلٌ ورِطْلٌ ، وهذا أعجب إليّ . فأما مكرهم المذكور هاهنا ، فقال أبو صالح عن ابن عباس : فعلهم وعملهم .

قوله تعالى : (إن الله مع الذين اتّقَوا) ما نهاهم عنه ، وأحسنوا فيما أمرهم به ، بالعون والنصر .

تم — بعون الله تعالى وتوفيقه — الجزء الرابع من كتاب

« زاد المسير في علم التفسير » للحافظ ابن الجوزي

ويليه الجزء الخامس ، وأوله : تفسير

سورة « بني إسرائيل »

★ ★ ★